«لُبابُ التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ»

تَهْذِيبٌ وَتَقْرِيبٌ لِمَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ

(الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ)

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

(١)

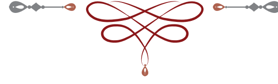
سورةُ الفاتحة – سُورةُ النِّساءِ

بسم الله الرحمن الرحيم

"هَذِهِ مُسْوَدَّةُ نُسْخَةٍ إِلِكْتْرُونِيَّةٍ"



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



{وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ}

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَتَحَ كِتَابَهُ بِالْحَمْدِ فَقَالَ:[1] ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الْفَاتِحَة: 2-4]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا * قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا * وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾ [الكهف: 1-5].

وَافْتَتَحَ خَلْقه بِالْحَمْدِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأَنْعَام: 1].

وَاخْتَتَمَهُ بِالْحَمْدِ، فَقَالَ بَعْدَ ذِكْرِ مَآلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزُّمَرِ: 75].

---

(1) مقتبس من خطبة تفسير ابن كثير.

وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الْقَصَصِ: 70]، كَمَا قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ: 1].

فَلَهُ الحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ، أَيْ فِي جَمِيعِ مَا خلَقَ وَمَا هُوَ خَالِقٌ، هُوَ الْمَحْمُودُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، كَمَا يَقُولُ الْمُصَلِّي: "اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَمِلْءَ الْأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ".

وَلِهَذَا يُلْهَم أَهْلُ الْجَنَّةِ تَسْبِيحَهُ وَتَحْمِيدَهُ كَمَا يُلْهَمون النَّفس، أَيْ يُسَبِّحُونَهُ وَيَحْمَدُونَهُ عَدَدَ أَنْفَاسِهِمْ؛ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ عَظِيمِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، وَتَوَالِي مِنَنه وَدَوَامِ إِحْسَانِه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يُونُسَ: 9،10].

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ رُسُلَهُ ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النِّسَاءِ: 165].

وَخَتَمَهُمْ بِالنَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ الْمَكِّيِّ الْهَادِي لِأَوْضَحِ السُّبُلِ، أَرْسَلَهُ إِلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ مِنَ الْإِنْسِ وَالجِنِّ، مِنْ لَدُنْ بَعْثَتِهِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 158]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الْأَنْعَامِ: 19].

فَمَنْ بَلَغَهُ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عَرَبٍ وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وَإِنْسٍ وَجَانٍّ، فَهُوَ نَذِيرٌ لَهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هُودٍ: 17].

فَمَنْ كَفَرَ بِالْقُرْآنِ مِمَّنْ ذَكَرْنَا فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ، بِنَصِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ [الْقَلَمِ: 44، 45].

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ –: "بُعِثتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ".

قَالَ مُجَاهِدٌ: يَعْنِي: الْإِنْسَ وَالْجِنَّ.

فَهُوَ –صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ–رَسُولُ اللَّهِ إِلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ: الْإِنْسُ وَالْجِنُّ، مُبَلِّغًا لَهُمْ عَنِ اللَّهِ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَزِيزِ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: 42].

وَقَدْ أَعْلَمَهُمْ فِيهِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ نَدَبَهم إِلَى تَفَهُّمه، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النِّسَاءِ: 82]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [مُحَمَّدٍ: 24].

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ الْكَشْفُ عَنْ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَتَفْسِيرُ ذَلِكَ، وَطَلَبُهُ مِنْ مَظَانِّهِ، وتعلُّم ذَلِكَ وَتَعْلِيمُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 187]،

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلا أُولَئِكَ لَا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: 77].

فَذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ قَبْلَنَا بِإِعْرَاضِهِمْ عَنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَيْهِمْ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَجَمْعِهَا، وَاشْتِغَالِهِمْ بِغَيْرِ مَا أُمِرُوا بِهِ مِنَ اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ.

فَعَلَيْنَا -أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ- أَنْ نَنْتَهِيَ عَمَّا ذمَّهم اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَنْ نَأْتَمِرَ بِمَا أُمِرْنَا بِهِ، مِنْ تَعَلُّم كِتَابِ اللَّهِ الْمُنَزَّلِ إِلَيْنَا وَتَعْلِيمِهِ، وَتَفَهُّمِهِ وَتَفْهِيمِهِ،

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الْحَدِيدِ: 16، 17].

فَفِي ذِكْرِهِ تَعَالَى لِهَذِهِ الْآيَةِ بَعْدَ الَّتِي قَبْلَهَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى كَمَا يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، كَذَلِكَ يُلِينُ الْقُلُوبَ بِالْإِيمَانِ بَعْدَ قَسْوَتِهَا مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، وَاللَّهُ الْمُؤَمَّلُ الْمَسْؤُولُ أن يفعل بنا ذلك، إنه جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ أَعْظَمَ ٱلْعُلُومِ قَدْرًا وَأَرْفَعَهَا شَرَفًا، عِلْمُ ٱلتَّفْسِيرِ، ٱلَّذِي هُوَ رَئِيسُ ٱلْعُلُومِ ٱلدِّينِيَّةِ وَرَأْسُهَا، وَمَبْنَى قَوَاعِدِ ٱلشَّرْعِ وَأَسَاسُهَا، لَا يَلِيقُ لِتَعَاطِيهِ وَالتَّصَدِّي لِلتَّكَلُّمِ فِيهِ إِلَّا مَنْ بَرَعَ فِي الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ كُلِّهَا أُصُولِهَا وَفُرُوعِهَا، وَفَاقَ فِي الصِّنَاعَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْفُنُونِ الْأَدَبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا.

فإنَّ كتاب اللَّه هو النورُ المُبِيْن، والطَّريقُ القَويم، والحقُّ المستَبين، والصراطُ المستقيم، لا شيءَ أسطعُ من أعلامه، ولا حُكمَ أصدعُ مِن أحكامه، ولا كلامَ أفصحُ مِن بلاغته، ولا قولَ أرجحُ من فصاحته، ولا عملَ في ليلٍ أو نهارٍ ألذُّ مِن تِلاوته، فيه خبرُ مَن قَبْلَنا، ونبأُ مَن بعدَنا، وحُكْمُ ما بيننا.

أَعجزَ الفصحاءَ، وحيَّرَ البُلغاء، وأعياهم أنْ يأتوا بسورةٍ مِن مِثْله، حتى شهِد بإعجازه الأعداءُ قبل الأصدقاء، وأيقنَ بصدقهِ الجاحدون والملحِدون؛ فإعجازُه وبلاغتُه وحسنُ نظامه يشهدُ للنبيِّ -ﷺ- بنبوَّته، وبأنه أعظمُ معجزاتهِ، الباقيةِ على طولِ أيام الدهرِ وسنواتهِ.

وقد كان النبيُّ من الأنبياءِ عليهم السلام يأتي بالآيةِ وتَنْقَضي بموته، فقَلَّ لذلك مَن يتَّبعه، وكَثُرَ أتْباعُ نبيِّنا -ﷺ- لكونِ معجزتهِ الكبرى باقيةً بعدَه، فيؤمنُ باللَّهِ ورسولهِ كثيرٌ ممَّن يسمعُ القرآن على ممرِّ الأزمان.

فلا غَرْوَ أنْ نَهَض العلماءُ منذُ فجرِ الدَّعوةِ مشمِّرِينَ عن ساعدِ الجِدِّ لشرحه وتفسيرِه، وبيانِ ما غَمضَ من معانيه، وحلِّ ما أَشْكَل على مَن يُعانيه.

ومِن أَجْلِ هذا ظَهَر على مَرِّ التَّاريخِ الإسلاميِّ تصانيفُ لا يَحْصُرُها العَدُّ، اخْتَلَفَتْ أساليبُها لكنَّ غايتَها كانت واحدةً، وهي تفسيرُ كتابِ اللَّه، وإيصالُه إلى أجيالِ الأُمَّة جيلًا إثْرَ جيلٍ، وتفهيمُ الأُمَّةِ

معانيه، وما فيه مِن عِبَرٍ وأمثال، وحِكَمٍ وأحكام، وبلاغةٍ لا تُرام، وخيرٍ عمَّ الأَنام؛ لتُدْرِكَ هذه الأُمَّةُ عَظَمتَه، فتتمَسَّكَ به، وتجتهدَ في اتِّباعِه والعملِ بمُقْتضاه، ودعوة الخلقِ إليه.

وهذه التصانيفُ كانت متفاوِتةً مِن حيثُ الفائدةُ، وبعضُها يقدَّمُ على بعضٍ، بل قد يكونُ بعضُها أصلًا والآخَرُ فرْعًا، فإنَّ منها ما يُمْكِنُ أنْ يُعَدَّ فَرْدًا في بابِه، وإمامًا في محرابِه، وأساسًا في موضوعِه، بحيثُ يُمْكِنُ أنْ يُقالَ مَثَلًا: إنَّ ما جاء بَعْدَه ليس كالذي كان قَبْلَه، فيُقالَ مثلًا: إنَّ ما أُلِّفَ قبل «تفسير الطبري» في التَّفسيرِ بالمأثورِ ليس كما أُلِّفَ بَعْدَهُ، وإنَّ ما كُتِبَ في معاني القرآنِ وبلاغته قبلَ «كشَّاف» الزَّمَخْشريِّ ليس كالذي كُتِبَ بعدَه، وإنَّ موضوعَ أحكامِ القرآنِ قبلَ «الجامع لأحكام القرآن» ليس كموضوعِه بَعْدَهُ، وإنَّ كُتبَ إعرابِ القرآنِ قبلَ «بحر» أبي حيَّانَ ليست كالتي أَعقبت «بحره».

وجاء مِن التفاسيرِ بعد تلك الأمَّهات ما هو تَبَعٌ لها، فهَذَّبَ ونقَّحَ، وزادَ ورجَّحَ، وشَرَحَ وصَحَّحَ، ومع أن هذه أيضًا لا تُنْكَر مكانتُها وفضلُها، لكنْ يَبْقَى الفضلُ للسَّابق ولو أجادَ اللَّاحِق.

فَإِنَّهُ لَا يَخْفَىٰ كَثْرَةُ الْمُؤَلَّفَاتِ فِي التَّفْسِيرِ، الْمَطْبُوعِ مِنْهَا وَالْمَخْطُوطِ، عَلَىٰ تَبَايُنٍ بَيْنَهَا فِي الْأُسْلُوبِ وَالْمَضْمُونِ، مَعَ تَكْرَارٍ كَثِيرٍ فِيهَا تَحْوِيهِ هَٰذِهِ الْكُتُب، وَمَنْ يُطَالِعُ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ سَيُوَاجِهُ جُمْلَةً مِنَ الْمُعَوِّقَاتِ مِنْهَا كَثْرَةُ مَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مِنَ الِاسْتِطْرَادِ وَالْخُرُوجِ عَنْ مَقْصُودِ التَّفْسِيرِ، مَعَ تَكْرَارٍ ومُخَالَفَاتٍ كَثِيرَةٍ شُحِنَتْ بِهَا غَالِبُ كُتُبِ التَّفْسِيرِ لِعَقِيدَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ وَفَهْمِهِمْ، فَقَلَّمَا تَجِدُ تَفْسِيرًا سَلِيمًا مِنَ الْبِدَعِ الِاعْتِقَادِيَّةِ وَغَيْرِهَا.

فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْتَارَ لِأَنْفُسِنَا، وَنَظَرْنَا فِي عِلْمٍ يُعَدُّ أَنْوَارُهُ لِظُلْمَةِ ٱلْقُبُورِ، سَبَرْنَاهُ بِٱلتَّنْوِيعِ وَٱلتَّقْسِيمِ، وَعَلِمْنَا أَنَّ شَرَفَ ٱلْعِلْمِ عَلَى قَدْرِ شَرَفِ ٱلْمَعْلُومِ، فَوَجَدْنَا: أَمْتَنَهَا حِبَالًا، وَأَرْسَخَهَا جِبَالًا، وَأَجْمَلَهَا آثَارًا، وَأَسْطَعَهَا أَنْوَارًا عِلْمَ كِتَابِ اللهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ، ٱلَّذِي لَا يَأْتِيهِ ٱلْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.

وَلَطَالَمَا اشْتَاقَتْ نُفُوسُنَا بِأَنْ نُصَنِّفَ فِي هٰذَا الْفَنِّ كِتَابًا يَحْتَوِي عَلَىٰ صَفْوَةِ تَفَاسِيرِ السَّلَفِ مَعَ التَّحْرِيرِ وَالتَّرْجِيحِ، إِلَّا أَنَّ قُصُورَ بِضَاعَتِنَا كَانَتْ تُثَبِّطُنَا عَنِ الْإِقْدَامِ، وَتَمْنَعُنَا عَنِ الِانْتِصَابِ فِي هٰذَا الْمَقَامِ، حَتَّىٰ سَنَحَ لَنَا بَعْدَ الِاسْتِخَارَةِ عَلَى الشُّرُوعِ فِيمَا أَرَدْنَاهُ، وَالْإِتْيَانِ بِمَا قَصَدْنَاهُ، بَعْدَمَا صَدَرَتْ أَكْبَرُ مُوسُوعَةٍ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْبَارِي: الْمُعَلَّمَةُ الْكُبْرَىٰ «التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ»الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ فِي (44 مُجَلَّدًا).

فَتَطَفَّلْنَا عَلَيْهَا وَانْتَقَيْنَا مِنْهَا لُبَابَهَا وَدُرَّتَهَا وَوَاسِطَةَ عِقْدِهَا، لِيَكُونَ كَافِيًا لِلطَّالِبِ ٱلْمُبْتَدِئِ وَمُغْنِيًا لِلْمُقْتَصِدِ لِمَا سِوَاهُ مِنَ الْكُتُبِ.

لِيَكُونَ بَعْدَ هَذَا ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ عَسَلًا مُصَفًّى سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ الْمَنَّانِ.

وَكتبْناهُ لِأَنْفُسِنا وَلِمَنْ شاءَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ مِنْ بَعْدِنَا.

وَأَرَدْنَا بِذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْعَمَلُ لَنَا فِي الْقَبْرِ نُورًا، وَأَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ لَنَا فِي الْقِيامَةِ شَفِيعًا.

فَلَمْ نَضَعْ حَرْفًا وَاحِدًا مِنْ عِنْدِنَا.

فَالْكَلَامُ فِي كِتَابِ اللَّهِ بِالْخَرْصِ وَالظُّنُونِ وَالرَّأْيِ الْمُجَرَّدِ عَنِ الدَّلِيلِ شَدِيدٌ،

وَالوَعِيدُ عَلَى ذَلِكَ أَكِيدٌ.

فَمَنْ أَسْنَدَ وَأَحَالَ فَقَدْ بَرِئَ.

فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً نَظَرَ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ إِلَيْهِ، وَوَقَفَ فِيهِ عَلَى خَطَأٍ فَأَطْلَعَنا عَلَيْهِ.

وَقَدْ قُلْنَا:

حَمِدْنَا اللَّهَ رَبَّنَا إِذْ هَدَانَا مَعَ عَجْزِنَا وَضَعْفِنَا،

فَمَنْ لَنَا بِالْخَطَأِ فَنَرُدَّ عَنْهُ؟

وَمَنْ لَنَا بِالْقَبُولِ وَلَوْ بِحَرْفٍ.

رَزَقَنَا اللَّهُ بِهِ هِدَايَةً إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ، وَتَوْفِيقًا وَاطِّلَاعًا عَلَى دَقَائِقِ كَلِمَاتِهِ وَتَحْقِيقًا.

وَجَعَلَنَا بِهِ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا.

وَاللَّهُ نَسْأَلُ أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَجْعَلَ عَمَلَنَا صَوَابًا، وَيَنْفَعَ بِهِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ ذُخْرًا لَنَا يَوْمَ الدِّينِ، وَلِمَنْ قَرَأَهُ وَصَوَّبَهُ وَأَعَانَ عَلَى إِخْرَاجِهِ.

وَأَنْ يَجْعَلَهُ كَمَا نُرِيدُ وَفَوْقَ مَا نُرِيدُ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ أَكْرَمُ مَسْؤُولٍ وَأَعْظَمُ مَأْمُولٍ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

فَهَٰذَا أَوَانُ الشُّرُوعِ فِي المَقْصُودِ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ لِكُلِّ خَيْرٍ وَمُعْطِي كُلِّ مَسْؤُولٍ.



أَهَمِّيَّةُ كِتَابِ (لُبَابِ التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ) وَالْهَدَفُ مِنْ نَشْرِهِ

يُعْتَبَرُ هَذَا الْكِتَابُ مَشْـرُوعاً عِلْمِيّاً يَهْدِفُ إِلَى تَقْدِيمِ خُلَاصَـةٍ مُيَسَّـرَةٍ لِعَمَلٍ كَبِيرٍ وَمُتَمَيِّزٍ، وَهُوَ «التَّفْسِـيرُ الْمُحَرَّرُ» الصَّـادِرُ عَنْ مُؤَسَّـسَـةِ (الدُّرَرِ السَّـنِيَّةِ)؛ الَّتِي قَدَّمَتْ خِدْمَةً جَلِيلَةً لِلْمَكْتَبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِجَمْعِ أَقْوَالِ السَّلَفِ وَتَنْقِيحِهَا. وَتَتَلَخَّصُ أَهَمِّيَّةُ هَذَا الْمُخْتَصَرِ فِيمَا يَلِي:

أَوَّلاً: تَقْدِيمُ الْخُلَاصَةِ الْمُرَكَّزَة

يَهْدِفُ هَذَا الْعَمَلُ إِلَى اخْتِصَارِ الْمَوْسُوعَةِ الْأَصْلِيَّةِ فِي صُورَةِ «لُبَابٍ» مُرَكَّزٍ، مِمَّا يُوفِّرُ الْوَقْتَ وَالْجُهْدَ عَلَى الْقَارِئِ، وَيُعْطِيهِ زُبْدَةَ التَّفْسِيرِ وَالْقَوْلَ الرَّاجِحَ دُونَ إِطَالَةٍ قَدْ تُشَتِّتُ الذِّهْنَ.

ثَانِيّاً: الْوَفَاءُ لِأَهْلِ الْفَضْلِ

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ هُوَ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ جُهُودِ مُؤَسَّـسَـةِ «الدُّرَرِ السَّـنِيَّةِ»، وَنُقَدِّمُهُ كَمَدْخَلٍ مَيْسُـورٍ وَجِسْـرٍ يَعْبُرُ بِالْقَارِئِ لِلاطِّلَاعِ عَلَى مَنْهَجِهِمُ الْأَصِيلِ فِي تَحْرِيرِ أَقْوَالِ الْمُفَسِّرِينَ.

خِتَاماً، إِنَّ الْغَايَةَ الْكُبْرَى مِنْ هَذَا (اللُّبَابِ) هِيَ رَبْطُ الْمُسْلِمِ الْمُعَاصِرِ بِتُرَاثِ سَلَفِهِ الصَّالِحِ بِأُسْلُوبٍ يَتَنَاسَبُ مَعَ لُغَةِ الْعَصْرِ، مَعَ بَقَاءِ التَّقْدِيرِ وَالْفَضْلِ لِأَصْلِهِ وَمَنْبَعِهِ فِي الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ.

نَسْعَى مِنْ خِلَالِ هَذَا التَّقْرِيبِ إِلَى نَشْرِ مَنْهَجِ «الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ» الْمُبَارَكِ عَلَى أَوْسَعِ نِطَاقٍ؛ لِيَصِلَ إِلَى كُلِّ بَيْتٍ وَيَكُونَ مَرْجِعاً سَهْلاً يُعِينُ الْمُسْلِمَ عَلَى فَهْمِ كَلَامِ رَبِّهِ.



منهج العمل في لُبابُ التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ

(تَهْذِيبٌ وَتَقْرِيبٌ لِمَوْسُوعَةِ التَّفْسِيرِ الْمُحَرَّرِ – الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ)[2]

المُقَدِّماتُ بينَ يدَي كُلِّ سورةٍ:

وتَشتَمِلُ على عِدَّةِ أمورٍ:

1- اسمُ السُّورةِ وما ورد فيه مِن نُصوصٍ مَرفوعةٍ ومَوقوفةٍ، مع الإشارةِ في الحاشيةِ إلى سَبَبِ التَّسميةِ.

2- بَيانُ المكيِّ والمَدَنيّ

والاعتِمادُ فيه على الضَّابطِ الزَّمانيِّ، وهو أنَّ ما نزَلَ قَبلَ الهجرةِ، فهو مكِّيٌّ، وما نزَل بعدَها فهو مَدَنيٌّ.

3- ذِكرُ الإجماعاتِ على مكيَّةِ السُّورةِ أو مَدَنيَّتِها، وما يَرِدُ عليه مِن استثناءاتٍ وما يقَعُ مِن خِلافٍ.

---

(2) مختصراً من منهج الأصل (التفسير المحرر).

3- فَضائلُ السُّورةِ وخَصائِصُها، ويُذكَرُ ما ثَبَت للسُّورةِ مِن فَضائِلَ، وما اختصَّت به من خَصائصَ.

4- مَقاصِدُ السُّورةِ

ويُذكَرُ تحتَه المحورُ أو المحاوِرُ التي تدورُ عليها السُّورةُ.

5- موضوعاتُ السُّورةِ

ويُذكَرُ تحتَه أهمُّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها السُّورةُ.

المُناسَباتِ بين الآياتِ:

1- الاقتِصارُ على ذِكرِ أهمِّ المُناسَباتِ.

في القِراءاتِ:

1- الاكتِفاءُ بالقِراءاتِ المتواتِرةِ.

2- الاقتِصارُ على ما له أثرٌ في التَّفسيرِ.

في تَفسيرِ الآياتِ:

1- تَجزِئةُ السُّورةِ إلى مقاطعَ تعتَمِدُ على الوَحدةِ الموضوعيَّةِ لمجموعةِ آياتٍ مُتتاليةٍ.

2- الاعتِمادُ على ما نقَلَه المفسِّرونَ مِن إجماعاتٍ ثابتةٍ وصَحيحةٍ.

3- الاعتِمادُ في اختيارِ معاني الآياتِ في الجُملةِ على عدَدٍ من المُبَرِّزينَ والمحقِّقينَ في التَّفسير، مثل: ابن جرير، وابن كثير، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والشِّنقيطي، مع الاستِعانة بتفاسيرِ آخَرِينَ، كالواحدي، وابن عطيَّة، والقُرطبي، وابن رَجَب، وابن عاشور، وغيرِهم.

4- إذا وُجِد خِلافٌ في معنى الآيةِ، يُذكَرُ المعنى الرَّاجِحُ، مع الإشارةِ إلى الأقوالِ الأخرى إذا كانت قويَّةً ومُحتَملَةً.

5- بيانُ النَّاسِخِ والمَنسوخِ في الآياتِ.

6- ذِكرُ سَبَبِ نُزولِ الآيةِ إن ثبَتَ.



بسم الله الرحمن الرحيم

فَصْلٌ في الاسْتِعَاذَة

الاستعاذة مشروعة قبل تلاوة القرآن

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].

وقد أجمع العلماء على أنَّ التعوذ ليس من القرآن ولا آية منه،

وهو قول القارئ: (أعوذُ بالله من الشَّيطان الرجيم).

وهذا اللفظ هو الذي عليه الجمهور من العلماء في التعوذ.

ومعناها: أستجير والتجئ، بالمعبود الحق سبحانه وتعالى)، من كل جان متمرد، مطرود عن كل خير.

ومن فوائد الاستعاذة ولطائفها:

الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عن العبد، لا سيما دفع وساوس الشيطان الذي يسعى بشدة إلى صد العبد عن قراءة القرآن وتدبره؛ لأنه من أعظم الطاعات، ولأنه لما كان سعي الشيطان في الصدّ عن ذلك أبلغ، كان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد. ففي الاستعاذة استعانة بالله تعالى، واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين

الباطني، الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خَلَقه، ولا يقبل مصانعة، ولا يُدارى بالإحسان، بخلاف العدو الإنساني.

ومنها: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه العبد من اللغو والرفث، وتطييب له، وتهيو لتلاوة كلام الله عز وجل.

ومنها: أن الملائكة تدنو من قارئ القرآن وتستمع لقراءته.

والشيطان ضد الملك وعدوه؛ فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه؛ حتى يحضره خاصته وملائكته، فهذه وليمة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين.

ومنها: أنَّ الاستعاذةَ قَبلَ القِراءة عنوان وإعلام بأن المأتي به بعدها القرآن؛ ولهذا لم تشرع الاستعاذة بين يدي كلام غيره، بل الاستعاذة مقدمة وتنبيه للسامع أن الذي يأتي بعدها هو التلاوة، فإذا سمع السامع الاستعاذة، استعد لاستماع كلام الله تعالى، وشرع ذلك للقارئ، وإن كان وحده.

ومنها: أن الشيطان يُجلب على القارئ بخيله ورَجْلِه؛ حتى يشغله عن المقصود بالقرآن، وهو تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه؛ فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ فلا يكمل انتفاع القارئ به، فأمر عند الشروع أن يستعيذ بالله عز وجل منه).



الكَلامُ في تَفْسِيرِ البَسْمَلَةِ

البسملة هي قول: بسم الله الرحمن الرحيم

ومعناها: باسم الله وحده أقرأ أو أتلو، مُتبركا بالبداءة باسم المعبود الحق تبارك وتعالى، ذي الرحمة الواسعة لجميع خلقه، وذي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

وقيل: الرحمن اسم دل على اتصافه بالرحمة سبحانه، والرَّحيم اسم دل على وقوع الفعل منه، وهو إيصال رَحْمَتِه إلى خَلْقِه.

هل البسملة آية من سورة الفاتحة؟

ليست البسملة بآية من الفاتحة، وهذا مذهب جمهور العلماء من الحنفية، والمالكية، والحنابلة، وهو قول أهل المدينة من القراء والفقهاء،

وذهب إلى هذا جمع من المفسرين منهم: ابن جرير، وابن العربي، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيمية.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الفَاتِحَةِ

سُورةُ فَاتحَة الكِتابِ

ثبتَت لسورة الفاتحة عدَّةُ أسماء، وهي:

1- فاتحة الكِتاب.

2- أمُّ القرآن.

3- أُمُّ الكِتاب.

4- السَّبْع المَثاني.

5- القُرآن العظيم.

6- سورة الحَمْد.

- عن عُبادةَ بن الصَّامتِ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((لا صلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتاب)).(3)

(3) رواه البخاريُّ (756)، ومسلِم (394).

- عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ((كان النبيُّ - ﷺ - يُخَفِّفُ الرَّكعتَينِ اللَّتَينِ قبلَ صلاةِ الصُّبحِ، حتى إني لأقولُ: هل قرَأ بأمِّ الكتابِ؟!))[4].

- عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((أمُّ القُرآنِ هي السَّبْع المثاني، والقرآنُ العَظيم))[5].

- عن أبي سَعيدِ بن المعلَّى رضي الله عنه، قال: ((مرَّ بي النبيُّ - ﷺ - وأنا أُصلِّي، فدَعاني فلم آتِهِ حتى صلَّيتُ، ثم أتَيتُ فقال: ما منَعك أن تأتيَ؟ فقلتُ: كنتُ أُصلِّي، فقال: ألم يقُلِ اللهُ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ؟! ثم قال: ألَا أُعَلِّمُك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن أخرُجَ منَ المسجدِ؟ فذهَب النبيُّ - ﷺ - ليخرُجَ منَ المسجدِ فذكَّرتُه، فقال: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هي السَّبعُ المَثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه))[6].

لسورةِ الفاتحة فضائلُ كثيرة، وخصائصُ عظيمة، وردَت في السُّنَّة النبويَّة؛ منها:

- أنَّها نور، ولم يُؤْتَهَا نبيٌّ قبل محمَّدٍ - ﷺ -.

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((بينما جبريلُ قاعدٌ عند النبيِّ - ﷺ -، سمِع نقيضًا من فوقه؛ فرفَع رأسَه، فقال: هذا بابٌ من السَّماء فُتِح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلَّا اليوم، فنزل منه مَلَك،

---

(4) رواه البخاريُّ (1165).
(5) رواه البخاريُّ (4704).
(6) رواه البخاريُّ (4703).

فقال: هذا ملَكٌ نزل إلى الأرض، لم ينزلْ قطُّ إلَّا اليوم، فسلَّم، وقال: أبشِرْ بنورَينِ أوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تَقرأ بحرفٍ منهما إلَّا أُعطيتَه)).(7)

- أنَّه بقِراءتها تحصُل المناجاةُ في الصَّلاة بين العَبدِ وربِّه

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن صلَّى صلاةً لم يقرأْ فيها بأُمِّ القرآن، فهي خداجٌ -ثلاثًا- غير تمام، فقيل لأبي هُرَيرَة: إنَّا نكونُ وراءَ الإمام، فقال: اقرأْ بها في نفسِك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: قال الله تعالى: قسمتُ الصلاة بَيني وبَين عبدي نِصفين، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال العبدُ: الحمدُ لله ربِّ العالَمين، قال الله تعالى: حمَدني عَبدي، وإذا قال: الرَّحمن الرَّحيم، قال الله تعالى: أثْنَى عليَّ عبدي، وإذا قال: مالِك يومِ الدِّين، قال: مجَّدني عبدي، (وقال مرَّة: فوَّض إليَّ عبدي)، فإذا قال: إيَّاك نعبُدُ وإيَّاك نستعين، قال: هذا بَيني وبَين عبدي، ولعَبدي ما سأل، فإذا قال: اهدِنا الصِّراطَ المستقيمَ صِراطَ الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالِّين، قال: هذا لعَبدي، ولعبدي ما سألَ)).(8)

- أنَّه لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بها

---

(7) رواه مسلم (806).

(8) رواه مسلم (395).

عن عُبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((لا صَلاةَ لِمَن لم يقرأْ بفاتحةِ الكِتابِ)).[9]

- أنها رقيةٌ شافيةٌ بإذن الله تعالى

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قال: ((انطلَق نفرٌ من أصحابِ النبيِّ - ﷺ - في سَفرةٍ سافروها، حتى نزَلوا على حيٍّ من أحياء العرب، فاستضافوهم فأَبَوْا أن يُضيِّفوهم، فلُدِغ سيِّد ذلك الحيِّ، فسَعَوا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعه شيءٌ، فقال بعضُهم: لو أتيتم هؤلاءِ الرهطَ الذين نزلوا؛ لعلَّه أن يكون عند بعضهم شيءٌ، فأتوْهُم، فقالوا: يا أيُّها الرهط، إنَّ سيِّدنا لُدِغ، وسَعَينا له بكلِّ شيءٍ، لا ينفعُه؛ فهل عند أحدٍ منكم من شيءٍ؟ فقال بعضهم: نعَمْ، واللهِ إني لأرقي، ولكن واللهِ لقدِ استضفناكم فلم تُضيِّفونا! فما أنا براقٍ لكم حتى تجعلوا لنا جُعلًا، فصالَحوهم على قَطيعٍ من الغَنم، فانطلق يتْفُل عليه، ويقرأ: الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، فكأنَّما نشِط من عِقال، فانطلَق يمشي وما به قَلَبَةٌ، قال: فأوْفوهم جُعلَهم الذي صالحُوهم عليه، فقال بعضُهم: اقسِموا، فقال الذي رقَى: لا تَفعلوا حتى نأتيَ النبيَّ - ﷺ - فنذكُرَ له الذي كان، فننظُرَ ما يأمرُنا، فقدِموا على رسولِ الله، فذكروا له، فقال: وما يُدريك أنَّها رُقيةٌ؟! ثم قال: قد أصبتُم، اقسِموا، واضرِبوا لي معكم سهمًا، فضحِكَ رسولُ الله ﷺ)).[10]

سورةُ الفاتحة سورةٌ مكيَّة، نزلت قبل الهِجرة.

(9) رواه البخاريُّ (756)، ومسلم (394).

(10) رواه البخاريُّ (2276).

بدليل قوله تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ [الحجر: 87].

وجاء عن أبي سَعيدِ بن المُعلَّى رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((...هي السَّبْعُ المثاني، والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه)).[11]

فهذه الآية التي ورَد فيها ذِكر السَّبع المثاني، مكيَّةٌ بالإجماع، وقد جاء النصُّ من النبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام، بكون السَّبع المثاني هي سورةُ الفاتحة؛ فلزِم من ذلك أن تكون سورةُ الفاتحة مكيَّة.

ومن الأدلة على مكِّيتها كذلك، أنَّ الصلاة لا تصحُّ إلا بها، وقد شُرعت الصلاة بمكة، أي قبل الهجرة.

مِن أهمِّ مقاصدِ سورة الفاتحة:

1- التعريف بالمعبودِ تبارَك وتعالى.

2- بيان طَريقِ العبوديَّة.

3- بيان أحوال النَّاس مع هذا الطَّريق.

عرَضتِ السُّورةُ لعددٍ من الموضوعات الرئيسة، وهي:

1- صفات الله عزَّ وجلَّ.

2- اليوم الآخر.

(11) رواه البخاريُّ (4703).

3- إِفراد الله تعالى بالعبادة، ومن ذلك: الاستعانة، والدُّعاء.

4- التعريف بالصِّراط المستقيم؛ طريقِ المهتدين.

5- تجنُّب طريق الغاوين من المغضوبِ عليهم والضالِّين.

مناسبة افتتاح القرآن بسورة الفاتحة:

افتَتح الله سبحانه كتابه بهذه السورة؛ لأنَّها جمَعتْ مقاصد القرآن، ولأنَّ فيها إجمالَ ما يحويه القرآن مفصلًا؛ فجميع القرآن تفصيل لِمَا أجملتْه، وفي ذلك براعة استهلال؛ لأنَّها تنزل من سور القرآن منزلَ دِيباجة الخطبة أو الكتاب.



سُورةُ الفاتحة

الآيات (1-7)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (1)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (4) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (5) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)



تفسير الآيات:

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (1).

هذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ فيه حمدَ نفسه الكريمة، وفي ضمنه إرشادٌ لعبادِه بأن يحمدوه سبحانه وتعالى.

الْحَمْدُ للهِ.

أي: جميعُ المحامد للمعبود تبارك وتعالى، لا يستحقُّها إلَّا هو وحده سبحانه، وهو حمدٌ دائم ومستمر.

والحَمْدُ: هو وصفُ المحمود سبحانه بالكمال، مع محبَّته، وتعظيمِه جلَّ وعلا.

و(الله): اسمٌ ثابتٌ له سبحانه، يتضمَّن صِفةَ الألوهيَّة له عزَّ وجلَّ. ومعناه: المألوه، أي: المعبود.

رَبِّ العالمين

أي: هو السيِّد، والمالِك، والمدبِّر لجميع العالَمين، وهم كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، مِن جميع أصناف المخلوقاتِ في كلِّ مكانٍ وزمان.

كما قال تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ [الشعراء: 23-28].

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (2).

هما اسمانِ مشتقَّان من الرَّحمة على وجه المبالَغة، ورحمن أشدُّ مبالغةً من رَحيم؛ وذلك لأنَّ (رحمن) على وزن فعلان، وهذه الصيغة تفيد الكثرة والسعة، فالرَّحْمَن: ذو الرَّحمة الواسِعة لجميع خلقه، والرَّحِيم: ذو رحمةٍ خاصَّة، يختصُّ بها عبادَه المؤمنين.

قال الله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ [العنكبوت: 21]، وقال سبحانه: وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا [الأحزاب: 43].

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (3).

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو المتصرِّف في جميع خلْقِه بالقول والفِعل.

كما قال تعالى: وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله [الانفطار: 17-19].

وكما قال سبحانه: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [مريم: 40].

وقال أيضًا: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

يَوْمِ الدِّينِ: أي: يوم الجَزاء والحِساب.

القراءات ذات الأثر في التفسير

في قوله تعالى: مَالِكِ قِراءتان:

1- مالِك بالألف مَدًّا، وهو: المتصرِّف بالفِعل في الأشياء المملوكةِ له.

2- مَلِك بغير ألف قَصْرًا، وهو: المتصرِّف بالقول أمرًا ونهيًا في مَن هو مَلِكٌ عليهم.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (4).

أي: قولوا: إيَّاك نَعبُد وإيَّاك نستعين.

والمعنى: لا نعبُد إلَّا أنت، متذلِّلين لكَ وحْدَك لا شريكَ لك، ولا نستعين إلَّا بك وحْدَك لا شريكَ لك.

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (5).

أي: قولوا: اهدِنا الصِّراطَ المستقيم.

والمعنى: دُلَّنا على الطَّريق الواضِح الذي لا اعوجاجَ فيه، ووفِّقنا لسلوكه، وثبِّتنا عليه.

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (6).

أي: طريق الذين أَنعمَ الله تعالى عليهم بالهِداية إلى الصِّراط المستقيم، وهم الذين علِموا الحقَّ وعمِلوا به؛ امتثالًا لِمَا أمَر الله عزَّ وجلَّ، واجتنابًا لِمَا نهى عنه سبحانَه، بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرَّسول - ﷺ -، وهم المذكورون في قوله تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69].

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7).

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ.

أي: إنَّ مِن صفات الذين أَنعم الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كاليهود، ومَن سلَك طريقتَهم في ترْك العمل بالحقِّ بعد معرفته.

فأخصُّ أوصاف اليهود، الغضبُ، كما قال الله تعالى فيهم: مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ [المائدة: 60]، وقال سبحانه أيضًا: فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ [البقرة: 90].

ولا الضَّالِّينَ.

أي: إنَّ من صِفات الذين أنعمَ الله تعالى عليهم، أنَّهم ليسوا كالنَّصارى، ومَن سلك طريقتَهم ممَّن جهِلوا الحقَّ، فعبَدوا الله تعالى بغير عِلم.

فأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، كما قال سبحانه: قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ [المائدة: 77].



تَفْسِيرُ
سُورَةِ البَقَرَةِ

سُورةُ البَقَرَة

سُورَةُ البَقَرَةِ

- سِمّيت هذه السُّورةُ الكريمة، سورةَ البَقرة.

فعن أَبي مَسعودٍ عُقبةَ بن عمرو رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((مَن قرَأ بالآيتَينِ مِن آخِرِ سورةِ البَقرةِ في ليلةٍ كفَتاه)).[12]

- سِمّيت هي وسورة آل عِمران، الزَّهراوين.

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَيْنِ: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ...)).[13]

لهذه السُّورة الكريمةِ فضائلُ متعدِّدة، منها:

- أنَّها تُنفِّر الشيطانَ من البَيت الذي تُقرأ فيه

(12) رواه البخاري (5008).
(13) رواه مسلم (804).

فعَن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله - ﷺ - قال: ((لا تَجْعَلوا بُيوتَكم مقابرَ؛ إنَّ الشيطانَ ينفِرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البَقرة))[14]

- أنَّها وآلَ عمران تُدافعانِ عن قارئِهما يومَ القيامة، وفي قِراءتِها والعملِ بما فيها حصولُ البَرَكات لصاحبِها.

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقول: ((اقْرَؤوا القرآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شَفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَين: البقرةَ، وسورةَ آلِ عمرانَ؛ فإنَّهما تأتِيان يومَ القِيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ، أو كأنَّهما غَيايتانِ، أو كأنهما فِرْقانِ من طَيرٍ صوافَّ، تُحاجَّان عن أصحابِهما، اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بَركةٌ، وتركَها حَسرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ))، قال معاويةُ ابن سلام -أحد رجال سند الحديث-: بلغَني أنَّ البطلَةَ السَّحرةُ.[15]

- تعظيمُ الصَّحابة رضي الله عنهم لقارئِها هي وآل عمران

فعن أَنسٍ رضي الله عنه، قال: ((كان الرجلُ إذا قرَأَ البَقرة وآل عمران، جَدَّ فينا- يعني: عظُم- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ)).[16]

---

(14) رواه مسلم (780).

(15) أخرجه مسلم (804)

(16) رواه أحمد (3/120) (12236)، وابن حبَّان (3/19) (744). صحَّح إسنادَه ابن تيميَّة في ((الصارم المسلول)) (2/241)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (6/179): على شرْط الشيخين، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1268).

سورة البَقرة سورةٌ مدنيَّة، نزلتْ بعد الهِجرة، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين.

مَن أهمِّ المقاصد التي تضمَّنتها سورةُ البقرة:

1- الاهتمامُ بالجانب العَقديِّ؛ فقد بيَّنت السورة الكثيرَ من أصول العقيدة، وأدلَّة التوحيد، وبراهين البعث.

2- بيانُ جوانبَ من التَّشريع الإسلاميِّ، سواءً في العِبادات، أو الأحوال الشخصيَّة، أو المعاملات الماليَّة، أو الحدود، وغير ذلك.

من أَبرزِ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ البَقرة:

1- وصْف أصناف النَّاس، حيثُ قسَّمتْهم ثلاثةَ أقسام، هم: المؤمنون، والكافِرون، والمنافقون.

2- وصيَّةُ الناس كافَّةً بعبادة ربِّهم، مع ذِكر بعض نِعمه الجليلة عليهم، التي تدلُّ على استحقاقِه سبحانَه وتعالى للعبادة وحْده، مع تحذيرهم إنْ لم يمتثلوا هذا الأمر، وتبشير مَن امتثل منهم بما أعدَّه الله تعالى له من النَّعيم المقيم.

3- بداية خَلْق الإنسان، وحوار الله عزَّ وجلَّ مع ملائكتِه.

4- قِصَّة استخلاف آدَمَ في الأرض، وقصَّته مع الشيطان.

5- عَرْض أبرز الأحداث التي وقعتْ لبني إسرائيل.

6- قِصَّة ابتلاء إبراهيمَ بالكلمات، وبنائِه الكعبةَ مع ولده إسماعيل، ووصيَّته لأبنائه ويعقوب، ووصية يعقوب لأبنائِه.

7- عَرْض مجموعة من الأحكام الشرعيَّة في جانب العبادات، تتعلَّق بالصَّلاة والصَّدقة، والصَّوم، والحجِّ، وفي جانب المعاملات، كالرِّبا والدَّيْن، والرَّهن، وكذلك في جانب الأُسْرَة من النِّكاح والطَّلاق والإيلاء والعِدَد، وغير ذلك من أحكام.

8- عَرْض وقائع في إحياء الله الموتى، ومنها: (قصة قتيل بني إسرائيل، وقصة الذين أصيبوا منهم بصاعقة أماتتهم، وقِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم أُلوف حذرَ الموت، وقِصَّة الذي مرَّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها، وقصَّة إبراهيم عليه السَّلام مع الطَّير).

9- قِصَّة طالوت وجالوت مع الملأ من بني إسرائيل من بعدِ موسى عليه السَّلام.

10- قصَّة الذي حاجَّ إبراهيمَ عليه السَّلام في ربِّه.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (1-5)

الم (1)

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2)

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3)

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4)

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)

تفسير الآيات:

الم (1).

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورة وغيرها، تأتي لبيان إعجازِ القرآن؛ حيث تُظهِر عجْزَ الخَلْق عن معارضته بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروف العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (2).

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ.

أي: إنَّ هذا القرآن، لا شكَّ في أنَّه حقٌّ في ذاته، وأنَّه نزَل من عند الله تعالى، كما أنَّه لا يتضمَّن ما يوجب الرَّيْب.

كما قال تعالى: الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ [السجدة: 1-2].

وقال سبحانه: أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا [النساء: 82].

هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.

أي: إنَّ القرآن هدًى من الضلالة، ونورٌ وتبيان للذين يتَّقون غضبَ الله تعالى وعقابَه، بامتثال ما أَمَر الله تعالى به، واجتنابِ ما نَهى عنه.

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3).

الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ.

أي: إنَّ مِن صفات المتَّقين أنَّهم يُصدِّقون ويُقِرُّون بالغيب.

والغيبُ هو: كلُّ ما غاب عن العَبد، ومن الإيمان بالغيب: الإيمانُ بالله تعالى، وملائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليومِ الآخِر.

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ.

أي: يؤدُّون الصَّلوات بحدودِها، وفروضِها، وواجباتها، كما أمَر الله عزَّ وجلَّ.

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ.

أي: يُخرِجُون من طيِّب ما أعطاهم ربُّهم من الأموال.

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4).

والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ.

أي: إنَّ من صِفات المتقين أيضًا، أنَّهم يؤمنون بالقرآن الذي أُنزل إلى محمَّدٍ - ﷺ -، ويُؤمنون أيضًا بجميع الكتُب السماويَّة السابقة، من قَبل بَعثةِ محمَّدٍ - ﷺ -.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ [النساء: 136].

وقال سبحانه أيضًا: وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ [العنكبوت: 46].

وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ.

أي يؤمنون إيمانًا لايتطرَّق إليه شكٌّ بالبعث والنُّشور، والثواب والعِقاب، والحِساب والميزان، وغير ذلك ممَّا أعدَّ الله تعالى لخلْقِه يومَ القِيامة.

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5).

أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ.

أي: إنَّ المتَّصفين بجميعِ ما تقدَّم ذِكرُه من صِفات المتقين، على نورٍ وبُرهانٍ وبصيرةٍ من ربِّهم سبحانه.

وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ.

أي: وهم أيضًا فائزونَ بإدراك ما طلَبوا، وبالنَّجاة ممَّا منه هرَبوا.



سُورةُ البَقَرَةِ.

الآيات (6-7)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6)

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7)

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6).

أي: إنَّ هؤلاء الذين كفروا، يتساوى في حقِّهم كِلا الأمرين، الإنذارُ وعدمه، فهم في كِلا الحالين لا يؤمنون بما جِئتَهم به- يا أيُّها الرسولُ- من الحقِّ.

خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ (7).

خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ.

أي: طَبَع اللهُ عليها، فلا يَنتفعون بهُدى.

وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ.

أي: عليها غِطاء، فلا يُبصرون هُدًى.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ.

أي: عذابُ النَّار.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (8-20)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (8)

يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (9)

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11)

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ
وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (13)

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ
(14)

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15)

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16)

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي

ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (17)

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18)

أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ

حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (19)

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ

لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20)



تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ (8).

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ.

أي: إنَّ المنافقين يقولون بألسنتهم: آمنَّا بالله، وبالبعث يومَ القيامة، قولًا مجرَّدًا ليس معه إيمانٌ حقيقيٌّ.

وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ.

أي: ليسوا بمقرِّين بحقيقةِ الإيمان بقلوبِهم.

كما قال تعالى: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [المنافقون: 1].

يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ (9).

يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا.

بإظهارِهم الإيمانَ، وإبطانِهم الكفرَ.

كما قال سبحانه: يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ [المجادلة: 18].

وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء المنافقين مخدُوعون في الحقيقة بصَنيعهم الذي يَحسَبون أنهم يخادعون به ربَّهم والمؤمنين، وذلك بخِذلان الله تعالى لهم في الدُّنيا والآخِرة، وهم مع ذلك لا يَدرُون بأنَّهم مخدوعون.

كما قال تعالى: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ [النساء: 142]

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَمَا يَخْدَعُونَ قراءتان:

1- (وما يُخَادِعُون) قيل: على معنى أنَّ الخِداع وقع من اثنين، فهو واقعٌ منهم وإليهم؛ إذ خدَعوا أنفسهم، وأنفسهم خدَعتْهم.

2- (وَمَا يَخْدَعُونَ) قيل: على معنى أنَّ الخداع وقع من طرفٍ واحد، فهو واقعٌ منهم على أنفسهم.

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (10).

فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا.

في قلوبهم شكٌّ ونفاق؛ فزادهم اللهُ تعالى شكًّا ونفاقًا.

فالجزاءُ من جِنس العمل، كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ [الصف: 5].

وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ.

أي: لهم عذابٌ مؤلِم، أي: موجِع؛ بسبب كذِبِهم في دعواهمُ الإيمانَ، وبسبب تكذيبهم لله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَكْذِبُونَ قِراءتان:

1- (يَكْذِبُون) بالتَّخفيف، أي: إنَّهم كاذبون في قولهم: آمَنَّا بالله وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ.

2- (يُكَذِّبُون) بالتَّشديد، أي: يكذِّبون النبيَّ - ﷺ - والقرآن مرَّةً بعد مرَّة، ومن كذَّب بذلك، فقد كَذَب.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ.

أي: إذا قيل للمنافقين: لا تفسدوا في الأرض، بمعصية الله تعالى، وبالنِّفاق والكفر، واتِّخاذ الكافرين أولياء، والصَّدِّ عن سبيل الله، والتعويقِ عن طاعتِه وطاعةِ رسوله - ﷺ -، والإرجافِ... إلى غير ذلك.

قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ.

يدَّعون أنَّ ما يفعلونه من الفَساد، إصلاحٌ.

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ (12).

أي: هم المخالِفون في الحقيقة أمرَ الله عزَّ وجلَّ بالكُفر والمعاصي، ولكن لا يَدْرُون ولا يَفطنون إلى أنَّ ما يفعلونه هو فسادٌ في الحقيقة.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (13).

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ.

أي: إذا قِيل للمنافقين: آمنوا بمحمَّدٍ - ﷺ -، وبما جاءَ به من عند الله عزَّ وجلَّ، كما آمن أصحابُ محمَّدٍ - ﷺ -، وكلُّ مَن آمن به.

قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ.

أي: يقولون: أنؤمِنُ كما آمَن ذوو الجهل وضعف الرأي وقلة المعرفة بالمصالح والمفاسد- يعنون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم- فنكون نحن وإيَّاهم على طريقةٍ واحدة؟!

أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ.

أي: هُم السُّفهاء في الحقيقة، فليست لديهم معرفةٌ صحيحةٌ لإقامة نفعٍ حقيقي؛ حيث يُفسِدون في الأرض، ويظنُّون أنَّ ذلك هو عينُ الإصلاح، وهذا هو السَّفَه.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14).

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا.

أي: إذا لقِي المنافقون المؤمنين، أظْهَروا لهم الإيمانَ نفاقًا.

وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ.

أي: إذا انصَرفوا إلى رُؤسائهم، من سادات الكفَّار والمشركين والمنافقين، خالِين بهم.

قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ.

أي: نحن معكم على دِينكم، ومِن ذلك التكذيبُ بمحمَّدٍ – ﷺ –، ومعاداتُه، ومعاداةُ أتباعه، والسُّخريةُ بهم بقولهم لهم: آمَنَّا باللهِ وَبِاليَومِ الآخِرِ).

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (15).

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ.

أي: إنَّ الله تعالى أجْرى لهم ما للمؤمنين من الأحكام الظاهِرة، كعِصمة دِمائهم وأموالهم، لكنَّه سبحانه يُميِّز بينهم وبين المؤمنين في الآخِرة، ويُلقي بهم في الدَّرك الأسفل من النار، فكان ذلك استهزاءً بهم.

وهذا من الله سبحانه مقابلة لهم على استهزائهم بالمؤمنين؛ فالجزاء من جنس العمل.

كما قال تعالى: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التوبة: 79].

وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ.

أي: يَزيدهم على وجه الإملاءِ، والتَّرْك لهم في عتوِّهم وتمرُّدهم بالكُفر، يتردَّدون حيارَى ضُلَّالًا، لا يجدون إلى المخرَج من ذلك سبيلًا.

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (16).

أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى.

أي: استعاضوا بالضَّلالة عن الهُدَى.

فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ.

أي: خسِر المنافقون بأخْذهم الضَّلالةَ، وتركِهم الهُدى؛ وما كانوا راشدين بصَنيعهم هذا.

ثم ضرب الله لهم مثلًا يصوِّر حالهم، فقال:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (17).

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً.

أي: مثَل المنافقين الذين آمَنوا أو أظهروا الإيمان ثم كفَروا، كمثَل مَن أوقَد نارًا؛ لتضيءَ له، وينتفعَ بها، والمراد بذلك تشبيههم بأنَّهم آمنوا أو أظهروا الإيمان.

فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ.

أي: أنارتِ النارُ ما حولَ المستوقِد، فأبصر بها ما ينفعُه ويَضرُّه، والمراد بذلك أنَّهم أبصَروا الحقَّ، أو أنهم انتفعوا بها انتفاعًا مؤقَّتًا، حيثُ حقنوا دماءَهم، وأحرزوا أموالَهم.

ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ.

أي: خمَدت النار، وانطفأ النور، فذهب عنهم ما يَنفعُهم وهو النور، وبقِي لهم ما يضرُّهم وهو الإحراقُ والدُّخَان؛ ذلك بأنَّهم كفروا بعد إيمانهم، فبقِيت في قلوبهم حرارةُ الكفرِ والشُّكوكِ.

وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ.

أي: بقُوا في عِدَّة ظلمات، منها: ظُلمة اللَّيل، والظُّلمة الحاصِلة بعد فقْد النور، وهي أشدُّ من الظُّلمة الأُولى، والمراد: ما أصْبَحوا فيه من ظُلمات الكُفر، والشُّكوك، والنِّفاق.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (18).

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ.

أي: لا يَسمعون هُدًى، ولا يَنطِقون به، ولا يُبصرونَه بقلوبِهم.

كما قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سُبحانه: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ [المنافقون: 3].

فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ.

أي: لا يَعودُون إلى الهُدى الذي باعوه بالضَّلالة.

ثم ضرب الله لهم مثلًا آخرَ، فقال:

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ (19).

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ.

أَوْ هنا للتنويع، فبعض المنافقين يشبه المثل الأول، وبعضهم يشبه هذا المثل الثاني، فضربه الله تعالى هاهنا لصنفٍ آخر من المنافقين.

والمرادُ بالصيِّب: القرآنُ الذي نزَل من عند الله تعالى، والذي يُظهر المنافقون بألسنتِهم إيمانَهم به.

فِيهِ ظُلُمَاتٌ.

هي ظُلمة اللَّيل، وظُلمة السَّحاب، وظُلمة المطر، والمرادُ: ما عليه المنافقون من الشكِّ، والكُفر، والنِّفاق.

وَرَعْدٌ.

المراد به: وعيدُ القرآن وزواجره، وأوامِره ونواهيه.

فهُم منها في حالِ خوفٍ وفزعٍ شديد، كقوله تعالى: يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ [المنافقون: 4]، وقال: وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ [التوبة: 56-57].

وَبَرْقٌ.

المراد به: حُججُ القرآن وبراهينه التي تُبهرهم.

يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ.

المرادُ بها: آياتُ القرآن التي تتضمَّن التكاليفَ الشرعيَّة، والوعيدَ، وغيرَه.

أي: يضعون أصابعَهم في آذانِهم؛ كي يتَّقوا سماعَ أصوات الصَّواعق، والمرادُ: أنَّهم يتَّقون سماعَ زواجر القُرآن الكريمِ ووعيده.

حَذَرَ الْمَوْتِ.

أي: حذرًا من حلول الوعيد الذي توعَّدهم اللهُ به في القُرآن، وإشفاقًا من حلول عُقوبةِ الله بهم على نِفاقِهم؛ إمَّا عاجلًا في الدُّنيا، وإمَّا آجلًا في الآخِرة.

واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ.

أي: محيطٌ بهم قدرةً وعلمًا، فلا يُعجِزونه، ولا يُغني عنهم حذرُهم شيئًا.

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20).

يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ.

أي: يوشك البَرقُ من شِدَّة لَمعانه، وقوَّة ضيائه -مع ضَعْف أبصارهم- أنْ يذهب بها فيُعميها، والمرادُ: أنَّ شِدَّة نور القرآن- بما يحويه من حُججٍ وبراهينَ ساطعة، يرَون معها الحقَّ واضحًا جدًّا- لا تتحمَّله بصائرُهم الضَّعيفة.

كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا.

أي: إذا ظهر لهم نورُ الحقِّ، ولَمَع في قلوبِهم مشَوْا على ضوئِه، وخطَوا خُطواتٍ يسيرةً، لكنَّه لا يستقرُّ في قلوبهم المظلِمة بالشُّبهات والشكوك القويَّة، فلا يلبَث أن ينطفِئ، فيقفون حائرين! عائدين إلى تَكذيبهم، فهُم في هذه الحال في شكٍّ وتردُّد!

وَلَوْ شَاء اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ.

هذا تهديدٌ ووعيدٌ لهم بإذهاب أسماعِهم وأبصارهم؛ عقوبةً لهم على نِفاقهم وكُفرهم.

إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: ذو قُدرةٍ على إيقاع ما أوعد به هذا الصِّنفَ من المنافقين، فلْيحذروا نِقمةَ الله وعذابَه عاجلًا أو آجلًا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى لا يُعجزه شيءٌ أبدًا.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (21-25)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ **(21)**

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ
رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ **(22)**

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ **(23)** فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ
أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ **(24)** وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ
فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(25)**

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21).

أي: اعبُدوا اللهَ تعالى- أيُّها الناس-؛ لأنَّه هو الذي أوجدكم أنتم ومن قبلكم من العدم؛ وذلك من أجل أن تصلوا إلى مرتبة التقوى.

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً.

أي: اعبُدوا ربَّكم أيضًا؛ لأنه هو الذي جعَل لكم الأرض ممهَّدةً كالفِراش، موطأةً مثبَّتةً يستقرُّ عليها الإنسان، وجعَل لكم السماء سقفًا.

قال سبحانه: وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [الأنبياء: 32].

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ.

أي: وهو كذلك أَنزل من السَّحاب مطرًا؛ فأنبت للناس بسببه أنواعًا متعدِّدةً من الثِّمار؛ رزقًا لهم.

فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: لا تتَّخذوا له أمثالًا ونظراءَ بزعمكم، وهو الذي خلَقَكم ورزقكم؛ فهو المستحقُّ لأنْ تُخلصوا له العبادة وحده لا شريكَ له، وأنتم تعلمون أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا ندَّ له ولا شريكَ له في الخَلْق والرِّزْق وغير ذلك؛ فليس كمثله شيءٌ سبحانه وتعالى.

وهذِه الآية قريبةٌ من قوله تعالى: اللهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [غافر: 64].

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23).

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ.

أي: إذا كنتم- أيُّها الكفَّار والمنافقون- في شكٍّ من نزول القرآن من عند الله سبحانه على محمَّدٍ - ﷺ -، فأتُوا من عندكم بسورةٍ مِثل القرآن، يَتحدَّاهم الله تعالى بذلك.

وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: استعينوا على الإتيان بسورةٍ من مثل القرآن، بمن شئتم من غير الله عزَّ وجلَّ، من كل من يشهد لكم فيوافقكم على عدم الإقرار بنزول هذا القرآن من عند الله تعالى، وذلك كأعوانكم وشركائكم، إن كنتم محقِّين في دعواكم أنَّ القرآن كلامٌ مختلَق تقوَّله بشر.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24).

أي: فإنْ لم تأتوا بسورةٍ من مِثل القرآن، ولن تأتوا بها أبدًا، فاجعلوا بينكم وبين عذاب النار وقايةً بفِعل أوامره سبحانه، واجتناب نواهيه؛ لتنقذوا أنفسكم من النَّارِ التي يُلقَى فيها العصاةُ من الناس، والحجارةُ؛ لإيقادِها وإضرامِها، وقد جُهِّزت وهُيِّئت مسبقًا لكلِّ مَن كفر فترك التصديقَ بالحقِّ والإقرار به والانقياد إليه.

وَالْحِجَارَةُ. قيل: هي حجارةُ الكِبريت، وهي أشدُّ الأحجار حَرًّا إذا حَمِيتْ، وقيل المراد بها: الأصنام.

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25).

وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.

أي: أخْبِر يا أيُّها الرَّسولُ، الذين آمَنوا بالله عزَّ وجلَّ، وآمَنوا بك، وبما جِئتَ به من عند الله تعالى، وصدَّقوا إقرارَهم ذلك بأعمالهم الصالحة- أخْبِرْهم خبرًا يسرُّهم، بأنَّ لهم في الآخرة بساتين، تجري الأنهارُ من تحت أشجارها وغُروسِها وغُرَفها.

كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا.

أي: كلَّما أُعطوا أيَّ ثمرةٍ من أشجار الجنَّة، ظنُّوا أنَّها نفس الثَّمرة التي أُعطوها سابقًا في الدنيا؛ لمشابهتها إيَّاها في المنظر، أو أنها التي أُعطوها في وقتٍ سابقٍ في الجنة، وإنَّما أُعطُوا الذي رُزِقوا من ثمارِ الجنَّةِ متشابهًا في اللَّون والمنظَر، لكنَّ الطعم مختلفٌ.

وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ.

أي: إنَّ الذين آمنوا وعمِلوا الصالحات، لهم في الجنَّاتِ زوجاتٌ مطهَّرات من كلِّ أذًى ومكروه ورِيبة، طهارةً حِسيَّةً ومعنويَّة.

وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّ الذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحات، باقونَ في الجنَّات على الدَّوام، آمِنون من الموت، وانقطاع النَّعيم.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (26-29)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27)

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28)

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29)

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (26)

إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.

أي: إنَّ الله تعالى لا يَستحيي أن يبيِّن الحقَّ عبر التشبيه بأيِّ شيءٍ كائنًا ما كان، ولو كان في الحقارة والصِّغر كالبعوضة فما فوقَها ممَّا هو أكبرُ منها، أو دونها في الصِّغر؛ وذلك لاشتمال الأمثال على الحِكمة، وإيضاح الحقِّ، والله تعالى لا يَستحيي من الحقِّ، ولابتلاء عبادِه واختبارهم بهذه الأمثال؛ ليتميَّز أهلُ الهداية والإيمان، من أهل الضَّلالة والكُفران.

ثم شرع في تفصيل مواقف الخلق من ضرب الأمثال في القرآن فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ.

أي: إنَّ الذين أقرُّوا وصدَّقوا بقلوبهم وجوارحهم، يَعلَمون أنَّ هذا المثَل المضروب حقٌّ، حتى لو خفي عليهم تفصيله، فهم يَعلَمون أنَّه حقٌّ في الجُملة؛ لعِلمهم بأنَّ الله لم يضربْه عبثًا، بل لحِكمةٍ بالغة، فيزدادون بذلِك إيمانًا مع إيمانهم.

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا.

أي: إنَّ الذين كفروا فلم يقرُّوا بالحق وينقادوا إليه، لم يَفهَموا حِكمةَ المثل المضروب؛ لذا فهم يعترضون ويتحيَّرون، أو فهموه لكنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم؛ فيَزدادون كفرًا إلى كُفرهم.

ثم بيَّن الله تعالى حكمة ضرب المثل في كتابه، فقال:

يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا.

أي: إنَّ ضرب المثل في القرآن بمثابة ابتلاء واختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر، فهو إضلالٌ لكثيرٍ لم يَفهموه، وهم المنافقون والكفَّار، وهدايةٌ لكثيرٍ فهِموه، وهم المؤمنون.

كما قال تعالى: وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 124-125].

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ.

أي: لا يُضلُّ اللهُ سبحانه بهذا المَثَل المضروبِ إلَّا الخارجين عن طاعتِه من أهل الكفر والنِّفاق، وهذا ما تقتضيه حِكمتُه وعدلُه.

كما قال تعالى: وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ [المدثر: 31].

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (27).

الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ.

أي: يصِفُ اللهُ تعالى الفاسقين الذين يَضلُّون بالمَثَل المضروب، فيُخبر أنَّهم الذين يُفسِدون العهدَ الذي أخذ عليهم من بعد تأكيدِه. وهو وصيةُ الله تعالى بالإيمان به سبحانه وبجميع رُسله- ومنهم محمَّد - ﷺ - كما عهد إلى بني إسرائيل بذلك فنقضه كفارهم.

كما قال سبحانه: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ... إلى قوله: ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ... [البقرة: 84 - 85].

وقال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا... إلى قوله: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ... [المائدة: 12- 13].

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ [المائدة: 70].

وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ.

أي: يَقطعون كلَّ ما أمر الله تعالى بوَصلِه، كالأرحام، والتَّصديق بالأنبياء، وغير ذلك من شرائع الدِّين.

وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ.

أي: ويفسدون في الأرض بالكُفر والمعاصي.

أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: إنَّهم بكُفرِهم وأفعالِهم التي يرتكبونها قد ضلُّوا، فحَرَموا أنفسهم من الرِّبحِ الحقيقيِّ بنَيلِ رحمة الله تعالى، والحصولِ على الفوزِ الأبديّ.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (28).

أي: يُنكِر الله تعالى على مَن كفر به، مُتعجِّبًا من كُفرهم مع وضوح الأدلَّة على وجودِه سبحانه، وعلى قُدْرته العظيمة، والحال أنَّه أماتهم مرَّتين، وأحياهم مرَّتين؛ وذلك بأنْ يُخرِجَهم من العدَم بعد أنْ كانوا نُطفًا في أصلابِ آبائهم، فيُحييهم بأنْ ينفُخَ الرُّوح فيهم؛ ليَخرجوا إلى عالم الوجود الدُّنيويِّ، ثم يُميتَهم بقَبْض أرواحهم من أجسادِهم، فتنقضيَ آجالُهم الدنيويَّة، ثم يُحييَهم في قُبورِهم للبَعث والنُّشور، ثم يُخرجَهم من قُبورِهم، ويَحشرَهم إليه يوم القِيامة.

كما أخبر تعالى عن الكفَّار، أنَّهم يقولون يومَ القيامة: رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ [غافر: 11].

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (29).

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا.

أي: أوجَد لكم- من فَضله وكرمِه- جميعَ ما على الأرض؛ للانتفاعِ به، والاستمتاعِ، والاعتبار.

ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: بعد أنْ خلَقَ اللهُ تعالى الأرض، علا وارتفع قاصدًا إلى خَلْقِ السَّموات، فخلَقَها بإحكامٍ وإتقانٍ، وهو العليم بما يَخلُق، وكيف يَخلقُه، كما أنَّ عِلمه سبحانه محيطٌ بجميع ما خلَق.

كما قال تعالى: قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [فصلت: 9-12].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ [المؤمنون: 17].

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (30-33)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32)

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30)

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.

أي: واذكر يا محمَّد، حين قال ربُّك للملائكة أنَّه سيجعل في الأرض خليفةً، وهو آدَمُ عليه السَّلام، وذُريته من بعده، يَخلُف بعضُهم بعضًا، جيلًا بعد جِيل.

قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ.

أي: قال الملائكةُ لربِّهم مُستَعْلمين لا مُعْتَرِضين: ما الحِكمةِ من إقامة ذُرِّية آدَم في الأرض، والحال أنَّهم سيُفسدون فيها، ويُعمِلون القَتلَ بينهم، ولِمَ نُستخلفْ نحن في الأرض مع أنَّنا دائمون على تسبيحك تسبيحًا مصحوبًا بالحمدِ لك ودائمون على التقديس لك؟

والتسبيح هو تنزيهُ الله تعالى، أي: يُبعِدون كلَّ نقصٍ وعيب، فلا ينسبونه إلى الله عزَّ وجلَّ.

والحمدُ هو وصفُ الله المحمودِ بالكمالِ، حبًّا وتعظيمًا له عزَّ وجلَّ.

والتقديس هو التطهيرُ، فيَصِفون الله تعالى بالطَّهارة من جميع الأدناس.

كما قال تعالى: وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ [الشورى: 5].

قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: أنا العالِم بالظَّواهر والسرائر، أعلم ما خفِي عليكم ممَّا يحصُل بخَلْق البَشَر من المصالِح والحِكم، ومِن ذلك: أنَّه يكونُ منهم الرُّسُل والأنبياء والصِّدِّيقون وغيرُهم ممَّن يُحقِّق عبوديةَ الله تبارك وتعالى.

لَمَّا أَعلم سبحانه الملائكةَ أنَّ الأمر على خِلاف ما ظنُّوا، شرَع في إقامة الدَّليل عليه، فقال:

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)

وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا.

أي: إنَّ الله تعالى قد علَّم آدمَ عليه السَّلام أسماءَ كلِّ شيء.

ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: أظْهَر الله تعالى تلك المسمَّياتِ للملائكة، وامتحنهم تحديًا لهم، فأمَرهم أن يُخبروه بأسماء ما عَرَض عليهم، إنْ كانوا حقًّا صادقِين في دَعواهم بأنَّهم على علمٍ بالأشياء، ومستحَقُّون للأفضلية على آدَم.

قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

هذا تنزيهٌ من الملائكة لله عزَّ وجلَّ بنفي علم أي شيءٍ، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى، وهو العليم بغير تعليم، وهو الحكيم الذي يضَعُ الأشياءَ مواضعَها، حكيمٌ في خَلْقه وأمْره، وفي تعليم مَن يشاء، فنَفَى الملائكةُ الكرام أصلَ العلم عن أنفسهم، وأثبتوا كمالَ العِلم والحِكمة لله تبارك وتعالى.

قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33)

أي: أمَر اللهُ تعالى آدَمَ عليه السَّلام أن يُخبر الملائكةَ بأسماء الأشياء التي علَّمها الله تعالى إيَّاه من قبلُ، وعرَضها سبحانه على الملائكة، فلم يعرفوها، فلمَّا أخبرهم آدَمُ بتلك الأسماء، فسمَّى كلَّ شيء باسمه، ظهَر فضلُه وشرفُه عليه السَّلامُ على الملائكة، فقال الله تعالى مقرِّرًا بأنه قد قال لهم من قَبلُ بأنَّه يعلم كلَّ ما يَغيب عن الخلْق، سواء في السموات أو في الأرض، كما يعلم سبحانه ما يُظهِره الملائكة، وما يُخفونه.

كما قال تعالى إخبارًا عن قولِ الهُدهد لسليمان عليه السَّلام: أَلَّا يَسْجُدُوا لله الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ [النمل: 25].



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (34–39)



وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
(34)

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي
الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ (38)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)



تفسير الآيات:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34)

أي: يُذكِّر الله تعالى بأمْره لجميع الملائكة بالسُّجود لآدم إكرامًا وتعظيمًا له، وعبوديةً لله تعالى، وأنَّهم بادَروا جميعًا بالسجود، وامتنع إبليسُ من ذلك، وتَكبَّر على أمر الله تعالى، وعلى آدَم، فاتَّصف بكفرٍ عظيم.

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35)

أي: يُبيِّن الله تعالى إكرامَه لآدَمَ وزوجِه حواءَ عليهما السَّلام، بأنْ أذِن لهما في سُكنى الجنَّة، وأباح لهما أن يأكلَا منها رِزقًا واسعًا هنيئًا، لا عناءَ فيه، ينالانِه فيها حيثُ شاءَا، عدَا شجرةٍ واحدة فقط، عيَّنها لهم الحكيمُ الخبيرُ سبحانه، فنهاهم عن قُربانها، وإلَّا صارَا بالأكْل منها من الظالِمين، باعتدائهما على حدٍّ من حدود الله جلَّ وعلا.

كما قال تعالى: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: 229].

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36)

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ.

أي: إنَّ الشَّيطانَ قد أوقعهما في المعصية والزَّلل، الذي أبعدهما عن الجَنَّة، وذلك بأكْلِهما من الشجرة، فكان إبليسُ بإغوائه ووسوسته سَببًا في إخراجِهما من الرِّزق الواسع، والعيش الهنِيء، الذي كانَا ينعمان به في الجنَّة.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: أزلَّهما قِراءتان:

1- (فأَزَالَهُما) من زالَ يزُولُ، ومعناه: فنحَّاهما.

2- (فَأَزَلَّهُمَا) مِن زَلَلت وأزلَّني غيري، أي: أوْقَعهما في الزَّلل.

وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

أي: أمَر الله تعالى آدَمَ وحواءَ وإبليس بالهبوطِ إلى الأرضِ؛ وأخبر بعداوة بعضهم لبعض.

كما قال عزَّ وجلَّ: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا [الكهف: 50].

وقال سبحانه: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 6].

وقال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ [التغابن: 14].

وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ.

أي: يستقرُّون على ظهرها أحياءً، متمتِّعين بما يَرزُقُهم الله تعالى، إلى أجَلٍ مُعيَّن، وهو انقضاءُ أعمارِهم، ويستقرُّون في بطنها مقبورِينَ إلى وقتٍ مُحدَّد، وهو قيام السَّاعة.

قال سبحانه: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ [الأعراف: 10].

وقال جلَّ وعلا: قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [الأعراف: 24-25].

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37)

فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لقَّن آدَمَ كلماتٍ تحصُل بها توبتُه ممَّا وقَع من عصيانه لله سبحانه، فتلقَّفَها آدَمُ عليه السَّلامُ متلقِّيًا لها بالقَبول، فاعترَف بذنبه، وسأَلَ اللهَ تعالى مغفرتَه ورحمتَه، فتَابَ اللهُ عليه

ورحِمه، فهو التوَّاب، أي: كثير التَّوْب، بمعنى الرُّجوع على عبدِه بقَبول التوبة، وتوبته بتوفيق عبدِه للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وهو الرَّحيمُ بعباده المؤمنين، يختصُّهم برحمته سبحانه.

وهذه الكلمات مذكورةٌ في قوله تعالى: قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ [الأعراف: 23].

والآية شبيهةٌ بقوله تعالى: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى [طه: 121-122].

وقوله سبحانه: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 118].

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى كَلِمَات قراءتان:

1- (فتلقى آدمَ من ربه كَلِمَاتٌ) على أن الكلمات قد استنقذت آدَمَ بتوفيق الله تعالى له لقوله إيَّاها.

2- (فتلقى آدمُ من ربه كَلِمَاتٍ) على أن آدم هو الذي تلقَّى الكلمات بالقَبول لمَّا علَّمه الله هذه الكلماتِ، وأمره بهن.

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38)

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا.

أي: قال الله تعالى لآدَمَ وحواءَ وإبليسَ: اهبطوا من الجنَّة، مُجتمِعين في هُبوطكم.

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: أخْبَر الله تعالى الذين أهبَطهم من الجنَّة، ويدخُل في هذا الخطاب ذرِّيتهم، بأنَّه إنْ جاءهم في أيِّ وقت وحين، كتابٌ أو رسول يبيِّن لهم الطريقَ، ويرشدهم إليه، واتَّبعوه في ذلك، أنَّ لهم الأمنَ التامَّ، والسرور الدائم.

فلا يخافون ممَّا يستقبلون، ولا على ما فاتهم من أمور الدُّنيا يحزنون،

وبهذا تحصُل لهم السَّعادة الدنيويَّة والأخرويَّة، بإذن الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى [طه: 123].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)

أي: إنَّ مَن لم يتَّبع هُدى الله عزَّ وجلَّ فجَحَد الحقَّ، وكذَّب بالآيات الشرعيَّة أو الكونيَّة، فهو من أهل النارِ الملازمين لها على الدَّوام، لا يَخرُجون منها أبدًا.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (40-46)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ
فَارْهَبُونِ (40) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا
بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
(42) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (43) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

تفسير الآيات:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقّ، واذكروا نِعمَ الله تعالى على آبائكم، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة، وذِكرُ هذه النعمِ يستوجب منهم القيامَ بشُكر الله تعالى عليها، بالدُّخول في دِينه ومتابعة رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ.

أي: لا تُخالفوا وصيةَ الله تعالى التي عَهِدَ بها إليكم من الإيمان به سبحانه، وبرسلِه، ومنهم محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، وإقامةِ شرْعه، وبيان الحقِّ الذي تعرفونه، فإنَّكم إن أنفذتُم وصيةَ الله تعالى لكم، أمضَى لكم ما وعدَكم به، وهو تكفيرُ السيئاتِ، ودخولُ الجنَّة، ثم حذَّرهم نفْسَه بعد أن رغَّبهم، فإنْ تحقَّقت فيهم هذه الخشيةُ لله تعالى، فإنَّها تحمِلهم على الإيفاء بعهدِه عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ [المائدة: 12].

وقال سبحانه: وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ [آل عمران: 187].

وقال عزَّ وجلَّ: قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: 156-157].

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41)

وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.

أي: يأمُر اللهُ تبارك وتعالى بَني إسرائيل بأنْ يُقِرُّوا بقلوبهم وجوارحِهم بهذا الذي يُوافِق ما لديهم من التَّوراة، وهو القرآنُ الذي أنزله الله تعالى على محمَّد - ﷺ -، وفي ضِمن ذلك الإشارةُ إلى أنَّ تكذيبهم للقرآن، هو تكذيبٌ لِمَا معهم من التوراة، التي يدَّعون إيمانَهم بها.

وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ.

أي: نَهَى الله تعالى بني إسرائيل عن أن يكونوا أوَّلَ مَن يكفُر بالقرآن ومَن أُنزِل عليه، وهو محمَّد - ﷺ -؛ فعندهم من العِلم به ما ليس عند غيرِهم، وإلَّا فإنَّه يَقتدي بهم مَن بعدهم، فيكون إثمُ كُفره عليهم.

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: نهاهم اللهُ تعالى عن أن يَبيعوا آياتِه؛ فيترَكوا الإيمانَ به سبحانه، ومتابعةَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وبيان ما في كِتابهم من الحقِّ، ومنه ما ورد فيه من أمْر محمَّد - ﷺ -، من أجْل الدُّنيا وشهواتها، كالإبقاء على ما يَحظَوْن به من المناصب والأموال، وغير ذلك؛

فإنَّ الدنيا بحذافيرها ثمنٌ قليل لا يُساوي شيئًا بجانب الإيمان بالله تعالى.

وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وَحْدَه هو المستحقُّ للتقوى دون مَن سواه؛

فإنَّهم إذا اتَّقَوا الله وحْدَه، أوجب لهم ذلك، تقديمَ الإيمان بآياته على كلِّ شهوةٍ فانية.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: نَهَى الله تعالى اليهودَ عن خلْط الحقِّ الذي أنزله الله تعالى بالباطِل الذي افترَوه، بحيث لا يتمايزان، أو يُظهِروا الباطلَ في صورة الحق، كما نهاهم أيضًا عن كِتمان الحقِّ، والحال أنَّهم يعلمونه،

ويعلمون ما في صَنيعهم هذا من الضَّرر العظيم على الناس، ومِن الحقِّ المذكور في هذه الآية، ما يعرِفه اليهودُ مِن أمر نبوَّةِ محمَّدٍ - ﷺ -.

كما قال تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ [آل عمران: 71].

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ.

أي: بعد أن أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ اليهودَ باعتناق دِين الإسلام، أمَرهم بأنْ يُقيموا الصَّلاة، أي: يؤدُّوها بأركانها، وواجباتِها على أحسنِ وجه، ويُعطوا الصَّدقةَ المفروضة أهلَها المستحقِّين لها، ويصلُّوا مع المصلين- ومنهم محمَّدٌ - ﷺ - وأصحابُه رضي الله عنهم- ويكونوا من جملتهم.

أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44)

أي: يوبِّخ اللهُ تعالى اليهودَ مُنكِرًا عليهم قُبْحَ صنيعهم في أمْر الناس بالإيمانِ والخيرِ، وتَرْكِ أنفسِهم لا يأمرونها بذلك، والحالُ أنَّهم يقرؤون التوراةَ ويتدارسونها بينهم، ويَعلمون منها ما أُمِروا به من الخير، وما عليهم إنْ قصَّروا في شرْع الله تعالى.

أوَليس لهم عقولٌ يدركون بها ضلالهم، وتزجرهم عن الوقوع في ذلك؟!

كما قال تعالى إخبارًا عن شُعَيب عليه السَّلام:

وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ [هود: 88].

وقال سبحانه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ [الصف: 2-3].

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (45)

أي: اطلبوا العونَ على جميع ما تُؤمِّلون من أمور الدُّنيا والآخِرة، وعلى تحمُّل المشاقِّ والمصائبِ بالصَّبر والصَّلاة، والصَّلاةُ ثقيلةٌ وذات مشقَّة على الأنفُس، لكنَّها سهلةٌ وخفيفةٌ على مَن خشَع، فخضَع لله تعالى واطمأنَّ إليه قلبُه، وظهرَ أثرُ ذلك الخشوعِ على جوارحِهِ.

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (46)

وهؤلاءِ الخاشعون هم الموقِنون بعودتهم إلى الله تعالى، والحشرِ إليه يوم القِيامة.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ [البقرة: 153].

وقال سبحانه: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [المؤمنون: 1-2].



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (47–57)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47)

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48)

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49)

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51)

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52)

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ **(54)**

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ **(55)**

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ **(56)**

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ **(57)**



تفسير الآيات:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (47).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم - ﷺ -، ومنها النِّعم التي سيأتي ذِكرُها في هذه السُّورة الكريمة [474]

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، من إرسال الرُّسُل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة.

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32].

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [المائدة: 20].

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (48).

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا.

أي: أمَرهم الله أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْس حقًّا وجَب عليها لغيرها، ولا يُغني فيه أحدٌ -كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبِين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا [لقمان: 33].

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ.

أي: لا يُقبَل من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر: 48].

وقال سبحانه عن أهل النار: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: 100-101].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 36].

وقال تعالى: وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا [الأنعام: 70].

وقال عزَّ وجلَّ: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... [الحديد: 15] الآية.

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى [480].

كما قال تعالى: فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: 10].

وقال سبحانه: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 25-26].

وقال عزَّ وجلَّ: فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ [الأحقاف: 28].

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (49).

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ

أي: واذْكُروا يا بني إسرائيل، نِعمتي عليكم بإنجاءِ آبائكم من شِيعة فِرعونَ وقومِه وملئِه، الذين كانوا يُذيقونهم- ويُديمون عليهم- عذابًا سيِّئًا وشديدًا، وهو ذبْح الأبناء الذُّكور، واستبقاء الإناثِ أحياءً؛ لإذلالهنَّ، وإهانتهنَّ، واستضعافهنَّ، وإنجاءُ الآباء إنجاءٌ لهم؛ ولذا وُجِّه الخِطابُ إليهم.

وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

أي: وفي إنجائِنا لآبائكم من عدوِّكم نعمةٌ عظيمةٌ لكم من ربِّكم.

لَمَّا ذكَر الله سبحانه وتعالى تسلُّطَ آل فِرعون على بني إسرائيل، ذكَر مآل هؤلاء المتسلِّطين، فقال:

وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50)

أي: ذكَّرَ سبحانه بني إسرائيل بأنَّه فرَق البحر لهم، وبسبب دُخولِهم فيه، ففَصَل بعضَه عن بعض؛ ليسلكوا طريقًا يابسًا بيْن أجزاء البحر، فأنقذهم اللهُ تعالى بذلك من فِرعونَ وقومِه، الذين أغْرَقهم الله تعالى جميعًا، وأمكَن بني إسرائيل من النَّظر إليهم بأبصارهم وهم يَغرَقون، فكان ذلك أشْفَى لصدورهم، وأبلغَ في إهانةِ عدوِّهم.

كما قال تعالى: فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ [الشعراء: 61-66].

وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (51).

أي: واذكُروا يا بني إسرائيلَ مواعدتَنا لموسى تمامَ أربعين ليلةً، ثم عِبادتكم العِجلَ من بعد أنْ فارقَكم موسى متوجِّهًا إلى الموعِد، وأنتم ظالمون بوضعِكم للعبادةِ في غير موضعها؛ لأنَّ العبادةَ لا تَنبغي إلَّا لله عزَّ وجلَّ، وأنتم قد اتخذتُمُ العِجل إلهًا، والشركُ بالله تعالى ظلمٌ عظيمٌ.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَاعَدْنَا قراءتان:

1- (وَعَدْنَا) على معنى أنَّه وعْدٌ من الله تعالى لموسى عليه السلام، وليس فيه وعدٌ مِن موسى عليه السلام.

2- (وَاعَدْنَا) على معنى أنَّ المواعدةَ من الله سبحانه لموسى عليه السلام، ومِن موسى عليه السلام لربِّه.

ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (52).

أي: تجاوزْنا عنكم بمحوِ أثر ذنبِكم بعبادة العِجل، فلم نعاقبْكم؛ لتكونوا من الشاكِرين نعمةَ الله تعالى عليكم بالعَفوِ.

وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53).

أي: واذكُروا إعطاءَنا موسى التوراةَ، التي تُفرِّق بين الحقِّ والباطل؛ لتهتدوا بها باتِّباع الحقِّ الذي فيها.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54).

أي: واذكُروا حين نادَى موسى عليه السَّلام قومَه، يؤكِّد لهم ظُلمَهم لأنفسهم باتِّخاذهم العِجلَ إلهًا يعبدونه؛ ولذا فقد وجَبتْ عليهم التوبةُ من هذا الجُرم الشنيع، في حقِّ مَن أَوجدهم من العدَم، فالذي خلقَهم هو من يستحقُّ أن يُعبَد وحده لا شريك له، ثمَّ وصَف لهم كيفيَّةَ توبةِ الله تعالى عليهم بأنْ يَقتُل بعضُهم بعضًا، فذلك خيرٌ لهم عند الله تعالى، الذي تاب عليهم؛ فهو التوَّاب الرَّحيم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (55).

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً.

أي: واذكُروا حين قلتُم لموسى عليه السَّلام، لن نصدِّقك ولن نُقرَّ بما جئتَنا به، حتى نرى الله عِيانًا، ننظُر إليه بأبصارنا.

كما قال تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ [النساء: 153].

فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ.

أي: فعاقَبَكم الله تعالى بالصَّعْقِ فمتُّم، ينظرُ بعضكم إلى بعضٍ وهم يموتون.

ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (56).

أي: ثم أحييناكم من بعد موتكم بالصاعقة التي أهلكتكم؛ لتشكروني على نعمتي عليكم بإحيائكم؛ لتحدثوا توبةً من عظيم ذنبكم.

لَمَّا ذكَر تعالى ما دفعَه عنهم من النِّقم، ذكَّرهم أيضًا بما أسبغَ عليهم من النِّعم، فقال:

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57).

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ.

أي: وارَيْنا عنكم وجْهَ السَّماء بالسَّحاب الأبيض الرَّقيق؛ لنَقِيَكم حرَّ الشَّمس في التِّيه.

وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

أي: يذكُر الله تعالى لهم أيضًا أنَّه أنزَل عليهم رِزقًا طيِّبًا سهلًا يحصُلون عليه بلا كُلفةٍ، ولا مشقَّة.

والمنُّ قيل هو كل ما امتن الله تعالى به عليهم من الطعام والشراب، مما ليس في تحصيله كلفة ولا مشقة.

وقيل: هو التُّرنجبين، وهو شيءٌ أبيضُ ينزِلُ على الشَّجر كالندى، حُلوٌ، يُشبِه العسلَ الأبيض.

والسَّلوى طائر، قيل: هو السُّمَانَى، وقيل: يُشبه السُّمَانَى.

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.

أي: قلنا لهم: كُلوا من طيِّبات ما رزقناكم، كهذا المنِّ والسَّلوى، وهما طيِّبانِ حسًّا ومعنًى؛ للذاذة طعمهما، وحِلِّيَّتهما شرعًا.

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ.

أي: أنعمْنا عليهم هذِه النِّعم، فقابَلوا نِعمَنا بالجحود، بعدم الشُّكر، وارتكاب المعاصي، وما وضَعوا فِعلهم ذلك وعِصيانهم إيَّانا موضعَ مضرَّة علينا، ومنقصة لنا، ولكنَّهم وضَعوه من أنفسِهم موضعَ مضرَّة عليها ومنقصة لها، والمعنى: أنَّ هذا الظلمَ واقعٌ على أنفسهم؛ حيثُ عرَّضوها به لسَخَطِ الله عزَّ وجلَّ وعِقابه، فضررُ فِعلهم عائدٌ إليهم، والله سبحانه وتعالى لا تضرُّه معاصي خَلْقه، ولا تنفعُه طاعاتُهم.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (58-61)

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا
حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي
قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59) وَإِذِ اسْتَسْقَى
مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ
أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا
مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا
وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ
لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61)

تفسير الآيات:

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (58).

وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا.

أي: واذكُروا حين أمَرْنَا بني إسرائيل بالدُّخول لبيت المقدِس، وأن يأكُلوا منها من أيِّ مكان فيها رِزقًا واسعًا هنيئًا.

وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ.

أي: إنَّهم أُمروا أن يَخضعوا له سبحانه بالفِعل والقول عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يضَعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم.

نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ.

أي: إذا فعلتُم يا بني إسرائيل، ما أمَرَكم الله تعالى، فسيستُرُ عليكم ذنوبَكم، ويتجاوز عنها، وسيَزيد سبحانه إيمانًا، أو حسناتٍ من فَضلِه- عاجلًا أو آجلًا- مَن أحْسَن في عبادة الله تعالى، ومَن أحسن للخَلْق بوجوه الإحسان المختلِفة.

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (59).

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ.

أي: فغيَّر الظالمون منهم القولَ الذي أُمِروا أن يقولوه بقولٍ غيرِه، فقالوا بدَلَ حِطَّة: حَبَّة في شَعرة، وإذا بدَّلوا القول مع خِفَّته، فتبديلُهم للفِعل من باب أَوْلى وأحرى؛ ولهذا دخَلوا يَزحَفون على أَدبارِهم.

فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ.

أي: أنزل الله تعالى على هؤلاء- الذين استبدلُوا بالقولِ الذي أُمِروا به قولًا غيرَه- عذابًا من السَّماء؛ بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى إلى معصيتِه.

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (60).

وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ.

أي: واذكُروا حين طلَب منَّا موسى ماءً لبني إسرائيل يَشرَبون منه.

فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا.

أي: إنَّ الله تعالى قد استجاب لطلبِ موسى عليه السَّلام، فأمَره بأن يضرِبَ عصاه بحجرٍ، ففعَل ذلك، فخَرجتْ من الحَجر اثنتَا عَشرةَ عينًا من المياه العَذْبة؛ تيسيرًا لهم، وإنعامًا من اللهِ تعالى عليهم.

قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ.

أي: إنَّ كلَّ قبيلةٍ من قبائل بني إسرائيل الاثنتي عَشرة، قد عرَفَتْ محلَّها الذي تَشرَبُ منه من هذه الأعين الخارجة من الحَجر، فلا يُزاحم بعضُهم بعضًا، بل يَشربونه متهنِّئين.

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ.

أي: كُلُوا واشْربوا من هذا الرِّزقِ الإلهيّ، الذي آتاكم مِن غيرِ كدٍّ ولا تعب. وهذا أمْرَ إباحةٍ وإرشادٍ لهم مِن الله تعالى.

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

أي: لا تَسْعَوْا في الأرضِ بالفَسادِ.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61).

وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ.

أي: واذكُروا يا معشرَ بني إسرائيل حين أخبرتُم موسى عليه السَّلام بضجرِكم وكراهيتِكم للمَنِّ والسَّلوى، وأنْ لا طاقةَ لكم بحَبْس أنفسِكم على تناوُل هذا الطَّعام الذي رزَقَكم الله تعالى رِزقًا هنيئًا سهلًا بلا عناءٍ.

فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا.

أي: ادعُ لأجْلِنا يا موسى، ربَّك؛ كي يُخرِجَ لنا بعض ما تنبته الأرضُ من البَقل والقِثَّاء والفُوم، ومن العَدَس والبَصَل.

قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استنكر عليهم ووبَّخهم بسؤالِهم له طلبَ تلك الأطعمة الدَّنيئة من البقول وغيرها، مع ما لديهم من الطعام الهَنيء، مستبدلين الوضيعَ من العيش بالرَّفيع منه! فقال لهم موسى: أتأخُذون الذي هو أخسُّ قِيمةً وقدرًا من العيش، بدلًا بالذي هو خيرٌ منه قيمةً وقدرًا؟!

اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ.

أي: هذه الأطعمةُ التي طلبتُم ليستْ بأمرٍ عزيز، بل هي كثيرةٌ؛ ففي أيِّ بلد دخلتموه ستجدون هذا العيشَ الذي تطلُبون.

لَمَّا كان الذي جرَى منهم أكبرَ دليل على قِلَّة صبرهم، واحتقارهم لأوامرِ الله ونِعمه، جُوزُوا من جنس عملهم، فقال تعالى:

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ.

أي: أصبح الهوانُ والصَّغار مفروضًا عليهم، وأصبح أثرُ مسكنة الفقر والحاجة والحِرص -من المهانة والخضوع على قلوبِهم، أو ظواهر أبدانهم- لازمًا لهم، كما أنَّه قد حلَّ عليهم غضبٌ من الله تعالى، ورجَعوا متحمِّلين سخطَ الله تعالى عليهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ.

أي: هذا الذي جازيناهم من الذِّلَّة والمسكَنة، واستحقاقهم غضبَ الله عزَّ وجلَّ؛ بسبب جحودِهم آياتِ الله تعالى الكونيَّةَ والشرعيَّة، فاستكبروا عن اتِّباع الحقِّ، واعتدَوْا على أنبياء الله تعالى بالقَتْل بلا وجه حقٍّ يخوِّل تلك الأفعالَ الشَّنيعة.

ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.

أي: ذلك الجزاء الذي جُوزوا به، مِن ضَرْب الذِّلة والمسكنة، وإحلال الغضبِ عليهم، أو ذلِك الكفر بآيات الله عزَّ وجلَّ، والقتْل لأنبيائه، إنَّما سببُه هو عصيانُهم لله تعالى، أي: خروجهم عن طاعته؛ إمَّا بارتكاب المحظور، وإمَّا بترْك المأمور، ومِن أسباب ذلك أيضًا استمرارُهم على تجاوُز حدود الله تعالى.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (62-66)



إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ **(62)**

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ **(63)**

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ **(64)**

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ **(65)**

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ **(66)**



تفسير الآيات:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)﴾.

أي: إنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر قبائح بني إسرائيل وذمَّهم، بيَّن طائفةً لم يَلحقْها هذا الذمُّ، ولَمَّا كان ذِكرُ بني إسرائيل خاصَّةً يُوهِم اختصاصهم بهذا الفضل، ذكَر سبحانه حُكمًا عامًّا يشمل عددًا من أتباع الشَّرائع الأخرى.

وعنَى بالذين آمنوا: أُمَّة محمَّد - ﷺ -؛ لأنَّهم هم الذين يستحقُّون الوصفَ بالإيمان المطلَق؛ حيث آمنوا بجميع الكتُب، والرُّسل؛ ولكثرة إيمانهم، وشِدَّة إيقانهم. واليهود هم أتباعُ موسى عليه السَّلام قَبل نَسْخ دِينهم، وقبل تحريفه،

والنصارى أتباعُ عيسى عليه السَّلام قَبل نسْخ دِينهم، وقبل تحريفه، وأمَّا الصابئون فهم فِرق؛ منها: الصَّابئة الحُنفاء، الذين بَقُوا على فِطرتهم بتوحيد الله عزَّ وجلَّ، وتحريم الظُّلم والفواحِش، وغير ذلك، من غير تقيُّد بمِلَّة ولا نِحلة، ودون أن يُحدِثوا كُفرًا.

فمَن أحسن مِن هذه الأُمم السالِفة، وأطاع، فإنَّ لهم الثوابَ من عند الله عزَّ وجلَّ، ولهم السَّعادة الأبديَّة، فلا خوفَ عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يُخلِّفونه.

وهذا الحُكم بين هذه الطَّوائف من حيثُ هم؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عنهم قَبل بعثةِ محمَّد - ﷺ -، فأمَّا بعدَ بعثةِ النبيِّ - ﷺ -، فلا يُعدُّ مؤمنًا، ولا ينال هذا الأجر مَن لم يؤمنْ برسالة محمَّد - ﷺ - ، ولم يعملْ بمقتضاها.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (63).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ.

أي: واذكُروا حِين أخْذنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان به وبرُسله، والالتزام بشَرْعه، ورفَعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تُقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتَعمَلوا به.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

أي: قُلنا لهم: تلقَّوُا التوراةَ التي أعطيناكم إيَّاها، بهمَّةٍ وحَزمٍ، وجدٍّ ونشاط، واذكُروا ما فيها بأنْ تتلوها، وتتعلَّموا ما فيها، وتتدبَّروها، وتعمَلوا بمقتضاها، من أجل أن تكونوا من المتَّقين.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (64).

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ.

أي: بعد هذا المِيثاق المؤكَّد أعرضتُم عنه، ونقضتموه بترْك العمل به.

فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

أي: لولا أنْ أكرمكم الله تعالى، فتداركَكم بالتوبةِ وإرسالِ الرُّسل، وآخِرهم محمَّد - ﷺ -، لكُنتم من الهالِكين في الدُّنيا والآخِرة.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (65).

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ.

أي: قد عرفتُم يا معشرَ اليهود، ما حلَّ بمَن جاوزوا منكم ما أُمِروا به مِن ترْك صيدِ البحر يومَ السَّبت، فاحتالوا على هذا الأمر، مُتعدِّين حدود الله عزَّ وجلَّ.

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ.

أي: لَمَّا فَعلوا ذلك، مَسخَهم اللهُ تعالى، فصيَّرهم بقُدرته سبحانه في صورة القِرَدة، حَقيرينَ ذَليلِين.

فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (66).

أي: جعَلْنا هذه العقوبةَ رادعًا لِمَن حول أولئك الممسوخين قِردةً، وتذكرةً نافعةً للمتَّقين؛ لينزجِروا بها ويَعتبِروا.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (67-74)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69)

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (70)

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71)

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72)

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73)

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)



تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (67)

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً.

أي: واذكروا يا بني إسرائيل، حين أخبرَ موسى عليه السَّلام آباءَكم بأمْر الله تعالى لهم بذَبْح بقرة؛ كي يضربوا القتيل بجزء منها، فيَحيا القتيل، ويُخبرهم بقاتله، ولم يُحدِّد الله تعالى لهم بقرةً معيَّنة ولم يخبرهم بأوصاف محدَّدة، بل أي بقَرة ذبَحوها، فإنَّها تُفيد في تحقيق المطلوب.

قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا.

أي: إنَّهم استنكروا على موسى عليه السَّلام أمْره بذَبح بقرة، ورأوا أنَّ جوابه غيرُ محقِّقٍ لمقصودهم، فظنوا بموسى عليه السَّلام أنَّه هازئٌ وساخرٌ بهم في ذلك.

قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ.

أي: إنَّ موسى عليه السَّلام استعاذَ بربِّه عزَّ وجلَّ من أن يكونَ في عِداد السُّفهاء، الذين يَستهزِئون بالنَّاس.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (68).

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ.

أي: يُخبِر سبحانه عن تعنُّت بني إسرائيل، وكثرةِ سؤالهم لموسى عليه السَّلام، وأنَّهم لَمَّا ضيَّقوا على أنفسهم ضُيِّق عليهم، ولو أنَّهم ذبَحوا أيَّ بقرة لكفتْهم، لكنَّهم شدَّدوا، فشُدِّد عليهم، فقالوا: ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ، أي: اسأل لنا ربَّك ما هذه البقرة؟ صفْها لنا؛ لنعرفَها.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إن الله تعالى يقول: إنَّ البقرة التي سألتُم عنها ليستْ في سِنِّها بالكبيرة الهَرِمة، وليست بالصَّغيرة التي لم يَنكِحْها الفحلُ فتلِد، بل هي متوسِّطة في السِّنِّ بين الكبيرة جدًّا، والصغيرة جدًّا. أمَا وقد أتاكم العلمُ، فاذبحوا البقرةَ التي أُمرتم بذَبْحها؛ لتصِلوا إلى قاتل قتيلكم.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (69).

أي: طلَب بنو إسرائيل من موسى عليه السَّلام أن يَسألَ ربَّه عن لون البَقرة المطلوب ذبْحها، فجاءَهم الجوابُ بأنَّها بقرةٌ صفراءُ صافية، شديدةُ الصُّفرة، وتُدخِل السُّرورَ على مَن نظَر إليها؛ لشِدَّة حُسنها وجمال منظرها.

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (70).

أي: طلَبوا من موسى عليه السَّلام- من تعنُّتهم- طلبًا ثالثًا بسؤال ربِّه؛ كي يبيِّن لهم المزيدَ من صفات البقرة المطلوبِ ذبحُها، مُتذرِّعين في طلبهم هذا بحُجَّة الْتِباس البقرة المطلوبة من بين غيرها من البَقر، فلم يَهتدوا- بزَعْمِهم- إلى ما يُريدون، وأخَذوا على أنفسهم أنَّهم سيهتدون؛ ولكنَّهم علَّقوا ذلك بمشيئة الله تعالى.

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71).

قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا.

أي: قال لهم موسى عليه السَّلام: إنَّ الله تعالى يقول: إنَّ البَقرة التي أمرتكم بذَبْحها ليستْ مُذلَّلة بالعمَل، فليست بالتي أُعِدَّت لتقليبِ الأرض للحَرْث، أو سَقي الزَّرع، كما أنَّها سليمةٌ من كلِّ عيب، ولا يخالط لونَ جلدها الأصفر الفاقِع أيُّ لون آخَر.

قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ.

أي: قالوا قد اتَّضح للتوِّ الحقُّ في أمْر البقرة، وجئتَ لنا يا موسى بصِفاتها التي تُميِّزها عن غيرِها، فنستطيع معرفتَها، فوجدوها وذبَحوها، وقد أوشكوا على ترك ذبْحها.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72).

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا

أي: واذكُروا يا بني إسرائيل، حين قتلتم نفسًا، فتنازعتُم واختلفتم فيها، كلٌّ يَدفَع قتْلَها عن نفْسه.

وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى مُظهِرٌ هذا القاتل؛ ليُعلَمَ.

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73).

فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا.

أي: أمَرَهم الله جلَّ ثناؤه أن يضربوا القتيلَ ببعض البقرة؛ ليحيا المضروب، فضَربوه، فحيِيَ بإذن الله عزَّ وجلَّ، وأخبرهم بقاتله.

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى.

أي: كما أحيا اللهُ تعالى هذا القتيلَ في الدُّنيا، فكذلك يُحيي الموتى بعد مَماتِهم، فيبعثهم يومَ القِيامة.

وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

أي: يُظهر اللهُ تعالى لكم العلاماتِ الواضحةَ على كمال قُدرته في إحيائه الموتى، وبَعثِهم بعد موتهم؛ كي تنزجِروا عمَّا يضرُّكم، وتمتنعوا عن عِصيانه جلَّ وعلا.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74).

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْأَشَدُّ قَسْوَةً.

أي: جَفَت قلوبُكم وغلُظت، ولم يكن ينبغي أن تكون كذلك من بَعدِ الأمرِ الذي عاينتموه، وهو إحياءُ القتيل، الذي هو سببٌ عظيمٌ لِلِين القلوبِ ورِقَّتِها، وانقيادِها للحقّ؛ فقلوبكم في غِلظتها وشدَّتها كالحجارة، أو أشدُّ صلابةً من الحجارة.

وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ.

أي: إنَّ الحجارةَ مع قسوتها أفضلُ من قلوبِ أولئك القومِ التي لا تَلين ولا تخشع؛ ذلك بأنَّ هناك أنواعًا من الحجارة تَسيل منها أنهارٌ من المياه، ومنها أنواعٌ تلين وتتصدَّع فيَخرُج منها الماء، ومنها ما يَتردَّى من علوٍّ إلى سُفول؛ من خَشيةِ الله تبارك وتعالى.

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله سبحانه غيرُ غافلٍ عن أفعالهم الخبيثة، ولا ساهٍ عنها، بل هو حافظٌ لها، وسيُجازيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (75-82)

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76)

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77)

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79)

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ **(80)**

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(81)**

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(82)**



تفسير الآيات:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75).

لَمَّا بيَّن سبحانه أنَّ قلوب اليهود صارت من كثرة المعاصي وتوالي التجرُّؤ على بارئِها محجوبةً بالرَّيْن، كثيفةَ الطَّبع، بحيث إنَّها أشدُّ قسوةً من الحجارة، وتسبَّب ذلك في بُعدهم عن الإيمان– لَمَّا بيَّن سبحانه ذلِك أَيْئَسَ عبادَه المؤمنين من استجابة اليهود إلى الدِّين الحقِّ، فقال:

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ.

أي: أتُعلِّقون الطمعَ بما لا مطمعَ فيه، فترجون أن يؤمنوا لكم؟! أي: يُصدِّقون ويُقرُّون بقلوبهم وألسنتهم وجوارحِهم؛ لأجْل دعوتكم وطلبِكم منهم الإيمانَ؟!

وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ.

أي: والحال أنَّ جماعةً منهم كانوا يَسمعون كلام الله يُتلَى في كتابه التوراة.

ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ.

أي: إنَّهم من بعد سماعِهم لكلام الله عزَّ وجلَّ، ومن بعد أن أدْركوه بعقولهم ففهِموه جيِّدًا، يقومون بتبديله، وتغييره، وصرْف معانيه إلى معانٍ أُخرى على غيرِ مُرادِ الله تعالى!

وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: والحال أنَّهم يعلمون أنَّهم حرَّفوه مُبطِلين، ومفترين على الله تعالى الكذبَ!

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76).

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا.

أي: وإذا قابَل منافقو اليهود، المؤمنين -وهم النبيُّ - ﷺ - وأصحابُه- أظْهَروا لهم الإيمان بألسنتهم، بما ليس في قلوبِهم.

وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ.

أي: حين ينصرِفُ هؤلاء المنافقون من اليهود، خالين بأصحابِهم في موضعٍ ليس فيه أحدٌ سواهم.

قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ.

أي: قال أصحابُهم اليهود الذين لم ينافقوا، مُنكِرين على مَن نافق منهم: أتُخبِرون النبيَّ - ﷺ - وأصحابَه، بما أعْلَمَنا الله تعالى به في التوراة وحكم به علينا؟! (وذلك كالإخبار بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام هو النبيُّ المنتظَر الذي تَنطبِق عليه الصِّفاتُ المذكورة لدَيْهم، والذي وجب علَيْهم الإيمان به، وكقضائه وحكمه على أسلافهم بما وقع عليهم من العذاب).

لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ.

أي: فيكون ذلك الإقرارُ حُجَّةً لهؤلاء المؤمنين علينا عند الله تعالى يوم القيامة، أنَّنا عَرَفْنا الحقَّ وتركْنا العمل به؟!

كما قال تعالى: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ [الزمر: 31].

أَفَلَا تَعْقِلُونَ.

أي: أليس لكم إدراكٌ بعقولكم؛ فتفهموا أنَّه لا ينبغي لكم إخبارُ أصحاب النبيِّ - ﷺ - بأنَّه النبيُّ المنتظَر، فيكون ذلك حُجَّةً لهم عليكم عند الله تعالى يوم القِيامة؟!

أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (77).

أي: أيقولون مِثل هذا ولا يعلمون أنَّ إسرارَهم وإعلانهم عند الله جلَّ وعلا سواءٌ؛ فالسِّرُّ عنده علانية؟! فالله تعالى يعلم ما يُسرُّه اليهود من الكفر والتكذيب، وما يُخفونه من التلاوم بينهم على إظهارِهم ما أظهروا للمؤمنين من الإقرار، كما يَعلم ما يُعلنونه للمؤمنين بقولهم لهم: آمنَّا.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78).

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ.

أي: إنَّ من اليهود مَن لا يحسن القراءة والكتابة، وليسوا على عِلمٍ بالتوراة، وإنَّما لديهم مجرَّد أحاديث وأمنيات باطلة اختلقوها من تِلقاء أنفسهم، كقولهم: لن يدخُل الجنة إلَّا من كان هودًا أو نصارى، وكقولهم أيضًا: لن تمسَّنا النار إلا أيَّامًا معدودات، إلى غير ذلك من تخرُّصاتهم.

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ.

أي: نفَى عنهم العِلمَ، وبيَّن أنَّهم ليس معهم إلَّا مجرَّد ظنون.

كما قال تعالى: مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ [النساء: 157].

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (79).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ.

أي: هلاكٌ عظيم، وعذابٌ هائِل سيحُلُّ بدُعاة الضَّلال من اليهود، الذين يُحرِّفون التوراة، فيخطُّون بأيديهم أشياءَ باطلةً مُختلَقة، ثم يدَّعون زُورًا وبهتانًا أنَّها حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى.

لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: إنَّهم إنَّما قاموا بذلك الافتراء والتزوير؛ لأجل غايةٍ خسيسة، وهي الحصولُ على مكاسبَ دُنيويَّة.

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ.

أي: لهم عذابٌ شديد، وهلاكٌ عظيم؛ جزَّاءَ ما كتبتْه أيديهم من الكذب والافتراء على الله عزَّ وجلَّ، ولهم العذابُ والهلاك أيضًا؛ جزاءً على أخْذهم الحرامَ عوضًا على ما عملتْه أيديهم من التَّزوير والتحريف.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (80).

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى تحريفَهم التوراةَ، بيَّن سبَب جُرأتهم وعدم اكتراثهم بما يرتكبونه من جرائمَ، وأنَّهم مع ذلك يزكُّون أنفسهم فجمَعوا بين الإساءة والأمْن، قال تعالى:

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً.

أي: إنهم قالوا: لن تلاقي أجسادنا نار الآخِرة، إلَّا أيامًا قليلةً، ثم ننجُوا منها.

قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ.

أي: قُلْ يا محمَّد، لأولئك اليهود الذين ادَّعوا لأنفسهم ما ادَّعوا: هل عندكم مِن الله تعالى ميثاقٌ يُثبت صحَّةَ دعواكم؛ فإنْ كان قد وقَع عهد، فلكم العُذر فيما قلتم؛ فإنَّ الله تعالى لا ينقُض ميثاقه، ولا يُخلِف وعده؟

أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: أوْ هلْ تتقوَّلون على الله تعالى الباطِل، وتَختلِقون الكذبَ جَراءةً عليه سبحانه؟

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (81).

لَمَّا قال اليهود: لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً، كذَّبهم الله تعالى وأخبَرهم بالحُكم الذي لا حُكمَ غيره، لا أمانيهم ودعاويهم الباطِلة، فقال:

بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً.

أي: ليس الأمر كما تمنَّيتُم يا معشرَ اليهود، ولكن من أشرك بالله تعالى.

كما قال تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: 123].

وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ.

أي: أحدقت ذنوبُه وخطاياه بقَلبِه من كلِّ جانب، فليس له منفذٌ للخروج منها، ومات عليها قَبلَ التوبة منها.

فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّهم ملازِمون للنار على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (82).

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ.

أي: الذين صَدَّقوا وأقرُّوا بألسنتهم وقلوبهم، وصدَّقوا ذلك بجوارحهم، فعمِلوا الأعمالَ الصالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى، ومتابعةٍ للرسول - ﷺ -.

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: هؤلاء هم أهلُ الجنة المقيمون فيها على الدَّوام، لا يخرجون منها أبدًا.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (83-86)

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (86)

تفسير الآيات:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أخَذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بعبادة الله وحْدَه لا شريكَ له.

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ.

أي: وممَّا أُخِذ على بني إسرائيل من العهود المؤكَّدة أن يُحسنوا إلى الوالدين، وهذا يشمل كلَّ أنواع الإحسان القوليَّة والفعليَّة، وممَّا أُخِذ عليهم أيضًا: العهد بالإحسان- بجميع طرقه- إلى أنواع القَرابات كافَّةً، وإلى اليتامى- واليتيم هو مَن فقَدَ أباه قبلَ البلوغ، ذكَرًا كان أم أُنثى- وإلى المساكين، وهم الفقراء.

كما قال تعالى: وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ... الآية [النساء: 36].

وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا.

أي: ومما أمر الله تعالى به اليهود أن يحسنوا بالقول إلى النَّاس عمومًا، فيكلموهم بكلام طيب لين، يدخل فيه الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعفو والصفح، وغير ذلك.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.

أي: ومَّا أُمِر به اليهودُ أيضًا: إقامةُ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة، أي: ائتوا بالصَّلاة تامَّةً بحقوقها الواجبة عليكم فيها، وأعطوا الزكاةَ مستحقِّيها بما فرَض الله تعالى عليكم في أموالِكم.

ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ.

أي: خاطَب اللهُ تعالى اليهودَ الحاضرين في زمن النبيِّ - ﷺ - بأنَّهم هم وآباؤهم قد ترَكوا ما أخذ الله تعالى عليهم من المواثيق التي ذُكرت في الآية، ترَكوها وراءَ ظهورهم، فنقضوها وأعْرَضوا عنها عن عمْد بعد العِلم بها، إعراضًا لا رجعةَ فيه إليها، عدا عددٍ قليل منهم قد عصمَهم الله تعالى ووفَّقهم، فوفوا بتلك العهود.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (84).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ.

أي: واذكروا حين أخَذْنا عليكم وعلى آبائكم من قبل، ألَّا يقتل بعضُكم بعضًا، ولا يُخرِج بعضُكم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ.

ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ.

أي: بعد أخْذ هذا الميثاق عليكم، بقيتُم عليه، وقد أقررتُم بمعرفته وصحَّته، وشهدتُم عليه، فهو لديكم باقٍ، لم يغبْ عنكم، ولم تُنكِروه.

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85).

ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ.

أي: إنَّهم من بعد ذلك الميثاقِ، والإقرارِ به، والشهادة عليه، نقَضوا الميثاقَ الذي أُخذ عليهم؛ إذ وقعوا في المخالفة بقَتْل بعضهم بعضًا، وإخراج بعضهم بعضًا من دِيارهم بغير حقٍّ.

تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ.

أي: تتعاونون على أهلِ ملَّتكم بمعصية الله تعالى، وتجاوز حدودِه.

وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ.

أي: إنَّه بعد أَسْر بعض اليهود من كِلا الفريقَيْنِ المتحاربيْنِ يقوم الذين قاتلوهم من أهل مِلَّتهم، بتخليصهم من الأَسر، بعِوض أو بمبادلةٍ بين أسارى الفريقينِ؛ امتثالًا لما أُمِروا به في كتابِهم من افتداءِ الأَسرى منهم، مع أنَّه قد حُرِّم عليهم في كِتابِهم أيضًا إخراجُهم من دِيارهم، ولم يجتنبوا هذا النهيَ!

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: (تفادوهم) قِراءتان:

1- (تُفَادُوهُمْ) على معنى أنَّ المفاداة من اثنين؛ لأنَّ الفداء: أن تأخذ ما عنده، وتُعطي ما عندك، فتَفعل به كما يُفعل بك.

2- (تَفْدُوهُمْ) أي: تشتروهم من العدوّ وتُنقِذوهم.

أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ.

أي: أنْكَر الله تعالى عليهم ذلك؛ إذ كيف يمتثِلون شيئًا ممَّا أُمروا به في التوراة، وهو فِداء أسراهم من أيدي العدوِّ، بينما يتركون أشياءَ أخرى من نفْس التوراة، وهي ارتكابُ ما نُهوا عنه من قتْل، وإخراج بعضهم بعضًا، ومظاهرة بعضهم العدوَّ على بعض؟!

فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: ليس لِمَن وقَع في ذلك الانحراف الشَّنيع منكم معشرَ اليهود، سوى الذلِّ؛ عقابًا عاجلًا في الدنيا. وممَّا وقَع لهم من ذلك: تسليطُ رسولِ الله – ﷺ – عليهم، فقَتَل منهم مَن قتَل، وسبَى مَن سبَى، وأجْلَى البقيةَ من دِيارهم.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ.

أي: ويوم تقوم السَّاعة، فيقوم النَّاسُ لربِّ العالمين، يُرَدُّ هؤلاء الذي فعَلوا ذلك منكم– أيُّها اليهود– أي: يرجعون من ذلِّ الدنيا إلى أعظم ما يكون من العُقوبات الأخرويَّة التي أعدَّها الله تعالى لأعدائه.

وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: يُهدِّدهم الله تعالى ويتوعَّدهم؛ فلكمالِ عِلمه ومراقبتِه لا يَخفى عليه شيءٌ، ولا يَنسى شيئًا سبحانه وتعالى، بل هو حافظٌ عليهم أعمالَهم، ومحصيها لهم؛ ليجازيَهم بها.

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ

.(86)

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ.

أي: إنَّهم قد استبدلوا نَعيمَ الدُّنيا الفاني بنَعيمِ الآخِرة الباقي،

وذلك ببذلهم الكفرَ بالله تعالى وترْك شرائعه، ثمنًا للاستحواذِ على ما يبتغون من حُطام الدُّنيا.

فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أي: لأجْل إيثارهم الدُّنيا على الآخِرة، لن يُخفَّف عنهم من عذاب يوم القيامة شيءٌ، لا زَمنًا ولا شدَّةً.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ [غافر: 49-50].

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: لا يَستنقِذهم أحدٌ من عذاب الله تعالى.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (87-90)

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87)

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89)

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90)

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87).

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ.

أي: أعطى الله تعالى موسى عليه السَّلام التوراة، ومِن بعدِه أرسل أنبياءَ إلى بني إسرائيل، فأتْبع بعضهم بعضًا على منهاج موسى وشريعتِه، بإقامة التوراة، والعملِ بما فيها إلى زمَن عيسى عليه السَّلام.

كما قال تعالى: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ الآية [المائدة: 44].

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ.

أي: أخبر تعالى أنَّه أعطَى خاتمةَ أنبياء بني إسرائيل، عيسى عليه السَّلام، معجزاتٍ تُظهر صِدقَه، وتُثبت نبوَّتَه، كإحياء الموتى، وإبراء المَرضَى، وغير ذلك.

وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

أي: أيَّد الله تعالى عيسى عليه السَّلام بجبريل عليه السَّلام، يُقوِّيه ويُعينه.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ [المائدة: 110].

أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ.

أي: يُنكِر اللهُ تعالى على بني إسرائيل تعامُلَهم الشَّنيع مع رُسله وأنبيائِه عليهم السَّلام، وأنَّهم كلَّما جاءَ نبيٌّ منهم؛ ليلزمَهم بأحكام تُخالِف أهواءهم، شقَّ ذلك عليهم، فتجبَّروا وبغوا عليهم، مقدِّمين هواهم على هُداهم، فكذَّبوا طائفةً منهم، وقتَلوا طائفةً آخرين.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88).

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ.

أي: إنَّهم يقولون كذبًا بأنَّ الله لم يَفتحْ لهم الطريق إلى معرفة ما جاءت به الرُّسُل والأنبياءُ عليهم السَّلام، بجعْل قلوبِهم داخلةً في غِلاف وأَغطيةٍ فلا تَفهم؛ فكيف تقوم عليهم الحُجَّة؟!

كما قال تعالى عن المشركين: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ [فصلت: 5].

بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ.

أي: ليس الأمرُ كما ادَّعى هؤلاء كذبًا بأنَّ الله تعالى خلَق قلوبَهم غلفًا لا تَعي، ثم أمرهم بالإيمان، وهم لا يفقهونه، كلَّا! بل حقيقة الأمر أنَّ الله تعالى قد طردَهم من رحمته؛ جزاءَ ما اختاروه لأنفسهم من الجحود بآيات الله تعالى وما جاءتْ به رُسلُه وأنبياؤه.

فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ مما وجب عليهم الإيمان به، لكنه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنه مغمورٌ بما كفروا به.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (89).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ.

أي: لَمَّا جاء اليهودَ القرآنُ الذي أَنزله الله تعالى على محمَّدٍ - ﷺ -، والمشتمِل على تصديق ما معهم من التوراة.

وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا.

أي: قد كانوا من قَبلِ مجيء الرَّسول - ﷺ - بالقرآن يستنصرون بمجيئِه على أعدائهم من المشركين إذا قاتَلوهم، ويتوعَّدونهم بقتْلهم معه.

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ.

أي: لَمَّا أتاهم ما يعرفونه من الحقِّ وصِفةِ محمَّد - ﷺ -، تعمَّدوا الجَحدَ به عليه الصَّلاة والسَّلام بعد قِيام الحُجَّة بنبوَّته عليهم.

فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ.

أي: بسبب ذلك الكُفر؛ طرَدَهم الله تعالى وأبْعَدهم من رحمتِه، وهذا الحكم يعمُّ كلَّ كافر.

سبب النُّزول:

عن عاصم بن عمر بن قتادة عن أشياخٍ منهم قالوا: (فينا والله وفيهم - أي: الأنصار واليهود- نزلت هذه القصة قالوا: كنا علوناهم دهرًا في الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب، فكانوا يقولون: إن نبيًّا يُبعث الآن نتبعه، قد أظل زمانه، نقتلكم معه قتْلَ عاد وإرم. فلمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ رسوله من قريش واتبعناه كفروا به، قال الله عزَّ وجلَّ: فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) الآية.[17]

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90).

بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ.

(17) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (1/539)، وحسَّنه الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (26).

أي: بئس الشيءُ باعوا به أنفسَهم الكفرُ، يعني: أنَّهم اختاروا الكفرَ وأخذوه، وبذلوا أنفسهم للنَّار؛ لأنَّ اليهود علِموا صِدقَ محمَّد - ﷺ -، وأنَّ مَن كذَّبه فالنار عاقبتُه، فاختاروا الكُفر وسلَّموا أنفسهم للنار.

بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.

أي: إنَّ الذي حمَلهم على اختيار الكفر، حسدُهم لمن شاء الله تعالى أن يَخصَّه بفضله العظيم مِن دون عبادِه، فحسَدوا محمَّدًا - ﷺ - على أنَّه هو الرسولُ المنتظَر؛ لأنَّه كان من ولد إسماعيل، ولم يكُن من بني إسرائيل.

فَبَاؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ.

أي: رجَع اليهودُ مستوجبين ومستصحبين غضبًا آخَرَ من الله تعالى عليهم؛ بسبب جحودِهم رسالةَ النبيِّ - ﷺ - حسدًا منهم، إضافةً إلى الغضب الأوَّل الذي اكتسبوه لذنوبٍ سلَفتْ منهم.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ.

أي: وللجاحدين نبوَّةَ محمَّدٍ - ﷺ - من الناس كلِّهم عذابٌ من الله يُهانون فيه ويُذلُّون.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (91-93)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ **(91)**
وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ **(92)**
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
(93)

تفسير الآيات:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (91)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا.

أي: وإذا قيل لليهود الذين كانوا على عهد رسولِ الله - ﷺ -: آمِنوا بالقرآن الذي أَنزلَه اللهُ تعالى، ردُّوا على ذلك بأنَّه يَكفيهم الإيمانُ بالتوراة.

وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ.

أي: إنَّ اليهود يَجحدون بما بعد التَّوراة من كتُب الله تعالى التي أنزلها إلى رُسلِه عليهم الصَّلاة والسَّلام، والحال أنَّ ما أنزله الله عزَّ وجلَّ هو الحقُّ الموافِق لِمَا عندهم من التوراة؛ فَلِمَ يؤمنون بما أُنزل عليهم، ويَكفُرون بنظيره؟! هل هذا إلَّا تعصُّب واتِّباع للهوى؟! فكُفرهم بالقرآن، كُفرٌ بما في أيديهم، ونقضٌ له.

قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود المتناقضين: إنْ كنتم صادقين في دَعواكم الإيمانَ بالتوراة، فَلِمَ قَتلتُم- والمقصود أسلافُهم - الأنبياءَ الذين جاؤوكم بتصديق التوراة والحُكم بها وعدَم نَسخِها، وأنتم

تعلمون صِدقَهم، وقد حرَّم الله عليكم في التوراة قتْلَهم، بل أمرَكم فيها باتِّباعهم وطاعتهم؟! وهذا تكذيبٌ لهم في قولهم: نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا.

لَمَّا بيَّن الله تعالى كذِبَ اليهود في دعواهم الاكتفاء بالإيمان بالتوراة، مع كُفرهم بالقرآن، ذكر أنَّهم لم يَصْدُقوا حتى في دعواهم الإيمانَ بالتوراة؛ فقد قابَلوا دعوة موسى عليه السَّلام- الذي يزعمون أنَّهم لا يؤمنون إلَّا بما جاءهم به- قابلوا دعوتَه بالكُفر والعِصيان، فقال سبحانه:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (92).

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ.

أي: قد جاءكم يا معشرَ اليهود، موسى عليه السَّلام، بالآيات الواضحاتِ، والأدلَّة القاطعة على صِدقه وصِحَّة رِسالته، كالعصا واليَد، وغيرهما من المُعجِزات المؤيِّدة له.

ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ.

أي: إنَّكم يا مَعشرَ يهود، كفرتُم بما جاءكم به موسى عليه السَّلام من توحيدِ الله تعالى، فجعلتُم العِجل إلهًا تَعبُدونه، من بعد ذَهاب موسى إلى الطُّور لمناجاة ربِّه سبحانه، وأنتم بهذا قد تَعدَّيتم حدودَ الله عزَّ وجلَّ، وليس لكم أن تفعلوا ذلِك وأنتم تعلمون أنَّه لا معبودَ بحقٍّ سواه، وليس في التوراة- التي تَدَّعون تمسُّككم بها فحسبُ- أمرُكم بعبادة العِجل؛ فدعواكم أنَّكم مؤمنون بالتوراة، باطلةٌ.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (93).

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ.

أي: واذكُروا يا معشر اليهود، حين أَخذْنا عليكم عهدًا مؤكَّدًا بالإيمان بالله سبحانه وبرُسله، والالتزام بشرعِه، ورَفعْنا فوقكم الجبلَ لتخويفكم؛ كي تقرُّوا بما عُوهِدتم عليه، وتعملوا به.

خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا.

أي: قلنا لهم تلقَّوُا التوراة التي أعطيناكم إيَّاها، بِهِمَّةٍ وحزمٍ، وجِدٍّ ونشاط، واسمعوا لكلام الله تعالى سماعَ قَبول واستجابة وانقياد.

قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا.

أي: كان جوابهم على ما سبق أنْ قالوا: سمِعْنا بآذاننا قولَك، وعصينا بأفعالِنا ما أُمِرْنا به.

وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ.

أي: خالَط حبُّ العِجل وعبادته شغافَ قلوبِهم، وتغلغل في أعماقها، كالماء الذي يَتغلغل في باطِن أعضاء الجسَد، وإنَّما وقع لهم ذلك؛ بسبب جُحودِهم الحقَّ.

قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: أنتم تدَّعون الإيمانَ، مع أنَّكم قتلتُم أنبياءَ الله، واتَّخذتم العِجل إلهًا من دون الله، ولم تَنقادوا لكلامِه؛ فما هذا الإيمان الذي تدَّعون؟!

فإنْ كان هذا إيمانًا بزعمكم، فبِئس الإيمانُ الداعي صاحبَه إلى الطُّغيان، والكفرِ برُسل الله، وكثرةِ العصيان! فإنَّ الإيمان الصَّحيح يأمُر صاحبَه بكلِّ خير، وينهاه عن كلِّ شر؛ فتبيَّن بهذا كذبُهم، وتناقضُهم.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (94-96)



قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94)

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95)

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96)



تفسير الآيات:

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (94).

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود: إنْ كان نعيم الآخرة مقصورًا عليكم وحدكم دون بقيَّة الناس- كما تزعمون- فهناك طريقةٌ تُظهِر الحقَّ في دعاويه من الكاذب المبطِل،

وهي المباهلةُ، بأنْ تَدْعُوا بالموتِ على أيِّ الفريقينِ أكذبُ، وسيتبيَّن الأمر.

وقد أَرشد الله تعالى رسولَه عليه الصَّلاة والسَّلام، إلى مباهلة وفْد نجران من النَّصارى بعد قِيام الحُجَّة عليهم في المناظرة، وعُتوِّهم وعِنادهم، فقال عزَّ وجلَّ: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ [آل عمران: 61].

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95).

وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ.

أخبَرَ تعالى عن عِلمه بعَجز اليهود عن تمنِّي ذلك مطلقًا؛ بسبب ما اكتسبوه من كُفرٍ ومعاصٍ، ومن ذلك تكذيبهم النبيَّ عليه الصَّلاة والسَّلام، وكتمانهم صفتَه الموجودة في توراتهم، فهم يعلمون أنَّ الموت طريقٌ إلى مجازاتهم على ما اكتَسبوه؛ ولذا فهم يكرهونه.

وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.

أي: توعَّد اللهُ تعالى اليهود وهدَّدهم- ويدخل في هذا كلُّ ظالمٍ سواهم- بأنَّه سبحانه ذو عِلم بالظالمين، ليس بغافل عنهم ولا ساهٍ، بل هو حافظٌ لأعمالهم، وسيجازيهم على ظُلمهم.

كما قال تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ [الجمعة: 6-7].

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96).

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا.

أي: مِن المؤكَّد يا محمَّد، أن تجِد هؤلاء اليهودَ أشدَّ الناس حرصًا على البقاء في الحياة الدُّنيا، وأشدَّهم كراهةً للموت؛ لِعلمهم بما لهم في الآخِرة من العذاب،

وأن تجد حبَّهم للمُكث وطولِ العُمر في الدُّنيا فاق حتى أولئك المشركين الذين لا يُؤمنون بأحدٍ من الرُّسل والكتُب، ولا يُقرُّون بالبعث.

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ.

قيل: يودُّ أحدُ اليهود- وقيل: يودُّ أحدُ المشركين- مِن حِرصه على المُكث في هذه الحياة الفانية، أن يَطولَ عُمُرهُ حتى يبلغَ ألْفَ سَنةٍ.

وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ.

أي: وما طولُ البَقاء في الدُّنيا لأحدهم بمُبعِده من عذاب الآخِرة؛ لأنَّه مهما طال العمرُ فلا بدَّ له من فَناءٍ.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ.

هذا توعُّدٌ لأولئك اليهود، وتهديدٌ لهم بالمجازاة على أعمالهم؛ فالله تعالى يرَى كلَّ ما يفعلونه، لا يخفى عليه شيءٌ من ذلك.

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ [الجمعة: 8].



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (97-103)



قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97)

مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98)

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99)

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100)

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101)



وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ **(102)**

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ **(103)**



تفسير الآيات:

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (97).

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ.

أي: قلْ يا محمَّد، لهؤلاء اليهود الذين زعَموا أنَّ الذي منَعَهم من الإيمان برسالتك، أنَّ وليَّك جبريلُ عليه السَّلام، وأنَّه لو كان وليُّك أحدًا سواه من الملائكة لآمَنوا بك- قل لهم: مَن عادى جبريلَ عليه السَّلام، فليعلمْ أنه هو الذي نزَل بالقرآن على قلبِك، وجبريل لا يَنزل بالأمر من تِلقاء نفْسه، وإنَّما ينزل بأمْر الله تعالى، وهذا يَعني أنَّهم بقولهم ذلك يُعادُون الله تعالى في الحقيقة؛ أمَّا جبريل فهو رسولٌ محضٌ.

كما قال تعالى: وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ [الشعراء: 192 – 194].

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ.

أي: إنَّ القرآن نزَل والحال أنَّه متطابق مع الكتُب الإلهيَّة الأخرى التي سبقتْه كالتوراة، وموافِق لها، ومن ذلك ما فيها من الأمر باتِّباع محمَّد – ﷺ –، وهو دَلالة على الحقِّ، وبُشرى من الله تعالى

للمؤمنين خاصَّةً، وفيه أنواعٌ من البِشارات لهم، ومن ذلك ما أعْلَمَهم الله تعالى فيه بما أعدَّ لهم في الآخِرة من النَّعيم المقيم.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((أقبلتْ يهودُ إلى رسولِ الله - ﷺ -، فقالوا: يا أبا القاسم، إنَّا نسألُك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتْنا بهنَّ، عرَفْنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخَذ عليهم ما أخَذ إسرائيلُ على بنيه؛ إذ قالوا: اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ، قال: هاتوا، قالوا: أخبِرْنا عن علامة النبيِّ، قال: تنام عيناه ولا ينام قلبُه، قالوا: أخبِرْنا كيف تؤنِّث المرأة وكيف تُذكِّر؟ قال: يَلتقي الماءانِ، فإذا علَا ماءُ الرجُل ماءَ المرأة أذْكَرت، وإذا علَا ماءُ المرأة ماءَ الرجُل آنثَتْ، قالوا: أخبِرْنا ما حرَّم إسرائيل على نفْسه؟ قال: كان يَشتكي عِرق النَّسا فلم يجِد شيئًا يلائمه إلَّا ألبانَ كذا وكذا، قال عبد الله بن أحمد: قال أبي: قال بعضُهم: يعني الإبل، قال: فحرَّم لحومها، قالوا: صدقتَ، قالوا: أخبِرْنا ما هذا الرَّعد؟ قال: ملَكٌ من ملائكة الله عزَّ وجلَّ موكَّل بالسَّحاب، بيده أو في يده مِخراق من نار، يزجُر به السحاب يسوقُه حيث أمر الله، قالوا: فما هذا الصوتُ الذي يُسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقتَ، إنَّما بقِيَتْ واحدةٌ، وهي التي نبايعك إنْ أخبرتَنا بها، فإنَّه ليس من نبيٍّ إلَّا له مَلَك يأتيه بالخبَر، فأخبِرْنا من صاحبك؟ قال: جبريلُ عليه السَّلام، قالوا: جبريل! ذاك الذي يَنزل بالحَرْب والقِتال والعذاب! عدوُّنا!

لو قلت: ميكائيل، الذي يَنزل بالرحمةِ والنَّبات والقَطر، لكان! فأنزل الله عزَّ وجلَّ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ إلى آخِرِ الآية)).[18]

مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (98).

أي: إنَّ مَن عادى الله تعالى، أو أحدًا ممَّن ذُكروا من الملائكة عمومًا، أو جِبريل وميكال خصوصًا، أو مِن بقيَّة رُسل الله الكِرام من البَشر كمحمَّد - ﷺ -، مَن عاداهم أو أحدًا منهم فإنَّه كافر، والله تعالى يتَّخذه عدوًّا له؛ لأنَّه سبحانه يُعادي كلَّ كافر.

سبب النُّزول:

عن ابنِ أَبي لَيْلَى قال: ((إنَّ يهوديًّا لقِي عُمرَ فقال: إنَّ جبريل الذي يذكُر صاحبُكم عدُوٌّ لنا، فقال عمرُ: مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ إلى لِلْكَافِرِينَ قال: فنزلتْ على لسان عُمرَ)).[19]

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (99).

---

(18) أخرجه الترمذيُّ (3117) (جزءًا منه)، وأحمد (274/1) (2483) واللفظ له. قال الترمذي: حسنٌ غريب، وذكر ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (16/8) أن له طرُقا يقوِّي بعضها بعضًا. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (161/4)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3117). وقد حَكى ابن جرير الإجماعَ على ذلك، فقال: (أجمع أهلُ العلم بالتأويل جميعًا على أنَّ هذه الآية نزلَتْ جوابًا لليهود من بني إسرائيل؛ إذ زعَموا أنَّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل وليٌّ لهم) ((تفسير ابن جرير)) (283/2).

(19) أخرجه ابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (182/1). قال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (16/8): له طرُقٌ يقوِّي بعضها بعضًا.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ.

أي: قد أنزلنا إليك– يا محمَّد– فيما أُوحي إليك من القُرآن، آياتٍ هي دلائل واضحة، دالَّةٍ على صِدق نبوَّتك.

وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ.

أي: هذه الآيات البيِّنات قد بلَغتْ من الوضوح والدَّلالة على الحقِّ، مَبلَغًا عظيمًا، ووصلتْ إلى حال لا يَجحدها ويمتنع من قَبولها إلَّا مَن خرَج عن دائرة الإيمان، والالتزام بشريعة الرَّحمن.

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (100).

أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ.

هذا توبيخٌ وتعجُّبٌ من الله تعالى، مِن صنيع اليهود الذين لا يلتزمون بما عَهِد الله تعالى إليهم، وهو التمسُّك بأوامره سبحانه في التوراة، ومن ذلك الإيمانُ بمحمَّد – ﷺ – واتِّباعه؛ فكلَّما وعَدوا بالالتزام بعهدٍ من عهود التوراة، نقَضَه جماعةٌ منهم وطرَحوه، تاركين الوفاءَ به.

بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

أي: إنَّ أكثرَ اليهود غير مصدِّقين بالحقِّ اعتقادًا وقولًا وعملًا، وعدَم إيمانهم هو الذي حمَلَهم على نبْذ العهود.

لو صَدَق إيمانهم، لكانوا مِثل مَن قال الله فيهم: مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [الأحزاب: 23].

قال تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ [الأنفال: 55-56].

وقال سبحانه: وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ [المائدة: 13].

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101).

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ.

أي: ولَمَّا أتى اليهودَ رسولٌ مرسَلٌ من قِبل الله عزَّ وجلَّ، وهو محمَّدٌ - ﷺ -، وقد جاءهم بصفته الموافقة لِما في التوراة من صِفاته وإثبات رِسالته، والتي يزعمون أنَّهم متمسِّكون وملتزمون بما فيها.

نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ.

أي: ترَك طائفةٌ من اليهود أصحابِ التوراة، العملَ بالتوراة التي أنزلها الله تعالى عليهم، بالدُّخول في دِين محمَّدٍ - ﷺ -، ترَكوا ذلك متجاهلين، وكأنَّهم لا يعلمون ما في التوراة من البشارة بمحمَّدٍ - ﷺ -، وذِكر صِفاته، والأمر باتِّباعه.

مَن ترَك ما يَنفعُه مع إمكانيةِ الانتفاعِ به، فإنَّه يُبتُلى بالاشتغال بما يضرُّه، فكذلك هؤلاء اليهودُ؛ فلَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّهم نبَذوا كتابَ الله، ذكَر اشتغالَهم بما يضرُّهم، فقال:

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (102).

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ.

أي: اتَّبع اليهود ما تختلقُه الشياطينُ وتتقوَّلُه، من السِّحر على عهد سليمان، وتَنسُبه إليه، حيث أخرجت الشياطين للناس السِّحر، وزعَموا كذبًا أنَّ سليمان عليه السَّلام كان يستعمله، وأنه حصَل له به المُلك العظيم.

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ.

أي: إنَّ سليمانَ عليه السَّلام بريءٌ من تُهمة السِّحر التي أَلْصَقَها به اليهود، فلم يكُن كافرًا يمارس السِّحر، أو يُعلِّمه للآخرين؛ وذلك لأنَّ السِّحر كُفر، بل الذين كفروا بسبب السِّحر في الحقيقة هم الشياطين الذين يُعلِّمونه للناس؛ إضلالًا لهم.

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.

أي: واتَّبع اليهود أيضًا السِّحرَ، الذي أُنزل على الملَكين: هاروت وماروت، في بابل من أرضِ العِراق.

وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ.

أي: وما يعلِّم هذانِ الملَكانِ السِّحرَ لأحدٍ من الناس، حتى يَنصحاه فيقولَا له: إنَّما نحن هنا لتعليم السِّحر؛ اختبارًا وابتلاءً لبني آدم، فلا تَكفُرْ بالله؛ بسبب تعلُّم السِّحر وممارسته.

فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.

أي: فيتعلَّم الناسُ السِّحرَ من الملَكينِ بما يَتصرَّفون به تصرُّفاتٍ مذمومةً، من أعظمِها التفريقُ بين الزَّوجين، مع ما بينهما من المودَّة والرَّحمة.

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ.

أي: وما هؤلاء المتعلِّمون السِّحرَ من الملَكيْن، وفاعِلو تلك الأفعال القَبيحة، بضارِّين بذلِك أحدًا من الخَلْق، إلَّا بإذن الله تعالى الكوني، أي: بقُدرته ومشيئته سبحانه.

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ.

أي: إنَّ السِّحرَ الذي يتعلَّمه هؤلاء المشتغِلون به ضررٌ محضٌ عليهم في الدنيا، ليس فيه نفْعٌ مطلقًا.

وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.

أي: قد علِم أولئك اليهودُ أنَّ مَن استبدل السِّحرَ بكتاب الله تعالى ومتابعةِ محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، أنَّه ليس له في الآخِرة حظٌّ ولا نصيبٌ من الجَنَّة.

وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.

أي: ولبئس البديلُ السِّحرُ الذي تعلَّموه، بديلًا عن كِتاب الله تعالى، ومتابعة رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، لو كانوا يَعلمون أنَّهم إنَّما باعُوا أنفسَهم، وحظَّهم من الآخِرة بما يَضرُّهم في الدُّنيا أيضًا، ولا ينفعهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (103).

أي: إنَّهم لو اختاروا الإيمانَ والتقوى بدلَ السِّحرِ، لكان اللهُ يثيبُهم على ذلك ما هو خيرٌ لهم ممَّا طلبوه في الدُّنيا لو كانوا يَعلمون، فيَحصُل لهم في الدنيا من ثواب الإيمان والتقوى من الخير، الذي هو جَلْب المنفعة ودفْع المضرَّة، ما هو أعظمُ ممَّا يُحصِّلونه بالسِّحر من خير الدُّنيا، مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثَّواب في الآخِرة.

كما قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ [القصص: 80].



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (104-113)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104)

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105)

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106)

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107)

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108)

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (109)

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110)

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111)

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112)

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا.

أي: نُهِي المسلمون عن قول هذه الكلِمة التي كانتِ اليهود تقولُها- وإنْ كانت من اليهودِ قبيحةً، ومِن المسلمين ليستْ كذلك- لما فيها من مُشابهةِ الكفَّار، ولكونها وسيلة إلى بلوغ غرَضهم، فالمسلمون يَعنُون بها طلبَ المراعاة، واليهود يعنون بها الرُّعونةَ؛ سخريةً من النبيِّ - ﷺ -.

وَقُولُوا انْظُرْنَا.

أي: أمَر الله تعالى عبادَه المؤمنين بلفظةٍ لا تحتمِل إلَّا معنًى حسنًا، بديلًا عن قولهم: راعِنا، للنبي - ﷺ -، وهي: انظُرْنا، أي: انتظرنا وأمهِلْنا حتى نفهم عنك ونتعلم منك.

وَاسْمَعُوا.

أي: أمَرَهم الله تعالى أن يَسمعوا لأوامره سَماعَ استجابةٍ وطاعةٍ.

وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: أخبَرَ سبحانه عمَّن جحَد آياتِ الله تعالى من اليهود ومِن غيرهم، أنَّ لهم في الآخرة عذابًا مؤلِمًا موجِعًا.

قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا [النساء: 46].

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105).

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: لا يحبُّ الكفَّارُ من أهل الكتاب، أو مِن المشركين أن يُنزِّل الله تعالى على المؤمنين أيَّ خيرٍ منه سبحانه، ومِن ذلك الوحيُ المنزَّل على محمَّد - ﷺ -: القرآن الكريم.

وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

أي: إنْ كان الكفَّارُ لا يودُّون لأحدٍ من المؤمنين خيرًا ينزل عليه من الله تعالى، فاللهُ يُريد ذلك؛ فهو الذي يُؤثِر برحماته مَن شاء مِن عباده بعِلمه وحِكمته، ومن ذلك منح النبوَّة والرِّسالة لمحمَّد - ﷺ -؛ فهو رحمة له ولغيره، وهو سبحانه ذو العَطاء الواسِع الكثير.

كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا [النساء: 113].

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (106).

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ.

أي: ما نرفع من حكم آيةٍ فنبدِّله ونغيِّره.

أَوْ نُنْسِهَا

أي: أو ما نُزِلْه من الآيات؛ فنَمْحُه من قلبِ الرَّسول - ﷺ - وأصحابه رضي الله عنهم.

وعلى قراءة: أَوْ نَنْسأهَا يكون المعنى: أو ما نؤخِّر نزوله منها.

نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا.

أي نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو محوناه من قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه.

وعلى قراءة ننسأها يكون المعنى: نأتِ بخيرٍ من الذي نسخناه أو أخَّرنا نزوله أو بمثله في خيريَّته ووجوه نفْعه.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يَنْسَخُ ما يشاء، ويُثبت ما يشاء، ويَحكُم بما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجزه شيءٌ أبدًا، والخطاب للنبيّ - ﷺ -، وأُمَّتُه تبعٌ له فيه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

أ- في قوله تعالى: نَنْسَخْ قِراءتان

1- (نُنْسِخْ) من أنسختُ الكتاب إنساخًا، أي: وجدته منسوخًا.

2- (نَنْسَخْ) من نَسَخَ، بمعنى أزال، وغيَّر.

ب- وفي قوله تعالى: نُنْسِهَا قِراءتان

1- (نَنسَأْها) من التأخير؛ لأنَّ نَسَأَ أي أخَّر.

2- (نُنسِهَا) من النِّسيان.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (107).

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: ما دام أنَّ الله تعالى مالكٌ لجميع خلْقه، ومتصرِّف فيهم بما يَشاء؛ إذ له الخَلْق والأمر، فكذلك يحكُم في عباده بما يَشاء، فيُحلُّ ما يشاء، ويُحرِّم ما يشاء، ويُبيح ما يشاء، ويحظُر ما يشاء، وهو الذي يحكُم ما يريد ولا مُعقِّب لحُكمه.

وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

أي: ما لكم سوى الله عزَّ وجلَّ أيُّ أحدٍ يتولَّاكم، فيَجلِب لكم الخير، وليس لكم سوى الله تعالى أيُّ أحدٍ ينصرُكم، فيدفع عنكم الشرَّ.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (108).

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ.

نَهى الله تعالى في هذه الآيةِ الناسَ، مؤمنهم وكافرهم، عن سؤال رسولِهم محمَّد - ﷺ - الذي أُرسل للناس كافَّةً- أسئلةَ تعنُّتٍ أو اعتراض، أو اقتراحٍ للآيات، كما كان سلَف اليهود يَسألون موسى عليه السَّلام أسئلةً من هذا القَبيل.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ [المائدة: 101- 102].

وقال سبحانه: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ [النساء: 153].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 89 - 93].

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((قال رافعُ بن حُرَيملةَ ووهْبُ بن زيدٍ لرسولِ الله: يا محمَّد، ائتنا بكتاب تُنزله علينا من السَّماء نَقرؤه، أو فجِّر لنا أنهارًا، نَتَّبعْك ونُصدِّقك، فأنزل اللهُ في ذلك: أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ إلى قوله: سَوَاءَ السَّبِيلِ)).[20]

لَمَّا كانت المسائلُ المنهيُّ عنها مذمومةً؛ فبعضها كفر، وبعضها قد تصِل بصاحبها إلى الكُفر، حذَّر الله تعالى من ذلك فقال:

وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ.

---

(20) أخرجه ابن إسحاق في ((سيرة ابن هشام)) (547/1)، وابن جرير في ((تفسيره)) (490/2)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (202/1). جوَّد إسناده ابن حجر في ((العجاب)) (351/1).

أي: مَن أخذ الكفر عِوضًا عن الإيمان، فقد حادَ عن وسَط الطريق، وانحرَف إلى جوانبه التي تُفضِي به إلى طُرق الهلاك.

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(109).

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا.

أي: إنَّ كثيرًا من اليهود والنَّصارى يتمنَّون بكلِّ قلوبهم أن يرتدَّ المؤمنون عن دِينهم، فيَكفروا.

وقد سعَوا في ذلك، وأعمَلوا المكايد.

كما قال تعالى: وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [آل عمران: 72].

وقال سبحانه عن المنافقين: وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً [النساء: 89].

حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ.

أي: إنَّ تلك الأمنيةَ الصادرة عن كثيرٍ من أهل الكتاب؛ سببُها الحسدُ المتمكِّن والمتأصِّل في نفوسهم، للمؤمنين على ما آتاهم اللهُ تعالى من فَضلِه، بالهداية إلى دِينه القويم، وهذا الحسَد إنَّما صدَر منهم بعدَ أن تبيَّن لهم الحقُّ المبِين.

فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا.

أي: اتركوا عِقابَ أهلِ الكِتاب على مساوئ كلامِهم، وغلِّ قلوبهم، ومكْر أعمالهم؛ واترُكوا لَومَهم ومعاتبتهم، وأَعْرِضوا عن ذلك كلِّه، وكأنَّ شيئًا لم يكُن.

قال تعالى: وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [آل عمران: 186].

حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ.

أي: حتى يُحدِث اللهُ تعالى لكم من أمْره فيكم ما يشاء، ويَقضي فيهم ما يُريد، بما يَشفِي غليلَكم، ويُذهِب غيظَ قلوبِكم.

وقد أتَى هذا الأمرُ لاحقًا، بقتال الكفَّار مِن أهل الكِتاب، أو أخْذ الجزيةِ منهم؛ ونُسِخ الأمرُ بالعفو والصَّفح بقوله تعالى: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التوبة: 29].

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يَفعَل ما يشاء، فهو القويُّ والقادِر على ذلك، ولا يُعجِزه شيءٌ أبدًا.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (110).

أي: حثَّ الله تعالى عِباده المؤمنين على الاشتغال بما ينفعُهم أكثرَ، وهو أداءُ الصَّلاة بحدودها وفروضها تامَّةً كما أمَر الله عزَّ وجلَّ، وإيتاء الزَّكاة كما شُرعت، ووعدهم بأنَّهم مهما فعَلوا من خير، فلن يَضيعَ، بل هو محفوظٌ ومدَّخَرٌ لهم عند البصير العليم، الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ من أعمالهم الظاهِرة والباطِنة.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ [النساء: 77].

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (111).

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان يهوديًّا، وقالت النَّصارى: لن يَدخُل الجنَّةَ إلَّا مَن كان نصرانيًّا.

تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ.

أي: إنَّ تلك الدَّعاوى التي يُطلقها اليهودُ والنَّصارى، إنَّما هي مجرَّدُ أباطيل وأمانيّ نفوسٍ كاذبة، يتمنَّونها على الله تعالى بغير حقٍّ.

كما قال تعالى: لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [النساء: 123].

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى لرسوله محمَّدٍ - ﷺ - بدعاء أصحاب تلك الدَّعوى من اليهود والنَّصارى، إلى إحضار الحُجَّة على دَعواهم تلك، إنْ كانوا محقِّين فيما يزعمون.

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (112).

بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ.

أي: ليس الأمرُ كما قال الزَّاعمون بأمانيّهم: لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى، ولكن مَن أخلص العملَ لله تعالى وحْدَه لا شريكَ له، وهو مع إخلاصه فيه مُتَّبع لشريعة النبيِّ - ﷺ -.

فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ للمسلمِ وجهَه لله تعالى مُحسِنًا، ثوابَه على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، فهم أهل الجَنَّة وحْدهم، آمِنون؛ فلا خوفَ عليهم ممَّا يستقبلونه من أمور الآخِرة، وهم في سُرور دائم؛ فلا يَحزنون على ما فاتهم من أمور الدُّنيا، فحصَل لهم المرغوب، ونجَوْا من المرهوب.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (113).

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ.

أي: ضلَّل وكفَّر بعضُهم بعضًا، فادَّعى أهلُ كلِّ دِينٍ منهم، أنَّ دِين الآخَر باطل، ليس فيه شيءٌ من الحقِّ مطلقًا.

وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ.

أي: والحال أنَّ هؤلاء المدَّعين من اليهود والنصارى، يَقرؤون كُتُبَهم ويعلمون ما فيها من الحقِّ، فيقرأ اليهود التوراة، ويقرأ النَّصارى الإنجيل، وكِلا الكِتابينِ شاهدانِ عليهما؛ فهما يقولان بخِلاف ما يقولون؛ فالإنجيل يَتضمَّن صِدقَ موسى وتقريرَ التوراة، والتَّوراة تتضمَّن التبشيرَ بعيسى وصِحَّة نبوَّته،

وكِلاهما يتضمَّنان صِدقَ محمَّدٍ - ﷺ -؛ فكيف يدَّعي كلٌّ منهما أنه ليس في دِينِ الآخر شيءٌ من الحقِّ مطلقًا؟!

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

أي: أخبرَ الله تعالى عن قوم نفَى عنهم العِلم بما كانت اليهودُ والنصارى به عالِمين، أنَّهم قالوا - بسبب جهلِهم- نظيرَ ما قاله اليهودُ والنَّصارى بعضُهم لبعض، من أنَّهم ليسوا على شيءٍ من الحقّ، وهذا تعريضٌ من الله تعالى بهؤلاء اليهود والنَّصارى؛ زيادةً في التشنيع على ما قالوه لبعضهم، حيث اشترَكوا وهم أهلُ كتاب، مع أهلِ الجَهالة في المقالة نفْسها.

فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.

أي: إنَّ الحَكَم العدل سبحانه وتعالى، يتوعَّد هؤلاءِ المختلِفين- القائِلِ بعضُهم لبعض: لستُم على شيء من الحقِّ- بأن يقضيَ ويَفصِل بينهم يومَ تقومُ الساعة، ويقومُ الناس من قُبورهم، وأنَّه سيَجزي كلَّ مبطل على باطله؛ فإنَّه لا نجاةَ لِمَن لم يؤمِن بجميع الأنبياء والمرسَلين عليهم الصَّلاة والسَّلام.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (114-119)

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ
يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114)
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115)
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116)
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ
قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118)
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119)

تفسير الآيات:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (114).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا.

أي: لا أحدَ من المانعين شيئًا، أشدُّ جراءةً وتعدِّيًا على حدود الله عزَّ وجلَّ ممَّن منَعَ العبادة في بيوت الله تعالى، واجتهد وبذَل وُسعَه في إفسادها حسيًّا ومعنويًّا.

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ.

أي: قد منَع اللهُ تعالى أولئك الذين يسعَون في خراب بيوت الله تعالى حسيًّا ومعنويًّا، منْ أنْ يدخلوها إلَّا وقلوبهم وجِلة؛ خوفًا من عقوبة إلهيَّة تحلُّ بهم، أو خوفًا من المؤمنين أن يعاقبوهم تسليطًا من الله تعالى لهم.

لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ.

أي: لأولئك الذين تقدَّمت صِفتُهم في هذه الآية، ذلٌّ وعارٌ يحلُّ بهم في الدُّنيا، من قَتْلٍ، أو سَبيٍ، أو جزيةٍ، أو فضيحةٍ، أو غير ذلك، أمَّا في الآخرة فلهم عقوبةٌ عظيمة.

وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115).

وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

أي: إنَّ لله تبارك وتعالى مُلكَ الجِهة التي تطلُع منها الشَّمس، ومُلك الجِهة التي تَغيب منها، وله مُلك جميع ما بينهما من الجِهات والمخلوقات.

فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ.

أي: إنَّكم حيثما كنتم وتوجَّهتم في صلاتكم نحو الجهة التي شرعها الله تعالى، فإنكم تتَّجهون إلى الله عزَّ وجلَّ في الحقيقة؛ لأنَّ المصلِّي إذا توجَّه إلى القبلة، فقد استقبل وجه الله سبحانه حقيقةً.

وقيل المعنى: إنَّكم مهما حوَّلتم وجوهَكم إلى ناحيةٍ ما، فهنالك وجهُ الله تعالى، وسواء كان ذلك لأجْل استقبال القِبلة في الصَّلاة أو لا، في الحضَر أو السَّفر، أو لغير ذلك من أحوال.

إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: ختَم الله سبحانه هذه الآيةَ باسمين دالَّين على الإحاطة، فالله عزَّ وجلَّ واسعُ الرَّحمة والمغفرة والعِلم، واسع الجُود والعطاء، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وهو ذو عِلمٍ محيطٍ بكلِّ شيء، لا يَغيب عن عِلمه شيء أبدًا.

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (116).

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا.

أي: قالت النصارى بزعمهم: المسيح ابن الله.

سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: يتنزَّه الله ويتعالى علوًّا كبيرًا عن أن يكون له ولد، وليس الأمر كما افتروا، فهو سبحانه مالك جميع ما في السموات وجميع ما في الأرض، وهو خالقهم ومصرفهم كيف شاء، هو الغني وهم الفقراء، والجميع عبيد له بلا استثناء، فكيف يكون له ولد منهم؟! والولد إنما يكون متولدًا من شيئين متناسبين، كما أن الولد بعض الوالد وشريكه، فلا يكون مخلوقًا ومملوكًا له؛ لأن المخلوق مملوك مربوب، والابن نظير الأب، فكيف يكون مخلوقه ومملوكه بعضه ونظيره؟ والله تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا مشارك في عظمته وكبريائه، فكيف يكون له ولد؟!

كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.

أي: إنَّ كلَّ أحد لا يخرُج عن مشيئته وقُدرته ومُلكه سبحانه، بل الجميع- حتى مَن ادُّعِيت بُنوَّته لله تعالى كعيسى عليه السَّلام- عبيدٌ مقهورون مُدبَّرون، وهم منقادون وخاضِعون للنواميس الإلهيَّة في أبدانهم وغيرها، طوعًا أو كرهًا.

كما قال تعالى: قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [يونس: 68-69].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ [النساء: 171].

وقال سبحانه: تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا [الفرقان: 1-2].

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117).

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ مَن أوجد هذه السَّمواتِ والأرضَ مِن العدم، وأحْسَن خلقهما على غيرِ مِثالٍ سابقٍ مع عِظمهما وآياتهما الباهِرة، فهو قادرٌ على خَلْق ما دونهما؛ فكيف يُخرجون عيسى عليه السَّلام عن قُدرته وإبداعه، ويجعلونه نظيرًا وشريكًا وجزءًا مِنه سُبحانه جلَّ شأنُه؟! فإنَّ مبدِع العالَمِ العُلويِّ والسُّفليّ لا يُعجزه أن يخلُق عبدَه بقدرته، من غير أبٍ؛ فكيف يدَّعون أنَّه ولدُه؟!

كما قال تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام: 100-101].

وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

أي: إنَّه سبحانه إذا أراد شيئًا، فحسبُه أن يقول له: كن، فيكون ذلك الشيء على وَفقِ ما يُريد الله تبارك وتعالى، ومن ذلك خَلْق المسيح عيسى عليه السَّلام، فقد خلَقَه بكلمة كن، وهذا منافٍ للتوليد؛ فمَن يدبِّر الأشياء بمجرَّد كلمته، ليس كمَن يحتاج إلى توليدِ الأشياء منه، فكيف يُوصَف بالتولُّد سبحانه، وهو في جميع ما يَقضيه إنَّما يقول له: كن، فيكون؟!

كما قال تعالى: ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [مريم: 34-35].

وقال سبحانه: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 47].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

وقال جلَّ وعلا: أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 81-82].

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (118).

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ.

أي: قال مُشرِكو العرب: هلَّا أَوحى اللهُ عزَّ وجلَّ إلينا كما أَوحى إلى رُسله؟ أو يكلِّمنا بتصديق رسوله محمَّد - ﷺ -؟ أو تأتينا معجزةٌ دالَّة على صِدق ما جاء به؟ وهذا الطَّلب قد صدَر منهم على سبيل التعنُّت والعِناد، وإلَّا فقد جاءتْهم آيات كثيرة دالَّة على صِدق بِعثة النبيِّ - ﷺ -، ومنها القرآن الكريم.

كما قال تعالى: وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ [الأنعام: 124].

وقال سبحانه: وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا [الإسراء: 90 - 93].

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ.

أي: قولهم ذلِك مطابقٌ لقول مَن قَبلهم من الأُمم السابقة من اليَهود والنصارى وغيرِهم.

قال الله تعالى: يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً [النساء: 153].

تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ.

أي: قلوبُ الكفَّار متشابهةٌ في ردِّ الحق، والعِناد والتعنُّت؛ ولذا جاءتْ أقوالهم متوافقةً، وإن اختلفت مذاهبُهم وأساليبهم في ذلك.

كما قال تعالى: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ [الذاريات: 52–53].

قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ.

أي: قد أَظهَرْنا ووضَّحنا العلاماتِ الدالَّاتِ على صِدق الرُّسل عليهم السَّلام– ومنهم محمَّد – ﷺ – بما لا يُحتاج معها إلى سؤالٍ آخَر، ولكنْ ذلك لِمَن كان اليقين من خِصالهم الدَّائمة؛ فهم يَتثبَّتون ويستوثقون، ويطلُبون معرفةَ حقائق الأشياء إلى درجة اليقين.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (119).

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا.

أي: يُخاطب الله تعالى نبيَّه محمدًا – ﷺ –، مؤكِّدًا له بأنَّه قد أرسله بالحقِّ، فبِعثتُه حقٌّ، وما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ حقٌّ، وقد أرسله تعالى لعموم المكلَّفين من الإنس والجن، والحال أنَّه مبشِّر مَن أطاعه بنيل السَّعادة في الدنيا والآخِرة، ومحذِّر ومُخوِّف مَن عصاه بالشَّقاوة في الدُّنيا والآخِرة.

وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ.

أي: إنَّك لستَ مؤاخَذًا يا محمَّد، على بقاء الكفَّار -أصحاب النار الملازِمين لها- على كُفرهم؛ فلن تُسألَ عنهم بعد أنْ بلَّغتَهم بالحقِّ؛ فإنَّما عليك البلاغ فحسبُ، وحِسابهم على الله عزَّ وجلَّ. ولا تَسأَلْ يا محمَّد، عمَّ لأولئك من العذاب؛ فإنَّهم في حالٍ من الفظاعة والشَّناعة لا يتصوَّرها عقلُ إنسان؛ وذلك لشدَّةِ ما أُعِدَّ لهم من العذاب العظيم.

كما قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [آل عمران: 20-21].

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: تُسْأَل قِراءتان:

1- (تَسْأَلْ) بفتح التاء، وجزْم اللام، على النهي عن السُّؤال عن ذلك أي: لا تَسألْ يا محمَّدُ، عنهم؛ فقد بَلَغوا غاية العذاب.

2- (تُسْأَلُ) بضمِّ التاء والرَّفْع، أي: إنَّك لا تُسأل عن الكفَّار: ما لهم لم يُؤمِنوا؛ لأنَّ ذلك ليس إليك.

سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (120-123)

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ
اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْخَاسِرُونَ (121)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122)
وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ (123)

تفسير الآيات:

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120).

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ.

أي: ولن تَرضى عنك اليهودُ، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينَهم، ولن ترضَى عنك النَّصارى، حتى تترُكَ دِينَ الإسلام وتعتنقَ دِينهم.

قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى.

أي: قل يا محمَّد- إجابةً لهم في عدَم اتِّباع ملَّتهم-: ليس الهُدى ما أنتم عليه كما تدَّعون، بل الذي أُرسلتُ به هو هُدَى الله الحقيقيُّ؛ فإنَّه الدِّينُ المستقيم، والصَّحيح، والكامِل.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.

أي: يُخاطِب اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا - ﷺ - والأمَّة تبَعٌ له في ذلِك- محذِّرًا من اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، خاصَّةً من بعد إكرام النبيِّ - ﷺ - وأمَّته بالوحي المُنزَّل عليه، وفيه العِلمُ بطريق الحقِّ، والعلمُ بطُرق الضَّلالة والكُفر.

مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ.

أي: إنِ اتبعتَ أهواءَهم يا محمَّد، فاعلمْ بأنَّه ليس لك حينذاك أيُّ أحدٍ يتولَّى أمرَك؛ فيجلِب لك خيرًا، أو أيُّ نصيرٍ ينصرُك من الله تعالى؛ فيَدفَع عنك شرًّا.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ.

هذا مدحٌ لمن أقام كتابَه من أهل الكتاب، فآمن به واتَّبَعه حقَّ الاتباع، ولم يجترئ على تحريفه، وإنكار ما يحمله من البشارة بمحمد - ﷺ -، المذكور فيه بصفته ونعته، فآمن به واتبعه.

وهو مدحٌ لمؤمني أهل الكتاب، في مقابل ذمِّ أولئك الذين يحرِّفون الكلم عن مواضعه منهم.

قال تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ [المائدة: 68].

وقال سبحانه: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [الأعراف: 157].

وقال عزَّ وجلَّ: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا [القصص: 52-53].

وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

أي: إنَّ مَن يكفر من أهل الكتاب بكتابه الذي أُوتيه من عند الله عزَّ وجلَّ- ومِن ذلك تحريفُه وتبديلُه، وجَحْد نبوَّة محمَّد - ﷺ - الثابتة فيه- فإنَّه قد بخَس نفْسَه حظوظَها من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (122).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ.

أي: يا بَنِي يعقوب كونوا مثلَ أبيكم في متابعة الحقِّ، واذكُروا نِعمه تعالى على آبائكم ذِكرًا يحملكم على شُكرها بالخضوع لله تعالى، وذلك بالدُّخول في دِينه، واتِّباع رسولِه الكريم - ﷺ -، ومنها النِّعم المذكورة في هذه السُّورة الكريمة.

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: واذكُروا تفضيلي لكم على سائرِ الأمم من أهل زَمانِكم، بإرسال الرُّسُل منكم، وإنزال الكتُب عليكم، وغير ذلك من النِّعم الخاصَّة.

كما قال تعالى: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ [الدخان: 32].

وقال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ [المائدة: 20].

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (123).

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا.

أي: أمَرهم الله تعالى أن يعتقدوا ويَفعلوا ما يكونُ حاجزًا يَقِيهم من عذابِه سبحانه، في يوم القِيامةِ الذي لا تَقضِي فيه نفْسٌ عن نفْسٍ حقًّا وجَب عليها لغيرِها، ولا يُغني فيه أحدٌ- كائنًا من كان- عن أيِّ أحدٍ شيئًا، ولو كان من عَشيرته الأقرَبين، أو كان الشيءُ قليلًا ويسيرًا جدًّا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا [لقمان: 33].

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ.

أي: لا يُقبَل منها فِداءٌ.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المائدة: 36].

وقال تعالى: وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا [الأنعام: 70].

وقال عزَّ وجلَّ: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا... الآية [الحديد: 15].

وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ.

أي: لا تنفعُ من أيِّ نفْسٍ شفاعةٌ لنفْسٍ أخرى إذا كانت كافرةً على الإطلاق.

كما قال تعالى: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر: 48].

وقال سبحانه عن أهل النار: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ [الشعراء: 100-101].

أمَّا المؤمنة فتُقبل منها، إنْ كانت الشفاعةُ بإذن الله تعالى، مع رِضاه سبحانه عن المشفوعِ له.

كما قال تعالى: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ.

أي: ليس لهم أحدٌ يُنقِذهم من عذابِ الله تعالى.

كما قال تعالى: فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [الطارق: 10].

وقال سبحانه: مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ [الصافات: 25-26].

وقال عزَّ وجلَّ: فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ [الأحقاف: 28].



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (124-134)

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ **(124)**

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ **(125)**

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ **(126)**

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ **(127)**

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128)

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134)

تفسير الآيات:

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (124).

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ.

أي: واذكُر يا محمَّد، ابتلاءَ الله تعالى لعبده وخليله إبراهيمَ عليه السَّلام بتكاليفَ فرَضها عليه ربُّه سبحانه، فأدَّاها إبراهيمُ عليه السَّلام على وجهٍ تامٍّ، موفِّيًا جميعَ ذلك.

قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا.

أي: إنِّي مُصيِّرك يا إبراهيم، إمامًا يأتمُّ بك الناسُ، ويَقتدون بك.

قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي.

أي: لَمَّا جعَل الله تعالى إبراهيم إمامًا، سأل ربَّه عزَّ وجلَّ أن تكون الأئمَّةُ من بعده من ذُريَّته.

قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ.

أي: أجاب الله تعالى عن سؤال خليله إبراهيمَ عليه السَّلام، بأنَّه لا يَمنح مرتبةَ الإمامة في الدِّين أحدًا من الظالِمين من ذريَّته؛ لأنَّ الإمامة تُعطَى لأوليائه، وأهلِ طاعته، دون أعدائِه.

قال تعالى: وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ [الصافات: 113].

وقال سبحانه: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ [النساء: 54-55].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ [الحديد: 26].

لَمَّا كان من إمامة إبراهيمَ عليه السَّلام اتِّباع الناس له في حجِّ البيت، الذي شرَّفه الله سبحانه ببنائِه- قال سبحانه إثرَ ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مخالفتَه وترْكَ دِينه، وموطِّئًا لأمر القِبلة:

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125).

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا.

أي: واذكُر يا محمَّد، هذا الأمرَ؛ فقد جعل الله تعالى البيت الحرام محلًّا يَشتاقُ إليه الناسُ على الدوام، فيَرجعون إليه، ولو تردَّدوا إليه عِدَّةَ مرَّات، وهو معاذٌ لهم يأمنون فيه على أنفسهم وأموالهم، وحتى الحيوانات والجمادات تكون آمنةً فيه.

قال سبحانه: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا [البقرة: 126].

وقال تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

وقال سبحانه: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا [آل عمران: 97].

وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى.

أي: اجعَلوا من مقامات إبراهيمَ عليه السَّلام، وهي شعائرُ الحجِّ، كعرفةَ ومزدلفةَ، ورمْيِ الجمرات، وغيرِها- اجعلوها أماكنَ للعِبادة كالدُّعاء، وقد اتَّخذ الناسُ ذلك مقتدِين بإبراهيم عليه السَّلام، ويدخُل في ذلك، أداءُ ركعتَيِ الطَّواف خَلْفَ المقام المشهور بمقام إبراهيمَ عليه السَّلام.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَاتَّخِذُوا قراءتان:

1- (اتَّخَذوا) بفتح الخاء، على الخبَرَ عمَّن كان قبلنا من المؤمنين، أنَّهم اتخَذوا من مقام إبراهيم مصلًّى.

2- (اتَّخِذوا) بكسر الخاء، والمعنى: اتَّخِذوا- أيُّها الناس- من مقام إبراهيم مصلًّى تُصلُّون عنده.

وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ.

أي: أوْحَيْنا إليهم بوصيةٍ مؤكَّدة، أمرناهما فيها بتطهير بيت الله تعالى من الشِّرك، والكُفر والأوثان، ومِن الرِّجس والنَّجاسات، وأنْ يَبْنِياه بنيَّةٍ خالصةٍ لله عزَّ وجلَّ.

لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ.

أي: أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ بتطهير البيت لأجْل مَن يطوفون بالكعبة، ومَن يُقيمون في البيت مجاورين للعِبادة- فيما يُعرف شرعًا بالاعتكاف- وللمُصلِّين فيه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا.

أي: واذكُروا دعوة إبراهيم عليه السَّلام بحلول الأمْن الدَّائم للبلد الأمين: مكَّةَ.

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: سأل إبراهيمُ عليه السَّلام ربَّه سبحانه بأن يرزق مؤمني أهل مكة من أنواع الثمار المختلفة.

قال تعالى: أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا [القصص: 57].

لَمَّا خصَّ إبراهيم عليه السَّلام في دعائه بالرزق، المؤمنين، وكان رزق الله عزَّ وجلَّ شاملا للمؤمن والكافر، قال تعالى:

قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا.

أي: إنَّ الكافر ينال رزقه الدنيويَّ أيضًا لكنَّه قليلٌ زمنًا ووصفًا، بالنسبة لنعيم الآخرة الكامل، والدائم بلا انقطاعٍ ولا نهاية.

ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

أي: أُلجئه وأَدفعه وهو مُكرَه إلى النار، وساء المصيرُ عذابُ النار بعدَ الذي كانوا فيه من متاعِ الدُّنيا.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 23-24].

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127).

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ.

أي: واذكر رفْعَ إبراهيم لقواعد الكعبةِ، وإسماعيلُ يُعاونه بنقْل الحجارة، ورفعُ القواعِد يكون بإبرازها من الأرض وإعلائها؛ لتصير جِدرًا، فالبِناء إذا اتَّصل بعضُه ببعض، صار كالشيء الواحد، والجدار إذا اتَّصل بالأساس صار الأساسُ مرتفعًا.

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما سبحانه وتعالى، بأنْ يَتلقَّى بِناءَهما البيتَ بالقَبول والرِّضا عنه؛ فهو الذي يَسمع أقوالهما، ويَعلم أعمالَهما ونيَّاتِهما.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128).

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام بأن يجعلهما على الدَّوام، خاضعَينِ له سبحانه بطاعته، ومنقادَينِ لحُكمه، ومستسلمَينِ لأمْره.

وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ.

أي: دَعَوَا اللهَ ربَّهما أن يَجعلَ من بعض ذريَّتهم جماعةً مستسلمة لله تعالى، طائعةً لأمره، وخاضعةً لحُكمه جلَّ وعلا، وقد استُجِيبت هذه الدعوةُ في المسلمين من العرَب.

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا.

أي: بيِّن لنا مشاعرَ الحجِّ، ومواضعَ العبادة فيه، وعرِّفها لنا؛ فنراها.

وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: وفِّقنا للتوبة، فنرجع من معصيتك إلى طاعتك؛ فأنت وحْدَك سبحانك التوَّاب؛ بتوفيقِ عبدك للتوبة أولًا، وقَبولها منه ثانيًا، وأنت وحْدَك الرَّحيم؛ فتختصُّ برحمتك عبادَك المؤمنين.

كما قال تعالى: وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: 118].

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129).

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ.

أي: دعا كلٌّ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السَّلام ربَّهما، بأنْ يبعث رسولًا من ذُريتهما، أي: من العرَب.

وقد استجاب الله تعالى دُعاءَهما، فبعث محمَّدًا - ﷺ -.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [الجمعة: 2].

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

أي: يقرأ عليهم كتابَك الذي تُوحيه إليه، ويُعلِّمهم معانيَ القرآن، ويُعلِّمهم السُّنة؛ فهي التي تبيِّن معانيَ القرآن وأحكامَه، وتُعين على فَهمِه.

قال سبحانه وتعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 44].

وَيُزَكِّيهِمْ.

أي: ويُطهِّرهم من الشِّرك بالله، ويُنمِّيهم ويُكثِّرهم بتوحيد الله تعالى وطاعته.

إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

أي: أنت وحْدَك العزيز الذي لا يُعجِزه شيءٌ أراده، فأعطِنا وذُرِّيَّتنا ما طلبناه منك، وأنت وحْدَك الحكيم، الذي يَضعُ كلَّ شيء في موضعه اللائِق به، فأعطِنا ما يَنفعُنا وينفع ذُريتَنا.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130).

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ.

أي: لا أحدَ يعدِل عن الحنيفيَّة؛ دِينِ إبراهيم الخليل عليه السَّلام، إلَّا مَن كانت نفسُه سفيهةً، أي: جاهلة، طائشةً، غير راشدة.

قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 67-68].

وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا.

أي: يؤكِّد الله تعالى اختيارَه واجتباءَه لإبراهيمَ عليه السَّلام في الدُّنيا؛ فقد هداه ووفَّقه للإيمانِ والأعمالِ التي صار بها خليلَ الرحمن، وإمامَ الحنيفيَّة للناس.

قال سبحانه: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 120-123].

وقال عزَّ وجلَّ: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 27].

وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

أي: إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلام من الفائزين السُّعداء في الدار الآخِرة، وفي الرَّفيق الأعلى مع إخوانه المرسَلين والأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام.

كما دعَا إبراهيمُ عليه السَّلام بذلك، فقال: رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ [الشعراء: 83].

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131).

أي: أمَر اللهُ تعالى خليلَه إبراهيمَ عليه السَّلام حين اصطفاه، بأن يُخلص دِينَه وتوحيدَه له سبحانه، وينقادَ إليه بكل ذلٍّ وخضوعٍ ومحبَّة، فأجاب إبراهيمُ إلى ذلك على الفور.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132).

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ.

أي: عهِد إبراهيمُ عليه السَّلام بهذه الكلمة أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ، والتي تمثِّل الملَّةَ الحنيفيَّة، عهِد بها إلى أبنائه، وكذلك فعَل حفيدُه يعقوب بن إسحاق، فعهِد بها إلى أبنائه.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الزخرف: 26–28].

يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اجتبَى لكم هذا الدِّين الذي تعرِفونه، فلا تُفرِّطوا فيه، ولا تُفارقوه في حياتِكم، بل الْزَموه وقُوموا به؛ ليرزقَكم الله تعالى الوفاةَ عليه، فمَن عاش على شيءٍ مات عليه.

لَمَّا قرَّر سبحانه لبني إسرائيل أنَّ أباهم يعقوبَ ممَّن أوصى بنيه بالإسلام، قال مبكِّتًا لهم:

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133).

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ.

أي: هل كنتم يا معشرَ اليهود، المكَذِّبين بمحمَّدٍ - ﷺ -، شهودًا حاضرين حين أتتْ أباكم يعقوبَ عليه السَّلام مقدِّماتُ الموت.

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي.

أي: هل شهدتُم يعقوب، وهو يسأل أبناءَه مختبرًا لهم: أيَّ شيءٍ ستعبُدون من بعد وفاتي؟

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا.

أي: أجاب أبناءُ يعقوبَ عليه السَّلام أباهم بأنَّهم يعبُدون معبودَه ومعبودَ آبائه- وهم: جَدُّه إبراهيم، وعمُّه إسماعيل، وأبوه إسحاق- وهو الذي لا مَعبودَ بحقٍّ سواه، لا يُشرِكون به في عبادته أحدًا من دونه.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

أي: مُستسلِمون ومنقادون لأمْره، خاضِعون لعبادتِه.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134).

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالِحة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعةٌ قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُه، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (135-141)

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135)

قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136)

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137)

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139)

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140)

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141)



تفسير الآيات:

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135).

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا.

أي: قالت اليهود للمؤمنين: كونوا هودًا، تَهتدوا، وقالت النَّصارى لهم: كونوا نصارى، تَهتدوا؛ فكلٌّ منهم حصَر الهدى في دِينه، بزعم أنَّ مُعتنقَه يصيب طريقَ الحقّ.

قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

أي: يا محمَّد، قلْ لهؤلاء اليهود والنصارى: إنَّ الهداية ليستْ في دِينكم من اليهوديَّة، أو النصرانيَّة، وإنَّما الهداية الحقيقيَّة في اعتناق دِين إبراهيم عليه السَّلام، الذي حقيقتُه الاستقامةُ على طريق التوحيد، والميلُ عن طريق الشِّرك، أي: عِبادة الله وحده لا شريكَ له. وإبراهيمُ عليه السَّلام لم يكُن من عبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا.

كما قال تعالى: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [آل عمران: 67].

وقال سبحانه: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136).

قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا.

أي: أعْلِنوا- أيُّها المؤمنون- أنَّكم مُقِرُّون بقلوبكم وجوارحكم بالله تعالى، وبكلامه، الذي أنزله إليكم.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: صَدَّقْنا وأقرَرْنا بألسنتنا وقلوبِنا بما أنزله الله تعالى على رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- من قبلِ أن يُبدَّل ويُحرَّف-: إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوب، وعلى الأنبياء من ذريَّة يعقوب، وبما أعطاه اللهُ تعالى لموسى من التوراة والمعجِزات، وما أعطاه لعيسى من الإنجيل والمعجِزات كذلك، وما أُعطيَه بقيَّةُ الأنبياء عليهم السَّلام.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

أي: لا نُؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، بل نحن بالجميعِ مؤمنون.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.

أي: ونحن للهِ تعالى وحْدَه دون مَن سواه، مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، فله خاضِعون بالطَّاعة، ومذعِنون بالعبوديَّة.

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137).

فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا.

أي: فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى إيمانًا مماثلًا من كلِّ الوجوه لإيمانكم- أيُّها المسلمون- ومِن ذلك الإيمانُ بجميعِ كتُب الله تعالى، وبجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام- فقد رَشَدوا ووُفِّقوا للحقِّ والخير.

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ.

أي: فإنْ أعرَض أولئك اليهودُ والنَّصارى عن الحقِّ بعد إقامة الحُجَّة عليهم، فلم يُؤمِنوا بمِثل إيمانكم، فاعلموا- أيُّها المؤمنون- أنَّهم يَقصِدون المخالفةَ والمنازعةَ والعداوةَ لكم.

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ.

أي: فإنَّ الله تعالى سيَكفيك يا محمد أمْرَ أولئك اليهود والنصارى، الذين يقصدون عداوتَك؛ فإنَّ الله تعالى يَدفع أذاهم عنك وينصُرك عليهم؛ فهو سبحانه السميعُ لِمَا يقولون، والعالِمُ بما يُبطنون وما يُظهرون، من المكائدِ وأنواع الشُّرور.

صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138).

صِبْغَةَ اللهِ.

أي: اتَّبعوا الحَنيفيَّةَ مِلَّة إبراهيم عليه السَّلام، والْزَموا دِينَ الله تعالى الإسلام، وقوموا به خيرَ قِيام.

وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً.

أي: لا أحَدَ أحسنُ من الله تعالى دِينًا.

وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.

أي: ونحن له سبحانه دون مَن سواه، مخلِصون، خاضِعون، ومتذلِّلون، مع المحبَّةِ الواجِبة له سبحانه.

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (139).

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ.

أي: قل يا محمَّد، لهؤلاء اليهودِ والنصارى -الذين يُجادِلونكم بغير حقٍّ- مُنكرًا عليهم صنيعَهم هذا: هل تُجادِلوننا وتُخاصموننا في توحيدِ الله تعالى لإبطالِ دِين الإسلام، بزعْم أنَّكم أَوْلَى بالله منَّا؟! وكيف تدَّعون ذلك وربُّ الجميعِ واحد؟!

وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ.

أي: وبالإضافةِ إلى أنَّ ربَّنا واحدٌ، ليس ربًّا لكم دُوننا، فلكلٍّ منا أعمالُه التي اكتسبها وسيُجازيه الله تعالى بها؛ فأنتم لستم بأفضلَ منَّا، بل نحن أَوْلى بالله منكم؛ لأنَّنا لا نُشرِك به شيئًا في عبادته، وأنتم تُشرِكون؛ فكيف تدَّعون زُورًا ما نحن أَوْلى به منكم؟!

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (140).

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى.

أي: يُوبِّخ الله تعالى ويُنكِر على اليهود والنَّصارى الذين يحاجُّون في رُسل الله عزَّ وجلَّ بعد محاجَّتهم في دِين الله تعالى، فيَزعُمون أنَّ الرسل المذكورين كانوا على مِلَّتهم، إمَّا اليهوديَّة وإمَّا النصرانيَّة، زاعمين

بذلك أنَّهم أَوْلى بأولئك الرُّسُل الكِرام من المسلمين، وهذا مِن سفَههم؛ فكيف يكون هؤلاء هودًا أو نصارى، واليهوديَّة والنصرانيَّة إنَّما حدَثتْ بعدَهم؟!

قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ.

أي: قل لهم: يا محمَّد -إنِ ادَّعوا أنَّ إبراهيمَ، وإسماعيلَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، والأسباطَ كانوا هودًا أو نصارى-: هل أنتم أعلمُ بالدِّين الذي كانوا عليه، أم اللهُ؟!

كما قال الله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 65-68].

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ.

أي: لا أحدَ أشدُّ ظلمًا في كتمان الشهادة، ممَّن كتَموا ما أنزله الله تعالى في كتُبه، من أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلِمين، فكتموا ذلك ونَحَلوهم اليهوديَّةَ والنصرانيَّة.

وقيل: ما كتموه ممَّا جاء في كتُبهم من العِلم بصِفات رسول الله - ﷺ - وإثبات نبوَّته.

وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: هذا تهديدٌ، ووعيدٌ شديدٌ لأولئك اليهود والنَّصارى، الذي يَكتُمون ما أُنزل إليهم من العِلم، بمجازاتِهم على ذلك؛ فاللهُ تعالى ليس بساهٍ عنهم، بل هو مُطَّلعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تخفَى عليه منهم خافيةٌ.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (141).

أي: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، دَعُوا ذِكر الآباء والأجداد، كإبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ، والمسلمين من أولادِهم؛ إذ لا يَنفعُكم الانتسابُ إليهم وإلى أعمالهم الصالحِة، فخيرُهم لا ينفعُكم إنْ كسبتم شرًّا؛ فإنَّهم جماعة قد مضَتْ لسبيلها، وكلٌّ منكم له عملُه الذي يخصُّه، وتَبِعَتُهُ، من خيرٍ أو شر، ولا يَلحق الآخَر من ذلك شيءٌ، ولا السُّؤال عنه، فلا تُحاسَبون بأعمال سَلفِكم، وإنَّما تُحاسَبون بأعمالكم.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (142-150)

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142)

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ
كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَحِيمٌ (143)

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144)

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147)

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149)

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150)

تفسير الآيات:

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142).

لَمَّا تكرَّر في الآياتِ السابقةِ التنويهُ بإبراهيم عليه السلام وملَّته، والكعبةِ، وأنَّ مَن يرغب عنها قد سفِه نفْسه، فكانت مثارًا لأنْ يقول المشركون: ما ولَّى محمدًا وأتْباعَه عن قبلتهم التي كانوا عليها بمكَّةَ- أي: استقبال الكعبة- مع أنه يقول: إنَّه على مِلَّة إبراهيم، ويأبى اتِّباع اليهوديَّة والنصرانيَّة؛ فكَيف ترك قِبلةَ إبراهيم واستقبلَ بيت المقدس؟! وقد علم اللهُ تعالى ذلك منهم فأنبأَ رسولَه - ﷺ - بقولهم.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا.

أي: سيتساءل الجُهَّال وخِفاف العقول من النَّاس- وهم اليهود، وأهل النِّفاق، والمشركون- سيتساءلون عن المسلمين مُعترِضين، بحيرةٍ وارتياب: أيُّ شيء صرَفَهم عن التوجُّه إلى بيت المقدِس في صلاتهم؛ فحوَّلوا وجوههم عنه؟!

قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ.

أي: قلْ يا محمَّدُ، لهؤلاء المتسائلين: لله تعالى وحْده دون غيرِه مُلكُ المشرق والمغرب وما بينهما، فكلُّ الجِهات مخلوقةٌ ومملوكة له؛ فله أن يأمُرَ بالتوجُّه إلى أيِّ جِهةٍ شاء سبحانه.

يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى يُرشد ويوفِّق بحِكمته مَن يشاء مِن خَلْقه إلى الطَّريق القويم، وقد هدى اللهُ تعالى المؤمنين إلى قِبلة إبراهيمَ عليه السَّلام التي ضلَّ عنها غيرُهم.

سبب النُّزول:

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله - ﷺ - صلَّى نحوَ بيت المقدِس سِتَّةَ عَشرَ، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله - ﷺ - يحبُّ أن يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السفهاء من النَّاس– وهم اليهود -: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فصلَّى مع النبيِّ - ﷺ - رجلٌ، ثمَّ خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله - ﷺ - وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القومُ حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة)).[21]

---

(21) رواه البخاري (399) واللفظ له، ومسلم (525).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ (143).

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

أي: مثل هذا الجَعْل الذي جعَلْنا لكم، وهو هدايتُكم إلى أفضلِ قِبلة، جعلناكم أيضًا خيرَ الأمم وأعدلَها، وسطًا بيْن الإفراط والتفريط، وبين الغلوِّ والجفاء.

كما قال تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ [آل عمران: 110].

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ.

أي: جعَل الله تعالى هذه الأمَّةَ المحمديَّةَ خيرَ الأُمم وأعدَلَها؛ ليشهدوا على الأُمم الأخرى بأنَّ رُسلَهم وأنبياءَهم عليهم الصَّلاة والسلام قد بلَّغوهم رِسالة ربِّهم عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ [الحج: 78].

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا.

قيل: أي: يَشهد محمَّدٌ - ﷺ - على صِدق الأمَّة فيما أخبَرت به عن تبليغ رُسُل الله تعالى رِسالتَه إلى أُممهم، وقيل: يَشهد محمَّدٌ - ﷺ - بأنَّه بلَّغ أمَّته رسالةَ ربِّه، وقيل: يشهد بأنَّهم آمنوا به وبما جاء به من عند الله عزَّ وجلَّ.

وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ.

أي: إنَّما شرَعْنا لك يا محمَّد التوجُّه أولًا إلى بيت المقدِس، ثمَّ صرَفْنا هذه القِبلة عنك إلى الكَعبة؛ امتحانًا؛ لنعلم -عِلمًا تقوم به الحجة على العبد، ويترتَّب عليه الثوابُ والعِقاب- من سيطيعك فيستقبل معك حيثما توجَّهت، ممن يَرتدُّ عن دِينه.

وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ.

أي: وإن كان الشَّأْن أنَّ واقعة صرْفِنا لك يا محمَّد عن التوجه إلى بيت المقدس، وتوليتنا إيَّاك للكعبة، أمرٌ عظيمٌ، شاقٌّ، وثقيلٌ على النُّفوس، عدَا مَن أرشده الله تعالى للحقِّ، ووفَّقه للعمل به، فصَدَّق الرسولَ - ﷺ -، وتأسَّى به في التحوُّل إلى الكعبة.

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ.

أي: إنَّ الله تعالى يقول عن نفسه بأنَّه لا ينبغي له أن يُضيع ثوابَ صلاتكم إلى بيت المقدس قَبل ذلك، بل هو محفوظٌ عنده سبحانه وتعالى.

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم صلَّى إلى بيت المقدِس ستةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عَشرَ شهرًا، وكان يُعجبه أن تكونَ قِبلتُه قِبلَ البيت، وأنَّه صلَّى أوَّلَ صَلاةٍ صلَّاها صَلاةَ العَصرِ، وصلَّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممَّن كان صلَّى معه فمرَّ على أهل المسجد وهم راكعون، قال: أشهدُ بالله لقدْ صليتُ مع النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ قِبَل مكةَ، فداروُا كما هم قِبلَ البيت... وفيه: أنَّه ماتَ على القِبْلة قَبلَ أنْ تُحوَّلَ، رِجالٌ قُتِلوا، فلمْ نَدرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ)).[22]

إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى عظيم الرَّحمة بالنَّاس؛ ولذا لا يُمكن أن يُضيع أجرَ طاعة عمِلها عبادُه المؤمنون.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144).

سبب النُّزول:

---

(22) رواه البخاري (4486) واللفظ له، ومسلم (525).

عن البَراء بن عازبٍ رضي الله عنه، قال: ((كان رسولُ الله - ﷺ - صلَّى نحوَ بيت المَقدِس سِتَّة عشرَ أو سَبعةَ عشرَ شهرًا، وكان رسولُ الله - ﷺ - يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل الله قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فتوجَّه نحو الكعبة، وقال السُّفهاء من النَّاس– وهم اليهود –: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فصلَّى مع النبيِّ - ﷺ - رجلٌ، ثم خرَج بعدما صلَّى، فمرَّ على قومٍ من الأنصار في صلاة العصر نحوَ بيت المقدس، فقال: هو يَشهدُ أنَّه صلَّى مع رسولِ الله - ﷺ -، وأنَّه توجَّه نحوَ الكعبة، فتحرَّف القوم حتى توجَّهوا نحوَ الكعبة)).[23]

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ.

أي: يُؤكِّد الله تعالى لنبيِّه محمَّد - ﷺ - رُؤيتَه له وهو يتلفَّت محوِّلًا وجهَه في جِهات السماء؛ متلهِّفًا لنزول الوحي بخبَر تحويل القِبلة إلى الكعبة.

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا.

أي: فلنوجهنَّك يا محمَّد، إلى قِبلةٍ عظيمةٍ تطمئنُّ إليها، وتحبُّها، وتقبلها.

فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

(23) رواه البخاري (399) واللفظ له، ومسلم (525).

أي: أقبِلْ ببدنِكَ، واصْرِفْ وجهَكَ لأجْل الصَّلاة، إلى جهةِ الكعبة من المسجد الحرام.

وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

أي: وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة.

وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعلمون مِن كتُبهم أنَّ استقبال النبيِّ - ﷺ - والمؤمنين الكَعبةَ، أمرٌ حقٌّ، قد فرَضه الله سبحانه وتعالى.

وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عمَّا يعمل هؤلاء الذين يَعلمون الحقَّ، ويُنكرونه ولا يَتَّبعونه؛ فما يَعملونه من سوءٍ محفوظٌ عند الله تعالى؛ ليعاقبَهم عليه، وبالضدِّ؛ يَحفَظ للمؤمنين امتثالَهم لأوامره، فيُجازيهم بذلك.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَعْمَلُونَ قراءتان:

1- تَعْمَلُونَ بالخطاب.

2- يَعْمَلُونَ بالغيبة.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (145).

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ.

أي: واللهِ لئن جِئتَ يا محمَّدُ، اليهودَ والنَّصارى بكلِّ برهان، وأقمتَ عليهم كلَّ حُجَّةٍ تُثبت أنَّ الحقَّ هو ما جِئتَهم به، من وجوب التحوُّل من قِبلة بيت المقدِس في الصَّلاة إلى التوجُّه شَطرَ المسجد الحرام، فلن يَتركوا أهواءَهم، ويتَّبعوك في ذلك.

وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ.

يُنزِّه الله تعالى نبيَّه - ﷺ - عن متابعة قِبلة اليهود أو النَّصارى، ويُخبِر عن شدَّة متابعتِه لِمَا أمره الله تعالى به؛ فكما أنَّهم مستمسِكون بأهوائهم، فلا اليهوديُّ يتَّبع قِبلة النصرانِيّ، ولا النصرانِيُّ يتَّبع قِبلة اليهوديِّ، فهو أيضًا مستمسِكٌ بأمر الله واتِّباع مرضاته، ولا يتَّبع أهواءهم في جميع أحواله، كما أنَّه لا يُمكنه إرضاؤهم بحالٍ؛ لأنَّ الاختلاف فيما بينهم، واقع؛ ولذا فليس بغريبٍ منهم أنْ لا يتَّبعوا كذلك قِبلةَ محمَّدٍ - ﷺ -.

وفي هذا تَسليةٌ للنبيِّ - ﷺ - والمؤمنين، وتثبيتٌ لهم على الحقِّ، وإنْ خالفهم مَن خالفَهم، وقطْعُ أطماع أهل الكتاب من متابعة النبيِّ - ﷺ - والمؤمنين لقِبلتهم.

وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ.

حذَّر الله تعالى نبيَّه - ﷺ - وأمَّته تبعٌ له في ذلك- مِن اتِّباع أهواء اليهود والنَّصارى، بالتوجُّه نحوَ قِبلتهم من بعد مجيء الحقِّ بالتوجُّه قِبَل الكعبة؛ فإنَّه إنْ فعَل ذلك فهو معدودٌ مع الظَّالمين أنفسَهم بترْك الحقِّ، واتِّباع الباطل.

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146).

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ.

أي: إنَّ اليهود والنَّصارى يَعرِفون من توراتهم وإنجيلهم أنَّ محمَّدًا - ﷺ - حقٌّ، وأنَّ ما جاء به- مِثل صِحَّة التوجُّه نحوَ الكعبة في الصَّلاة- حقٌّ؛ يعرفون ذلك عن يقين تامٍّ، يُماثل يقينَهم بأبنائهم؛ إذ لا يَشتبهون عليهم بغيرِهم.

وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ.

أي: ومع وضوح الحقِّ، وتيقُّن معرفتِه، إلَّا أنَّ طائفةً منهم يَكتُمون النَّاس عن عمْد، ما في كتُبهم من صِفة النبيِّ - ﷺ - وما جاء به من التوجُّه نحو الكعبة وهو الحق.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147).

أي: اعلمْ يا محمَّد، أنَّ الحقَّ وحده هو الذي جاءك من ربِّك، لا ما يقوله اليهود أو النَّصارى، أو غيرهم؛ فلا يحصُل لك أدنى تردُّدٍ وريبةٍ فيه.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (148).

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا.

أي: إنَّ لكلِّ أهل مِلَّةٍ قِبلةً يستقبلونها في صلاتهم، سواء كانت ممَّا ابتدعوه من تِلقاء أنفسهم، أو كانت ممَّا شرَع الله تعالى لهم.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في مُوَلِّيهَا قراءتان:

1- (مُوَلَّاهَا) بمعنى موجَّهٌ ومصروفٌ إليها.

2- (مُوَلِّيهَا) بمعنى متوجِّهٌ إليها ومستقبلها.

لَمَّا كانت توليتُهم وجوهَهم نحوَ القِبلة إنما هو لأجْل تزكيةِ النفس وخلاصِها، وكان ذلك لا يحصُل إلَّا بفعل الخير واجتنابِ الشرِّ؛ قال تعالى:

فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ.

أي: بادِروا وسارِعوا باغتِنام الطاعات، ومن ذلك استقبال القِبلة التي أمَر الله تعالى بها.

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير.

أي: يحثُّ الله تعالى عبادَه على المسارعة إلى الأعمال الصَّالحات قبل الممات، بإعلامهم أنَّ مرجعهم جميعًا إليه، وسيُحشَرون إليه من أي جِهة ماتوا فيها؛ فهو سبحانه القادِر الذي لا يُعجِزه ذلك، ولا أيُّ شيءٍ سواه.

كما قال تعالى: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [المائدة: 48].

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (149).

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة.

وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.

أي: إنَّ توجُّهك نحو الكعبة يا محمَّد، حقٌّ ثابت لا شكَّ فيه.

وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى ليس بساهٍ عن عمَل أحد، بل هو مطَّلعٌ على الأعمال جميعِها، وسيُجازي صاحب كلِّ عملٍ بحسب ما قدَّمه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (150).

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

أي: ومِن أيِّ موضعٍ خرجتَ يا محمَّد، في سفرٍ كان أو غيره، فتوجَّهْ نحوَ الكعبة للصَّلاة، وفي أيِّ موضعٍ وَجِهةٍ كنتم- أيُّها المؤمنون- فعليكم أيضًا أن تستقبلوا الكعبةَ وتتوجَّهوا ناحيتَها عند إرادة الصَّلاة.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ.

أي: حوَّلنا قِبلتَكم إلى الكَعبة؛ كي لا يحتجَّ اليهودُ عليكم قائلين: إنكم ما دُمتم قد وافقتمونا في قِبلتنا نحو بيت المقدس، فلِمَ تَعيبون دِيننا، ولِمَ لا تتبعون ملَّتنا؟ لكن ستبقى حُجَّة الظالمين- وهم

مشركو قريش– الذين يحتجُّون عليكم بالباطل قائلين: إنكم ما دُمتم قد عُدتم إلى قِبلتنا، فلا بدَّ أن تتَّبعوا دِيننا.

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي.

أي: لا تخشَوا هؤلاء الظلمةَ المتعنتين، ولا حُجَجهم الباطلة، وأفرِدوا الخشية لي؛ فإنِّي وحْدي المستحقُّ لذلك.

وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ.

أي: شرَعت لكم استقبال الكعبة؛ لأُكمل لكم شرائعَ ملَّتكم الحَنيفيَّة.

وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

أي: ومن أسباب تحويل القبلة إلى الكعبة أنْ ترجُوا بامتثال أوامر الله تعالى نيلَ هُداه، فتَعلموا الحق وتعملوا به؛ ابتغاءَ رِضاه.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (151-157)

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153)

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154)

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155)

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156)

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

تفسير الآيات:

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (151).

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ.

أي: بيَّنَّا لكم شرائعَ ملَّة إبراهيم الحَنيفيَّة، فأمرْناكم باستقبال الكَعبة؛ نِعمةً من الله تعالى عليكم، مِثل ما أنعم عليكم أيضًا أوَّلَ مرَّة، بإرسال محمَّدٍ - ﷺ - منكم- أيُّها العربُ-؛ إذ يتحدَّث بلِسانكم، وتَعرِفون نَسبَه وخُلُقه؛ وذلك إجابةً لدعوة إبراهيمَ عليه السَّلام.

وكان إبراهيم عليه السلام قد دعا ربَّهُ قائلًا: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [البقرة: 129].

يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ.

أي: هذا الرَّسول الذي أنعمْنا عليكم بإرساله فيكم، أتَى ليقرأ عليكم القُرآن، ويُطهِّركم من دَنَس الشِّرك والكُفران، ورَذائل الأخلاق والعِصيان، ويبيِّن لكم السُّنَّة ومعانِي كلامِ الرَّحمن.

وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أي: ويُنبِّئكم بأخبار مَن سلَف، وأخبار ما يأتي من الغُيوب.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (152).

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ.

أي: عليكم بذِكري في مقابل تلك النعم التي تقدَّم ذكرها. وهذا الذِّكر المأمور به عامٌّ يَشمل ذِكر الله قولًا باللِّسان، وعملًا بالقلب وبالجوارح، ورتَّب الله عزَّ وجلَّ على هذا الذِّكر جزاءً عظيمًا، وهو أن يَذكُر هو سبحانَه مَن ذكَره.

وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ.

أي: اشكُروني على ما مَنحتُكم من نِعمٍ باللِّسانِ وبالقلب والجوارح، ولا تجحدوا إحساني إليكم. ومن أعظمِ ذلك: نِعمةُ الإسلام، وإرسالُ محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسلام، والهدايةُ إلى الشَّرائع الصَّحيحة، ومنها استقبالُ الكعبة الشريفة.

كما قال تعالى: وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ [إبراهيم: 7].

لَمَّا فرَغ تعالى من بيان الأمر بالشُّكر، شرَعَ في بيان الصَّبر، والإرشادِ إلى الاستعانة بالصَّبر والصَّلاة؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ في نِعمةٍ فيَشكرَ عليها، وإمَّا في نِقمةٍ فيَصبرَ عليها فقال تعالى:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (153).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ.

أي: يا مَعشرَ المؤمنين، عليكم بالْتزامِ الصَّبر وأداءِ الصَّلاة؛ فهُما عونٌ لكم على عظيمِ الأعمال.

وذلك مِثل تحمُّل الطاعات كالقِتال في سبيل الله، وترْك المحظورات، وعلى ما يُصيب العبدَ من مصيبات.

إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: إنَّه سبحانه وتعالى مع الصَّابرين معيَّةً خاصَّةً تَقتضي قُربَه منهم، ومحبَّتَه لهم، ونصْرهم وتأييدَهم، وإعانتهم.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ (154).

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ.

أي: ولا تقولوا: إنَّ مَن قُتل في سبيل الله عزَّ وجلَّ، فهو ميِّت.

كما قال تعالى: وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 169 – 171].

بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ.

أي: ليس الأمرُ كما ظننتم، فالحقُّ أنَّ الشُّهداءَ من بعد مقتلهم، وحتى قِيامِ السَّاعة، أحياءٌ عند الله تعالى، حياةً برزخيَّةً يتمتَّعون فيها في الجنَّة، ويُصاحبهم الفرحُ العظيم بما أعطاهم الله تعالى من فضْله، ولكن لا يَشعُر النَّاسُ بهذا الأمر في الدُّنيا؛ فليس لديهم أيُّ إدراكٍ لرؤية ذلك، أو الشُّعور به.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ.

أي: ولَنَختبرنَّكم بشَيءٍ يَسيرٍ يقَع في قلوبِكم من الخوف، وفي أَجسادِكم من الجُوع، ولَنَبتلينَّكم بذَهاب بعض أموالِكم، وموتِ بعضِكم، كأبنائِكم وأَهلِيكم وأقارِبكم، وحُصولِ النَّقْص في ثِمارِكم.

وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ.

أي: أخبِرِ الصَّابرين يا محمَّد، خبرًا يَسرُّهم لم يسبقْ أنْ أخبَرهم به أحدٌ من قبلُ.

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156).

بيَّن سبحانه هنا مَن الصَّابرون الذين أمَر نبيَّه – ﷺ – ببِشارتهم، فأخبَر أنَّهم الذين يقولون– عن اعتقاد ويقين –:

إنَّهم عبيدٌ مملوكون لله الذي له مُطلَق التصرُّف فيهم بحِكمته ورحمته، وإنَّهم منتقِلون من هذه الدُّنيا الفانية ومِمَّا فيها من مصائب، وصائِرون إليه وحْدَه يومَ المعاد، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157).

أي: إنَّ هؤلاءِ الصَّابرين المبشَّرين الذين يقولون: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، لهم من الله تعالى ثناءٌ عليهم وتنويهٌ بشأنهم، وتتنزَّل عليهم منه سبحانه الرَّحمات، وهؤلاء هم الذين أرْشدَهم الله تعالى للحقِّ، ووفَّقهم للعمل به.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (158-163)

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162)

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163)

تفسير الآيات:

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (158).

سبب النُّزول:

عن عُروةَ بن الزُّبَير قال: ((سألتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، فقلتُ لها: أَرأيتِ قَوْلَ اللهِ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا؛ فواللهِ ما على أَحَدٍ جُنَاحٌ أنْ لا يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، قالت: بِئْسَ ما قلتَ يا ابنَ أختي! إنَّ هذهِ لو كانت كَمَا أَوَّلْتَهَا عليه، كانت: لا جُنَاحَ عليهِ أنْ لا يَتَطَوَّفَ بهما، ولكنَّها أُنْزِلَتْ في الأنصارِ، كانوا قبلَ أن يُسلِموا، يُهِلُّونَ لمَناةَ الطَّاغية، التي كانوا يَعبُدونها عندَ المُشلَّلِ، فكان مَن أَهَلَّ يَتحَرَّجُ أنْ يطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا أسلموا، سألوا رسولَ اللهِ - ﷺ - عن ذلكَ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا نتحرَّجُ أن نطوفَ بينَ الصَّفا والمروةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ الآية، قالت عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: وقد سَنَّ رسولُ اللهِ - ﷺ - الطَّوافَ بينهما، فليس لِأَحَدٍ أن يترُكَ الطوافَ بينهما، ثم أَخْبَرْتُ أبا بكرِ بنَ عبدِ الرَّحمنِ فقال: إنَّ هذا لَعِلْمٌ ما كنتُ سمعتُهُ، ولقد سمعتُ رِجالًا من أهلِ العِلم يَذكرونَ: أنَّ النَّاسَ- إلَّا مَن ذَكرتْ عائشةُ- ممَّن كان يُهِلُّ بمناةَ، كانوا يطوفونَ كلُّهم بالصَّفا والمروةِ، فلمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الطَّوافَ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا والمروةَ في القرآنِ، قالوا: يا رسولَ اللهِ، كُنَّا نطوفُ

بالصَّفا والمروةِ، وإنَّ اللهَ أنزَلَ الطوافَ بالبيتِ فلمْ يذكُرِ الصَّفا، فهل علينا من حَرَجٍ أن نطوفَ بالصَّفا والمروةِ، فأنزلَ اللهُ تعالى: إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ الآيةُ. قال أبو بكرٍ: فأسمعُ هذهِ الآيةَ نزلتْ في الفَريقَيْنِ كِلَيهما، في الَّذين كانوا يَتحرَّجونَ أن يَطوفوا بالجاهليةِ بالصَّفا والمروةِ، والذينَ يَطوفونَ ثم تَحرَّجوا أن يَطوفوا بهما في الإسلامِ؛ من أَجْلِ أنَّ اللهَ تعالى أَمَرَ بالطَّوافِ بالبيتِ، ولم يذكُرِ الصَّفا، حتى ذَكَرَ ذلكَ بعدَما ذكرَ الطَّوافَ بالبيتِ)). [24]

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنه إنما حوَّل القبلة إلى الكعبة، وكان في ذلك إحياءٌ لشرائع إبراهيم ودِينه، وكان السعيُ بين الصفا والمروة من شعائر إبراهيم على ما ذُكِر في قصة بناء الكعبة، وسعي هاجر بين الجبلين- فلما كان الأمر كذلك ذكَر الله تعالى هذا الحُكم.

لأنَّه تعالى لَمَّا قال: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...، إلى قوله: وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ، قال: إنَّ الصَّفا والمروة من شعائر الله؛ وإنَّما جعلهما كذلك لأنَّهما من آثار هاجر وإسماعيل ممَّا جرى عليهما مِن البلوى.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ.

أي: إنَّ السَّعي بين الصَّفا والمروة من معالم الدِّين الظاهِرة، التي شرَعها الله تعالى لعباده في الحجِّ.

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا.

---

(24) رواه البخاريُّ (1643)، واللَّفظ له، وروى مسلمٌ بعضَه (1277).

أي: مَن قصَد البيت الحرام لأداء مناسك الحجِّ، أو العمرة، فلا يَتحرَّجَنَّ من الطواف بين الصَّفا والمروة؛ لشُبهة أنَّه من أفعال الجاهليَّة وأنَّهم كانوا يُعظِّمونهما، ويطوفون بينهما.

وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ.

أي: مَن أتى بالطَّاعات المفروضة والمستحبَّة وازداد منها، فلْيعلمْ بأنَّ الله تعالى سيُجازيه بإحسانه؛ لأنَّ الله شاكِر لا يُضيع أجْرَ محسِن، عليمٌ لا يَخفى عنه إحسانُه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (159).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ.

أي: إنَّ عُلماءَ اليهود والنَّصارى الذين أخْفَوا عن النَّاس ما في التَّوراة والإنجيل، من دَلائل إثبات مَبعث النبيِّ - ﷺ - وبيان صِفاته، الذي بيَّنه الله تعالى فيهما بوضوحٍ تامٍّ.

وهذه الآية تعمُّ كلَّ مَن كتَم عن النَّاس ما أوْضحه الله تعالى في القرآن من البيِّنات، وهي الأدلَّةُ والبَراهين الواضِحة التي تُظهر الحقَّ وتُثبِته، والهدى- وهو العلمُ النَّافع المرشِد لطريق الحقّ.

أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ.

أي: يطردُهم الله عزَّ وجلَّ من رحمته، ويطلُب اللاعنون من الله تعالى أن يلعنَهم، واللاعنون قيل: هم الملائكة والمؤمنون، وقيل: هم جميعُ الخلائق، حتى البَهائم تلعنهم.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160).

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا.

أي: استثنى الله عزَّ وجلَّ منهم مَن رجَع عن كِتمانه، معترفًا لله تعالى بذنبه، مُصلحًا حالَ نفْسه، مبيِّنًا للنَّاس ما كتَمَه.

فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

أي: هؤلاء الذين فعَلوا هذا الذي وصفتُ منهم، هم الذين أَقبل توبتَهم؛ فأنا التوَّاب– أي: كثير التوب– الذي يوفِّق عباده للتوبة أولًا، ويَقبلها منهم ثانيًا، فضلًا منِّي ورحمة، فبِتَوبتي أغفِر لهم المعاصي والسيِّئات، وبِرَحمتي أُيسِّر لهم الطَّاعات والخيرات.

لَمَّا لعَن الله الكاتمين؛ واستثنى منهم التائبين، ذكَر المُصرِّين، معبِّرًا عن كتمانهم بالكُفر؛ لتعمَّ العبارةُ كلَّ كُفر، فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (161).

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ.

أي: إنَّ الكفار الذين ظلُّوا على كفرهم حتَّى مماتِهم، ولم يتوبوا.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

أي: إنَّ الله تعالى يطردُ أولئك الكفَّار من رحمته، وأمَّا الملائكة وجميع النَّاس فيَسألون الله عزَّ وجلَّ أن يُبعدَهم ويطردَهم من رحمته.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (162).

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ.

أي: هم خالدون أبدًا في هذه اللَّعنة المستَتْبِعةِ للخلود الأبديّ في نار جهنَّمَ، التي لا يَنقُص فيها عذابُهم زمنًا ولا مِقدارًا؛ فهُم في عذابٍ دائمٍ وشديد.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

أي: لا يُمهلون فيُؤخَّر عنهم العذاب.

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (163).

أي: إنَّ معبودَكم واحدٌ، لا معبود بحقٍّ سواه، فهو المنفرِد في ذاته وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه جلَّ وعلا، وهو الذي وسعتْ رحمتُه كلَّ شيء، ومن رحمته: أنْ أَوجَد عباده، وعرَّفهم على نفْسه بآياته وآلائِه.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (164-167)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا
يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ
دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
(164) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ
حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ
(165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ
(166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)

تفسير الآيات:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164).

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

أي: إنَّ في إنشاء السَّموات والأرض وابتداعهما، وما أودَع الله تعالى فيهما من العَجائب.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

أي: تعاقبِها الدَّائم، بحيث يَجيء أحدُهما، ثم يذهب، ويخلُفه الآخَر مباشرةً دون أن يتأخَّر عنه لحظة، وكذا اختلافهما في الضِّياء والظُّلمة، والحرِّ والبرَد، والطُّول والقِصَر.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا [الفرقان: 62].

وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ.

أي: السُّفن التي تَسير في البحر، فيَنتفع النَّاسُ بالتنقُّل عبْرَها من مكان لآخَر، وبجلْب البضائع، وصَيد الأسماك، وغير ذلك.

وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: المطر الذي أنزله الله تعالى من السَّحاب، فأنبتتْ بسببه الأرضُ بعدَ أن كانت قاحلةً مُجدِبةً.

وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ.

أي: نشَر في أقطارِ الأرض جميعها، كلَّ ما يمشي على وجهِها من مختلف أنواعِ الحيوان.

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ.

أي: تَنويعِها في الركود والهُبوب، وفي الاتِّجاه، والشِّدَّة والنَّفع، فتهبُّ من عِدَّة اتجاهات، وتختلف شِدَّةً وضعفًا، ونفعًا للنَّاس، أو هلاكًا وضرًّا.

وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

أي: السَّحاب الواقِع في جوِّ السَّماء، المذلَّل بأمْر الله تعالى لمصالح الخَلْق.

لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

أي: في تِلك الأمور المذكورة، علاماتٌ ودَلالات واضحةٌ على وَحدانية الله تعالى، وعلى كمال صِفاته، وعظيم أفعاله، ولكن لِمَن لديه عقلٌ رشيد، يتدبَّر به، ويَفهم عن الله تعالى مقصودَه.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ.

أي: إنَّ بعض النَّاس يجعَلون من بعض الخَلق نُظَراءَ لله سبحانه، بمساواتهم معه في المحبَّة، فيحبُّونهم كما يحبُّون الله تعالى.

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ.

أي: إنَّ المؤمنين أشدُّ حبًّا للهِ عزَّ وجلَّ من محبَّةِ أولئك لله تعالى ولأندادهم.

وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ.

أي: لو عاينتَ يا محمَّدُ، حالَ هؤلاء الَّذين نَقَصوا اللهَ تعالى حقَّه، ونَقَصوا أنفسهم حقَّها باتِّخاذهم أندادًا يُحبُّونهم كحبِّهم لله، وعاينوا هم أيضًا حالهم تلك، حين يرون عذابَ الله عزَّ وجلَّ يومَ القيامة فيَعلمون حينها يقينًا أنَّ القوة والقدرة كلَّها لله تعالى وحده، ويَعلمون شِدَّة عذابه لِمَن كفَر أو أشرك به، وأنه ليس للأنداد التي اتَّخذوها شيءٌ من تلك القدرة الإلهيَّة؛ فيتبيَّن لهم عندئذٍ عَجزُها وضعفُها، وأنَّها لا تدفع عنهم ضرًّا، ولا تجلب لهم نفعًا.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يرى قراءتان:

1- (تَرَى) ومعناها: ولو ترَى يا محمَّد هؤلاء المشركين عند رُؤيتهم العذابَ.

2- (يَرَى) ومعناها: ولو رأى الذين كانوا يُشركون في الدنيا عذابَ الآخرة.

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166).

إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا.

أي: أخبر اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ المتبوعين على الكفر والشرك والضلال، يتبرَّؤون حين يعاينون عذاب الآخرة ممَّن اتبعهم واتخذهم أندادًا يحبهم كحبه لله تعالى، ويتنصَّلون منهم ومن عبادتهم لهم.

كما قال الله عزَّ وجلَّ: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا [مريم: 81-82].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [العنكبوت: 25].

وقال جلَّ وعلا: وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سبأ: 31-33].

وقال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف: 53].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ.

أي: عايَنَ الأتباعُ عذابَ جهنَّم، وأيقَنوا أنهم وارِدوها، لكن لا حيلةَ لهم للفرار منها، وانقطعت كلُّ وسيلةٍ تشبَّثوا بها من قبلُ للنجاة؛ كاتخاذِهم أندادًا يساوونهم بالله تعالى في محبَّتِه، انقطعت بهم انقطاعًا شديدًا، فسقط الجميعُ- أتباعًا ومتبوعين- هالكينَ في النَّار.

كما قال تعالى: وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا [الكهف:53].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ [الأنعام: 94].

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ **(167)**.

وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا.

أي: تمنَّى أتباعُ الضَّلالة نادمينَ أنْ لو كانت لهم فرصةٌ أخرى للرُّجوعِ إلى الدُّنيا دارِ العمل؛ لِيتمكَّنوا فيها من التبرُّؤ ممن اتَّخذوهم أندادًا، ولِيُخلِصوا المحبَّةَ والعملَ لله تعالى وحده، ولِيَشْفوا غيظَ قلوبِهم من مَتْبوعيهم الذين تبرَّؤوا منهم وخذَلوهم.

كما قال سبحانه: وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 91-102].

وقال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام: 27-28].

كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ.

أي: أخبرَ الله تعالى عن شُعورِهم بالنَّدم الشَّديد حين انكشف لهم خُبثُ أعمالِهم، وتفريطُهم في جَنْبِ الله تعالى، وقد تبيَّن لهم يقينًا أنَّ ما رأَوْه مِن عملِهم في الدنيا خيرًا قد تلاشى واضمحلَّ هباءً منثورًا، كسرابٍ من الأوهام تعلَّقوا به للنَّجاة، وحين أتَوْه لم يرَوْا من أعمالهم شيئًا، عدا أثرها مِن الحسَرات والعقوبات.

وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ.

أي: إنَّ هؤلاء الذين وصَف الله تعالى حالَهم، لا يَنفعُهم تحسُّرُهم وندمُهم؛ فهم باقون في النَّار، غيرُ خارجينَ منها إلى غيرِ حدٍّ ولا نهاية.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (168-173)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (170) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172)

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا.

يُخاطب اللهُ تعالى جميع النَّاس؛ مؤمنهم وكافرهم، آذِنًا لهم بأن يأكلوا مِن جميع ما في الأرض من نباتاتٍ وحيواناتٍ، بشرْط أنْ يكونَ حلالًا، وطاهرًا غيرَ ضارٍّ.

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

أي: لا تسلكوا طريقَ الشَّيطان، ولا تَقتفوا أثرَه الذي أضلَّ فيه أتْباعه، وهو ما دعا إليه ممَّا هو خلاف طاعة الله عزَّ وجلَّ، ومن ذلك: تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى من المآكل، وتحليلُ ما حرَّم منها، والدَّعوة إلى تناوُل خبيثها، وترْك طيِّبها، لا تُطيعوا هذا العدوَّ الظاهر العداوة، الذي يُريد أنْ يقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكة.

كما قال تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا

إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ [الأنعام: 140-142].

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (169).

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ.

أي: إنَّ الشيطانَ يأمُرُ بالأعمال السيّئة الآثِمة التي تسُوءُ عاقبتُها، وتسُوء صاحبَها، كما يأمُرُ أيضًا بما هو أغلظ من ذلك مما يتناهى قُبحُه، ويتجاوزُ حدَّه كالزِّنا.

وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

أي: يأمُرُ الشَّيطانُ النَّاسَ أيضًا باختلاقِ أعمالٍ باطلة تُنسب مشروعيَّتُها إلى الله عزَّ وجلَّ، كذِبًا وافتراءً عليه جلَّ وعلا، وإلا فليس لهم مستنَدٌ مِن علمٍ صحيحٍ يُثبتُ أمرَ اللهِ تعالى بها، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ الله تعالى، أو تحليل ما حرَّمه مِن المأكولات.

كما قال سبحانه: فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ [النحل: 114-116].

وقال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 27–28].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ [الأعراف: 32–33].

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ **(170)**.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ.

أي: إذا قيل للمشركين: التزِموا باتِّباع الوحيِ الإلهيِّ فحسبُ؛ فأحِلُّوا حلالَه، وحرِّموا حرامَه، دون التَّقوُّلِ على الله تعالى بلا عِلمٍ واتِّباعِ الأوهام.

قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا.

أي: أعرَضوا عن الوحي، وهو العلم النَّافع حقًّا، وأخَذوا بما وجَدوا عليه أسلافهم، فقلَّدوهم فيه، ومن ذلك تحريمُ ما أحلَّ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حرَّمه.

أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ.

أي: أيتَّبعون آباءَهم حتى لو كانوا على هذه الحالِ التي لا يستحقُّون أنْ يُتَّبعوا فيها؛ إذ ليس لديهم عقلٌ سليم يُرشِدهم إلى اتِّباع الحقِّ، ويزجُرُهم عن اتِّباع الباطل، ولا يحمِلون عِلمًا نافعًا يعمَلون على وَفْقِه عملًا صالحًا؛ فكيف يتَّبعون هؤلاء ومِثْلُهم لا يصلُحُ أنْ يُقتدى بهم؟!

كما قال سبحانه: مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ [المائدة: 103-104].

وقال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ [لقمان: 20-21].

وقال جلَّ وعلا: إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ [الصافات: 69-70].

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (171).

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً.

أي: شبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ عند دعوة الدَّاعي لهم إلى الإيمان –كالنبيِّ – ﷺ – شبَّههم بالبهائمِ التي يصوِّت لها راعيها، فتسمَعُ الصَّوت ولا تفهَمُ المعنى، فكذلك حالُ الكفَّارِ الَّذين لا ينتفعون مِن تلك الدَّعوة بشيء، لكنَّهم يسمعون ما تُقام عليهم به الحجَّة.

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

أي: إنَّ قلوبهم لَمَّا لم تؤمن، تعطَّل انتفاعهم الحقيقي بحواسِّهم تبعًا لذلك، فلا يسمعون الحق سماع فَهمٍ وقَبول، ولا ينطقون به، ولا يبصرون طريقه، فقلوبهم لا تعقل شيئًا من الحق.

كما قال تعالى: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا [الفرقان: 44].

وقال جلَّ وعلا: وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ [الأعراف: 179].

وقال أيضًا: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ [الحج: 46].

وقال سبحانه: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ [يونس: 42-43].

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (172).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ.

أي: يأمُرُ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين بالأكل ممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لهم؛ من أنواع المطعوماتِ الطَّاهرة النَّافعة، التي رزَقهم إيَّاها، كما أمَرهم أيضًا بالقيام بشُكره؛ بقلوبهم، وألسنتِهم، وجوارحهم.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ [المائدة: 87-88].

إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.

أي: إنْ كنتم تُطيعون اللهَ تعالى حقًّا، وتخضَعون له ممتثلينَ لأوامرِه، ومجتنبين لنواهيه، فكُلوا ممَّا رزَقكم اللهُ تعالى، واشكروه على ما أنعَم به عليكم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (173).

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ.

أي: قد حرَّم الله تعالى عليكم- أيُّها المؤمنون- الميتةَ التي ماتت حتْفَ أنفها دون ذكاةٍ شرعيَّة، والدَّم المسفوح، ولحم الخنزير- ويدخُل فيه شحمُه- وما ذُبح على غير اسم الله عزَّ وجلَّ، كالذي يُذبَح للأصنام، ويُسمَّى عليه بغير اسمه سبحانه، مع رفْع الصَّوت بذلك.

فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ.

أي: مَن ألجأتْه الضرورةُ إلى الأكْل من تلك المحرَّمات وهو غير مبتغٍ لتناولِها مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، وغير متجاوزٍ قدْرَ الضَّرورة، فلا يتناول منها إلَّا بمقدارِ ما يسدُّ جوعه، فمَن كانت حاله كذلك فليس عليه إثمٌ مِن تناولِ تلك المحرَّمات.

ثم ذكَر تعالى تعليلَ الحُكمِ بانتفاءِ الإثم، فقال:

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى يَغفِر ذنوبَ عباده، فيسترها ويتجاوز عن المؤاخذةِ بها، ومن ذلك أنَّه رفَع بمغفرته الإثمَ عنهم في تناوُل ما حرَّمه؛ تجاوزًا منه سبحانه، وهو الرَّحيم بعباده، ومن رحمته أنْ شرَع لهم ذلك توسعةً منه.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (174–176)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ **(174)**

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ **(175)**

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ **(176)**

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174).

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا.

أي: إنَّ اليهود الَّذين كتَموا أمر نبوَّةِ محمدٍ - ﷺ - الثابتةِ في توراتهم، وكتَموا بعض أحكام الله تعالى فيها، وبدَّلوها- كتحريمهم ما أحلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ- يبتغون بهذا الكتمانِ نَيْلَ عَرَضٍ من حُطام الدُّنيا الفاني؛ من الأموال، والرِّئاسات، وغيرها.

أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ.

أي: إنَّ جزاءَهم في الآخرة مِن جِنس ما عمِلوه في الدُّنيا، فكما أكلوا في بطونهم ما حرَّم الله تعالى بما اكتَسَبوه من مالٍ حرامٍ؛ لكتمانِهم العِلمَ- فكذلك يُطعَمون يومَ القيامة نارًا في بطونهم؛ جزاءً وِفاقًا.

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: لا يُكلِّمهم الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة بكلامِ إكرامٍ ورضًا يسُرُّهم؛ لأنَّه غاضبٌ عليهم، ولا يطهِّرهم من ذنوبهم، ولا يثني عليهم خيرًا؛ لأنَّ قلوبَهم وأعمالَهم دَنِسة، لا تستحقُّ المدحَ والثناء، ولهم مع ذلك كلِّه عذابٌ موجِعٌ، فجمَع الله تعالى لهم بين الألَمِ النَّفسانيِّ والجُسمانيِّ.

ولَمَّا ذكَر سبحانه وتعالى جزاءهم، أتبَعه بترجمةِ حالهم، فقال:

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (175).

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ.

أي: إنَّ أولئك الَّذين وصَفهم الله تعالى بكتمانِ العلم، قد استبدلوا- بفِعلهم هذا- بطريقِ الهُدى الذي يقودُهم إلى رضوان الله عزَّ وجلَّ ونعيمِ الآخرة؛ استبدلوه به طُرُقَ الهوَى التي أضلَّتهم عن الصِّراط المستقيم، وبفِعلهم هذا قد استبدَلوا أيضًا بنَيْلِ مغفرةِ الله تعالى استحقاقَ عذابِه.

فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

أي: تعجَّب اللهُ سبحانه وتعالى من أولئك القوم الَّذين كتموا وحيَ الله تعالى، كيف حبَسوا أنفسَهم ووطَّنوها على ارتكاب هذا العمل المودِي بهم إلى عذابٍ شديد، وكيف تجرَّؤُوا على هذا الصَّنيع وهم يعلَمون سوء عاقبته؟!

لَمَّا ذكَر جلَّ وعلا جزاءهم، ذكَر السَّبب الموجِبَ لهذا العقاب العظيم، فقال:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (176).

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ.

أي: إنَّهم استحقُّوا العذابَ على كتمانهم؛ بسبب أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أنزل كتابَه عليهم بالحقِّ، فحقُّه ألَّا يُكتَم، بل يبيَّن ما يحويه، وكتمانُهم شيئًا من الكتاب كتمانٌ للحقِّ، وذلك مخالِفٌ لمراد الله تعالى؛ لأنَّ ما يُكتَم مِن الحق يخلُفُه الباطلُ، فحقَّ عليهم العذابُ.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ.

أي: إنَّ الَّذين آمنوا ببعض الكتاب وكفَروا ببعض؛ فكتَموا منه أشياءَ، وأظهَروا أشياءَ- قد فارَقوا الحقَّ، وجانَبوا طريقَ الصواب.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (177-179)

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179)

تفسير الآيات:

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177).

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ.

أي: ليس الشَّأن في حصول الخير بلزوم التوجه في الصلاة نحو هذه الجهة أو تلك.

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ.

أي: مَن اتَّصفَ بهذه الأمورِ الآتيةِ من الاعتقادات والأعمال والأخلاق، فقد أخَذَ بمجامعِ الخيرِ كلِّه، فأمَّا الاعتقادات فهي الإيمانُ بالله تعالى، ومن ذلك: الإيمانُ بوجوده وربوبيَّته، وأُلوهيَّته، وأسمائه وصفاتِه، والإيمانُ باليومِ الآخر، ومنه: الإيمانُ بالبَعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك من أمور الآخرة، والإيمانُ بملائكة الرحمن، كالإيمان بوجودِهم وأعمالهم وصِفاتهم، والإيمانُ بالكتب، كالإيمانِ بأنَّ

نزولها من عند الله عزَّ وجلَّ، والإيمانُ بأنبيائه عليهم السَّلام، ومن ذلك: الإيمان بأنَّ رسالتهم حقٌّ من عند الله تبارك وتعالى.

وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ.

أي: ومِن الأعمال الدَّاخلةِ في مسمَّى البِرّ: أنْ يُعطيَ العبدُ المالَ وهو محبٌّ له وراغبٌ فيه، فيدفعه صدقةً لأقاربِه، وللصِّغار الَّذين فقدوا آباءهم وهم دون البلوغ ولا كاسبَ لهم، وللمساكين الَّذين لا يجِدون ما يَكفيهم ويُغْنيهم، وللمسافر المجتاز يريد نفقةً تُوصلُه لموطنه، وللطَّالبين حاجةً ممَّا يعرِضُ لهم مِن سوء، ولعِتْق الرِّقاب ونحوها.

وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا.

أي: وأتَوْا بالصَّلاة تامَّةً ومستقيمة، وأعطَوُا الزَّكاة التي فرَضها اللهُ تعالى عليهم إلى مستحقِّيها، وأتمُّوا ما التزموا به من عهودٍ مع الله عزَّ وجلَّ ومع الخَلْق، فلم يَنقُضوها من بعدِ ميثاقها.

وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ.

أي: الَّذين حبَسوا أنفسهم عن الجزَع والتسخُّطِ وعمَّا يكرَهُه الله عزَّ وجلَّ، في حال فقرِهم، ومرَضِهم، وفي وقت اشتداد القتال في حربِ الأعداء.

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ.

أي: إنَّ أولئك المتَّصِفين بما سبَق ذِكرُه من عقائدَ وأعمالٍ وأخلاق، هم الصَّادقون في إيمانهم؛ لأنَّ أعمالَهم قد صدَّقت إيمانَهم، وهم المتَّقون؛ لأنَّهم فعَلوا ما أُمروا به، واجتنَبوا ما نُهوا عنه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- تحقيقُ المساواة واعتبارُ المماثَلة في القِصاص بين القتلى، فيُقتَل الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكرُ بالذَّكر، والأُنثى بالأُنثى، فلا تتعدوا بالقصاص إلى غير القاتل والجاني (كما لو قَتلت الأُنثى أُنثى أُخرى، فإنَّ الأنثى الجانية هي التي تُقتل، ولا يَحِلُّ أن يُقتل بهذه الأنثى المقتولة رجلٌ لم يقتلها، ومثل ذلك: الحرُّ بالحرِّ، والعبدُ بالعبد، والذَّكرُ بالذَّكر).

فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ.

أي: إذا عفا أولياءُ المقتول فلم يُطالِبوا بدَمِه، سقَط القِصاصُ عن القاتل، ووجبت عليه الدِّيَةُ، والواجب على العافي عند قَبضِ الدِّيَة ألَّا يكلِّفَ القاتلَ ما لم يوجِبْه الله تعالى عليه، ولا يشُقَّ عليه بما

لا طاقةَ له به، وعلى القاتل أداءُ ما لزِمه لأولياء المقتولِ من غيرِ مماطَلةٍ ولا إنقاصٍ للدِّيَة، ولا صدورِ إساءةٍ فِعليَّةٍ أو قوليَّةٍ منه لهم، فعلى أولياء المقتول حُسنُ الاقتضاء، وعلى القاتل حُسنُ القضاء.

ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ.

أي: إنَّ ما شرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ من إباحةِ العفوِ عن القاتل وأخْذِ الدِّيَة عوضًا عن القِصاص- حُكْمٌ فيه تخفيفٌ من الله تعالى لهذه الأمَّة، ورحمةٌ منه بعباده.

فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ.

أي: مَن تجاوَز ما حدَّه الله تعالى مِن الأحكام السَّابقة للقِصاص- كأنْ يَقتلَ وليُّ المقتولِ القاتلَ بعد العفوِ عنه، أو يعودَ القاتلُ إلى جِنايته مرة أخرى- فإنَّ له عقابًا موجعًا، قيل: هو قتلُه في الدنيا، وقيل: عقوبتُه في الآخرة.

وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179).

أي: إنَّ في مشروعيةِ القِصاص حياةً، لِمَن أعمَل عقلَه؛ ليتدبَّرَ ويفهمَ عن الله تعالى مرادَه من هذا الحُكم، فينزجِر ويجتنِب القتلَ؛ فإنَّ مَن أراد القتل إذا علِم أنَّه يُقتَل قِصاصًا بمن قتَله، كفَّ عن القتل؛ فكان في ذلك حياةٌ له ولِمَن أراد قَتْلَه، وإذا رُئي القاتلُ مقتولًا انزَجر بذلك غيرُه،

كما أنَّه كان في أهل الجاهليَّةِ مَن إذا قُتل الرَّجلُ مِن قومهم قتَلوا به أكثرَ مِن واحد من عشيرةِ القاتل؛ فشرَع اللهُ تعالى القِصاص، فلا يُقتَلُ بالمقتولِ غيرُ قاتِله، وفي ذلك حياةٌ لقومِه.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (180-182)

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182)

تفسير الآيات:

لَمَّا كان في الخِطاب السَّابق ذِكْرُ القَتْلِ، والقِصاص الذي هو حالُ حضور الموتِ، انتظَم به ذِكرُ الوصيَّة؛ لأنَّه حالُ مَن حضَره الموتُ، فقال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (180)﴾.

أي: فُرِضَ عليكم- أيُّها المؤمنون- إذا أتَتْكم أسبابُ الموت ومقدِّماتُه، وكان لديكم مالٌ: أنْ تعهَدوا ببعضِ هذا المال إلى الوالديْنِ اللَّذيْن لا يرثان لمانع، وإلى الأقارب الذين لا يرثون، وذلك مِن غير إسرافٍ ولا تقتير، ولا اقتصارٍ على الأبعدِ دون الأقرب، بل يُرتِّبون على القُربِ والحاجة، ودون إجحافٍ بالوَرَثةِ، فلا تُتجاوَزُ الوصيةُ لأولئك بأكثرَ من ثُلُث المال، وهذا أمرٌ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على المتَّصفين بالتَّقوى.

لَمَّا ذكَر اللهُ سبحانه وتعالى أمرَ الوصيةِ ووجوبها، وعظَّم أمرها، أتبَعه بما يَجري مجرى الوعيد في تغييرها، فقال تعالى:

﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (181)﴾.

أي: فمَن غيَّر الوصية بعدَما سمعها من الموصي بأنْ زاد فيها أو أنقَص أو غير ذلك، فقد تعلَّق الإثمُ به، أمَّا الموصي من غير جَنَفٍ ولا إثم فقد برِئَتْ ذمَّته،

والله تعالى يسمع ويعلَمُ حالَ الاثنينِ، الموصي والمبدِّلِ وصيَّتَه، ويجازي كلًّا بما يستحقُّ.

فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (182).

أي: فَمَنْ خاف أنْ يَحيد الموصي في وصيَّته عن الحقِّ، سواءٌ عن غير قصدٍ منه، أو متعمدًا؛ وذلك كأن يوصيَ لغير الورثة بأكثرَ من ثُلث ماله، فهذا لا إثمَ عليه إنْ نصَح الموصي في حياتِه بتبديل الوصيةِ، فبدَّلها، أو قام المصلحُ بتبديلها بعد موته، فعدَّلها على الوجهِ الشَّرعي، وبهذا يزول فسادُ الوصية، ويزول معه أيُّ شِقاقٍ وقَع بين الموصِي والوَرَثة، أو بين الوَرَثة والموصَى لهم.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (183-188)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183)

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184)

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185)

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186)

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.

أي: يُخبِر اللهُ تعالى المؤمنينَ به وبرسولِه مِن هذه الأمَّةِ بفَرْض عِبادةِ الصِّيام عليهم.

والصِّيام: هو التعبُّدُ لله تعالى بالإمساكِ عن الأكْلِ والشُّرب والجِماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

أي: فُرِضَت عليكم عِبادةُ الصِّيام كما فُرِضت أيضًا على الأُممِ السَّابِقة.

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ.

أي: من أجل الوصولِ بصِيامِكم إلى مَرتبةِ التَّقوى.

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (184).

أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ.

أي: إنَّ هذا الصِّيامَ مفروضٌ عليكم في أيَّامٍ قليلةٍ، مُحصيَّة ساعاتُها، وهي أيَّامُ شهرِ رَمضانَ.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

أي: مَن كان مِن المؤمنين في حالِ مرضٍ أو سَفَر، فأفطَر، فعليه أنْ يَقضيَ صيامَ الأيَّام الَّتي أفطَرها في أيَّامٍ أخرى.

وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ

أي: يجبُ على مَن استطاع الصِّيامَ ولم يصُمْ، أنْ يُقدِّمَ عن كلِّ يومٍ أفطَره طعامًا لمسكينٍ.

هذا الحُكمُ المذكور في الآية منسوخٌ؛ إذ لَمَّا فرَض اللهُ تعالى الصَّومَ في صدْر الإسلام، كان المسلِمُ يُخيَّر بين الصَّوم وإطعامِ مسكينٍ عن كلِّ يوم أفطَره، فإنِ اختار الصيامَ كان خيرًا له، ثمَّ نَسَخ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا التخييرَ في حقِّ القادِر على الصيام بقوله: فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ، فأوجب عليه الصومَ، وبقِي الفطرُ والإطعامُ للعاجز عنه.

فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ.

أي: مَن أطعَم أكثرَ مِن مسكين، فذلك أفضلُ من إطعامِ مسكينٍ واحدٍ عن كلِّ يومٍ أفطَره.

وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ.

أي: صيامُ ما كُتِبَ لكم، خيرٌ لكم مِن أنْ تُفطِروا وتُطعِموا.

إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: إذا عرَفتُم ما في الصَّومِ مِن الخيرِ لكم، فإنَّكم لن تتهاونوا في الصِّيام.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (185).

شَهْرُ رَمَضَانَ.

أي: الأيَّامُ المعدودات هي شهرُ رمضانَ.

الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ.

قيل: المعنى: أنَّ القرآنَ نزَل جُملةً واحدة- أي:كاملًا- مِن اللَّوحِ المحفوظ إلى السَّماء الدُّنيا في ليلة القَدْر مِن شَهرِ رمضان، وقيل: المعنى: أنَّ ابتداءَ نزولِ القُرآنِ على النَّبيّ - ﷺ - كان في ليلةِ القَدْر من شهرِ رَمضانَ.

هُدًى لِلنَّاسِ.

أي: إنَّ القرآنَ يُرشد النَّاسَ، ويدُلُّهم على طريقِ الحقّ.

وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ.

أي: إنَّ القرآنَ مشتمِلٌ على آياتٍ واضحات، وهي دَلائلُ وبراهينُ جليَّةٌ، تبيّن الحقَّ، وتُرشِد إليه، وتُثبِت صِدقَ ما في القرآن مِن أخبارٍ، وعَدْلَ ما فيه من أحكامٍ، وتَفصِل بين الحقِّ والباطل.

فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ.

أي: فمَن كان حاضرًا مُقِيمًا في بلدِه، فقد وجَب عليه صيامُ ما حضَرَه من أيَّام الشَّهر.

وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ.

أي: إنَّ مَن كان في حالِ المرَض أو السَّفر، فأفطَر، فعليه أنْ يقضيَ الصِّيامَ في أيَّامٍ أخرى، بعدَد الأيَّام الَّتي أفطَرها.

يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ.

أي: إنَّما رخَّص اللهُ تعالى في الإفطار لِمَن كان مريضًا، أو مسافرًا، وشرَعَ قضاءَ ما أفطَره؛ لأنَّه يحبُّ أنْ يُخفِّف عن المؤمنين، ويُسهِّل عليهم أحكامَه.

وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ.

أي: ويُريد اللهُ تعالى أنْ تُكمِلوا العِدَّة، والمعنى: يريدُ اللهُ شرعًا- أي: يُحِبُّ- أنْ تُكمِلوا عدَّةَ شهر رمضان بقضاءِ الأيَّام الَّتي أفطَرْتموها منه.

وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ.

أي: ويُريد اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ تُكبِّرُوه، والمعنى: يُريد اللهُ شرعًا- أي: يُحبُّ- أنْ تُعظِّموه بقول: اللهُ أكبَرُ، وذلك بعد انقضاءِ شهرِ رمضانَ؛ لِمَا أنعَم به عليكم من إرشادكم إلى هذا الشَّهرِ، وتشريع صومه وأحكامه، وتوفيقكم لتحقيق صيامه وإتمامِه.

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

أي: من أجْل أنْ تكونوا بتكبيرِكم اللهَ عزَّ وجلَّ، وبالقيام بغير ذلك من أنواع شكره كأداء فرائضه وترك محارمه، مِن الشَّاكرين لِنعمة اللهِ تعالى عليكم بصِيام شهرِ رمضانَ، وتيسيرِه أحكامَه عليكم.

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (186).

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ.

أي: إذا سألَك المؤمنون عن قُرْبي يا محمَّدُ، فأنا قريبٌ منهم، وأستجيبُ لدعاءِ مَن دعاني منهم، سواءٌ كان دعاءَ عبادةٍ فأُثيبهم عليها، أو دعاءَ مسألةٍ فأُعطيهم ما طلبوا.

فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ.

أي: فلينقادوا لي، ممتثِلين أوامري، ومجتَنِبين نواهيَّ، وليؤمنوا بأنِّي أُثيبهم على انقيادِهم لي، وأُجيب دعاءَهم وتضرُّعَهم لي، من أجل إصابةَ الحقِّ بذلك، والتَّوفيقَ للعِلم النَّافع والعملِ الصالح.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (187)

سبب النُّزول:

عن البَرَاء رضي الله عنه، قال: ((كان أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم إذا كان الرجلُ صائمًا، فحضرَ الإفطارُ، فنام قبل أنْ يُفطِر، لَم يأكُلْ ليلتَه ولا يومَه حتى يُمسِيَ، وإنَّ قيسَ بنَ صِرْمَةَ الأنصاريَّ كان صائمًا، فلمَّا حضَر الإفطارُ أتى امرأتَه فقال لها: أعندكِ طعامٌ؟ قالت: لا، ولكن أنطلِقُ فأطلُب لك، وكان يومَه يعملُ فغلبتْه عيناه، فقالت: خيبةً لكَ، فلمَّا انتصَف النَّهارُ، غُشِي عليه، فذُكِر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فنزَلَتْ هذه الآيةُ: أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ

الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ، ففرِحوا بها فرَحًا شديدًا، ونزلت: وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ)).[25]

وعن البَراءِ رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَل صومُ شهر رمضان، كانوا لا يقرَبون النِّساءَ رمضانَ كلَّه، فكان رجالٌ يخُونون أنفسَهم، فأنزَل اللهُ: عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ الآيةَ)).[26]

وعن سَهْلِ بن سعدٍ رضي الله عنه، قال: ((أُنزِلت: كُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ، ولم ينزل: مِنَ الْفَجْرِ، فكان رِجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربَط أحدُهم في رِجْليه الخيطَ الأبيضَ والخيطَ الأسود، فلا يزال يأكل ويشرَبُ حتى يتبيَّنَ له رؤيتُهما، فأنزَل الله بعدُ: مِنَ الْفَجْرِ، فعلِموا أنَّه إنَّما يعني اللَّيلَ والنَّهارَ)).[27]

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ.

أي: أُبيح لكم في ليالي الصِّيام الإفضاءُ إلى نسائِكم، أي: مجامعتُهنَّ.

هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ.

---

(25) رواه البخاري (1915).

(26) رواه البخاري (4508).

(27) رواه البخاري (1917)، ومسلم (1091).

أي: إنَّ كلًّا مِن الزَّوجِ والزَّوجة بمثابةِ اللِّباس للآخَر، وذلك تعبيرٌ عن انضمامِهما متجرِّدَيْنِ، وشدةِ امتزاجِهما ببعضِهما حال الجِماعِ.

عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ.

أي: عَلِم اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّكم كنتم- أيُّها المؤمنون- تخُونون أنفسَكم بمعصيةِ الله سبحانه، فلا تَفُون بأمرِ الله تعالى لكم بالامتناعِ عن الجِماعِ لياليَ الصِّيام، إلَّا أنَّه قد تاب عليكم بأنْ أحلَّ لكم هذا الَّذي حرَّم عليكم من قبلُ، وتجاوَز عنكم ما سلَف من التخوُّنِ.

فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ.

أي: فالآنَ بعد هذه السَّعةِ بإباحة جِماعِ نسائكم، لكم أنْ تُجامِعوهنَّ، واطلُبوا بجِماعِهِنَّ ما قدَّر اللهُ تعالى لكم مِن الولد، وممَّا كتَب الله تعالى لكم أيضًا ليلة القَدْرِ، مِن ليالي شهرِ رمضانَ، فلا ينبغي لكم أنْ تشتغلوا بلذَّةِ الجِماعِ عنها، فتُفوِّتوا أجرها.

وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ.

أي: أباح تعالى الأكلَ والشُّرب في أيِّ وقتٍ من الليل شاءه الصائمُ، حتى يظهَر ويتميَّز بياضُ النَّهار من سواد اللَّيل، وحينها يجبُ الإمساكُ عن الأكل والشُّربِ والجِماع إلى غروب الشمس.

وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ.

نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن الجِماعِ حالَ اعتكافهم للعبادة في بيوتِ اللهِ تبارك وتعالى.

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا.

أي: هذا الَّذي بيَّنه اللهُ تعالى مِن الأحكامِ في هذه الآيةِ- كتحريمِ الأكلِ، والشُّرب، والجِماعِ في نهار الصِّيام، وغير ذلك مِن محرَّمات- قد عرَّفها اللهُ تعالى لعباده، وبيَّنها، لتفصلها عن الحلالِ، وتتميَّزَ لهم، وعليهم أنْ يُبقُوا أنفسَهم بعيدةً عنها.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ.

أي: كما بيَّن اللهُ تعالى لعباده أحكامَ الصِّيام أتمَّ تبيينٍ، فكذلك يُبيِّن أيضًا سائرَ الأحكام الأخرى في كتابِهِ أو على لسانِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ، ويوضِّحُها لهم أكملَ إيضاح؛ كي يقوموا بأحكامِه؛ فِعلًا لِما أمَر، واجتنابًا لِما نهى.

لَمَّا حذَّر الله تعالى من الجُرأة على مخالفة حُكم الصِّيام غيرِ المأذون فيه في قوله: تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا، وهو ضربٌ من الأكْل الحرام- عطَف عليه أكلًا آخرَ مُحرَّمًا، وهو أكلُ المال بالباطل. وأيضًا لَمَّا سبَق في آيات الصِّيام تحريمٌ لأشياءَ خاصَّة في زمانٍ خاصٍّ- ذكَر عَقِبَه ما تحريمُه عامٌّ في زمانه، وهو أكْل أموال النَّاس بالباطل، فقال:

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (188).

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ.

أي: لايأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغير الطُّرق التي أباحها اللهُ تعالى لذلك.

ثم أفرد الله تعالى بالذِّكر أحدَ أنواع أكْل أموال الناس بالباطل، فقال:

وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ.

أي: لا تتوصَّلوا بحُكم الحاكم إلى أكلِ الأموال بغير حقٍّ؛ وذلك كأن يجحَدَ امرؤٌ الحقَّ الذي عليه، وليس عليه بيِّنة، ثمَّ يُخاصمه عند القاضي، فيطلُب القاضي من المدَّعِي بيّنةً،

فإن لم تكُنْ له بيّنة طلَب من المدَّعَى عليه اليمينَ،

فإذا حلَف برِئ، فتوصَّل إلى جَحدِ مالِ غيره بالمحاكمة، أو يتوصَّل إلى ذلك برِشْوة الحاكم بالمالِ؛ ليحكمَ له بتلك الأموالِ بغير حقٍّ.

لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: فتكونون بذلك آكِلينَ طائفةً مِن أموال النَّاس بالحرامِ، وأنتم تعلَمون أنَّكم واقِعونَ في الحرام.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (189-195)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189)

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190)

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191)

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193)

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ **(194)**

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ **(195)**



تفسير الآيات:

لَمَّا أتمَّ اللهُ سبحانه وتعالى البيانَ لِمَا أراده ممَّا شرَعه في شهر الصَّوم ليلًا ونهارًا، وبعض ما تبع ذلك، وكان كثيرٌ من الأحكام يدور على الهلال، لا سيَّما الحجُّ، وكانت الأهلَّة كالحُكَّام تُوجب أشياءَ وتَنفي غيرها؛ كالصِّيام والدُّيون والزَّكوات، قال سبحانه:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ.

أي: يسألُك أصحابُك يا محمَّد عن القمرِ حين يبدو هلالًا في بدايات الشَّهر ونهاياته: ما حِكمةُ هذا التغيُّر، خلافًا للشمس الباقية على هَيئةٍ ثابتة؟ فلقَّنه الله تعالى الإجابةَ بأنَّها خُلِقت؛ ليعرفَ النَّاسُ بها أوقاتَ حَجِّهم، وشهر صومهم، ويوم فِطرهم، وعِدَد نِسائهم، وغير ذلك من أحكامهم.

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا.

سبب النُّزول:

عن أبي إسحاقَ قال: سمعتُ البَراء رضي الله عنه يقول: ((نزلت هذه الآيةُ فينا، كانت الأنصارُ إذا حجُّوا فجاؤوا لم يدخلوا من قِبَل أبواب بيوتهم، ولكن مِن ظهورها، فجاء رجل من الأنصار فدخَل

من قِبَل بابه، فكأنَّه عُيِّرَ بذلك فنزلت: وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)).[28]

أي: إنَّ هذا العملَ مع اعتقاده قُربةً، ليس مِن الخير في شيء، فنفَى الله تعالى مشروعيَّتَه؛ وذلك أنَّ أهلَ الجاهلية من سوى القُرشيّين، كانوا إذا أحرَموا بحجٍّ أو عُمرة لم يدخلوا البيوتَ من أبوابها؛ تعبُّدًا لله عزَّ وجلَّ، فإذا احتاجوا منها شيئًا دخلوا من خلفِها، يظنُّون ذلك خيرًا يتقرَّبون به إلى الله عزَّ وجلَّ.

وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا.

أي: إنَّ البِرَّ الحقيقيَّ هو أنَّ يتَّقيَ العبدُ ربَّه عزَّ وجلَّ؛ بامتثال أوامره، واجتنابِ نواهيه، لا التعبُّد بما لم يشرَعْه الله جل وعلا؛ ولذا أمَر بإتيان البيوتِ مِن أبوابها كما هو الأصلُ الَّذي جرَتْ به العادة؛ إذ لا دليلَ يمنَعُ مِن ذلك حال الإحرام.

وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

أي: افعَلوا ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك: تَرْكُ الابتداع، والالتزام بالاتباع، من أجل أنْ تظفَروا بما تطلُبون، وتنجُوا ممَّا تحذَرون.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190).

---

(28) رواه البخاري (1803)، ومسلم (3026).

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ.

أي: قاتِلوا– أيُّها المؤمنون–؛ لأجلِ الله تعالى وحْده، وإعلاءً لدِينه، وبالطريقة الَّتي شرَعها سبحانه، من يُقاتِلونكم من الكفَّار دون مَن سواهم.

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.

أي: لا تتجاوَزوا ما حدَّه اللهُ تعالى لكم ممَّا شرَعه مِن أحكام القتال، ومن ذلك عدمُ قتلِ النِّساء والأطفال والشيوخ، وغيرِهم ممَّن لم يُعاونوا بأيِّ وسيلةٍ على قتالِ المؤمنين؛ وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يحبُّ مَن تجاوَز حدودَ ما شرعه، فوقَع في المحرَّمات، سواءٌ في القتال أو غيره.

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191).

وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ.

أي: اقتُلوا الكفَّارَ الَّذين يُقاتِلون المؤمنين، في أيِّ مكانٍ ظفِرْتم فيه بهم، وإن لم يكونوا في ساحةِ القتال.

وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ.

أي: أخرِجوا هؤلاء الَّذين يقاتلونكم مِن دياركم الَّتي أخرَجوكم منها من قبلُ.

وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ.

أي: إنَّ ما هم عليه من الشِّرك بالله تعالى والكفر به، أمرٌ أعظمُ من إزهاق نفوسهم، كما أنَّ محاولاتهم لصدِّ المؤمنين عن دِينهم؛ ليصيروا مِثلهم من المشركين، أشدُّ مِن أنْ يُقتلوا وهم مستمسِكون بدِينهم؛ فالفتنة تتكرَّر أضرارُها، بينما يحدُث ألَمُ القتلِ مرَّةً واحدة، والقتل يقطَع عن الدُّنيا، لكن الفِتنة قد تقطَع عن نعيم الآخرة.

وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ.

أي: نَهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنين عن ابتداءِ الكفَّار بقتلٍ أو قتالٍ في المسجد الحرام حتى يكونوا هم الَّذين يبدَؤون بذلك، فإن قاتَلوكم أو قتَلوكم، فاقتُلوهم دَفْعًا لعُدوانهم عليكم.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ، يُقَاتِلُوكُمْ، قَاتَلُوكُمْ قراءتان لكلٍّ منها:

1- وَلَا تَقْتُلُوهُمْ، يَقْتُلُوكُمْ، قَتَلُوكُمْ أي وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْد الْمَسْجِدِ الْحَرَام حَتَّى يقتلُوا بَعْضكُم، فإنْ قتلوا بَعْضكُم فاقتلوهم.

2- وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ، يُقَاتِلُوكُمْ، قَاتَلُوكُمْ أي لا تحاربوهم حَتَّى يحاربوكم فَإِن حاربوكم فاقتلوهم، والمراد النهي عن قصدِهم بالقتال حتى يكون الابتداء منهم، والقِتَال من اثنين، والقَتْل من الواحد.

كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ.

أي: كما قرَّرنا القتل جزاءً على من قاتلكم أو قتلكم، فجزاء الكافرين (المعتدين) أيضًا القتلُ، وفي هذا تهديدٌ لهم.

فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: فإنْ ترَكوا القتال وأسلَموا، فإنَّ الله تعالى يتجاوَزُ عن كلِّ ما سلَف منهم من سيِّئات، وبرحمته يوفِّقُهم للخير الَّذي يُثِيبهم عليه حسنات.

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193).

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ.

أي: قاتِلوا المشركين الَّذين يقاتِلونكم حتى لا يكونَ ثَمَّ شِركٌ بالله تعالى، فتكون العبادة والطَّاعة لله عزَّ وجلَّ وحده دون غيره، فهذا هو المقصودُ مِن القتال.

فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ.

أي: فإنْ توقَّفوا عن قتالكم وأسلَموا، وأخلَصوا العبادةَ لله تعالى وحده، فقد تخلَّصوا من الظُّلم، فكُفُّوا عنهم؛ فإنَّه لا تحلُّ معاقَبة أحدٍ بقتاله أو قتله، إلَّا لِمَا وقَع منه من ظلمٍ بشِرك أو كُفر أو قَتْل أو مقاتَلة.

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194).

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ.

أي: إنْ قاتَلوكم في أَحدِ الأشهر الحُرُم، فقاتِلوهم فيه، وقيل: المراد أنَّ الشهرَ الحرام الذي قضى فيه النبيُّ - ﷺ - والمسلمين معه العُمرةَ (وهو شهر ذي القَعدة) أيضًا، جاء في مُقابِل الشَّهر الحرام (شهر ذي القَعدة) الذي صدَّهم فيه المشرِكون عن العُمرة في العام الَّذي سبَق عمرةَ القضاء.

وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ.

أي: كما انتهكوا لكم حُرمةَ شهرِكم، فقد انتهكتم منهم حرمةَ شهرهم أيضًا، سواءً بسواءٍ، جزاءً عادلًا، وكذا كلُّ شيء يُحترم كالبلدِ الحرام، وغيره من جميع ما أمَر الشرعُ باحترامه، فمن تجرَّأ عليه وانتهك حُرمته، فإنَّه يُقتصُّ منه بمِثله.

فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ.

أي: هذا أمرٌ من الله تعالى بالعدلِ حتى في شأنِ المعاقَبة، فيُقتصُّ مِن المعتدي بمِثل عُدوانه، دون زيادة.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ.

أي: أمَر تعالى بلزومِ تقواه، بعدمِ تجاوزِ ما وجب لهم من القِصاص، ولْيعلَموا معتقدين جازمين بأن اللهَ عزَّ وجلَّ مع عباده المتَّقين الَّذين يمتثلون أوامرَه، ويجتنبون نواهيَه، فيؤيِّدهم وينصُرُهم ويوفِّقهم.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (195).

سبب النُّزول:

عن حُذَيْفَة رضي الله عنه: ((وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ؛ قال: نَزلَتْ في النَّفَقةِ)).[29]

وعن أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رضي الله عنه، قال: ((كنَّا بمدينةِ الرُّومِ، فأَخْرَجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الرُّومِ، فخرج إليهم من المسلمينَ مِثْلُهم أو أكثرُ، وعلى أهلِ مصرَ عُقْبَةُ بنُ عامرٍ، وعلى الجماعةِ فَضَالةُ بنُ عُبَيدٍ، فحمل رجلٌ من المسلمينَ على صَفِّ الرُّومِ، حتى دخل عليهم، فصاح النَّاسُ وقالوا:

(29) رواه البخاري (4516).

سبحانَ اللهِ! يُلْقِي بيَدَيْهِ إلى التهلُكةِ، فقام أبو أيوبَ الأنصاريُّ فقال: يا أَيُّها النَّاسُ، إنَّكم لَتُؤَوِّلُونَ هذه الآيةَ هذا التأويلَ، وإنما نَزَلَت هذه الآيةُ فينا مَعْشَرَ الأنصارِ، لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فقال بعضُنا لبعضٍ سِرًّا دون رسولِ اللهِ – ﷺ –: إنَّ أموالَنا قد ضاعَت، وإنَّ اللهَ قد أَعَزَّ الإسلامَ وكَثُرَ ناصِرُوه، فلو أَقَمْنا في أموالِنا فأَصْلَحْنا ما ضاع منها، فأنزل اللهُ تبارك وتعالى على نَبِيِّه – ﷺ – يَرُدُّ علينا ما قُلْنا؛ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ [البقرة: 195] ، فكانت التَّهْلُكَةُ الإقامةَ على الأموالِ وإصلاحِها، وتَرْكَنا الغَزْوَ، فما زال أبو أيوبَ شاخصًا في سبيلِ اللهِ حتى دُفِنَ بأرضِ الرُّومِ)).[30]

ولا تعارضَ بين الرِّوايتينِ، بل إنَّ رِواية أبي أيُّوبَ رضي الله عنه هي مُبيِّنة ومفسِّرة للإجمالِ الوارد في رِواية حُذيفةَ بن اليمان رضي الله عنه السَّابقة.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

أي: أَنفِقوا قُربةً لله عزَّ وجلَّ في وجوه الطاعات– ومن ذلك: الإنفاق في جهاد أعداء الدِّين؛ لإعلاءِ كلمة الله تعالى– واجتَنِبوا إلْقاءَ أنفُسِكم فيما فيه هلاكُها وعذابُها، وذلك بتَرْك ما أمَر الله تعالى

(30) أخرَجه الترمذي (2972) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (6/299) (11029)، وابن حِبَّان (11/9) (4711). قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وصحَّح إسناده الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (5/319)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2972).

به، أو فِعْل ما نهى عنه، ومن ذلك: تَرْك الإنفاق في الجهاد؛ فليستِ التَّهلكةُ أن يُقتَل الرَّجُلُ في سبيل الله تعالى، ولكنَّ التَّهلكةَ في ترْك الإنفاق في سبيله سبحانه.

وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه بأن يُحسنوا في كل شيء؛ في معاملتِهم للخالق عزَّ وجلَّ بعبادته كأنَّهم يرَوْنه، وفي معاملتِهم للمخلوقين؛ بذلًا للمعروف، وكفًّا للأذى؛ وذلك لأنَّ الله تعالى يحبُّ المحسنين.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (196-203)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ **(196)**

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ **(197)** لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ **(198)**

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199)

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا
آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200)

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201)

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202)

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ
لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203)



تفسير الآيات:

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (196).

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ.

أي: يا مَن شرَعتم في أعمال الحجِّ والعمرة، عليكم إتمامَهما بأركانِهما وواجباتهما، بإخلاصٍ لله تبارك وتعالى.

فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

أي: فإنْ منَعكم وحبسكم خوفُ عدوٍّ، أو إصابةٌ بمرض، أو وقوع علَّةٍ أخرى، عن الوصول إلى البيت الحرام، فاذبحوا ما تيسَّر من بهيمة الأنعام، من الإبل أو البقر أو الغنم.

وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ.

أي: لا تَحِلُّوا من إحرامِكم إذا أُحصِرْتم عن حجٍّ أو عُمرة، حتى يبلغَ الهديُ- الذي أوجبتُه عليكم- محلَّ ذَبْحِه، وهو موضع الإحصار.

وحُكم الآية عامٌّ يَشمل غيرَ المُحصَر كذلك، فمحلُّ نَحْره في الحجّ: في الحَرم يومَ النَّحر، وأمَّا في العُمرة ففي الحرم أيضًا.

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.

سبب النُّزول:

عن عبد الرَّحمن بنِ أبي لَيلى أنَّ كعبَ بن عُجْرة حدَّثه قال: ((وقفتُ على رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم بالحُديبيَة ورأسي يتهافت قملًا، فقال: يؤذيك هوامُّكَ، قلت: نَعم، قال: فاحلِقْ رأسَك، أو احلِقْ، قال: فيَّ نزلت هذه الآيةُ: فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ إلى آخرِها، فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو تصدَّق بفَرَقٍ بين سِتَّةٍ، أو انسُكْ ممَّا تيسَّر)).[31]

وعن عبد الله بن مَعقِل قال: ((قعدْتُ إلى كعبِ بنِ عُجْرَةَ في هذا المسجدِ- يعني مسجد الكوفة- فسألتُه عن فديةٍ من صيام، فقال: حُمِلْتُ إلى النبيِّ - ﷺ - والقَمْلُ يَتَناثَرُ على وجهي، فقال: ما

(31) رواه البخاري (1815)، ومسلم (1201).

كنتُ أرى أنَّ الجَهْدَ قد بلَغَ بك هذا، أمَا تَجِدُ شاةً؟ قلتُ: لا، قال: صُمْ ثلاثةَ أيَّامٍ، أو أَطْعِمْ ستَّةَ مساكينَ، لكلِّ مسكينٍ نصفُ صاعٍ مِن طعامٍ، واحلِقْ رأسَك، فنزلت فيَّ خاصَّةً، وهي لكم عامَّةً)).(32)

فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ.

أي: إنَّ مَن مرض فاحتاج إلى حلق رأسه، أو كان برأسه أذًى كالقمل فحلَق رأسه، فعليه أن يقومَ- عِوضًا عن هذا الفعل- بصِيام ثلاثة أيَّام، أو إطعام سِتَّة مساكين لكلِّ مسكين نصف صاع، أو ذبح شاة، فهو مخيَّرٌ بين هذه الثلاثة.

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ.

أي: إذا زالتِ الموانعُ وقدَرتُم على الوصولِ إلى البيت الحرام، فمَن أتى منكم بالعمرة متمتِّعًا بحِلِّه منها بما أحلَّه الله تعالى له من محظوراتِ الإحرامِ- إلى أنْ يَشْرَعَ في أعمال الحج- ومِثل ذلك مَن كان قارنًا بين الحجِّ والعُمرة- فعليه ذبحُ ما قدَر عليه من بهيمةِ الأنعام؛ من الإبل، أو البقر، أو الغنم.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ.

---

(32) رواه البخاري (4517)، ومسلم (1201).

أي: إنْ لم يَجِد المتمتّعُ هديًا أو لم يجِدْ ثمَنَه، فعليه أن يصوم عوضًا عن ذلك ثلاثةَ أيَّام في أثناءِ الحج، وسبعةً إذا فرَغ من أعمال الحجِّ ورجَع إلى أهلِه وموطنِه، ثمَّ أكَّد الله تعالى صيامَ هذه الأيام بذِكر كامِلِ عددِها.

ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

أي: إنَّ وجوب الهدي وبدله من الصيام، إنَّما هو للمتمتّع إنْ كان أهله من غيرِ حاضري المسجد الحرام، وقد قِيل بأنَّ حاضري المسجد الحرام هم مَن حوله ممَّن بينهم وبينه من المسافةِ ما لا تُقصر إليه الصلوات، وقيل: هم أهلُ الحرم فقط.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه، ومن ذلك: امتثالُ المأموراتِ، واجتنابُ المحظورات المذكورة في هذه الآية، واعتقِدوا جازمين بأنَّه سبحانه شديدُ العقوبةِ لِمَن خالَف أمْرَه، وارتكَب نَهْيَه.

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (197).

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.

أي: إنَّ وقتَ الحجِّ واقعٌ في أشهُرٍ معلومات، وهي: شوَّال، وذو القَعدة، وعشرٌ من ذي الحجَّة.

فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ.

أي: إنَّ مَن أحرَم بالحجِّ (ذلك لأن الشُّروعَ فيه يُصيِّره فرضًا ولو كان تطوُّعًا في حقِّه)، فعليه أنْ يجتنبَ جِماعَ النِّساء ومقدِّماته، ولا يتحدَّث بذلك في حَضرتهنَّ،

وعليه اجتنابُ جميع المعاصي، ومن ذلك: محظورات الإحرام، وسِباب المسلِم، ويجتنب الجدالَ بالباطل، ومن ذلك: المجادَلة في وقت الحجِّ وأحكامِه؛ فقد بيَّنها اللهُ عزَّ وجلَّ أتمَّ بيانٍ، وعليه أنْ يترُكَ المِراءَ والمنازَعة والمخاصَمة.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ قراءتان:

1- فَلَا رَفَثٌ وَلَا فُسُوقٌ على أنَّ لا هنا ناهية، أي يحرم وقوع ذلك.

2- فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ على أنَّ لا هنا نافية، تدلُّ على النفي العام لجميع الرَّفث وجميع الفسوق، وهذا النفي بمعنى النهي.

لَمَّا نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ عن فِعل الرَّذائل والمنكَرات، حثَّهم على فِعْل الفضائل والخيرات بقوله:

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ.

أي: كل ما يُقدِّمه العبادُ من الخيرِ من كثيرٍ أو قليل، فالله عزَّ وجلَّ عالِمٌ به فيُحصيه لهم، ويَجزيهم عليه بالثَّوابِ الجزيل.

وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى.

سبب النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان أهلُ اليمن يحجُّون ولا يتزوَّدون، يقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدِموا مكَّةَ سألوا النَّاس؛ فأنزَل الله عزَّ وجلَّ: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى)).[33]

أي: تزوَّدوا مِن أقواتكم بما يُعِينكم على الوصولِ للبيت الحرام، وأداءِ مناسِكِ الحجِّ؛ فإنَّ في التزوُّدِ استغناءً عن المخلوقين، وإعانةً للمحتاجين، ولَمَّا أمَرهم الله عزَّ وجلَّ بأخذِ الزَّاد الدُّنيويِّ غذاءً لأجسادهم، أرشَدهم إلى الزَّاد الأخرويِّ الموصل لدار النَّعيم الأبديِّ، غذاءً لقلوبهم، وهو استصحابُ التَّقوى؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ.

أي: واتَّقونِ يا أصحابَ العُقولِ الصَّحيحة والأفهام السَّليمة، التي تُدركون بها حقيقةَ التَّقوى وثَمرتَها، وتُميِّزون بها بين الحقِّ والباطل.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (198).

(33) رواه البخاري (1523).

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ.

أي: إنَّه لا حرَجَ على المؤمنين في التكسُّب من التِّجارةِ في مواسم الحجِّ.

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كانت عُكاظٌ ومَجَنَّةُ وذو المجاز أسواقًا في الجاهليَّة، فلمَّا كان الإسلامُ تأثَّموا من التِّجارة؛ فأنزَل اللهُ تعالى: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ» قرأ ابنُ عبَّاس هكذا)).[34]

فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ.

أي: إذا دفَعْتُم مِن عرفاتٍ إلى مزدلفة، فاذكروا اللهَ تعالى عند مزدَلِفة، ويدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ والدُّعاء عندها.

وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ.

أي: اذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ شُكرًا على هِدايتِه لكم، ومِن ذلك: الإرشادُ إلى مناسِكِ الحجِّ الصَّحيحةِ، واذكروه على الصِّفة الَّتي هداكم لها، أي: وَفْق ما شرَعه سبحانه، وقد كنتم مِن قبلِ هذا الهُدى في

---

(34) رواه البخاري (2050).

ضلالٍ عن الطَّريق المستقيم، كأداءِ مَناسِكِ الحجّ في الجاهليَّة خلافًا لِما جاء به إبراهيمُ الخليلُ عليه الصَّلاة والسَّلام.

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (199).

ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ.

أي: أمر الله عزَّ وجلَّ عباده من الحُمْس، وهم قريش الذين كانوا لا يقفون بعرفات، بأن يُفيضوا منها كما كانتِ العربُ كلُّها تُفيض منها.

وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: أمَر اللهُ تعالى حُجَّاج بيته أنْ يطلبوا المغفرةَ منه سبحانه، أي: ستْرَ ذنوبهم، والتجاوز عنها؛ فهو سبحانه وتعالى أهلٌ لأنْ يُطلَبَ منه ذلك؛ لأنَّه غفورٌ ورحيمٌ بعباده المؤمنين.

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (200).

فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا.

أي: فإذا أتممتُم أداءَ مناسكِ الحجِّ، وتحلَّلتُم من النُّسك، فأَكْثِروا مِن ذِكْر الله عزَّ وجلَّ؛ شُكرًا له سُبحانه على إنعامِه بالتَّوفيق لأداء هذه العبادةِ العظيمة، وليكُن ذِكرُكم لله تعالى لا يقلُّ عن ذِكركم لآبائِكم، وذِكرِ مآثرِهم، بل عليكم أنْ تَذكروه بأشدَّ من ذلك.

لَمَّا أمَر الله تعالى بذِكره، أرشدَ إلى دُعائه؛ فإنَّه مظنَّةُ الإجابة، فقال:

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ.

أي: فمِن الناس مَن لا يَسألُ اللهَ تعالى إلَّا مصالحَ دُنياه، فيَسأله متاعَها وزِينتَها، ولا نَصيبَ له في ثواب الآخِرة؛ لرغبتِه عنها، وقُصورِ همَّته على الدُّنيا.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (201).

أي: ومن النَّاس مؤمِنون يسألون اللهَ تعالى من خيرِي الدُّنيا والآخرة- سواءٌ في مناسِك الحجِّ، أو بعدَ أدائها، أو في غيرِ ذلك من الأوقات- وهذا شاملٌ للعِلم النَّافِع والعمَل الصالح، والرِّزق الحسَن، والعافية، وغير ذلك، وأما حسنةُ الآخرةِ الَّتي يطلُبونها فهي نعيمُ الجنَّة، كما أنَّهم يسألون ربَّهم عزَّ وجلَّ أنْ يصرِفَ عنهم عذابَ النَّار.

كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلام: وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ [الأعراف: 156].

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (202).

أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا.

أي: إنَّ أُولئك الَّذين يقولون: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ– لهم ثوابٌ جَزيل على حَجِّهم الَّذي باشَروا معاناتَه بأنفسهم وأموالهم، وسيؤتيهم اللهُ تعالى حظًّا ممَّا سألوه من خيرَيِ الدنيا والآخرة، وذلك بحسَب أحوالهم، وما تقتضيه حِكمة الله عزَّ وجلَّ.

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ.

أي: إنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ العباد بسرعة، دون الحاجة إلى عقد أصابع، أو استخدام آلةٍ، وبلا حاجةٍ إلى فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يفعَلُ الخَلق، وهو سريع المحاسَبة للخَلْق يوم القيامة دون أنْ يظلِمَ أحَدًا شيئًا، ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، كما أنَّه سبحانه سريعُ المجازاة لعباده.

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (203).

وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ.

أي: أمَر اللهُ تعالى عبادَه– مِن حُجَّاج بيته وغيرِهم– بتكبيرِه في أيَّام منًى، وهي أيَّامُ التَّشريق الَّتي تشمَل ثلاثةَ أيَّام بعد يوم النَّحر، ويتعلَّقُ بذلك التكبيرُ عند ذَبْح الهدي والأضاحيّ، والتكبير المطلَق في سائر الأحوال، والتكبير المقيَّد بعد الصلوات الخمسِ المفروضة، والتكبير عند رَمْيِ الجِمار.

فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى.

أي: إنَّه لاحرَج على الحاجِّ، سواءٌ خرَج من منًى قبل غروب شمس اليوم الثَّاني مِن أيَّام التَّشريق، أو بقِي فيها إلى اليومِ الثَّالث لرَمْيِ الجمَرات، فله أنْ يختارَ ما شاء، ما دام أنَّه ممتثلٌ ما أمَر اللهُ تعالى به، ومجتنبٌ ما نهى عنه، وخاصَّةً فيما يتعلَّقُ بالحجِّ من مأموراتٍ ومحظورات، كما أنَّ كُلًّا من المتعجِّلين والمتأخِّرين إذا اتَّقَوُا اللهَ تعالى في حجِّهم فلم يرفُثوا أو يفسُقوا، خرَجوا من حَجِّهم بلا إثمٍ، طاهرينَ من الذُّنوب كيوم ولَدَتْهم أمَّهاتهم.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ.

أي: امتثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ، واجتنبوا نواهيَه في الحجِّ وغيرِه، واعْلَموا أنَّكم تُجمَعون إلى الله تعالى يومَ القيامة، فتُجازَوْن بأعمالِكم؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (204-207)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204)

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205)

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (207)

تفسير الآيات:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

أي: إنَّ بعضَ النَّاس، مِن المنافقين، مَن تستحسنُ يا محمَّد، مَنطقَه وظاهرَ قوله، فتُعجِبك فصاحتُه، لكنه يتحدَّث في شؤون الدُّنيا بعيدًا عمَّا يتعلَّقُ بأمور الآخرة، أو يُعجِبُك ظاهرُ حديثِه عن أمور الدِّين؛ كنُصرةِ الإسلام والمسلمين، وحبِّ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسلام، وغير ذلك، لكنه حديثٌ ينفعُه في الدنيا فحسب، أما في الآخرة فلا ينتفع به البتَّةَ.

وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ.

أي: ويُقرنُ حُسنَ كلامِه ويؤكِّد ظاهرَ حديثِه بأنْ يُخبِرَ أنَّ الله تعالى يعلَمُ بأنَّ ما في قلبه موافقٌ لِما نطَق به، وهو كاذبٌ في ذلك؛ فهو في الحقيقةِ يُبارِزُ اللهَ عزَّ وجلَّ بما ينطوي عليه قلبُه من الكفرِ.

كما قال تعالى: إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ [المنافقون: 1 – 4].

وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ.

أي: يُشْهِد اللهَ تعالى على أنَّه محقٌّ في قولِه ذلك؛ لشِدَّة خصومتِه، وتجدُه- لاعتمادِه على فصاحتِه- مُجادِلًا بالباطل، وناطقًا بالزُّور مِن القول، كاذبًا في حديثِه، وفاجرًا في خِصامِه؛ فالمُنافِق أسوأُ المخاصِمينَ، وأعوجُهم، وأشدُّهم عداوةً.

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ

(205)

وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا.

أي: كما أنَّ مقالَه مُعْوجٌّ، واعتقاده فاسدٌ، فأفعاله كذلك سيِّئةٌ وقبيحة، فإذا خرَج وانصرف عنك هذا الذي يُعجِبُك قولُه، سار في الأرض مجتهدًا في إفسادِها بالكفر، والظُّلم، وعمَل المعاصي؛ كقَطْع الطَّريق، وإخافة السَّبيل، وغير ذلك.

وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ.

أي: هِمَّتُه في إتلاف الحَرْث، وهو: محلُّ نَماء الزُّروع والثِّمار، وإتلاف النسل، وهو: نتاجُ الحيوانات؛ فهذانِ لا قِوام للنَّاس إلا بهما، وبإتلافِهما يختلُّ نظامُ الحياة، كما أنَّه إذا سعى في الأرض فسادًا بالكفرِ والظُّلم والمعاصي، منَع اللهُ تعالى القطرَ من السَّماءِ عقوبةً؛ فتَتْلَف الزُّروع، وتموت الحيوانات.

كما قال تعالى: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ [الروم: 41].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [الأعراف: 96].

وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ تلك الأفعالَ، ولا مَن قام بها، وإنْ قال بلسانه قولًا يُعجِب النَّاسَ.

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206).

وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ.

أي: إذا أُمِر هذا المنافقُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ؛ بامتثالِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نَهى عنه، ومِن ذلك: تَرْكُ الإفساد في الأرض بالكفر والظُّلم والمعاصي، وإهلاكِ الزُّروعِ والحيوانات، إذا أُمر بذلك، استكبَر، وأخذَتْه حَمِيَّةٌ بسبب وقوعِه في الآثام، وحملَتْه هذه الأَنَفةُ على ارتكاب المزيدِ من السَّيِّئاتِ.

فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ.

أي: كفاه عقوبةً مِن غيِّه وضلالِه، صَلْيُه نارَ جهنَّمَ، ولبئس الفِراشُ والوِطاءُ جهنَّمُ، الَّتي وطَّأها لنفسِه بنِفاقِه وفُجوره.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (207).

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ.

أي: إنَّ هناك صِنفًا من النَّاس يبيعون أنفسَهم، ويبذلونها ثمنًا لنيلِ مرضاةِ الله عزَّ وجلَّ.

وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ.

أي: واللهُ ذو رحمةٍ عظيمة بعباده، ولعبوديَّتِهم له يرأَفُ بهم، وخاصةً مَن يبيعون أنفسَهم له سبحانه، ومِن رأفته بهؤلاء أنْ يوفِّقَهم لذلك، ويرضى عنهم.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (208-214)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (208)

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210)

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211)

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212)

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ **(213)**

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ **(214)**



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

(208).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً.

أي: يا مَعشرَ المؤمنينَ اعْمَلوا بجميع شَرائعِ الإسلام.

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالعملِ بجميع شرائعِ الإسلام، حذَّر سبحانه ممَّا يمنَعُ مِن الالتزام بذلك، فقال:

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ.

أي: لا تُطِيعوا الشَّيطان؛ فتَسلُكوا طُرقَه، فيقودَكم شيئًا فشيئًا إلى التَّهلُكةِ؛ فهو لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العَداوة.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (209).

أي: فإن أخطَأْتم وخالَفْتم شرائعَ الإسلام عن عمدٍ، وضلَلْتُم عن الحقّ عن عِلمٍ، من بعدِ قيام الحُجَجِ والبراهين عليه، فاعلَموا أنَّ اللهَ تعالى لا يُعجِزُه شيءٌ عن الانتقام منكم؛ إذ يقهَر مَن يشاءُ بقوَّته، ويُعذِّبُ مَن يشاء بمقتضى حِكمته؛ فإنَّ مِن حِكمته معاقبةَ العُصاةِ بما يُناسب معصيتَهم له سبحانه.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (210).

أي: ما ينتظر هؤلاء الذين زلُّوا من بعد ما جاءتهم البينات، فكذَّبوا بمحمَّدٍ - ﷺ - وما جاء به، إلَّا إتيان الرَّبِّ عزَّ وجلَّ يوم القيامة في ظُللٍ من الغمام، وإتيان الملائكة، فيقضي الله تعالى بين عباده، ويجازي كل عامل بعمله، فجميع أمور الدنيا والآخرة تؤول إلى الله عزَّ وجلَّ وحده، وحيئذ يكونُ الأمرُ قد انتهى وحقَّ عليهم الهلاك؟!

قال تعالى: وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا [الفرقان: 25-26].

وقال سبحانه: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ [الأنعام: 158].

وقال عزَّ وجلَّ: كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى [الفجر: 21 - 23].

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (211).

سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ.

أي: أمَر اللهُ تعالى محمَّدًا - ﷺ - أنْ يسأَلَ اليهودَ عمَّا أعطاهم اللهُ تعالى مِن قبلِ مجيئِه عليه الصَّلاة والسَّلام، من دلائلَ ومُعجزاتٍ، وحُجَجٍ واضحات، شاهَدوها على أيدي أنبيائِه ورُسلِه عليهم السَّلام، دالَّات على صِدقهم وصِدْقِ ما جاؤوهم به، ومن ذلك: الإيمانُ بمحمَّدٍ - ﷺ -، ووجوبُ متابعته على دِينه، لكنَّهم مع ذلك كلِّه أعرَضوا، وكفَروا، وكذَّبوا.

وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ.

أي: مَن يترُكْ نعمةَ الإسلام، فيمتنعْ عن قَبولِها بالدُّخول فيه، والعملِ بجميع شرائعه، ويختار عِوضًا عن ذلك الكفرَ به- فإنَّ اللهَ تعالى سيُعاقبه عِقابًا شديدًا.

كما قال تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِين بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ [إبراهيم: 28-29].

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (212).

زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا.

أي: زُيِّنت الدُّنيا بزُخرفِها ومباهجِها للكفَّار، فتغلغل حبُّها في شغافِ قلوبهم، وقصَروا أنظارَهم عليها، وآثَروها على نعيمِ الآخرة، فعليها يتكالَبون، وفيها يطلُبونَ ما يشتهون، وهم مع ذلك بالمؤمنين يستهزئون، ومنهم يضحَكون؛ وذلك لزُهدِهم في الدُّنيا، وعزوفِهم عن مناصبِها، وترْكِهم المفاخرةَ بزينتِها، والاستزادةَ منها.

وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

أي: إنَّ الَّذين امتثلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنبوا ما نهى عنه، هم الأَعْلَوْن في دار الخلودِ، وسيكونون فوقَ الَّذين كفروا يوم القيامة، بدخولِهم الجنَّةَ، يتمتَّعون فيها ويبتهِجون، ولهم فيها ما يشتهونُ.

قال تعالى: إِنَّ الَّذين أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذين آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ فَالْيَوْمَ الَّذين آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [المطففين: 29-36].

وقال سبحانه: أَهَؤُلَاءِ الَّذين أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ [الأعراف: 49].

وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطي المتَّقين في الجنَّةِ مِن نِعَمه وعطاياه الَّتي لا تنتهي، مِن غير أنْ يخشى نفادَ خزائنه، أو وقوعَ نقصٍ من مُلكه، فلا يحتاج إلى حسابِ ما يُعطي، وإحصاءِ ما يُبقي، بل يُعطيهم ما يشتهون بلا حصرٍ ولا تَعداد؛ فرِزقُه واسعٌ لا نهايةَ له ولا نَفادَ.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213).

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

أي: إنَّ النَّاس كانوا مجتمعين منذ عهدِ آدمَ عليه السَّلام على دِينٍ واحد، هو دينُ الإسلام، وظلُّوا على ذلك مدَّةَ عشرةِ قرونٍ، فاختلَفوا في دِينهم حتى عبَدوا الأصنام، فبعَث الله النَّبيِّين ينهَوْن عن ذلك الكفرِ، مُبشِّرين مَن أطاعهم بالجنَّةِ، ومُنذِرين مَن عصاهم بالنَّارِ، وكان أوَّلهم نوحٌ عليه السَّلام.

قال سبحانه: وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس: 19].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ [النساء: 163].

وقال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا [الإسراء: 17].

وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أنزَل مع النَّبيّين عليهم السَّلام كُتبًا مِن عنده، مشتملةً على الأخبارِ الصادقة، والأوامرِ العادلة؛ أنزَلها لتفصِلَ بين النَّاس في كلِّ ما اختلَفوا فيه، فيتبيَّن لهم الحقُّ مِن الضَّلال، والصَّواب مِن الخطأ، وتُقامُ بذلك حُجَّةُ اللهِ تعالى على عبادِه.

كما قال تعالى: وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [النحل: 64].

وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

أي: إنهم اختلَفوا في تلك الكتب المنزلة، وكان ينبغي أنْ يكونوا أَوْلى النَّاسِ بالاجتماع عليها، والتَّحاكُم إليها، وذلك مِن بعدِ ما علِموا بالأدلَّةِ القاطعات، والحُجَج الباهرات: أنَّ ما فيها هو الحقُّ، وإنَّما حَملهم على ذلك تعدِّي بعضِهم على بعضٍ بالباطل، ووقوع النِّزاعاتِ والخصومات فيما بينهم.

كما قال تعالى: وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [الجاثية: 17].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [يونس: 93].

وقال سبحانه: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ [البينة: 4].

فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ.

أي: إنَّ اللهَ تعالى أرشَد المؤمنين للحقِّ الَّذي جاءت به كتبُ أولئك الأنبياءِ عليهم السَّلام، واختلَف فيه غيرُهم، ووفَّقهم أيضًا إلى الانقيادِ إلى هذا الحقِّ، والتمسُّك به، بعِلمِه وإرادتِه وتيسيره، ويدخُلُ في هؤلاء المؤمنين أمَّةُ محمَّدٍ - ﷺ - قطعًا، ويدخُلُ فيهم أيضًا كلُّ مَن آمَن مِن الأمم السَّابقة؛ كمَن آمَن مِن قوم نوحٍ عليه السلام.

وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

أي: إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُرشِد لطريق الحقِّ الواضح الَّذي لا اعوجاجَ فيه، ويوفِّق للسَّيرِ عليه: مَن يشاء مِن خَلْقه، وهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما تقتضيه حِكمتُه البالغة.

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ (214).

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ.

أي: أظننتم- أيُّها المؤمنون- أن تَصِلوا إلى الجنَّةِ دون أنْ تُصيبَكم في الطريق إليها شدائد؟ كلَّا، لا تظنُّوا ذلك، بل لا بدَّ أنْ تعترضَ طريقَكم هذا عوائقُ، وتُصيبَكم فيه مِحَنٌ وبلايا، تُبتلَوْن بها وتمحَّصُون، كما وقَع للَّذين مضَوْا من قبلكم.

كما قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنَّ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ [آل عمران: 142].

وقال عزَّ وجلَّ: أَحَسِبَ النَّاسُ أَنَّ يُتْرَكُوا أَنَّ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذين مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذين صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ [العنكبوت: 2-3].

مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ.

أي: إنَّ مَن مَضى مِن مُؤمِني الأممِ السابقة قد أصابهم الفقرُ وشدَّةُ الحاجة، وأصابتهم الأمراضُ والأوجاعُ، وخُوِّفُوا ورُعِبُوا مِن قِبَل أعدائِهم بأنواع المخاوفِ، فأُصيبوا في أموالهم بالبأساءِ، وفي أبدانهم بالضَّرَّاء، وفي قلوبهم بالخوفِ، حتى وصَلَتْ بهم الحال إلى أنْ يتساءَلَ رسلُ اللهِ ومَن آمَن معهم: متى يأتي نصرُ الله تعالى؟ ليخرُجوا ممَّا هم فيه مِن ضيقٍ وكربٍ وشدَّة.

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا [الأحزاب: 9-11].

أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ.

أي: أكَّد الله تعالى على أنَّ نصرَه قريب، وأنَّ فرجَه عاجلٌ، فمع العسر يأتي اليُسر، وكلَّما ضاق الأمر اتَّسَع.

كما قال تعالى: فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [الشرح: 5-6].



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (215–220)

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ **(215)**

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ **(216)**

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(217)**

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219)

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220)



تفسير الآيات:

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (215).

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ.

أي: يسألك أصحابُك يا محمَّد، عمَّا يُنفَق جنسًا ومقدارًا وكيفيَّةً، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنَّ ما تنفقونه من الأموال لا يُشترط فيه شيء معيَّن، ولا مقدار محدَّد، بل يشمل أيَّ مال، وسواء كان قليلًا أم كثيرًا، وأنَّ أولى وأحقَّ مَن تُنفق عليه الأموال هم أقرب النَّاس رحمًا وهم الوالدان، ثم بقيَّة الأقارب، الأقرب فالأقرب، ثم تصرف إلى أشدِّ النَّاس حاجةً من بعدهم، وهم الصِّغار الذين فقدوا آباءهم قبل بلوغهم ولا كاسب لهم، ثم للمساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم ويُغنِيهم، وكذا للمسافرِ المجتاز الذي يحتاج نفقةً تُوصِله لموطنِه.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ كل ما تُقدِّمونه من معروفٍ وبرٍّ وإحسان وطاعة وقربة لله تعالى، فإنَّه لا يخفَى عليه، بل مطَّلِع على أعمالكم، يُحصِيها لكم، ويُجازِيكم عليها.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216).

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ.

أي: فُرِض عليكم- أيُّها المؤمنون- قتال الأعداء من الكفَّار والمشركين، مع أنَّه مكروهٌ لكم، لا تحبُّونه؛ لِمَا فيه من شدَّة ومشقَّة بالغة، ولِمَا يحدُث فيه من التعرُّض للقتل والإصابة بالجراح ووقوع المخاوف.

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ.

أي: إنَّه مع وقوعِ هذه الكراهيةِ في النفوسِ للقتال، إلَّا أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك؛ إذ فيه من الخير والمنافع ما هو أكثرُ وأعظمُ ممَّا يقع فيه من أضرار، ومن ذلك ما يَحصُل بسببِه من النَّصرِ على الأعداء، والتمكُّن من البلدان والأموال، وما تقع فيه من الشَّهادة لمن مات منهم محتسبًا، وحصول الحسنات العظيمة لهم، وغير ذلك، فأمَّا ترك القتال الذي هو محبوبٌ للنفوس ففيه من الشرور ما يَزيدُ على مصلحة قعودِهم، ومنها تسلُّط الأعداء، وفوات الأجور العظيمة، وهكذا الأمرُ في جميع أفعال الخير وإنْ كرِهتها النفوس، وأفعال الشرِّ، وإن أحبَّتها النُّفوس.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما هو خيرٌ لكم ممَّا هو شرٌّ لكم، وأعلم منكم بما ينفعكم وما يضرُّكم، فاستجِيبوا له في جميع الأحوال.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217).

سبب النُّزول:

عن جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله – ﷺ – بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ.

الآية، فقال بعضهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)).[35]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن القِتال في شهرٍ حرام (الأشهر الحرم هي: ذو القعدة، وذو الحِجَّة، ومحرَّم، ورجب)، وقيل: السؤال وقع من المشركين للنبيِّ - ﷺ - تعييرًا وتشنيعًا على المؤمنين الذين قتَلوا أحد المشركين في شهرٍ حرام، فأمره الله تعالى أن يُجيب عن ذلك بأنَّ القتال فيه عظيم؛ لعَظمة تلك الأشهر وحُرمتها.

وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ.

أي: ولكنْ ما يقومون به مِن مَنْع النَّاس من سُلوكِ طريق الحقِّ، أو من الاستمرار عليه لمن آمَن، وكفرهم بالله تعالى، ومنعِهم النَّاس عن الوصول إلى البيت الحرام لحجٍّ أو عمرة، وإخراج أهله المؤمنين منه، وهم عُمَّارُه والأحقُّ به من المشركين- أعظمُ إثمًا وجرمًا عند الله تعالى؛ فكلُّ واحدٍ منها فِتنة، والفِتنة أعظمُ وأشدُّ من القتل الذي وقع من المسلمين في شهرٍ حرام.

---

(35) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (249/5) (8803)، وأبو يعلى (102/3) (1534)، والطبراني (162/2) (1670). وثَّق رِجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (201/6)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (538/1)، وصحَّح سندَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (324/1)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (261/1).

وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا.

أي: سيظلُّ الكفَّار والمشركون على قتالكم، لا يَهدأ لهم بال، ولا يتوقَّفون عن قتال، لا لغرضٍ دنيويٍّ كالمال؛ بل لأجْل أن ترجِعوا عن دينكم فتُصبِحوا كفَّارًا مثلهم، هذا إن قدروا، لكنَّهم لن يقدروا، فهم عاجزون حقًّا عن ذلك.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [الأنفال: 36].

وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: كلُّ مَن يرجِعْ منكم عن دِين الإسلام، فيختار الكفر ويستمرُّ عليه، حتى مماته، ولم يتُب من كفره، فقد بطَلت أعمالُه واضمحلَّت، فلم يبقَ له عملٌ صالح يُؤجَر عليه في الدُّنيا والآخرة، وهو من أهل النَّار الملازمينَ لها على الدوام.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).

سبب النُّزول:

عن جُندُبِ بن عبد الله رضي الله عنه: ((أنَّ رسول الله - ﷺ - بعث رهطًا، وبعَث عليهم عبدَ الله بن جحش، فلقُوا ابن الحضرمي فقتلوه، ولم يَدرُوا أنَّ ذلك اليوم من رجب، أو من جُمادى، فقال المشركون للمسلمين: قتلتُم في الشهر الحرام، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ. الآية، فقال بعضُهم: إنْ لم يكونوا أصابوا وزرًا فليس لهم أجْر، فأنزل الله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)).[36]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218).

---

(36) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (8803)، والطبراني (162/2) (1670)، والبيهقي (18201) باختلاف يسير؛ ولفظ البيهقي: عن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رهطا واستعمل عليهم عبيدة بن الحارث قال فلما انطلق ليتوجه بكى صبابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه رجلا يقال له عبد الله بن جحش وكتب له كتابا وأمره أن لا يقرأه إلا بمكان كذا وكذا وقال :« لا تكرهن أحدا من أصحابك على المسير معك ». فلما صار ذلك الموضع قرأ الكتاب واسترجع قال : سمعا وطاعة لله ورسوله قال فرجع رجلان من أصحابه ومضى بقيتهم معه فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه فلم يدر ذلك من رجب أو من جمادى الآخرة فقال المشركون قتلتم في الشهر الحرام فنزلت (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) إلى قوله (والفتنة أكبر من القتل) قال فقال بعض المسلمين لئن كانوا أصابوا خيرا ما لهم أجر فنزلت (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) صححه الطبري في ((التفسير)) (466/2)، وحسنه ابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (384/1)، وصحح إسناده الشوكاني في ((فتح القدير)) (342/1)، وأحمد شاكر في تخريج ((عمدة التفسير)) (261/1)، وذكر شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (42/7) أن له طرقا بمجموعها يكون صحيحا

أي: إنَّ الذين صدَّقوا وأقرُّوا بالحقِّ منقادينَ إليه، والذين انتقَلوا من موضعٍ إلى آخَرَ فرارًا من مخالطة المشركين ومساكنتِهم، وربَّما فارَقوا بذلك عشائرهم وأوطانَهم؛ حفاظًا على دِينهم، والذين بذلوا جهدَهم في مقاتلة الأعداء نصرًا لدين الله تعالى، وإعلاءً لكلمته، فهؤلاء- ذَوُو الطبقة العالية الرفيعة- لائقون وجديرون حقًّا بأن يطمعوا في نَيل رحمة الله تعالى لهم، وأنْ يُدخِلَهم دار كرامته، وسيَحظَون بما أمَّلوا وطمِعوا فيه؛ ذلك أنَّ الله تعالى غفورٌ رحيم؛ فبمغفرته ستَرَ ذنوبَهم وتجاوز عنها، وأذهب آثارها وعقوباتها في الدنيا والآخرة، وبرحمته وفَّقهم لتلك الأعمال الجليلة، ويمنحهم في الدَّارين الخيراتِ والمراتبَ النَّبيلة.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (219).

سبب النُّزول:

عن عُمر بن الخطَّاب رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزل تحريم الخمر قال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت هذه الآية التي في سورة البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ قال: فدُعي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا. فنزلت الآية التي في سورة النساء: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى فكان منادي رسول الله - ﷺ - إذا أقام الصَّلاة نادى أن لا يقربنَّ الصَّلاة سكرانُ، فدُعِي عمر فقُرئت عليه، فقال: اللهمَّ بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا،

فنزلت الآية التي في المائدة، فدُعيَ عمر فقُرِئَت عليه، فلما بلغ: فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ قال: فقال عمر: انتهينا، انتهينا)).[37]

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد، عن حُكم الخمر- وهي: كلُّ شرابٍ مسكرٍ يُغطِّي عقل صاحبه- وعن حُكم القِمار.

قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا.

أي: قلْ لهم يا محمَّد، بأنَّ في شُرب المسكرات وتعاطِي القِمار إثمًا كبيرًا؛ إذ يُحدِثان عداوةً وبغضاءَ وصدًّا عن ذِكر الله تعالى وعن الصَّلاة، وغير ذلك من آثامٍ ومنكرات، هي أعظم ممَّا يتأتَّى منهما من منافع قد تحصُل في النفس والبدن والمال، كالذي تُحدِثه الخمر لشاربها من طربٍ ولذَّةٍ ونشوةٍ، وتشحيذٍ للذِّهن وغير ذلك، وما يأتي به القمار لصاحبه من مكاسبَ وأموال، ولذَّةٍ في اللعب والمغالبة، وقد ذكر الله تعالى آثامهما قبل منافعهما؛ ليقع في نفس المؤمن الاشمئزاز منهما أوَّلًا.

---

(37) أخرجه أبو داود (3670)، والترمذي (3049)، والنَّسائي (5540)، وأحمد (1/53) (3478). صحَّحه عليُّ بنُ المَدينيّ كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) للسفاريني (1/795)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا، وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (1/185)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النَّسائي)) (5540)، وقال الوادعي في ((أحاديث معلة)) (317): سندُه رجالُ الصحيح، ولكنَّه منقطع.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [المائدة: 90-91].

وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ.

أي: يسألك المؤمنون يا محمَّد: أيَّ شيء يُنفقون من أموالهم، فيتصدَّقون به؟ فأجْبهم بأنَّ مَن أراد منهم أن يُنفِق في سبيل الله تعالى، فليتصدَّق ممَّا زاد عن حاجاته الضروريَّة.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أي: كما فصَّل الله تعالى هذه الأحكامَ كحُكم الخمر وغيره، وأوضحها غايةَ الإيضاح، فكذلك يُوضِّح الله جلَّ وعلا لنا بمِثل ذلك البيان سائر آياته وأحكامه الشرعيَّة؛ كي نتفكَّر من خلالها فيما شرَعه الله تعالى من أحكام تتعلَّق بشؤون الدارينِ، ولأجْل أن يقودَنا ما جاء فيها من وعدٍ ووعيد وثوابٍ وعقاب، إلى التفكُّر في الدنيا وسرعة انقضائها، وفي إقبال الآخِرة وبقائها، فنزهَد في الأولى، ونُعمِّر الثانية؛ عملًا بطاعة الله تعالى، وتركًا لشهوات يسيرة فانية.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (220).

سبب النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وإِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى [النساء: 10] الآية انطلق مَن كان عنده يتيم فعَزل طعامَه من طعامه، وشرابَه من شرابه، فجعل يفضُل له الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكلَه، أو يفسد، فاشتدَّ ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ -، فأنزل الله وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ، فخلطوا طعامهم بطعامه، وشرابهم بشرابه)).[38]

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ.

أي: يسألُك المؤمنون يا محمَّد، عمَّا اشتدَّ عليهم فعله مع اليتامى؛ إذ كانوا يعزلون لهم طعامَهم؛ خوفًا من تناوله معهم، فإذا فضَل منه شيءٌ حبسوه لهم حتى يأكلوه أو يتغيَّر، فأخبَر الله تعالى نبيَّه محمَّدًا - ﷺ - أن يُجيبهم بأنَّ المقصودَ إنَّما هو إصلاحُ أموال اليتامى، بحفظها، واستثمارها، والاتِّجار فيها لهم، فإنْ لم تأخذوا أجرًا على قيامكم بذلك فذلك خيرٌ لكم وأعظمُ أجرًا، وإن أصبتم من أموالهم شيئًا في مقابل قيامكم بشؤونهم، كأنْ خالطتموهم في طعامٍ أو غيره من الأموال فجائز- على وجهٍ لا يضرُّ باليتامى-؛ لأنَّهم إخوانكم في الدِّين، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه.

---

(38) أخرجه أبو داود (2871) واللفظ له، وأحمد (325/1) (3002)، والحاكم (113/2). احتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (326/8)، وحسَّن إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (5/5)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2871).

وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ.

أي: إنَّ الله تعالى وإنْ أذِن للمؤمنين في مخالطة اليتامى على ما سبق ذِكرُه، إلَّا أنَّه خوَّفهم وحذَّرهم من أن تُسوِّل لهم أنفسُهم شيئًا من الخداع لأكل أموال اليتامى بالباطل، فالمعوَّل في ذلك على النيَّة، فمَن خلط مال اليتيم بماله يريد مصلحته، فالله يعلم نيَّته وسيُثيبه على ذلك، وإنْ حصَل أنْ دخل عليه شيءٌ من ماله من غير قصْدٍ، ولا طمعٍ، فلا حرج عليه؛ لأنَّ الله تعالى يعلم نيَّته، وأمَّا مَن قصد بتلك المخالطة التوصُّل بها إلى أكلِ ماله خديعةً، فالله عزَّ وجلَّ يعلم نيَّته، وسيعاقبه على ذلك.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ هذا الحُكم إنَّما شُرِع رخصةً من الله تعالى وتوسعةً على عباده؛ وإلَّا فإنَّ الله تعالى قادرٌ على أن يشُقَّ عليهم بنَهيِهم عن خلط أموالهم بأموال اليتامى؛ وأمْرِهم بتقدير طعامهم تقديرًا دقيقًا، بحيث لا يَزيد عن حاجتهم، ولا ينقص عنها، فيقعوا بذلك في ضيقٍ وحرج؛ ويعاقبهم ربُّهم إنْ تركوا أمره، أو ارتكبوا نهيه؛ ذلك بأنَّ الله تعالى لا يعجزه شيء، وهو قاهرٌ لكلِّ شيء، وَفْق ما تقتضيه حِكمته؛ إذ يضَعُ كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به، فيعاقب مَن يستحقُّ ذلك لعناده، ويشرِّع ما فيه الخير والرحمة لعباده.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (221-224)

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223) وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224)

تفسير الآيات:

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221).

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يتزوَّجوا بالنِّساء المشركات إلَّا إذا آمنَّ ووحَّدْنَ الله تعالى بدخولهنَّ في الإسلام، ولَأَنْ يتزوَّج المؤمن بأمَة مملوكة لكنَّها مؤمنة، خيرٌ له من أن يتزوَّج امرأة حرَّة مشركة، وإن بلَغ الإعجاب بها مبلغًا؛ لشدَّة حُسنِها، أو عِظَم حسَبِها، أو شَرَفِ نَسبِها، أو كثرةِ مالها.

وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ.

أي: حرَّم الله تعالى على المؤمنين أن يُزوِّجوا نساءَهم المؤمنات لرجالٍ مشركين، إلَّا إذا آمنوا ووحَّدوا الله تعالى بدخولهم في الإسلام، ولَأَنْ تزوجوهنَّ بعبدٍ مملوك لكنه مؤمنٌ بالله تعالى، خيرٌ من أن تزوجوهنَّ برجلٍ حرٍّ مشرك، ولو بلغ إعجابكم به ما بلغ لحُسنه، أو حسبه، أو نسبه، أو ماله.

أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ.

أي: إنَّما حرَّمتُ عليكم- أيُّها المؤمنون- تزوُّجَ المشركات وتزويجَ المشركين بالمؤمنات؛ لأنَّهم في حقيقة الأمر يقودونكم عبر معاشرتهم ومخالطتهم بسماع أقوالهم، ورؤية أفعالهم، ومعايشة أحوالهم إلى حبِّ الدُّنيا، وإيثارها على الآخرة، وإلى العمل بما يُدخِلكم النار؛ فلا تغترُّوا بهم، فيردوكم في التهلُكة، والشقاء الأبدي.

وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ.

أي: إنَّ الله تعالى يدعوكم بما يُعلِّمكم مِن شَرْعه من أوامرَ ونواهٍ للعمل بها؛ لتقودَكم لدخول الجنة، وتوجبَ لكم النَّجاةَ من النار بما يمحو من خَطاياكم، التي من آثارها دفْعُ العقوبات، وذلك بالحثِّ على التوبة والاستغفار، ولزومِ العمل الصَّالح الذي يُكفِّر الآثام، فيتجاوز عنها ربُّكم، ويسترها عليكم.

وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.

أي: يوضِّح براهينه وحُججَه ويُظهِر أحكامه وحِكَمها؛ فيُوجِب لهم ذلك التذكُّر لِمَا نَسُوه من الحقِّ فيعتبروا ويتَّعظوا، ويميِّزوا بين الدعاء إلى النيران، والدعاء إلى الجنَّة ونَيْل الغفران.

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222).

سبب النُّزول:

عن أنسٍ رضي الله عنه: ((أنَّ اليهود كانوا إذا حاضت المرأةُ فيهم لم يواكلوها ولم يجامعوهنَّ في البيوت، فسأل أصحابُ النبيِّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأنزل الله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم: اصنَعوا كلَّ شيء إلَّا النِّكاح، فبلغ ذلك اليهودَ، فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدَع من أمرنا شيئًا إلَّا خالَفَنا فيه؟! فجاء أُسَيد بن حُضَير وعبَّاد بن بِشْر، فقالَا: يا رسول الله، إنَّ اليهود تقول كذا وكذا، فلا نجامعهنَّ؟ فتغيَّر وجهُ رسول الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، حتى ظننَّا أنْ قد وجد عليهما فخرجَا فاستقبلهما هديَّةٌ من لبن إلى النبيِّ صلى الله عليه وعلى آله وسلَّم، فأرسل في آثارهما، فسقاهما، فعرَفَا أن لم يجدْ عليهما)). [39]

---

(39) رواه مسلم (302).

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ.

أي: يسألُك المؤمنون- يا محمَّد- عن شأنِهم مع زوجاتهم حال حيضهنَّ، هل يجتنبونهنَّ مطلقًا، كما يفعل اليهود، أو يجامعونهنَّ؟

قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ.

أي: أجابهم الله تعالى بأنَّ الحيض دمٌ قذر، ونجس، وإذا كان كذلك، فمن الحِكمة أن يمنع عباده عنه؛ ولذا نهاهم سبحانه عن جِماع النِّساء في فروجهنَّ.

وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ.

أي: لا تجامعوا نساءَكم حال حيضهنَّ إلى أنْ ينقطع دم الحيض ويغتسلن، فإذا فعلن ذلك، فحينها لكم أن تُجامعوهنَّ في الموضِع الذي أباحَ الله تعالى فيه ذلِك، وهو القُبُل.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَطْهُرْنَ قراءتان:

1- يَطَّهَّرْنَ أي: حتى يَغتسِلْنَ بالماء بعد انقطاع الدم.

2- يَطْهُرْنَ أي: حتى ينقطعَ الدَّمُ عنهن.

إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ.

أي: يأمركم الله تعالى بذلك، ويحثُّكم عليه؛ لأنَّه يحبُّ مَن يُطهِّرون بواطنَهم بالمواظبة على كثرة التَّوبة من جميع الذنوب، وإن تكرَّر منهم غشيانُها، ويحب مَن يُطهِّرون ظواهرهم بالماء من الأنجاس والأحداث.

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (223).

سبب النُّزول:

عن ابن المُنكَدِر قال: سمعتُ جابر بن عبد الله قال: ((كانتِ اليهودُ تقول: إذا جامَعها من ورائِها جاءَ الولدُ أحولَ، فنزلت: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)). وزاد في حديث النُّعمان عن الزهري: ((إنْ شاءَ مُجَبِّيَة، وإن شاء غير مُجَبِّيَة، غير أنَّ ذلك في صِمامٍ واحد)).[40]

وعن أبي النَّضر أنَّه قال لنافع مولى ابن عمر: ((قد أُكثر عليك القول: إنَّك تقول عن ابن عُمر: (إنَّه أفْتى بأنْ يؤتى النساء في أدبارهنَّ)! قال نافع: لقدْ كذبوا عليَّ! ولكن سأخبرك كيف كان الأمر: إنَّ ابن عُمر عرَض عليَّ المصحف يومًا وأنا عنده حتى بلغ: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ، قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنَّا كنَّا معشر قريش نُجَبِّي النِّساء، فلمَّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردْنا

---

(40) رواه مسلم (1435).

منهنَّ ما كنا نُريد من نسائنا، فإذا هنَّ قد كرهن ذلك وأعظمْنه، وكان نساء الأنصار إنَّما يؤتَين على جنوبِهنَّ، فأنزل الله سبحانه: نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ)).[41]

نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ.

أي: إنَّ نساءكم مُزدرَعٌ لأولادكم، مثلما تكون الأرض حرثًا للزارع حيث يبثُّ فيها الحَب؛ فينمو ويخرج نباتًا، فكذلك النِّساء حرث يضع فيه الرجال الماء الدافق (المَنِيَّ)،

فينزرع في الرَّحم حتى ينمو ويخرج بشرًا سويًّا بإذن الله تعالى. ولكم يا معاشرَ الرِّجال، أن تجامعوا نساءكم على أيِّ جهة، وبأي كيفيَّة شِئتم، شريطةَ أن يكون جماعهنَّ دومًا في موضع الحرث، وهو القُبُل.

وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.

أي: أعدُّوا الخيراتِ والحسناتِ لأجْل نفع أنفسكم في الآخرة، واجعلوا بينكم وبين غضب الله تعالى وعذابه حاجزًا يَقِيكم ذلك بتجنُّب الشرور والسيِّئات، وكونوا على يقين تامٍّ من أنكم ستلاقون الله تعالى يوم القيامة، وأنه مُجازٍ كلًّا منكم بعمله، إنْ خيرًا فخير وإنْ شرًّا فشر، وبشِّر المؤمنين يا محمَّد

(41) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (315/5) (8978)، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (42/3) (4067).
صحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (383/1)، والوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (43).

بما يسرُّهم فالمؤمنون الذين يحبُّون لقاء الله تعالى، ويُعِدُّون للأمر عُدَّتَه، سيهنؤون بلقائه سبحانه، وما يُقدِّموا لأنفسهم من خيرٍ سيجدونه عند الله عزَّ وجلَّ، ويُكرِمهم بدخول جنَّته.

كما قال تعالى: وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا [المزمل: 20].

وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (224).

وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ.

أي: لا تجعلوا الحَلِفَ بالله تعالى حُجَّةً لكم تمنعُكم من القيام بفِعل الخيرات، كبرِّ الوالدين وذِي القربى، أو تمنعكم من تحقيقِ التَّقوى بامتثال ما أمر الله تعالى به واجتناب ما نهى عنه، أو تمنعكم من السَّعي في الإصلاح بين النَّاس بالمعروف، وذلك كأنْ يحلفَ امرؤٌ بالله تعالى على ألَّا يصل رحِمَه، فإذا طُلب منه أن يَفعل ما أمر الله تعالى به من صِلة الرَّحِم، قال: قد حلفتُ ألَّا أفعل ذلك، فيجعل الحلفَ بالله عزَّ وجلَّ حجَّة يتقوَّى بها على ترك الخيرات، فنهى الله تعالى عباده عن ذلك، فإذا حلف أحدُهم فليس له الامتناعُ من ذلك والتعلُّل باليمين، بل عليه أن يَحنثَ، ويكفِّر عن يمينه، ويأتي الذي هو خير.

قال تعالى: وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [النور: 22].

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ جميع الأصوات ومن ذلك سماعه لأقوال الحالفين، وهو عزَّ وجلَّ عالِمٌ بجميع المقاصد والنيَّات، ومن ذلك علمُه بمقاصد الحالفين هل يقصدون خيرًا أم شرًّا، وفي ذلك تحذيرٌ للعباد من أن يُظهِروا بألسنتهم، أو يُضمِروا في أنفسهم ما فيه مخالفةٌ لأمر الله تعالى أو ارتكابٌ لنهيه؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ مطلعٌ على ما ظهر وما بطن، لا يَخفى عليه شيء سبحانه.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (225-232)



لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225)

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226)

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227)

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228)

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا

فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

(229)

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ **(230)**

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ **(231)**

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ **(232)**



تفسير الآيات:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (225).

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ.

أي: لا يُعاقب اللهُ تعالى عِبادَه- فلا تلزمهم كفَّارة في الدُّنيا ولا عقوبة تحلُّ بهم في الآخرة- لِما يَجري على ألسنتهم من الحَلِف على أمورٍ معتادةٍ لديهم، دون قصدٍ منهم إلى عَقد اليمين عليها، وكذا ما يَحلِفون عليه جازمين بصِدقه أو تحقُّق وقوعه، ويكون الأمرُ في الحقيقة على خلاف ما اعتقدوه.

وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ.

أي: إنَّ العقوبة تقعُ على مَن قصد بقلبِه تعمُّد الحلف بالله تعالى كاذبًا، وأما مَن حلف على شيءٍ ثم حنث في يمينه فعليه أن يُكفِّر عنها في الدنيا، فإن لم يفعل فهو مُعرَّضٌ كذلك للعقوبة في الآخرة.

وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يستُرُ على عِبادِه، ويتجاوزُ عنهم فيما لغَوا فيه من أَيْمان، فلا يُؤاخذهم بها في الدنيا بكفَّارةٍ، ولا في الآخرة بعقوبة، وكذا ما وجَبَ في الحِنث ببعضِ الأيمان من كفَّارة، جعَلَها الله تعالى مُغنِيةً عن عقوبة الآخرة. ولَمَّا كانت تلك الأيمانُ الواردةُ على سبيل اللَّغو من قبيل التقصيرِ في الأدبِ

مع الله تعالى، جاءَ اقترانُ وصف الله عزَّ وجلَّ بمغفرة الذنوب مع وصفه بالحِلم؛ إذ لم يُعاجِلهم بعقوبة؛ جرَّاءَ تقصيرِهم في التأدُّب معه، أو يغضب لغفلتهم عنه في ذلك.

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (226).

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

أي: إنَّ مَن حلف ألَّا يجامع زوجته أكثر مِن أربعة أشهرٍ، فإنَّ أقصى ما يُمكنه انتظارُه أربعة أشهر دونَ جِماعِها.

فَإِنْ فَاؤُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

أي: إنْ رجع الزَّوج إلى زوجته فجامعها، فسواء وقع ذلك قبل انتهاء الأربعة أشهر أو فور انتهائها، فإنَّ له ذلك، ويغفر الله تعالى له حرمان امرأته من الوطء تلك المدَّة، فمغفرته سبحانه تُوجِب رفْعَ الإثم عنه، ورحمته عزَّ وجلَّ تُوجِب له بقاء امرأته، وأن تُفرَض عليه الكفَّارة، كما هي الحال في سائر الأيمان التي يُحنَث بها، والجزاءُ من جِنس العمل؛ فكما عاد إلى إرضاءِ زوجتِه، والإحسانِ إليها، عادَ اللهُ تعالى عليه بمغفرتِه ورحمتِه.

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (227).

وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: خيَّر الله تعالى المُولِي من زوجته بين شيئيْن: إمَّا أن يفيء إليها وإما أن يطلِّقها. ولَمَّا كان الرُّجوع إليها، أحبَّ إلى الله تعالى، بدأ به، فإذا قصد الزَّوج طلاقَها بعزمٍ تامٍّ، أي: بعد تأمُّلٍ فيه، واستقرار رأيه على مفارقة امرأته، فإنَّه يجب عليه أن يُطلِّقها مباشرةً، ولْيعلم أنَّ الله تعالى يسمع طلاقه حين يُطلِّق، وأنه مطَّلعٌ على ما في قلبه، فلْيحذر من المخادعة والتلاعب بأمر الله تعالى، بإرادة تعليقها والإضرار بها؛ فإنَّ الله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ، وسيُجازي عباده بأعمالهم، وليس منه مهربٌ جلَّ وعلا.

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (228).

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ.

أي: إنَّ النِّساء الحرائر المدخول بهنَّ إذا كنَّ ذوات حيض وطهرٍ، ولسن بحوامل، وطلقهنَّ أزواجُهنَّ، فعليهنَّ ألَّا يعجلْنَ إلى الزواج، بل يحبسنَ أنفسهنَّ عنه مدَّة ثلاثة قروء. والقُرء قيل: هو الطُّهر، وقيل: هو الحيض.

وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: الذي نُهيَت المرأةُ المطلَّقة عن كتمانِه مِن مُطلِّقها ممَّا خلَق اللهُ في رحِمها: الحيض، والحمل؛ فكتمان ذلك، يقود إلى شرور كثيرة؛ فإنَّها إذا كتمت حملها، أدَّى ذلك إلى إلحاق الجنين بغير مَن هو له، رغبة فيه، أو استعجالًا لانقضاء العدَّة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصلَتْ مفاسدُ أخرى كقطْع الرَّحِم، والإرث، واحتجاب محارمِه عنه، وربَّما يتزوَّج ذواتِ محارمه، وغير ذلك من المفاسِد. وكتمانُ الحيض، يكون بإخبارِها كذبًا بوجوده، وهذا يؤدِّي إلى انقطاع حق الزَّوج عنها، وإباحتِها لغيره ويتفرَّعُ عن ذلك من الشُّرور مثلُ ما سبَق، أو يكون بإخبارِها كذبًا بعدم وجود الحيض؛ كي تطول العِدَّة، فتأخذ منه نفقةً غير واجبة عليه، وقد يُراجعها مُطلِّقُها بعد انقضاء العِدَّة، فيكون ذلك زنًا؛ لأنَّها لا تحلُّ له في هذه الحال؛ فنهاهنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ عن كتمانِ الحيض والحمْل، فهذا فِعلُ مَن لا يؤمن بالله، ولا باليوم الآخِر، ولا من أخلاقه،

وفي هذا تهديدٌ لهنَّ على قول خلاف الحقِّ، فمَن آمَنت بالله تعالى واليوم الآخِر، وعرَفت أنَّها مجزيَّةٌ عن أعمالها، لم يصدُر عنها شيءٌ من ذلك؛ لأنَّ الإيمان بهما يحمِل الإنسان على فعل المأمورات، واجتناب المحظورات.

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا.

أي: إنَّ زوجَ المطلَّقة أحقُّ وأولى بإرجاعها إلى عصمتِه، ما دامتْ في عِدَّتها، أي: حال تربُّصها ثلاثة قروء، أو في أيَّام حملها إن كانت حاملًا، إذا قصد برجعتِها أن يُحدِث ائتلافًا والتئامًا بينه وبينها.

(وهذا في المطلَّقة طلاقًا رجعيًّا، أمَّا البائن فلا رجعةَ له عليها).

وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ.

أي: إنَّ للزَّوجاتِ- سواء كنَّ مُمْسَكات أو مُطلَّقات- حقوقًا، وعلى أزواجهنَّ القيام بها تجاههنَّ، مثلما أنَّ عليهن تُجاه أزواجهن حقوقًا أيضًا، والقيام بها من قِبل الطرفين يكون بما جرت به العادة، من غير وقوع ظلمٍ، أو مخالفةٍ لأمر الله تعالى، ولكنْ للرِّجال عليهن زيادة في الحقوق لِمَا للرجل من فضلٍ على المرأة؛ بسبب الإنفاق عليها وغير ذلك.

وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

بعد أنْ بيَّن الله تعالى بعض أحكامه، بيَّن أنَّ له الغلبة التامَّة والقهر، ومن ذلك انتقامه ممَّن خالف العمل بتلك الأحكام، وهو سبحانه حكيمٌ فيما شرع وقدَّر، إذ يضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللَّائق به.

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى حقَّ الرجعة الذي يُمكن الزَّوجَ، ذكَر بعدَه غايةَ الطَّلاق الذي يملكُه الزوجُ من امرأته، فقال سبحانه:

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا

افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229).

الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ.

أي: إنَّ عدد الطَّلَقات التي يحلُّ للزَّوج بعدها رجعة زوجته، مرَّتان، فإذا طلق الرَّجُل زوجته، فإنَّه يُخيَّر بين أمريْن ما دامت عدَّتها باقية، إما أن يردَّها إليه ويعاشرها بما جرت به عادة النَّاس من غير ظلمٍ لها، وإمَّا أن يتركها حتى تنقضي عدَّتها، ويُطلِق سراحها محسنًا إليها، دون أن يظلمها أو يضارَّ بها.

وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ.

أي: إنَّه لا يحِلُّ لكم– أيُّها الرِّجال– إذا أردتم طلاق زَوجاتكم أنْ تأخذوا ممَّا أعطيتموهنَّ شيئًا من المهر أو غيره، إلَّا في حالة واحدة وهي أن يَخشَى الزَّوجانِ، أو أولياؤهما كأقاربهما، من عدمِ قِيام كلِّ واحدٍ منهما بما له على الآخَر من حقوق، وذلك كأنْ تُبغِضَ الزوجةُ زوجَها، ولا تَقدِرَ على مُعاشرتِه؛ لسوء خُلُقه، أو لغير ذلك من أسباب، فتَخشى هي أو غيرها من عدم القيام بحقوق زوجها على الوجه المأمورِ به شرعًا، ويخشى الزَّوج أو غيره من عدم القيام بحقوق زوجته؛ بسبب نُفورِها منه، وبُغضها له، أو تَقصيرِها نتيجةَ ذلك في حقوقه– فلها حينئذٍ أن تُخالعه، أي: تطلُب منه فراقَها مُقابلَ عِوَض تُقدِّمه له، ولا حرجَ عليها في دفْعه، ولا حرجَ عليه في قَبوله وأخْذه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: يَخَافَا قراءتان:

1- يُخَافَا بالبناء للمفعول، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من غيرهما.

2- يَخَافَا بالبِناء للفاعل، وتعني: أنَّ الخوف صادرٌ من الزوجين.

تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّ ما تقدَّم من الأحكام التي شرَعها الله تعالى لعباده، فعرَّفها لهم، وبيَّنها، قد أمرهم سبحانه بالوقوف عندها، وعدم تجاوزها إلى نواهيه، فإنَّ مَن تخطَّى أمره ووقع في نهيه، فإنَّه هو الظالِم حقيقةً؛ إذ فَعَل ما لا ينبغي له فعلُه، وتعامل مع أوامر الله عزَّ وجلَّ بما لا تستحقُّه.

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (230).

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ.

أي: إذا طلَّق الرَّجُل امرأتَه الطلقة الثالثة، فإنَّها تحرُم عليه، وليس في مقدوره إرجاعُها، إلَّا أنَّها لو تزوَّجت بآخر، بعقدِ نكاحٍ صحيح، وجامعها الزوجِ الثاني، وكان هذا الزواج واقعًا عن رغبةٍ حقيقية، لا بقصد تحليل المرأة إلى زوجها الأوَّل، فلو طلَّقها زوجُها الثاني وانقضَتْ عِدَّتها،

فلا حرجَ حينئذٍ أن يُنشِئَا- الزَّوجِ الأوَّل والمرأة- عَقْدَ نِكاحٍ جديدًا بينهما، شريطةَ أن يُوقِنا أو يغلب على ظنِّهما أن يتعاشرَا بالمعروف، وأن يقوم كلٌّ منهما بحقوق الآخَر كما ينبغي.

وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

لَمَّا بيَّن الله عزَّ وجلَّ تلك الأحكام العظيمة، أشار إلى أنَّها من جُملة شرائعه التي يُوضِّحها توضيحًا كاملًا لمَن كان العلم سجيَّتَهم؛ إذ يملكون الاستعدادَ لفَهمه وقَبوله، فيفهمون الأحكام فهمًا صحيحًا يقودُهم للعمل بها كما ينبغي دون تحيُّل، فينتفعون بها وينفعون غيرهم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (231).

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ.

أي: إذا طلَّقتم- أيُّها الرِّجال- نِساءَكم، طلاقًا لكم عليهنَّ فيه رجعةٌ- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْنَ انقضاء عدتهنَّ، وأشرفْنَ على بلوغ أجلهن، فإما أن ترجعوهنَّ إلى عصمة النكاح بإشهادٍ على الرَّجعة، والتزامٍ بحُسن الصُّحبة، وطِيب العِشرة بما يتعارف عليه النَّاس، دون إخلالٍ بمأمور، أو وقوعٍ في محظور، أو اتركوهنَّ يَقضين تمام عدتهنَّ، ثم فارِقوهنَّ وأوفوهنَّ تمام حقوقهنَّ عليكم من مهرٍ ومتعةٍ ونفقةٍ، وغير ذلك، من غير مخاصمةٍ، ولا شقاقٍ، ولا إضرار.

وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.

أي: لا يكُن إرجاعُكم لنسائكم مع قُرب انقضاء عِدَّتهن لأجْل المضارَّة بهنَّ؛ لئلَّا يتزوَّجْنَ بغيركم، أو لتطوِّلوا عليهنَّ مدَّة العِدَّة، أو لدفعها إلى ابتغاء طلب الخُلع منكم؛ كي تنالوا منهنَّ فدية في سبيل الخَلاص منكم، فكلُّ ذلك تجاوزٌ لما أمر الله تعالى به من إمساكهنَّ بمعروفٍ أو مفارقتهنَّ بإحسان، ومَن يَقُمْ بتلك الاعتداءات، فالضررُ عائدٌ عليه حقًّا، فبذلك يُكسب نفسه آثامًا، ويستحقُّ عقاب الله تعالى.

وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا.

أي: لا تَجعلوا ما أَنزل اللهُ تعالى لكم في كتابه، من تلك الأحكام العِظام، في موضع السُّخرية والاستهزاء واللَّعب بها، بحيث تتركون العمل بها تجرُّؤًا واستخفافًا؛ فالله تعالى لم يُنزلها عبثًا، بل أنزلها بالحقِّ والصِّدق؛ لأجْل العمل على وَفْقها.

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ.

أي: اذكروا نِعَم الله تعالى التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى عليكم، ومن ذلك نِعمة الإسلام وما يَحويه من أحكامٍ عِظام، فيها ما يدعو الزَّوجين لتجديد الوئام، أو المفارقة الحَسَنة بعد تَعذُّر الالتئام، فاذكروه سبحانه باللِّسان حمدًا وشكرًا، وبالقلب اعترافًا وتفكُّرًا، وبالجوارح سعيًا وعملًا، ومن تلك النِّعم ما أنزله الله تعالى من الوحي إلى نبيِّه محمَّدٍ - ﷺ -، وهذا يَشمل كتابَ الله عزَّ وجلَّ، وسُنَّةَ رسوله عليه الصَّلاة والسلام المشتملة على الحِكمة، ومن ذلك ما فيها من ترغيبٍ وترهيب، والله تعالى يُذكِّركم ويَنصحُكم بما أنزله، إمَّا ترغيبًا بما يُليِّن قلوبَكم للخير، وإمَّا ترهيبًا بما يحذِّركم ويزجركم عن الشرِّ.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: اتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في جميع أموركم، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فالتزموا بأحكامه، ولا تتجاوزوا حدوده، وليكن معلومًا لديكم علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى محيطٌ بكل شيء علمًا، لا يخفى عليه شيءٌ مطلقًا، فيعلم ما تأتون وما تذرون، ويُجازيكم على ذلك بحسَبه، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر، ومِن كمال عِلمِه سبحانه أيضًا أنْ شرَع تلك الأحكامَ التي هي في غاية الإحكام، وصالحة في كلِّ زمان ومكان.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (232).

سبب النُّزول:

عن الحسن البصريِّ، أنَّه قال في قوله سبحانه: فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ: حدَّثني مَعقِل بن يَسَار أنَّها نزلت فيه، قال: ((زوَّجت أختًا لي من رجل فطلَّقها، حتى إذا انقضت عِدَّتها جاء يَخطُبها، فقلت له: زوَّجتُك وفرشتُك وأكرمتُك، فطلقتَها، ثم جئتَ تخطبها، لا واللهِ لا تعود إليك أبدًا، وكان رجلًا لا بأس به، وكانت المرأة تُريد أن ترجِع إليه، فأنزل الله هذه الآية: فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، قال: فزوِّجها إيَّاه))[42].

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: وإذا طلَّق الرِّجال نساءَهم طلاقًا يمكن إرجاع الواحدة منهن فيه- وذلك في التطليقة الواحدة، والتطليقتين- فقاربْت عِدَّتُها على الانقضاء، وأراد الزوج إرجاعها، ورضيتْ هي بذلك،

(42) رواه البخاري (5130).

فحينئذٍ لا يجوزُ لوليِّها- ما دام قد وقَع بينهما التراضي على المعاشرة الحَسَنة، من غير وقوعِ منكرٍ شرعًا وعُرفًا- أن يُضيِّق عليها بمَنْعها من التزوُّج به؛ غضبًا ونفورًا منه؛ لتطليقِه لها.

ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: إنَّ نهي الأولياءِ عن عَضْلهنَّ في تلك الحال، إنَّما يُوجَّه إلى مَن يَلين قلبه بالذِّكرى، ويخاف منزجرًا عن الوقوع في الحرام، وهم الذين يؤمنون بالله تعالى وبالدار الآخرة؛ لأنَّ الإيمان بهما يُحقِّقُ خشية الله تعالى، وخوف الحساب والجزاء، فهؤلاء هم الذين ينتفعون حقًّا بتلك الموعظة.

ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ.

أي: اتِّباعُكم- يا أولياءَ النِّساءِ- شَرْعَ الله عزَّ وجلَّ في رَدِّهنَّ إلى أزواجهنَّ، وتَرْك عضلهنَّ، خيرٌ لكم وأفضلُ عند الله تعالى، وأطيبُ لنفوسكم، وأطهرُ لقلوبكم من الذُّنوب، ومن العداوات، ومن حصول الرِّيبة، وأطهرُ لعِرْضكم كذلك؛ لأنَّه إذا كان بين الزَّوجين حبٌّ ومودَّة، فقد يَتجاوزانِ ذلك إلى الوقوع في الحرام، وقد يَرتاب فيهما وليُّها وهُما بَريئانِ من ذلك.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

أي: فلا تستغربوا أنْ أمركم الله عزَّ وجلَّ بخلاف ما جرت به عادتُكم من عضلهنَّ، بل امتثلوا أمْرَ مَن هو عالِمٌ بمصالحكم وما فيه خيركم ونقاؤكم وطُهركم في الدُّنيا والآخِرة، وذلك في كل ما يأمركم به

وينهاكم عنه، أمَّا أنتم– أيُّها العبادُ– فلا تعلمون أين الخِيَرة فيما تأتون وتتركون، إلَّا ما علَّمكم الله تعالى.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (233-242)

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235)

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236)

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237)

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238)

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239)

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240)

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241)

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242)

تفسير الآيات:

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233).

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ.

أي: أَرْشَدَ اللهُ عزَّ وجلَّ الوالدات المطلَّقاتِ إلى أن يرضعنَ أولادهنَّ؛ ذكورًا كانوا أو إناثًا، مدَّة سنتيْنِ تامَّتيْن، إنْ كان كلٌّ من الأب والأم، أو أحدهما يَنشُد كمالَ الرَّضاعة.

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا.

أي: على الوالدِ أن يدفعَ لأُمِّ أولاده ما يَقوتُها من الطَّعام، وما يكسوها من الملبسِ بما يجب لمثلِها على مِثله، ومن غير إسرافٍ أو إقتار، والله تعالى يعلم الغَنيَّ والفقير ومُتوسِّط الحال من خلقِه، ولا يُوجِب على الرِّجال من النفقة إلَّا ما أطاقوه ووجدوا إليه سبيلًا.

قال تعالى: فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا [الطلاق: 6-7].

لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا.

أي: يحرُمُ على الأُمِّ الإضرار بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها، ولا يَحِلُّ للأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ يَنزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتِها في إرضاعه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: لَا تُضَارَّ قراءتان:

1- لَا تُضَارُّ على أنَّها خبرٌ يُفيد النهيَ المتقرِّر، وهو أبلغُ من مجرَّد النهي.

2- لَا تُضَارَّ أي على أنَّها نهي.

وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ.

أي: ويحرُمُ على الأب أيضًا الإضرارُ بالأُمِّ، كأنْ ينزِعَ الولدَ من أمِّه، مع رغبتها في إرضاعه، ولا يَحِلُّ للأمِّ أيضًا الإضرارُ بالأب، كأنْ تأبى إرْضاعَ مولودها، أو تطلُبَ أكثرَ من أجْرِ مِثلِها.

وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ.

أي: إنَّ على وارث الطِّفل الذي مات أبوه، مِثلَ ما على الأبِ من النَّفقة والكُسوة لوالدته، وعدم الإضرار بها.

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا.

أي: إذا أراد والدُ المولودِ ووالدتُه فِطامَه عن الرَّضاعة، إذا رَأَيَا ذلك قبل انقضاء نهايةِ عامَيِ الرَّضاعة وبعد وقوعِ تَراضٍ منهما وتشاورٍ ونظَرٍ؛ هل في ذلك مصلحةٌ لمولودهما أم لا- فلا حرجَ حينئذٍ في ذلك ولا إثم.

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: إذا أردتم أن تطلُبوا لأولادكم مرضعاتٍ غيرَ أمهاتهم، على غير قصْد الإضرار بهنَّ، وإنَّما لأسبابٍ تدعو لذلك، كأن تعترضَ الأمُّ على أجرة إرضاع ولدها، ويمتنع الرجلُ من دفْع ما تطلبه، فتمتنع من إرضاعه، فلا حرجَ حينئذٍ ولا إثم على الوالدين في ذلك، إذا دفَع الوالد أجرةَ الرَّضاعة المتَّفقَ عليها للمرضعةِ فأوفاها حقَّها من غير نقصٍ ولا مماطلة.

وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك تلك الحقوق المذكورة في الآيات السَّابقة المتعلِّقة بالأزواج وأولادهم؛ وليكن معلومًا لديكم، علمًا يقينيًّا أنَّ الله تعالى لا يَخفى

عليه شيء، فهو يراكم وينظُر ماذا تعملون، فيحفظ أعمالَكم ويُجازيكم عليها؛ فلْيَحذَر العبدُ من أن يراه ربُّه ومولاه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره ووصَّاه.

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (234).

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا.

أي: إذا تُوفِّي الزَّوج، فيجبُ على زوجته أن تَعتدَّ من بعده، فتَمكُثَ حابسةً نفْسَها عن الزَّواج مُدَّةَ أربعة أشهر وعَشرة أيَّام.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ.

أي: إذا انقضت مدَّة عدَّة المرأة المتوفَّى عنها زوجها، فلا حرج على أوليائها فيما تفعله في نفسها من تزيُّن وتطيُّب ونِكاح حلال، وغير ذلك ممَّا أباحه الله تعالى لها.

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ الله سبحانه وتعالى عالِمٌ ببواطنكم، ومطَّلعٌ على حقائق أعمالكم؛ فأقِيمُوا أحكامه ولا تخالفوها، فإنَّه مجازيكم عليها.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (235).

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ.

أي: لا حرَج عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تَذكُروا للنِّساء المعتدَّات من وفاة أزواجهنَّ في كلامِكم ما يُشير ويُلمِّح لهنَّ من غير تصريحٍ إلى الرغبة في الزواج بهنَّ، ولا حرجَ عليكم كذلك فيما انطوت عليه قلوبُكم أثناءَ عدَّتهنَّ، من عزم نكاحهنَّ.

عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا.

أي: عَلِمَ اللهُ أنَّكم يا مَعشَرَ الرِّجالِ ستَذكُرون هؤلاء النِّسوةَ المُعتَدَّاتِ بالخِطبةِ في أنفُسِكم وبألسِنَتِكم، ولكنَّه ينهاكم عن مُواعَدتِهنَّ سِرًّا في العِدَّةِ بأن تتزوَّجوهنَّ بعدَ العِدَّةِ، إلَّا أن تُلَمِّحوا إليهنَّ برَغبتِكم في الزَّواجِ بهنَّ مُعَرِّضينَ؛ فلا حَرَجَ عليكم في ذلك.

وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ.

أي: لا تقوموا بإجراء عقد النِّكاح على المعتدَّات حتى تنتهي عِدَّتهنَّ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ.

أي: ليكن معلومًا لديكم أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم ما في أنفسكم من هواهنَّ، والرغبة في نكاحهنَّ، وغير ذلك، فكونوا على حيطةٍ من أن تخالفوا أحكامه في ذلك؛ فإنَّه مطَّلعٌ على ما في نفوسكم فلا تُضمِروا فيها نيَّة مخالفة لأمره تعالى، خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ.

أي: وليكن معلومًا لديكم كذلك بأنَّكم إن أضمرتم في أنفسكم ما لا يرضاه سبحانه فلا تيئسوا ولا تقنطوا، فإنَّ لديكم طريقًا لتصحيحِ الأمر، وهو طلب المغفرة منه سبحانه، فهو الذي يستر ذنوبَ عباده ويتجاوز عنها، ولا يعاجل عبادَه بالعقوبات على ذُنوبهم مع قدرته على ذلك، بل يمهلهم جلَّ وعلا.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (236).

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً.

أي: لا حرجَ عليكم في طلاقِكم النساءَ بعد العقدِ عليهنَّ، وقبل أن تُجامعوهنَّ، وقبل أن تُوجِبوا لهنَّ مهرًا محدَّدًا.

لَمَّا كان في طلاقهنَّ قبل جِماعهنَّ، وقبلَ فرْض المهرِ لهنَّ، انكسارٌ لقلوبهنَّ، أمر الله تعالى أزواجهنَّ بتعويضهنَّ بشيءٍ يجبُر خواطرَهنَّ، فقال تعالى:

وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ.

أي: أَعطوهنَّ- أيُّها الأزواجُ- ما يَتمتعْنَ به من أموالِكم، كلٌّ بحسَب قُدرته وأحوالِه غِنًى أو فقرًا، وبحسَب ما يتعارَف عليه الناس، من غيرِ أن تَظلموهنَّ، وجَعَل الله تعالى هذا الأمرَ أكثرَ تأكيدًا على المتَّصفين بالإحسان إلى أنفسهم وإلى الآخَرين.

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (237).

وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ.

أي: لا حرجَ ولا إثمَ عليكم- أيُّها النَّاس- إنْ طلَّقتُمُ النِّساء قَبلَ جماعِهنَّ وقَدْ قدَّرتُم لهنَّ مهرًا، ولهنَّ في هذه الحالِ نِصفُ هذا المهر.

إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى.

أي: للنِّساءِ نِصفُ المهر في تلك الحال، إلَّا إذا عفونَ عنه لأزواجِهنَّ، فيكون لهم المهر كاملًا، (وذلك إنْ كُنَّ ممن يصحُّ عفوهنَّ) أو أنْ يعفوَ أزواجُهنَّ عن نِصف المهرِ الآخَر لِنسائهِم، فيكون لهنَّ المهرُ كاملًا، ورغَّب الله تعالى كلًّا من الأزواج والزَّوجات في العفو، بأنَّ مَن يعفو أقربُ للتقوى من الآخَر؛ لأنَّ مَن يعفو قد آثَر فِعل ما ندَبه الله تعالى إليه على هوى نَفْسِه، فهو لِمَا أوجبه الله عزَّ وجلَّ عليه أشدُّ امتثالًا، ولِمَا نهاه أشد تجنُّبًا، وذلك هو القُرب من التَّقوى التي تَعني فِعلَ المأمور، واجتنابَ المحظور.

وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: لا ينبغي أن يترك الزوجانِ الإحسانَ إلى بعضِهم البعض، بإعطاءِ أحدهما للآخَر زيادةً على الحقِّ الواجب له، وذلك بالعفوِ والتسامُحِ عن بقيَّة المهر، فإنَّ الله تعالى يرى كلَّ عمل يصدُر من الناس، فمَن عفا فله أجره، والله تعالى يحفظ عملَه، ويُجازيه على إحسانه بفضله.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (238).

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى.

أي: يأمر الله تعالى بتعاهُد الصَّلوات المفروضة عمومًا بالمحافظة على مواظبة أدائها في أوقاتها، وحِفظ حدودها، والعناية بأدائها بشروطها وأركانها، وخصَّ الله تعالى من بينها بمزيدِ تأكيد، صلاة العصر.

وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ.

أي: أقيموا الصَّلاة، مواظبين على ذلك، ومداومين فيها على الخُشوع والطُّمأنينة والسُّكوت التامِّ عن سوى ما أمر الله تعالى به فيها من الذِّكر والقرآن.

لَمَّا أمَرَ الله تعالى عبادَه بالمحافظة على الصَّلوات، والقيام بحدودِها، والمداومة عليها، ذَكَر الحال التي يَنشغلُ فيها المرءُ عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال الخوف، ولكنَّها ليست عذرًا في ترْك المحافظة على الصَّلوات، فقال سبحانه:

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (239).

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا.

أي: إنْ خِفْتُم أن تُؤدُّوا صلاتَكم على تِلك الصِّفةِ الكاملة، فصَلُّوها على أيِّ حالٍ كنتم، سواء ماشِينَ على أقدامِكم أو راكبين على دوابِّكم- ويلزم من ذلك أن يكونوا مستقبلي القِبلة وغير مستقبليها- فإنَّ ذلك يجزيكم حينئذٍ عن القيام قانتِينَ.

فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

أي: فإذا زال عنكم الخوف، فأقيموا صلاتكم على الصِّفة الكاملة كما علمكم الله من قبلُ، وتعليمُه إيَّاكم ما ينفعكم في دُنياكم وأُخراكم- ومن ذلك إقامة الصَّلاة بتمامها- نعمةٌ عظيمة تقتضي شُكرها بذكره سبحانه في الصَّلاة وغيرها.

قال سبحانه وتعالى: فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ [النساء: 103].

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240).

الناسخ والمنسوخ:

جمهور المفسِّرين على أنَّ هذه الآية منسوخةٌ حكمًا بقوله تعالى: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، وقيل النفقة كذلك منسوخةٌ بآية المواريث.

فعن عبد الله بن الزُّبَير رضي الله عنهما، قال: ((قُلْتُ لعثمانَ بن عفَّان: وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا. قد نسخَتْها الآيةُ الأخرى، فلِمَ تَكْتُبُها؟ أَوْ تَدَعُها؟ قال: يا ابنَ أخي، لا أُغَيِّرُ شيئًا منه من مكانِه)).[43]

---

(43) رواه البخاري (4530).

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ.

أي: إنَّ الأزواج الذين يموتون ويتركون وراءهم زوجاتٍ، فعليهم أن يعهَدوا قبل وفاتهم لورثتهم بأن تمكث زوجاتهم في بيوتهم (أي بيوت الأزواج المتوفَّين) مدَّة عام كامل، يتمتَّعن فيه بالنفقة من أموالهم، والسُّكنى في منازلهم، دون أن يُخرِجَهنَّ أحدٌ منها.

فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ.

أي: لا حرَج على أولياء الميِّت في خروجهنَّ وتركهنَّ الحدادَ على أزواجهنَّ بالتجمُّل والتطيُّب والتشوُّف للنكاح والتزوُّج، وغير ذلك ممَّا لا يخرج عن حدود الشَّرْع والعُرف.

وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يمنعُه شيءٌ من انتقامه ممَّن خالف أمْره وارتكب نهيه، ومن ذلك إخراج المتوفَّى عنها زوجُها من بيته قبل انقِضاء عامٍ، وهي راغبةٌ في المُكْثِ فيه، كما أنَّ ما شرَعه من أحكام في غاية الإتقان، وهي أحكام صادرة عن عزَّته، وحِكمته، فجعل لكلِّ أمر حُكمَه اللائق به.

وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (241).

أي: يجِب على الأزواج أن يُعطوا لمطلَّقاتهم ما يتمتَّعن به من كُسوة أو غيرها، بما يتعارف عليه النَّاس، من غير مخالفة لحدود الله تعالى، وهذا الأمر حقٌّ لهنَّ ثابتٌ ومؤكَّدٌ على كل مطلِّقٍ لزوجته؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يجبُ عليه أن يكون متَّقيًا لله تعالى بفعل ما أمر، واجتناب ما نهى.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (242).

أي: كما بيَّن الله عزَّ وجلَّ ما سبق من أحكام ووضَّحها غاية الإيضاح، يبيِّن لكم أيضًا سائر آياته وأحكامه بوضوحٍ تامٍّ حتى لا يبقى فيها خفاءٌ أو لبسٌ؛ لتفهموها وتعملوا بها.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (243-252)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243)

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244)

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ (245)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246)

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ **(247)**

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ **(248)**

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ **(249)**

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ **(250)**

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا

دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ **(251)**

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ **(252)**



تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (243).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ.

أي: ألم تعلمْ يا محمَّد، خبرَ تلك الجموع المؤلَّفة من آلاف الأشخاص، الذين فرُّوا من دُورِهم وموطنِهم ابتغاءَ السَّلامة من الموت، إما حذرًا من إصابتهم بوباءٍ وقع في بلادهم، أو خوفًا من مقاتلة عدوٍّ يدهمهم في أرضهم.

فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ.

أي: أمَر الله تعالى أمرًا كونيًّا بأنْ يموتوا، فماتوا، ثم أحياهم اللهُ تعالى بعدَ مُدَّة، فقاموا، فهؤلاء لَمَّا فروا– إمَّا من الوباء، أو مِن مقاتلةِ الأعداء؛ طلبًا لطولِ الحياةِ والبقاء– عُومِلوا بنقيض ما قَصدوا، وجاءهم الموت جميعًا فحُصدوا، وفي هذا حثٌّ للمؤمنين على جِهاد الأعداء، بإعلامهم أنَّ إليه وحده الإماتةَ والإحياء، وأنَّ الفرار من القتال والبقاء في الدُّور للاختباء، ليس بمُنجٍ أحدًا من وقوع القَدَر والقضاء.

إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.

أي: إنَّ الله تعالى هو صاحبُ الإحسان والإنعام على عموم النَّاس، ومِن ذلك تفضُّلُه عليهم ببيان آياته، وطريق إحياء أرواحهم بنور الهدى، ومنها إحياء أبدانهم بإنقاذهم من الموت والهلاك، وكان الواجب على النَّاس تقديم الشكر لله تعالى في مقابل تلك النِّعم، إلَّا أنَّ الصفة السَّائدة لديهم هي القيام بجحودِها، بالكفر، أو العصيان، أو الغفلة والنِّسيان.

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (244).

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: كما أنَّ الحذر لا يُغني من القدْر، فكذلك الفرار من الجهاد وتجنُّبه لا يُقرِّب أجلًا، ولا يُباعِده، فقاتلوا- أيُّها المؤمنون- أعداءَ دِينكم؛ لإعلاء دين ربِّكم الذي هداكم له، واعلموا أنَّه لا يُفيدكم القعود عن القتال شيئًا، وإنْ ظننتم أنَّ في القعود بقاءَكم، فليس الأمر كذلك؛ فلا تجبُنوا عن لقائهم، وتقعُدوا عن حربِهم؛ فإن بيدي حياتَكم وموتَكم، فلا تخافوا الموت على أنفسكم، واشكروا الله تعالى بطاعة ربِّكم، واعلموا أنَّ الله عزَّ وجلَّ سميعٌ لأقوالكم؛ عليمٌ بأحوالكم؛ فاحذروا من المخالفة، وقوموا بما أوجب الله تعالى عليكم، فإنَّ الله سبحانه يُجازي كلًّا بعمله؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

قال تعالى: الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [آل عمران: 168].

وقال سبحانه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ [النساء: 77–78].

لَمَّا حثَّ الله عزَّ وجلَّ على القتال، حثَّ على الإنفاق؛ فإنَّ القِتال يَستدعي أموالًا لتجهيزِ الجيش بالعددِ والعَتاد، فقال تعالى:

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245).

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: فَيُضَاعِفَهُ لَهُ قراءتان:

1- فَيُضَعِّفه، وتعني: المداومة وتكرير الفِعل، أي يستمر في المضاعفة مرَّةً بعد مرَّة.

2- فَيُضَاعِفه، وتعني: كثرة ما يُضاعف.

مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً.

أي: هل ثمَّة أحدٌ يقتطع جزءًا من ماله الحلال، فينفقه احتسابًا للأجر، وطلبًا لمرضاة الله تعالى، في أوجه الخيرِ كالجِهاد وغيره، طيِّبةً نفسُه بذلك، ودون أن يُتبع نفقتَه منًّا أو أذًى- فإنَّ الله تعالى لا يَقضيه مثله في الأجر وحسب؟ بل يَزيده الغنيُّ الكريم مرَّة بعد مرَّة، زياداتٍ كثيرة، قد تبلغ سبعمئة ضِعفٍ وتزيد.

كما قال تعالى: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [البقرة: 261-262].

وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.

أي: يُضيِّق الله تعالى الرزق على مَن يشاء من عباده، ويُوسِّعه على مَن يشاء منهم، فالتصرُّف كلُّه بيديه، والأمور كلُّها راجعةٌ إليه؛ فالإمساكُ لا يبسط الرِّزق، والإنفاقُ لا يقبضه، فأنفِقوا- أيُّها العباد- ولا تُبالُوا؛ فالله هو الرزَّاق، وهو مع ذلك غير مضيّع أعمالكم، بل تجدون ما قدَّمتموه مُوفَّرًا مُضاعَفًا، يوم ترجعون فيه إلى ربِّكم فيُجازيكم بأعمالِكم.

كما أنَّ اللهَ تعالى هو الذي قبَض الرِّزق عمَّن حثَّ على مَعونتِه وإعطائه؛ ليبتليَه بالصبر، وهو الذي بَسط على آخَر؛ ليمتحنه بعمله فيما بسط عليه، ويجازي يوم القيامة كل واحد منهما على قدر طاعتهما له سبحانه فيما ابتلاهما به، من غنًى وفاقةٍ، وسَعَةٍ وضيقٍ.

لَمَّا أمَرَ سبحانه المؤمنين بالقتالِ في سبيله، بعد قِصَّة الذين خرَجوا من دِيارهم وهم ألوفٌ حذرَ الموت، أردْف ذلك بأنَّ القتال كان مطلوبًا ومشروعًا في الأمم السابقة، فكانتِ النفسُ أميلَ لقَبوله من التكليف الذي يقَعُ على انفراد، ولِيعلمَ المؤمنون حالَ وعاقبةَ مَن الْتزمَ أمْرَ الله تعالى بالقتال في سبيله، ومَن خالفه، فقال عزَّ وجلَّ:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (246).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ.

أي: ألَمْ تَنظُرْ يا محمَّد، إلى شأنَ أشراف بني إسرائيل ووجهائهم، من بعد وفاة موسى عليه السَّلام، حين طلبوا من أحد أنبيائهم أن يُعيِّن لهم ملِكًا يوحِّد أمْرهم على جهاد أعداء الله تعالى.

قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا.

أي: قال النبيُّ الذي سألوه أنْ يبعث لهم ملكًا؛ ليُجاهدوا معه في سبيل الله: لعلَّكم تَجبُنون عن القِتال إذا فُرِض عليكم؟

قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا.

أي: قال الملأ من بني إسرائيل لنبيهم: وأيُّ شيء يمنعنا من الجهاد في سبيل الله تعالى، وما الذي يبقى لنا إذا تركنا القتال، والحال أنَّا مضطرُّون إليه؛ فالبلاد قد أُخذت، والأبناء قد سُبيَت، فما دام أنَّ الأمر قد بلغ هذا المبلغ فلا بدَّ حينئذٍ من إقامة الجهاد.

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ.

أي: لَمَّا فُرِض عليهم قتال عدوِّهم ما وَفوا بما وَعدوا، بل أَدبر أكثرُهم ناكلينَ عن القتال، وضيَّعوا فرْضَ الجهاد الذي طلبوه ابتداءً من عند أنفسِهم، فجبنوا، واستولى على أكثرهم الضَّعفُ والخور، وبقِي منهم عددٌ قليل قد عصمهم الله تعالى وثبَّتهم، فالتزموا أمر الله عزَّ وجلَّ، والله سبحانه يَعلم مَن ظَلَم نفْسه منهم ومِن غيرهم، ممَّن أخلف وعْدَه، ونكص عن أمر ربِّه، واللهُ تعالى مجازيه على ظُلمه.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (247).

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ.

أي: أخبَرَهم نبيُّهم بأنَّ اللهَ تعالى قد أجابهم إلى ما سألوا مِن بعث المَلِك لمصلحتهم، يُقاتل ويقاتلون معه، فعيَّن لهم طالوت، وكان رجلًا من عامَّتهم، لا يَنتمي إلى السِّبط الذي فيه المُلْك، فكان الواجب عليهم قَبولَ مَن اختاره الله تعالى، والانقيادَ إليه، فأبوا إلَّا أن يعترِضوا، واستبعدوا مُلكه عليهم، فقالوا: كيف يكون ملكًا يسيطر علينا، وهو دُوننا في الشَّرف والنسب؟! فلماذا لم يأتِ المَلِك منَّا، ونحن من سِبط الملوك فنحن أولى منه بذلك؟! ثمَّ هو مع هذا رجلٌ لا يمتلك الكثيرَ من الأموال كما هو شأن الملوك الآخرين!

قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ.

أي: لَمَّا اعتقدوا رأيًا فاسدًا، وهو أنَّ المُلْك يتطلَّب شرف النَّسَب، وكثرة المال، ولم يدركوا الصِّفات الأساسيَّة المقدَّمة على هذين، قال لهم نبيُّهم: إنَّ الله اختاره لكم، واختصَّه من بينكم، والله أعلم به منكم، ولستُ أنا مَن عيَّنه من تلقاءِ نفسي، بل الله تعالى هو الذي عيَّنه لي لَمَّا طلبتم ذلك،

فلزِمكم الانقيادُ إليه، وهو مع هذا قد أعطاه الله تعالى زيادة في العلم، الذي يمنحه حنكةً وقدرةً على تدبير الأمور، وأعطاه طول القامة وقوة الجسد اللَّذيْنِ يمنحانِه هيبةً وشجاعة، فتوفَّرت لديه الأسباب الحقيقيَّة لاستحقاق المُلْك دون غيره، فبهاتين القوَّتين: القوة المعنويَّة: قوة العلم والرأي، والقوة الحسيَّة: قوة الجسد، تتمُّ أمور الملك وسياسة الرعية، وتكثر أموال المملكة، ويحصُل النصر على الأعداء، بإذن الله تعالى.

وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ المُلك لله تعالى وحده، وبيده دون غيره، يُؤتيه مَن يشاءُ بحسَب ما تقتضيه حِكمتُه، فيخصه به، فلا تستنكروا يا معشرَ الملأِ من بني إسرائيل أن يبعث الله طالوت ملكًا عليكم، وإنْ لم يكُن من أهل بيت المُلْك؛ فإنَّ المُلْك ليس بميراث عن الآباء والأجداد، ولكنَّه بإيتاءِ الله وحده، فلا تتخيَّروا على الله تعالى، فهو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون.

والله تعالى ذو سَعةٍ في جميع صفاته؛ ومن ذلك أنَّه واسعٌ في عِلمه، وواسعٌ في فضله، وكرمه؛ ومِن سَعة فضله أنَّه لا يخصُّ بكرمه شريفًا عن وضيع، أو غنيًّا عن فقير، وأنَّه يُنعم بالمُلْك حتى على مَن لم يكُن من بيت مُلك، وهو سبحانه واسع العلم، عليم بكلِّ شيء؛ ومِن ذلك علمه بمن يصلح للمُلْك من غيره.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (248).

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ.

أي: إنَّ علامة صِحَّة تنصيبِ طالوت ملكًا عليكم، وإن كان من غير سبطِ ملوككم، هي أن يُردَّ إليكم الصُّندوق الذي سُلب منكم، فتطمئنَّ به قلوبكم ويحوي ما يُهدِّئ نفوسكم، وممَّا يحويه أشياء تبقَّت من تركةِ موسى وهارون عليهما السَّلام، قيل: منها بقيةٌ من آثار ألواح التوراة، تحوي العِلم والحِكمة، وميراث الأنبياء عليهم السلام، ويحمل هذا الصندوقَ إليهم ملائكةُ الربِّ عزَّ وجلَّ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

أي: إنَّ في رجوعِ التابوت إليكم كما وصفتُ لكم، علَامةً على اختيار الله تعالى لطالوت ملكًا عليكم، وستؤمنون بأنَّها دلالة صحيحة لكم على هذا الأمر، إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومصدِّقيَّ فيما أخبرتكم به.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ

وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ **(249)**.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ.

أي: فلمَّا أتاهم التابوت كما أخبرهم نبيُّهم، فصدَّقوه وأذعَنوا لولاية طالوت، انضمُّوا إليه لقتال عدوِّهم، فلما سار طالوت بالجنود متجاوزًا موطنهم، وشاخصًا نحو موضع آخر، أخبرهم أن الله تعالى مختبرهم بماء نَهَرٍ؛ ليتميَّز منهم الكاذب من الصادق، والصابر من الجازِع، ويترتَّب عليه مَن يصحب الجيش حيث وجهته، ومَن يفارقه؛ لكونه ليس أهلًا للجهاد في سبيل الله تعالى، فأخبرهم بأنَّ مَن شرِب من هذا الماء فأنا منه بريء، وليس من أهل طاعتي وولايتي وهو بذلك عاصٍ،

فلا يتبعنا لمعصيته وعدم ثباته، ومَن لم يذُقْ منه شيئًا سوى ما اغترفه بكفِّه مرَّةً واحدة، فليصحبنا، فإنَّه من أهل طاعتي وولايتي، فكانت نتيجة هذا الامتحان أنْ شرِب منه معظمُهم، ونكصوا عن قتال عدوِّهم، ولم يبقَ مع طالوت سوى عددٍ قليل قدِ الْتزموا ما أمَرَهم به!

فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ.

أي: فلمَّا تعدَّى طالوتُ النَّهرَ، ومَن معه مِن المؤمنين الذين أطاعوه، فلم يشرَبوا شيئًا من مائه، أو شرِبوا غرفةً واحدةً باليد، قال بعضهم لَمَّا شاهدوا قلَّتَهم وكثرة عدوِّهم: لا قدرةَ لنا في هذا اليوم بقتال جالوت وجنودِه؛ لكثرة عَددهم وعُددهم.

قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ.

أي: قال الذين يعلمون يقينًا أنهم راجعون إلى الله تعالى وملاقوه، وهم أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ منهم، قالوا مُطَمْئِنينَ مثبِّتينَ لباقيهم الذين قالوا: لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ: ما أكثرَ ما تغلبُ الجماعةُ القليلةُ الجماعةَ الكثيرة! وذلك بقدر الله تعالى وإرادته، فلا تُغني الكثرة مع خذلانِه، ولا تضرُّ القِلَّة مع توفيقِه، والله عزَّ وجلَّ مع الحابسين أنفسهم على رِضاه وطاعتِه، وتجنُّب معصيته، وتحمُّل أقداره، فيُعينهم على الجهاد في سبيله وغير ذلك من طاعاته، ويؤيِّدهم وينصرهم، ويُظهِرهم على أعدائهم الصادِّين عن دينه.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (250).

لَمَّا ظهر حزبُ الإيمان- طالوتُ وجنودُه- لجالوتَ وجنودِه، قالوا: ربَّنا أنزِلْ علينا صبرًا، واملأْ به قلوبنا، وقوِّها على جهادهم؛ لتثبتَ أقدامنا فلا تتزلزل فنجبُنَ ونفرَّ، وانصرنا على هؤلاء القوم الذين كفروا بك.

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251).

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ.

أي: فاستجاب لهم ربُّهم دعاءَهم، فغلَب طالوتُ وجنودُه عدوَّهم بقدَرِ الله تعالى وتوفيقه، وباشَر داودُ عليه السَّلام قتْلَ جالوت بنفْسه؛ لشجاعته وقوَّته وصبره، وأعطاه الله السلطان والنبوَّة، وعلَّمه ممَّا يشاؤه سبحانه، ومن ذلك تعليمه صَنعةَ الدروع،

كما قال جلَّ وعلا: وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ [الأنبياء: 80].

وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ.

أي: لولا أنَّ الله تعالى يدفع بالمجاهدين في سبيله كيد الكفَّار والفجَّار، وإلا لفسَدت الأرض باستيلائهم عليها، وإقامتِهم شعائرَ الكفر ومظاهرَ الفِسق والفجور، ومنعهم من إظهار عِبادة الله تعالى وحده، فتحُلُّ بالأرض وأهلها العقوبات، ويَهلِك الحرثُ والنَّسل؛ فالله سبحانه صاحب الفضل الواسِع على جميع خلقه، ومِن ذلك أنْ شرَع لعباده الجهاد رحمةً بهم ولطفًا؛ إذ فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم؛ لتمكينِهم من الأرض.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (252)

أي: هذه الآيات التي أنبأتُك بها يا محمَّد هي علاماتٌ على الله تعالى وتوحيده، وحُجج ودلائل على الهدى، تأتيك بالواقع الذي كان عليه الأمرُ، المطابق لِمَا بأيدي أهل الكتاب من الحقِّ الذي يعلمه علماءُ بني إسرائيل؛ فهي أخبارٌ صادقةٌ لا ريبَ فيها؛ ولذا أكَّد الله تعالى لرسوله عليه الصَّلاة والسَّلام رسالتَه، التي مِن جملة أدلَّتها ما قصَّه الله عليه من أخبار الأمم الماضين التي لم يَعلمْها، إلَّا بعد إخبار الله تعالى له بذلك، فدلَّ هذا على أنَّه رسول الله حقًّا، ونبيُّه صدقًا.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآية (253)

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253)

تفسير الآيات:

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ.

أي: إنَّ عمومَ الرُّسلِ الكرام، عليهم الصَّلاةُ والسلامُ، ذَوي المراتِب العَليَّة، ليسوا على منزلةٍ واحدة في الفضائل، بل مايَزَ اللهُ تعالى بينهم؛ فهُم مراتبُ مُتفاوِتة: فمنهم مَن اختصَّه الله تعالى بتكليمه مباشرةً؛ كموسى عليه السَّلام، ومنهم مَن رفَعه الله تعالى على غيره من الرُّسل درجاتٍ؛ كمحمَّدٍ - ﷺ -، وهو أفْضلُهم، وأعلاهم درجةً.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا [الإسراء: 55].

وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.

أي: أعْطى اللهُ تعالى عيسى عليه السَّلام- الذي هو ابنُ مريمَ عليها السَّلام- من الحُجَج القاطعة، والمعجِزات السَّاطعة، والإنجيل الذي أُنزِل إليه من ربِّه، ما يدلُّ على صِدْق رِسالته، وصحَّةِ ما جاء به، وقد أيَّده الله تعالى بجبريلَ عليه السلام؛ يُقوِّيه ويُعينه.

وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ.

أي: ولو أراد اللهُ تعالى أنْ لا يَقتَتِلَ أولئك الذين أَتَوا من بعد الرُّسل عليهم السَّلام، مِن بَعْد أنْ جاءهم مِن آيات الله تعالى ما يُوضِّح لهم الحقَّ، ويُرشِدهم إلى طريقِه- لو أراد الله تعالى أنْ لا يَقتتِلوا، ما اقتتَلوا؛ فالأمرُ إليه وحْده جلَّ وعلا.

وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ.

أي: ولكن السَّبب الذي أَوجَب قتالَهم هو اختلافُهم في تلك البيِّنات الموجِبة لاجتماعهم على الإيمان بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام؛ فمنهم مَن أقرَّ بالحقِّ مُصدِّقًا به، ومُنقادًا إليه، ومنهم مَن جحَده، وأَعرَض عنه مُتعمِّدًا ومُبتغيًا الكُفْرَ، بعدَ قيام الحُجَّة عليه.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

أي: ولو أراد الله عزَّ وجلَّ أن يَحجُزَهم عن القِتالِ بعِصمته وتوفيقِه، لَمَا اقتتَلوا ولا اختَلَفوا؛ فكلٌّ ذلك صادرٌ عن قضاء الله وقَدَره؛ فإرادتُه غالبة، ومشيئته نافذة، وهو سبحانه يَفعل ما اقتضتْه حِكمتُه، فيُوفِّق مَن يشاء فضلًا، ويَخذُل مَن يشاء عدلًا.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (254-257)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ **(254)**

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ **(255)**

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ **(256)**

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(257)**

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ.

أي: يُنادي اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين مُنبِّهًا، وحاثًّا لهم على أمرٍ مهمٍّ من مقتضيات إيمانهم، وهو الإنفاقُ في سبيله سبحانه، فأمَرهم الله تعالى أن يُخرِجوا ممَّا أعطاهم من الخير صدقةً؛ واجبة كانت أو مُستحبَّة، ويَشتَروا بها ما عند الله تعالى من نعيم الآخِرة، قبل مجيء اليوم الآخِر الذي يَنقطِع فيه العمل، ولا يَملِك الكُفَّارُ فيه شيئًا يُنفِقونه لله تعالى، ولا مالَ لديهم يَفتدون به من عذابه عزَّ وجلَّ، ليس هذا فحسبُ، بل لا صديقَ حميم يَنصرُهم في ذلك اليوم، ولا ثَمَّ شافعٌ يَشْفع لهم عند الله تعالى، فيدفع عنهم ضرًّا، أو يَجلِب لهم خيرًا، فنَفَى الله سبحانه بذلك كلَّ الوسائل التي يُمكِن أن يَنتفِعوا بها في ذلك اليومِ العظيم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [آل عمران: 91].

وقال سبحانه: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر: 18].

وقال عزَّ وجلَّ حكايةً عن أهل النَّار أنهم يقولون: فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [الشعراء: 100 - 102].

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّار الذين كذَّبوا بالله تعالى ورُسله عليهم السَّلام، غيرَ مُقرِّين بهم ولا مُنقادِين إليهم، قدْ فعلوا بذلك ما ليس لهم فِعْلُه، ووضَعوا أنفسَهم في غير ما ينبغي أن يكونوا عليه، واختاروا لأنفسهم الكُفْرَ فخسِروها.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255).

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سوى الله تعالى؛ فهو وحده المستحِقُّ للعبادة حبًّا وتعظيمًا له تعالى؛ لكمال صفاته.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: 62].

الْحَيُّ الْقَيُّومُ.

أي: إنَّ الله تبارك وتعالى هو الذي له الحياة الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوال، المُستلزِمة لجميع صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائم بنفسه؛ فلا يحتاج لأحد، القائمُ بأمور غيره من خَلْقه من الرِّزق وغيره؛ فكلُّ الموجودات إليه مُفتَقِرة، ولا قِوام لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميع أفعال الكمال.

كما قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ [الفرقان: 58].

وقال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم: 25].

لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ.

أي: ومِن كمال حياته وقيُّوميَّته أنَّه لا يَعتريه سبحانه نُعاسٌ، ولا يَغلِبه نومٌ.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ.

أي: إنَّه يَملِك وحده جميعَ ما في الكون بغير نِدٍّ ولا شريك، والجميعُ عبيده ومملوكون له؛ فلا تنبغي العبادةُ لغيره سبحانه.

مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

أي: لا أحدَ يتجاسَر على القيام بالشَّفاعة عند الله تعالى إلَّا بعد إذنه جلَّ وعلا.

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

أي: إنَّ الله تعالى يعلم ما بين أيدي خلقه من الأمور الماضية، ويعلم أيضًا ما خلفهم من الأمور المستقبلة.

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ.

أي: إنَّ سائر من دونه سبحانه لا يعلمون من علم الله تعالى شيئًا البتَّةَ، فلا يعلمون ما بين أيديهم ولا ما خلفهم ولا غير ذلك، إلَّا ما علَّمهم الله تعالى بمشيئته.

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.

أي: أحاطَ كرسيُّ المَلِك- تعالى وتقدَّس- بالسَّموات والأرض- على اتِّساعهما وعظمتهما- وشَمِلهما.

والكُرسيُّ: هو موضِع قَدَمَي الربِّ عزَّ وجلَّ.

فعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: (الكرسيُّ موضعُ القدميْن، والعرشُ لا يَقْدِرُ أحدٌ قدْرَه).

وَلَا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا.

أي: لا يُثقِله ولا يَشقُّ عليه حِفْظ السَّموات والأرض، بل ذلك سَهْلٌ عليه ويسير.

وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ.

أي: إنَّه تَبارك وتقدَّس ذو العُلُوِّ المطلَق على كلِّ مخلوقاته، فهو عليٌّ بذاته فوق عرشه، عليٌّ على خَلْقه بقهره، وكمال صفاته، وهو ذو العَظمة المطلَقة في ذاته وصفاته وسُلطانه، وكلُّ ما سواه حقيرٌ بين يديه، صغيرٌ بالنِّسبة إليه، فلا شيءَ أعظم منه سبحانه وتعالى.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (256).

سبب النُّزول:

عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: (كانت المرأةُ من نِساء الأنصار تكون مِقلاةً، فتَجعَل على نَفْسها إنْ عاش لها ولدٌ أن تُهَوِّدَه، فلمَّا أُجليتِ النَّضيرُ كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا نَدَع أبناءَنا؛ فأنزل الله تعالى: لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ........ الآية).[44]

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ.

---

(44) أخرجه الواحديُّ في ((أسباب النزول)) (ص: 52). صحَّحه ابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (93)، وصحَّح إسنادَه ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (2/169) وقال: لكن رُوي عن سعيد بن جُبَير مرسلًا. وذكَر الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (8/217): أنه رُوي من طرق جميع رِجاله لا مطعنَ فيهم.

أي: لا ينبغي أن تُرغِموا أحدًا على اعتناق الدِّين الإسلامي؛ إذ لا حاجةَ لذلك؛ فهو أمرٌ واضحٌ وجَلِيٌّ، قدْ تَميَّز من الضَّلال، وتبيَّنت أدلَّته، وظهرتْ حقائقه، فلا خفاءَ فيه ولا غموض، فمَن هداه الله تعالى له، وشرَح صدرَه، دخَل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبَه، فإنَّه لا يُفيده الدخولُ فيه مُكرَهًا عليه.

والمقصودُ: أنَّ دِين الإسلام من حيث هو، واضحةٌ فيه معالمُ الحقِّ، ويتمايَز بجلاء عمَّا سواه من الباطل، ممَّا يُوجِب اعتناقَه مِن قِبَل كلِّ مُنصِفٍ مُرادُه اقتفاءُ الحقِّ.

فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا.

أي: إنَّ مَن جحَد ربوبيَّة الطَّاغوت وأُلوهيَّته المزعومتين، فتبرَّأ منه ومن عبادته وطاعته- والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو مُطاع- وآمَن بالله تعالى وحده وجودًا ورُبوبيَّةً وأُلوهيَّةً، وبما له من أسماء حسنى، وصفات عُلا، فعبَده وقَبِل خبرَه، وأذْعن لطلبه واتَّقاه، ممتَثِلًا أمره ومجتنبًا نهيه، فإنَّه قد تَمسَّك تمسُّكًا شديدًا بأقوى رِباط، وأَحْكمِ أمر، وهو دِينُ الله تعالى الحقُّ المبرَم، وهو أَوثَق ما يُتمسَّك به لطلب العِصمة والنَّجاة، فيبقى ثابتًا على الحقِّ، مستقيمًا عليه، دون أن يَخشى انقطاعًا وانفكاكًا بخِذلان الله تعالى له وإسلامه إلى التَّهلُكة.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ [النحل: 36].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ [الزمر: 17].

وقال سبحانه: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا [النساء: 60].

وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى يسمعُ كلَّ شيء، ومنه سَماعُه إعلان من أعلن الكفرَ بالطاغوتِ، والإيمانَ باللهِ، وإعلان من أعلن خلافَ ذلك، ويعلمُ أيضًا كلَّ شيء سبحانه، ومن ذلك علمه بما في صدور خلقه مِن الإيمانِ والكفرِ؛ فيُجازي كلَّ واحدٍ منهم بحسب ما يَنطِق به لسانه، وما تُضمِره نَفْسه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (257).

اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ.

أي: مَن آمَن بالله حقًّا، فإنَّه جلَّ وعلا يتولَّاه على الدوام، فيكون عونًا له ونصيرًا، ويؤيِّده ويوفِّقه، ويمكِّنه من التوغُّل شيئًا فشيئًا في طريق اليقين الأوحد، فيَخرُج من ظلمات الضَّلال، ويَخترِق حُجُب

الشُّبهات والشَّهوات المظلِمة، فيَنكشِف له نورُ الإيمان واليقين، ويُؤتَى نَفاذَ البصيرةِ، ويتجدَّد له السموُّ في مقامات الإيمان، والصُّعود في درجات اليقين، فيُبصِر قلبُه حقائقَ الأمور أكثرَ فأكثر.

كما قال جلَّ وعلا: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ [الأعراف: 195-196].

وقال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [محمد: 17].

وقال سبحانه: هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ [الحديد: 9].

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: إنَّ الكفار يتولَّاهم الطاغوتُ؛ فهو حليفهم الذي يؤيِّدهم ويُعينهم، ويُغويهم بدعوى نَصْرهم، وطَلَب فلاحِهم، ومن أعظم الطَّواغيت الشَّيطان؛ فإنَّه يُسلَّط عليهم؛ عقوبةً لهم، فيُزعِجهم إلى الضَّلال إزعاجًا، فيُخرِجهم من الإيمان- إنْ كانوا مؤمنين من قبل- أو يُخرِجهم من نور الفِطرة السَّليمة، أو يُزيِّن لهم مرَّة بعد مرَّة ما هم عليه من الكُفْر والشِّرك، فيَظلُّون باقين في تلك الحُجُبِ المظلِمة التي تزداد كثافةً، وتَحجُب عن أبصارِ قلوبِهم رؤيةَ حقائقِ الإيمان وأدلَّته وطريقه، إلى أنْ يَحِينَ انتقالُهم إلى مُستقرِّهم الأخير، فيُلازِمون النَّارَ بلا نهاية، وبئس المصير.

كما قال تعالى: وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [الأنعام: 121-122].

وقال جل وعلا: إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا [النساء: 116-121].

وقال سبحانه: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ [النور: 39-40].

سُورةُ البَقَرَة

الآيات (258–260)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258)

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ

يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260)



غريب الكلمات:

فَبُهِتَ: انقَطع، وذهبتْ حُجَّتُه، ودَهِش وتحيَّر.

خَاوِيَةٌ: خالية، وخراب؛ فأصْلُ الخَوَاء: الخلوُّ، والسُّقوط، والخلاء.

عُرُوشِهَا: سُقُوفها، وأصْل العَرْش: الارتفاعُ في شيء مبني.

أَنَّى: حرْف للبحث عن الحال والمكان، بمعنى (كيف) و(أين)؛ لتضمُّنه معناهما.

لَمْ يَتَسَنَّهْ: لم يتغيَّر بمرِّ السِّنينَ عليه، مأخوذ من السَّنَهْ، وأصْله يتسنَّن، أُبدِلت النُّونُ هاءً.

نُنْشِزُهَا: نُحْيِيها، ونرفعها إلى مواضِعها، ونُحرِّك بعضَها إلى بعض؛ فأصْل النَّشْزِ: الارتفاع والعُلُوُّ.

فَصُرْهُنَّ: أمِلْهُنَّ إليك، واجْمَعهن، وضُمَّهنَ إليكَ، أو صِحْ بِهِنَّ، وصِرهنَّ- بكسر الصَّاد -: قطِّعهنَّ.

سَعْيًا: السَّعي: المشي السَّريع دون العَدْو، وقيل: المعنى هنا: عَدوًا، ويُقال: مشيًا على أرجُلهنَّ؛ لأنَّه لا يُقال للطَّائر إذا طار: سعَى.



تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ.

أي: ألم تَنظُر يا محمَّد، بقلبك مُتعجِّبًا من هذا المَلِك الذي خاصَم إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلام، وناظَرَه في وجود ربِّه ورُبوبيَّته وأُلوهيَّته؟ هل رأيتَ أحدًا مِثْله يُنكِر أن يكون ثَمَّ إلهٌ غيره؟ وما حمَله على هذا التجرُّؤ والتجاهل والمحاجَّة فيما لا يَقبَل الشكَّ، إلَّا طغيانُه وتجبُّره؛ بسبب تملُّكه على رعيَّته مُلْكًا لا يُنازِعه أحدٌ فيه لمدَّةٍ طويلة، فاستكبَرَ وبغى، فأَنكَر وجودَ العليِّ الأعلى.

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ.

أي: ألم ترَ- يا محمَّد- إلى ذلك المُحاجِج في أمرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، حين أخبرَه إبراهيمُ عليه الصَّلاة والسَّلام بدليلٍ يُثبِت وجودَ الربِّ ورُبوبيَّته وأحقِّيَّته وحده بالعبادة؛ فهو الخالق المالك المدبِّر، المُنفرِد بأنواع التصرُّف، وقد ذكَر إبراهيمُ منها على سبيل الخصوص: الإحياءَ والإماتةَ، وهي مِن أعظم أنواع التَّدابير التي لا يَقدِر عليها أحدٌ سوى الله تعالى، فيُحْيِي ما كان ميتًا ممَّا يَشاء مِن خَلْقه، ويُميتُ مَن

أراد إماتتَه من الأحياء، فحدوثُ هذه الأشياء المشاهَدة بعد عَدَمِها، وعدمها بعد وجودها- دليلٌ قاطِع وواضحٌ على وجود الفاعل المختار؛ لأنَّها لم تَحدُث بنفسها، فلا بدَّ لها من مُوجِدٍ أَوجَدَها، وهو الربُّ الذي دعا إبراهيمُ إلى عبادته وحده لا شريكَ له، فحينها ردَّ عليه المَلِك مُستكبِرًا ومُوهِمًا بأنَّه يَملِك فِعْلَ ذلك أيضًا، غير مُنكِر أنَّ الله تعالى يفعله؛ إذ لم يَقصُر الأمرَ على نفْسه، التي ادَّعى لها هذا المقامَ عنادًا ولَجَاجًا بالباطل، مُدَّعيًا أنَّ استبقاءه مَن أراد قتْله، إحياءٌ منه له، وقتْلَه لآخَر إماتةٌ له.

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ.

أي: لَمَّا أصرَّ هذا الكافرُ على المُغالطةِ والمُكابَرة، ردَّ عليه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام من خلال ما زعَمه، بأنَّه إنْ كان حقًّا صادقًا في دعواه بأنَّه يَملِك القُدرةَ على الإحياء والإماتة؛ فإنَّه ينبغي أن يكون قادرًا كذلك على التصرُّف في الوجودِ كتسخير كواكبه، قائلًا: هذه الشَّمس الظَّاهرة للعِيان يُحرِّكها اللهُ الذي أَعبُده، فيأتي بها كلَّ يوم لتَطلُع من جِهة المَشرِق، فإن كنتَ إلهًا تُحيي وتُميت كما تَزعُم، فاجعلْها تَطلُع من جِهة المغرب.

فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ.

أي: لَمَّا عَلِم هذا المُحاجِجُ عجزَه وانقطاعَه عن الإدلاء بحُجَّة- إذ لا قِبَل له بإيراد شُبْهة تُشوِّش دليلَ إبراهيم عليه السَّلام، ولا عَرْضِ قادحٍ يَقْدَح فيه- تحيَّرَ واندهش، فأُخرِس مغلوبًا، وبَطَلت حُجَّته، وقامت عليه حُجَّة الحقِّ.

وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يُوفِّق أهلَ الباطلِ الذين ظلموا أنفسَهم بإيثارهم الكُفْرَ على الإيمان، بل يُبقِيهم على كُفْرهم وضَلالهم، ولو كان قَصْدهم الهدايةَ إلى الحقِّ، لوفَّقهم ويسَّر لهم الوصولَ إليه، فحُجَجهم باطِلة، لا يُمكِن أنْ يُبطِلوا بها حُججَ أهلِ الحقّ عند المحاجَّة والمُناظَرة.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259).

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا.

أي: أَلَمْ تَنظُر أيضًا يا محمَّد، مُتعجِّبًا من هذا الرجل الذي مرَّ على قرية فارِغةٍ، قد فَنِي أهلُها فماتوا جميعًا، وقد سقطت سُقُوفُها، وخرَّت الجِدران عليها، فخَرِبتْ أبنيتُها، فأصبحت مُوحِشةً بلا أنيس، مُقْفِرةً بلا عمارة.

قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا.

أي: لَمَّا مرَّ هذا الرجُلُ بذلك الموضِع الخَرِب الذي كان عامرًا بالحياة، مأهولًا بالسُّكان، وقَف عليه مُتفكِّرًا فيما آل إليه حالُ هذا المكان، فتساءل مُستبعِدًا كيف يُمكِن عَوْد الحياة إلى ما كانت عليه سابقًا.

فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى أراد أن يُرِيَه قُدرتَه على ما استَبْعَدَه، بضرْب المَثَل له في نَفْسه، فقبَض اللهُ سبحانه رُوحَه، وظلَّ مَيِّتًا لمدَّة مئة عامٍ كاملة، ثم أحياه الله عزَّ وجلَّ، فسأله عن مدة مُكْثه في هذا المكان، فأجاب- شاكًّا- بأنَّ لُبْثه لن يعدو يومًا كاملًا أو جزءًا من يوم، ظنًّا منه أنَّه كان نائمًا فاستيقظ، قيل: لأنَّه مات في أوَّل النَّهار وبُعِث في آخره بعد مِئة عام، فظنَّ لما رأى آخِرَ النَّهار أنَّه بقيَّة يومه الذي كان فيه حيًّا، أو أنَّه آخِر النَّهار من اليوم التَّالي.

قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ.

أي: ليس الأمرُ كما ذكرتَ، فلمْ تَمكُث يومًا أو بعضَ يوم، وإنما مكثتَ مئة عامٍ بتمامها، فلْتُشاهِد الآن خوارقَ العادتِ الدَّالَّة على قُدْرة الربِّ عزَّ وجلَّ، فانظُرْ أولًا إلى ما بحوزتك من طعامٍ وشراب، فإنه لم يتغيَّر مُطلَقًا بمرور كلِّ تلك السِّنين، خلافًا لما جرتْ به العادة، فإنَّ الطعامَ والشَّراب من أسرع الأشياء تغيُّرًا.

وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ.

أي: انظُر بعينَي رأسِك إلى حمارك، وقد مات وتمزَّق لحمُه وجِلدُه، وتفرَّقت أوصالُه، وبَدَتْ عِظامُه النَّخِرة؛ فانظر كيف يُحيِيه اللهُ عزَّ وجلَّ؟

وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ.

أي: أَمَتْناك مِئةَ عامٍ، ثمَّ بعثناك لنُصيِّرك حُجَّةً ودليلًا وعلامةً مرئيَّةً على قدرة الله تعالى، القادر وحده على فِعْل ما يشاء مِن إحياء وإماتة، وعلى إثبات البعثِ من القبور يوم القيامة؛ مِصداقًا لما أَخبرَتْ به رُسلُ الله عليهم السَّلام، وذلك لمن عرَفه مِن ولدِه وقومه ممن عَلِم موته، فرأوا ذاته وتحقَّقوا صفاتِه، ولعموم النّاس كذلك.

وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا.

أي: انظُر عيانًا إلى تلك العِظام البالية المتفرِّقة لحمارك، وشاهِدْ كيف نُحْيِيها، وهي ترتفعُ من الأرض فتتَّصلُ ببعضها، فنردُّها إلى مواضعها من الجسد، ونَسترُها باللَّحمِ بعد التئامها، فأحيا اللهُ عزَّ وجلَّ الحِمارَ بالإعادة، من بعد تَحلُّل جَسدِه.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: نُنْشِزُهَا قراءتان:

1- نُنْشِزُهَا من النَّشَز، وهو: ما ارتفع مِن الأرضِ، والمعنى: نجعلُها بعدَ بِلاها وهمودِها ناشزةً، أي: نرفعُ بعضَها إلى بعضٍ.

2- نُنْشِرُهَا من الإنشارِ، وهو الإحياءُ، أي: نُحييها بعدَ موتِها.

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: فلما اتَّضح له ما كان مُستبعِدًا وقوعه، وظهر له عيانًا، أمره الله سبحانه أن يُدرِك الآن إدراكًا جازمًا بأنَّ الذي فعَل تلك الأشياء العجيبة بقدرته، قادِر أيضًا على أيِّ شيء أراده، فلا يُعجِزه شيء أبدًا، فقال: أُوقِن مطمئنًّا الآن- أكثرَ من أيِّ وقت مضى- بقُدرةِ الله، التي ليستْ لها حدودٌ.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: قَالَ أَعْلَمُ قراءتان:

1- قراءة اعْلَمْ على معنى أنه أمرٌ من الله عزَّ وجلَّ له بالعلم.

2- قراءة أَعْلَمُ على معنى أنَّ ذلك من مقالة الذي أحياه الله تعالى.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (260).

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى.

أي: واذْكُرْ يا محمَّد، حين طلَب إبراهيمُ عليه السَّلام من ربِّه أنْ يُشاهِد بعينيه كيفيَّةَ إحياء الموتى.

قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي.

أي: فقال الله تعالى لخليله عليه السَّلام: أَوَلستَ قد آمنتَ؟ يعني: أنَّه ما دُمتَ قد آمَنتَ فلِمَ تَطلُبُ هذه الرؤيةَ؟ فأجاب نبيُّ الله – ﷺ – بأنَّه مؤمن، لا يَعْتري إيمانَه أدنى شكٍّ، ولكنَّه لفَرْط محبَّته للوصولِ إلى مرتبةِ المُعايَنة، رامَ الترقِّي من درجة عِلْم اليقين إلى عَين اليقين، حتى يزدادَ إيمانًا، ويزدادَ قلبُه طُمأنينةً.

قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ.

أي: أجاب اللهُ تعالى طلبَه، فأَمَره أنْ يأخذ أربعةَ طيور، وأنْ يَذبَحهنَّ ويُقطِّعهنَّ؛ ليكون ذلك بمرأًى منه، ولِيَتِمَّ الأمرُ على يديه.

ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا.

أي: أَمَر اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السَّلام بتفريق أعضاء الطُّيور الأربعة التي قطَّعهنَّ، وقام بتَنْحِيتهنَّ عنه، بتَبدِيدهنَّ أجزاءً على رؤوس عدَّة جبالٍ؛ لتكون ظاهرةً للعِيان، وأَمَره أنْ يدعوهنَّ، ليُقبِلنَ عليه مُسرِعات، ففعل إبراهيمُ عليه السَّلام ذلك، وجئنَ طائراتٍ على أكمل ما يكون من الحياة.

قال تعالى: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ [الأنعام: 75].

وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

أي: اعْلَم يا إبراهيمُ، أنَّ الذي فعَل ذلك له كمالُ العِزَّة، فلا يَغلِبه شيءٌ، ولا يَستعصي عليه شيءٌ أراده، وأنَّ أفعاله وأقواله وأقداره وشرائعه كلَّها صادرةٌ عن كمال حِكْمته؛ فيَضَع كلَّ شيء في مُوضِعه الصَّحيح، ولا يَفعل- أبدًا- شيئًا عبثًا.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (261–265)

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ
حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
(262) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263)
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا
يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264)
وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا
وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265)

تفسير الآيات:

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (261).

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ.

أي: شبَّه الله سبحانه في هذا المَثَل المنفِقَ بالبَاذِر، والنَّفقةَ في سبيله بالبَذْرة؛ فإنَّ مَن يُنفِق في أوجه الخير والبِرِّ ابتغاءَ مَرْضات الله تعالى- ومن ذلك النَّفقة في الجهاد في سبيله- كالذي غيَّب في أرضٍ طيِّبة زكيَّة بَذرةً صالحةً للنُّمو، فأخرجتْ سَبْع سنابل، وقد اشتملت كلُّ واحدة منها على مِئة حَبَّة، فكانت النتيجة سبعَمِئة حبَّة، خرجت من حبَّة واحدة، فكذلك النَّفقة الطَّيِّبة يُنمِّيها الله عزَّ وجلَّ لبَاذِلها، ويُضاعِف له أجرَها سبعمِئة مرَّة.

وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ.

أي: إنَّ الله تعالى يُضاعِف هذه المضاعفةَ إلى السَّبعمئة، أو إلى أكثرَ من ذلك، بحسَب مشيئته، وذلك وَفْق ما تَقتضيه حِكمتُه، فإنَّ المنفِقين يتفاوتون إيمانًا وإخلاصًا لله تعالى، وتتفاوت نفقاتُهم كذلك بحسَب حِلِّها ونَفْعها، وشدَّة الحاجة إليها.

وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى واسعُ الفضل والعطاء؛ ولذا يُضاعِف لمن يشاء هذه المضاعفة أو يَزيد عليها، فلا يَستبعِدنَّ أحدٌ ذلك الأجرَ الكريمَ، أو يتوهَّم أنَّ فيه مُبالَغةً؛ فإنَّ الله تعالى لا يَتعاظمه شيءٌ، ولا يَنقُصه العطاءُ مهما عَظُم، ولكن لا ينبغي أن يُظَنَّ أنَّ سَعَة عطائه سبحانه تقتضي حصولَ تلك الأجور لكلِّ مُنفِق؛ فإنَّه عليمٌ بمن هو أهلٌ لهذا الأجر، ومَن لا يَستَحِقُّه، فإنَّ سَعَة كَرَمه تعالى لا تُناقِض حِكمتَه، بل يَضعُ فضلَه مواضعَه.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (262).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى.

أي: إنَّ الذي يَبذُل أموالَه في أوجه الخير، ابتغاءَ مرضاة الله تعالى، ثم لا يَمتنُّ على مَن أَنفَق عليه، سواء بقلبه، أو بلسانه كأنْ يُخبِره بأنَّه تفضَّل عليه بمنحه شيئًا، وأنَّه مَدين له لِقاء معروفه، ولا يقول أو يفعل أيضًا مكروهًا للمُنفَق عليه يُنافي ما قدَّمه له من إحسان، فذلك محظورٌ لِمَا فيه من تَكبُّر المُنفِق واستعلائه، واستعباد المُنفَق عليه، وكسْر قلبِه وإذلاله، بل على المُعطي في سبيل الله تعالى أنْ يشهد دائمًا أنَّ المتفضِّل والمُنعِم حقيقةً هو الله تعالى وحده، وعليه أنْ يتفكَّر أيضًا في أنَّ أجْره على الله تعالى بأضعافِ ما أَعطى، فأيُّ حقٍّ بقي له على الآخذ المُحتاج حتى يَمتنَّ عليه، أو يؤذيه بصنائع معروفه؟

لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ هؤلاء الذين يُنفِقون أموالَهم في سبيل الله تعالى بلا منٍّ ولا أذًى، يَستحِقُّون- وحْدَهم دون غيرهم من المنفقين- ثوابًا وجزاءً من الله تعالى وحده، قد تَكفَّل به الكريم مُقابِلَ صنيعهم هذا، فهو مُوفِّيه إيَّاهم لا محالة، ولهم مع ذلك أيضًا ألَّا يَخافوا من المستقبل ومِن ذلك، عدَم خوفهم عند مَقدَمهم على الله تعالى حين فِراقِهم للدُّنيا، ولا في أهوال القيامة، فلا يَنالُهم فيها مكروهٌ، ولا يُصيبهم فيها عقابٌ، ولا يحزنون أيضًا على ما مضى، ومن ذلك ما يُخلِّفونه وراءهم في الدنيا من أموالٍ وبنينَ عَقِب موتهم؛ لأنَّهم قد صاروا إلى ما هو خيرٌ لهم من ذلك، فحصَلتْ لهم بذلك الخيراتُ، واندفعت عنهم الشرورُ والسيئات.

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (263).

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى.

أي: إنَّ تقديم الإحسان للسَّائلِ حاجةً، عَبْر إسدائه قولًا معروفًا تَعرِفه القلوبُ ولا تُنكِره، بردِّه بالقول الجميل والدُّعاء الطَّيِّب له، وغير ذلك ممَّا يُدخِل السُّرورَ على قلبه، أو تقديم الإحسانِ إليه بسَتْر سوء حالته، أو بمسامحته وتَجاوُزِه عمَّا لا ينبغي أنْ يَصدُر من السائل من قول أو فِعْل، كما لو وجَد منه بعضَ الجَفوةِ أو الغِلْظة بسبب ردِّه، وعدم تلبية حاجته، فالقول المعروف والمغفرة أفضلُ مُطلَقًا من تقديم يدِ العون للمحتاج، بمساعدةٍ مصحوبة بأذِيَّته والإساءة إليه.

وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى غنيٌّ عن خَلْقه، وعمَّا يتصدَّقون به؛ فلن يَنالَه شيءٌ من صدقاتِهم، وإنما نفعُها عائدٌ عليهم؛ فكيف يمنُّ أحدٌ بصدقته، ويؤذِي بها عبادَ الله تعالى، مع غِنى الله تعالى عنها؟ وهو مع هذا حليمٌ سبحانه، لا يُعاجِلُ هذا المانَّ بالعقوبة مع قُدْرته على ذلك، بل يعفو عنه ويَصفَح، أو يُمهِله ليتوب إليه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (264).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

أي: يُحذِّر اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين، من حُبُوط أجرِ ما يَبذُلونه صدقةً في سبيله سبحانه، إنْ صدَر منهم منٌّ أو أذًى على آخِذ الصَّدقة، فيكون حالُهم حينئذٍ موافِقًا لحال المنافِق الذي يَبذُل مالَه لأجل الله تعالى في ظاهرِ الأمر، بينما ينوي في باطِنِه أن يُرِيَ النَّاسَ صَنيعَه؛ ليَحمَدوه ويُثْنوا به عليه، وهم لا يُدرِكون في واقع الأمر، حقيقةَ أنَّه لا يؤمن بالله تعالى ولا بالآخرة، فلا يَطمَع في نيل ما فيها من ثواب لِقاء ما يُقدِّمه في الدنيا من معروف.

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا.

أي: إنَّ قلب هذا المنافق الذي يُنفق مالَه رياءً، غيرَ مؤمن بالله ولا باليوم الآخِر، حالُه في صلابته وشِدَّته، وعدم الانتفاع به- لعدم إيمانه وإخلاصِه لله تعالى- تُشبِهُ حالَ حجر أملس، ونفقة هذا المنافق تُشبه ترابًا يعلو هذا الحجرَ، فهو مستندٌ إليه، يَظنُّ مَن يراه أنه أرضٌ طيِّبة صالحة للإنبات، مثلما يظنُّ مَن يشاهد ظاهرَ حال المنافق أنَّ صدقته مبنيَّة على أساس من الإيمان والإخلاص لله عزَّ وجلَّ، فتُثمر له حسناتٍ، وشبَّه الله تعالى تعرُّض التراب لمطرٍ غزيرٍ شديد الوقع، بالمانع الذي أبطل صدقتَه، وذهب بأثرها تمامًا. وكما أصبح الحجر في نهاية الأمر، صلبًا كما عُهِد من قبلُ، وخاليًا لا شيءَ عليه من ترابٍ، ولم يبقَ أملٌ في إنبات نبات، فكذلك صدقات هذا المنافِق تَذهب هباءً، لا تُثمر شيئًا من الحسنات وزيادة الإيمان؛ لأنَّه لا أصل لها تُؤسَّس عليه، ولا لها مقصدٌ طيِّب تنتهي إليه، فكل ما قدَّمه مضمحل.

فإذا كان يومُ القيامة، وجاء وقتُ حصاد الزَّرع وتلقِّي أجور العاملين، وظنُّوا أنهم سيَنتفعون بما قدَّموه، لم يجدوا شيئًا يحصدُونه، ولا أجرًا يتلقَّوْنه، فقد اضمحلَّ ما قدَّموه كلُّه؛ لأنَّه لم يكُن لله تعالى، فلا تكونوا- أيُّها المؤمنون- كهؤلاء المنافقين، فتُبطلوا أجورَ صدقاتكم بمنِّكم وأذاكم على مَن تصدَّقتم عليه.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ.

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا يُوفِّق الكفارَ لقَبُول الحقِّ وإصابته في نَفَقاتهم وغيرها؛ فلأنَّهم للباطل مُؤثِرون، تَركَهم في ضلالتهم يَعمَهون، قد انصَرفوا عن طريق الحقِّ إلى طُرُق الغواية، فصرَف اللهُ عزَّ وجلَّ قلوبَهم عن الهداية.

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265).

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

أي: ضرب الله تعالى مثلًا لصِنفٍ آخرَ من المنفِقين، وهم الذين يُنفِقون أموالَهم صدقةً في أوجه الخير والبِرِّ التي يُحبُّها الله تعالى، كالجهاد في سبيله؛ دون منٍّ أو أذًى، وإنَّما طلبًا لنيل رِضوان الله عزَّ وجلَّ، وقد أَقدَموا صادِقين على البذل من جِهة أنفسهم، لم يَحمِلهم أحدٌ على القيام بذلك، فأنفقوا بعزائمَ قويَّة، مُتحقِّقين ومُوقِنين بوعد الله تعالى على إثابته المنفقين، فلا يَتقاعَسون أو يتردَّدون في الإنفاق، ولا يَشُكُّون بوعْد الله سبحانه على الثَّواب.

كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ.

أي: إنَّ نفقة أولئك المنفقين المخلِصين الصادقين، المصدِّقين بوعد ربِّ العالمين، تُشبِه بُستانًا غزيرَ الأشجار والظِّلال، تُغطِّي ما فيه من كَثْرتها، وهو على مكانٍ مُرتفِع من الأرض فكان خصيبًا جدًّا؛

لأنَّه لَمَّا ارتَفع عن مجرى المسايل والأودية كانتْ أرضه أغلظَ، فكان أحسنَ وأزكى ثمرًا وغرسًا وزرعًا، كما أنَّه بارتفاعه يكون مُعرَّضًا أكثرَ للأهوية والرياح،

وبائنًا للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فيكون أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره كذلك، وسَقْيه إنَّما يأتي من السَّماء، فإمَّا أنْ يتعرَّض لمطرٍ غزير،

فيتضاعف إنتاجُ ثمرِه مرَّتين، الأصل ومثله معه، أو يُصيبه مطرٌ خفيف، كالرَّذاذ، فإنَّه يَكفيه ليُؤتي ثمارَه مضاعفةً؛ بسبب كَرَم مَنْبته وطِيب مَغرَسه، فهذه الجنَّة لا يُعدَم منها حصولُ الخير بحالٍ من الأحوال.

فكذلك المؤمن المنفِق يُضاعِفُ الله تعالى صدقتَه قلَّت أو كَثُرت، فلا تَبور أبدًا، فإذا كان قصدُه مرضاة الله عزَّ وجلَّ والتثبيت من نفسه، فهي زاكيةٌ عند الله تعالى، ونامية في جميع الأحوال.

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

أي: إنَّ ما تَعمَلونه- أيُّها النَّاس- من الإنفاق وغيره، هو بمَرْأًى مِن الله تعالى، لا يَخْفى عليه، فإنَّه يرى ويعلم مَن المُنفِق منكم بالمنِّ والأذى،

ومَن المُنفِق ابتغاءَ مرضاة الله، وتثبيتًا من نفسه، فيُحصي عليكم ذلك وغيرَه من أعمالكم، حتى يُجازيكم عليها، إنْ خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.



سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (266–274)

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267)

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268)

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269)

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270)

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272)

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (273)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274)



تفسير الآيات:

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266).

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ.

أي: هل يرغب أحدٌ منكم في أن يمتلك بُستانًا ذا أشجارٍ كثيرة، تَستُرُ ما بداخله من كثرتها، ويحوي أفضلَ أنواعِ الأشجار، وأشرفَ أنواع الثمار، وأكثرها نفعًا، ممَّا لا يوجد عادةً مجتمعًا في موضعٍ واحدٍ، ألَا وهي أشجار النَّخيل والعِنَب، وتجري في أرض هذا البستان المدهش المياهُ العَذْبة المتفرِّقة في أنحائه، فتسقيه بلا تعبٍ ولا مؤونة، ليس هذا فحسبُ، بل يشتمل أيضًا على جميع أصناف الثِّمار الشهيَّة؛ فهو بُستانٌ ذو مشهدٍ عجيب، متكاملٌ من جميع نواحيه، ممَّا يُوجِب لصاحبه الفرح العظيم، والابتهاج الشديد به.

وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ.

أي: كبِرتْ سنُّ صاحبِ الجنةِ، فغدا شديدَ التشبُّث بها؛ إذ لم يعُدْ قادرًا بعدُ على مباشرةِ التكسُّب، ومعاناة التجارةِ؛ للحصولِ على قُوته بنفسِه، وقد اشتدَّ حرصُه مع تقدُّمِه في العمرِ، وله عيالٌ يقومُ بحاجاتهم، لا سيَّما وأنهم عاجزون عن القيامِ بذلك بأنفسِهم؛ إمَّا لصغرهم، أو لغير ذلك من أسبابِ العجزِ، فهم كَلٌّ عليه، فكُلُّ هاتيك الشدائدِ مجتمعةً تدفعه نحوَ شدَّةِ التعلُّق بجنَّتِه، فهو أحوجُ ما يكونُ إليها في مِثل هذه الأحوالِ العصيبة، فبينما هو على ذلك إذ حلَّت الكارثةُ بها، حين اجتاحتها ريحٌ عاصفٌ تستديرُ في الأرضِ، ثم ترتفعُ في طبقاتِ الجوِّ كالعمود، وقد احتوت على نارٍ أحرقتْ تلك الجنةَ، فتلفتْ دفعةً واحدةً، فلا تسألْ بعدَها عن فظاعةِ حالِه وسوءِ ما حلَّ به مِن الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وقد أصبح صِفرَ اليدين بلا شيء يملكُه.

فكذلك مَن أنفق لوجهِ الله تعالى بادئَ الأمرِ، فنفقتُه بمنزلةِ البذرِ للزُّروعِ والثِّمارِ، ولا يزالُ كذلك حتى يحقِّقَ مِن عملِه هذا حسناتٍ عظيمةً، بمثابة جنةٍ غنَّاء، في غايةِ الحسنِ والبهاءِ، لكنه أفسدَ نفقاتِه بما يُبطِلُ الأجرَ، كالمنِّ والأذى، وذلك بمنزلةِ الإعصارِ الذي فيه نارٌ، فأحرق جنتَه، وهو أحوجُ ما يكون إليها، فكذلك إذا مات أصبح في حالٍ لا يقدرُ معها على العملِ الصالحِ، ولا له نصيرٌ أو شفيعٌ، فيجدُ أنَّ نفقاتِه التي يرجو نفعَها قد صارت هباءً منثورًا.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ.

أي: كما بيَّن لكم ربُّكم جلَّ وعلا أمرَ النَّفقة في سبيله، كذلك يُبيِّن لكم الآياتِ التنزيليَّة والكونيَّة، فيعرِّفكم أحكامَها وحلالَها وحرامها، ويُوضِّح لكم حُججَها؛ لتتفكَّروا بعقولكم فتتدبَّروا وتعتبِروا وتَفهَموا الأمثالَ والمعاني، وتُنزِلوها على المراد منها؛ لتُطيعوا الله جلَّ وعلا، فلو تَصوَّر مَن له أدنى مُسْكة من عقل هذا المَثَل حقَّ تَصوُّره، وتأمَّلَه كما ينبغي، لم يُقدِم على ما فيه مضرَّته وندامته، ولَمَا سوَّلت له نفْسه إحراقَ أعماله الصالحة، وإضاعة أجورها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (267).

سبب النُّزول:

عن البَراء رضي الله عنه، أنَّه قال في قوله تعالى: وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ: (نزلت فينا – معشر الأنصار– كنَّا أصحابَ نَخْل، فكان الرجلُ يأتي من نخله على قَدْر كَثْرته وقلَّته، وكان الرجلُ يأتي بالقِنْو والقِنْوين فيُعلِّقه في المسجد، وكان أهل الصُّفَّة ليس لهم طعامٌ، فكان أحدهم إذا جاء أتى القِنْو فضربه بعصاه، فيَسقُط البُسْر والتَّمر فيأكل، وكان ناسٌ ممَّن لا يَرغَب في الخير يأتي الرجل بالقِنْو فيه الشِّيص والحَشَف والقِنْو قد انكسر، فيُعلِّقه فأنزل الله تبارك وتعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ

بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ، قال: لو أنَّ أحدكم أُهْدِي إليه مِثْل ما أَعْطى، لم يأخذه إلَّا على إغماضٍ أو حياءٍ)، قال: فكنَّا بعد ذلك يأتي الرَّجل بصالح ما عنده)).[45]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ.

أي: يَحُثُّ الله تعالى عبادَه المؤمنين على أن يُزكُّوا ويتصدَّقوا من أجود أموالهم التي اكتسبوها حلالًا بالتِّجارة، وأمرهم أن يُنفِقوا من الثِّمار والزروع والرِّكاز والمعادن التي أخرجها لهم سبحانه من الأرض، فكما منَّ عليهم بتيسير الحصول على ذلك، فلْيُنفِقوا منه شكرًا له عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ.

أي: لا تَقصِدوا الرَّديء من أموالكم فتتصدَّقوا منه، وتُمسِكوا الجيِّد لأنفسكم؛ فإنَّ هذا ليس من العدل في شيء، ولكن تصدَّقوا من الطيِّب الجيِّد، فإنَّكم لو كنتم مكانَ آخذ الصَّدقة والحالة هذه، فلستم بآخذيها إلَّا على وَجْه التَّسامح والتغاضي عن ذلك، فإنَّكم لكَراهتِكم إيَّاه تُغمِضون بَعضَ بَصَركم عنه؛ إذ لا يملأ أعينَكم لرداءته، فالله عزَّ وجلَّ أحقُّ أن يُبذَل لأجلِه أطايبُ المال؛ فإنَّه سبحانه طيِّبٌ لا يَقْبل إلا طيِّبًا.

وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ.

---

(45) أخرجه الترمذي (2987). قال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2987)، وقال الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (146): حسنٌ غريب.

أي: اعلموا أيُّها النَّاس، أنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنكم وعن أعمالكم، ومنها صدقاتكم، فلا حاجةَ له بها، وإنَّما أمركم بها؛ رحمةً منه لكم، فنفْعها عائدٌ إليكم؛ إذ يُغْني بها فقيرَكم، ويُقوِّي بها ضعيفَكم، ويُثيبكم عليها.

واعلموا أيضًا أنَّه سبحانه المحمودُ على جميع صِفاته وأفعاله وأقواله وشَرْعه وقَدَره، ومن ذلك غناه، فإنَّه يُحمَد عليه سبحانه، ومن ذلك أيضًا ما يأمركم به من الأوامر الحميدة، والأخلاق الجميلة، وهو عزَّ وجلَّ يَحمَد مَن يَستحِقُّ الحمد؛ فأثنى على أنبيائه، ورسله، والصالحين من عباده.

كما أنَّ غناه وحمْده يأبيَان قَبُول الرَّديء، فإنَّ مَن يأخذه؛ إمَّا أنْ يَقْبله لحاجته إليه، وإمَّا أنَّ نفسه لا تأباه؛ لعدم كمالها وشرفها، وأمَّا الغنيُّ عنه الكامل الأوصاف سبحانه، فإنَّه لا يَقْبله.

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (268).

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ

أي: إنَّ الشيطان يخوِّفكم- أيُّها المؤمنون- بالافتقار إن تصدَّقتم، فإذا صوَّر لكم هذه الصورة أَمَركم بالبُخل الذي هو من أقبح الفواحش؛ لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله تعالى، وتشمل الفحشاء أيضًا ما سوى البُخل، من قبائح المعاصي والمنكرات.

وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَعِدُكم- أيُّها المؤمنون- بأنْ يَسترَ عليكم ما ارتكبْتُموه مِن فحشاء، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِكم بها؛ لما تقدِّمونه مِن صدقاتٍ وغيرِها، وهذا في مقابلةِ أمرِ الشيطانِ لكم بالفحشاءِ، كما يعدُكم اللهُ تعالى بأن يعوِّضَكم عمَّا تصدقتم به، بمنحِكم المزيدَ مِن الأجورِ والأرزاقِ في الدنيا والآخرة، وذلك في مقابلةِ تخويفِ الشَّيطانِ لكم بالفقرِ.

وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ الله تعالى واسع الفضل، واسع الصِّفات، ومن ذلك سَعَةُ عِلْمه؛ فهو عليمٌ بمن يَستحِقُّ فضْله منكم، وعليم بنفقاتكم التي تُنفِقون، فيُحصيها لكم ويُجازيكم بها من سَعَة فضله.

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (269).

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ.

أي: يُعطي الوهَّابُ عزَّ وجلَّ مَن يشاء من عباده معرفةَ الحقِّ، ومعرفة المقصود منه، والعمل به، وبذلك يتمكَّن من الإصابة في القول والعمل، وتنزيل الأمور منازِلَها في نفْسه وفي غيره، ووضْعها في مواضِعها اللائقة بها؛ فإنَّ الإصابةَ في الأمور إنَّما تكون بفَهْم القرآن والفقه في حقائق الإيمان وشرائع الإسلام، مع الخشية لله تعالى، والنُّبوة من الحكمة؛ لأنَّ الأنبياء مُسدَّدون، مُفهَّمون، ومُوفَّقون لإصابة الصَّواب.

وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا.

أي: إنَّ من يُعطَى تلك الحِكمة من العباد، فيخرج من ظُلْمة الجهل إلى نورِ الهُدى، ومن حُمْق السَّفه والانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصَّواب فيهما، وحصول التَّوفيق والسَّداد، فقد مُنح خيرًا عظيمًا لا يُقدَّر؛ فإنَّ الحكمة أفضلُ الأُعطيات، وهي أجلُّ المنح والهِبات.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ.

أي: لا يتَّعظ بما وعظ به الله تعالى في آياتِه المُنفِقين أموالَهم وغيرَهم، فيَذكُر وعدَه ووعيدَه، فيَنزجِر عمَّا زجره عنه ربُّه، ويُطيعه فيما أمره به سبحانه، إلَّا أصحابُ العقول الكاملة، الذين يَعقِلون بها عن الله عزَّ وجلَّ أمرَه ونهيه.

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (270).

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ.

أيْ: أَيَّ صدقة بذلتموها، أو أيَّ نَذْر نَذرتموه ممَّا أَلزَم المرءُ به نفسَه، فإنَّ الله تعالى لا يَخْفى عليه من ذلك شيء، فيعلم نيَّتَكم بها، ويعلم ما قدَّمتم منها، فيُحصيه عليكم ويُجازيكم به، إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشر.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ.

أي: ليس لِمَن لم يُنفِق ما وجب عليه من النَّفقات ولم يوفِّ ما أَوجَبه على نفسه من المنذورات، أو كانت نفقتُه أو نَذْره في غير طاعة الله عزَّ وجلَّ، ما له أحد يَنْصُره من الله يوم القيامة؛ لأنَّه ظالم بوضْعه إنفاقَ ماله أو نَذْرَه في غير موضِعه الصَّحيح، وعلى غير الصِّفة المأمور بها شرعًا.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (271).

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ.

أي: إنْ تُظهِروا الصَّدقاتِ فتُعطوها علانيةً، فنِعْم الشيءُ هي؛ لحصول المقصود بها، ما دام أنَّها لأجْل الله تعالى.

وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.

أي: إنْ تَستروا صدقتَكم غيرَ المفروضة عليكم، فتُعْطوها الفقراءَ في السرِّ، فإخفاؤكم إيَّاها أفضلُ لكم من إظهارها وإعلانها، ففي إخفائها: السَّترُ على الفقير، وحِفْظ ماء وجهه بعدم تَخجيله وفضيحته بين الناس، وهذا قدْرٌ زائدٌ عن الإحسان إليه بمجرَّد الصَّدقة، مع كونه أَدْعى إلى إخلاص صاحبها، وأَبْعدَ له عن الرِّياء.

وقيَّد تعالى الإخفاءَ بإيتاء الفقراء خاصَّة؛ لأنَّ من الصَّدقة ما لا يُمكِن إخفاؤه كتجهيز الجيش، أو يترَتَّب على الإظهار مصلحةٌ راجحةٌ، كإظهار شعائر الدِّين، وحصول اقتداء النَّاس به.

وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ.

أي: إنَّه لَمَّا امتدَح اللهُ تعالى الصدقةَ عَلَنًا كانت أو سرًّا، لا سيَّما إن كانت سرًّا؛ لأنَّها أفضل للمُتصدِّق، وتضمَّن ذلك حصولُ الثَّواب، بيَّن أنَّه يَسْتُرُ بها السيِّئاتِ جميعَها، أو بعضَها؛ دفعًا للعقاب.

القراءات ذات الأثر في التفسير:

في قوله تعالى: ويكفِّر قراءات:

1- قراءة (وَنُكَفِّرُ)، على معنى الإخبارِ مِن الله عزَّ وجلَّ عن نفسِه، على وجهِ التفخيمِ والتعظيمِ.

2- قراءة (وَيُكَفِّرُ) بإضمارِ ضميرٍ يعودُ على اللهِ تعالى في الفعلِ؛ لأنَّه هو المكفِّرُ حقيقةً. وهو الراجح بحمله على قراءة (وَنُكَفِّرُ)، وقيل: إنَّه يعودُ على صرفِ الصَّدقاتِ، أي: ويكفرُ صرفُ الصدقاتِ. وقيل: إنَّه يعودُ على الإخفاءِ المفهومِ من قوله: (وإن تخفوها)، ويجوزُ أن ينسب التَّكفيرِ للصرفِ والإخفاءِ؛ لأنَّهما سببٌ للتكفيرِ، وكما يجوزُ إسنادِ الفعلِ إلى فاعلِه، يجوزُ إسنادُه إلى سببِه.

3- قراءة (وَنُكَفِّرْ) معطوفًا على جوابِ الشرطِ الثاني في قوله تعالى: (فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)، إيذانًا بدخولِ التكفيرِ للسيئاتِ في الجزاءِ، إنْ أُخفِيت الصدقةُ.

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على ما تعملون في صدقاتِكم، من إعلانٍ بها وإسرار، وعلى غير ذلك من أعمالكم، فيُحصيها لكم ويُجازي كلًّا بعمله، فهو سبحانه ذو علمٍ ببواطن الأمور وظواهِرها، لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم ونيَّاتِكم.

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (272).

سبب النُّزول:

عن سعيد بن جُبير عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كانوا يَكْرَهون أن يَرضَخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرُخِّص لهم، فنزلت هذه الآية لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ إلى قوله: وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُون)).(46)

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، قال: ((كان يأمرنا ألَّا نتصدَّق إلَّا على أهلِ الإسلام، حتى نزلت هذه الآية، فأمَرَنا بالصَّدقة بعدها على كلِّ مَن سألك من كل دِين)).(47)

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

---

(46) أخرجه البزار (5042)، والطبراني (54/12) (12453)، والحاكم (313/2). صحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (327/1)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (630).

(47) أخرجه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (537/2). قال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (27/4): غريب. وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (327/1)، وحسَّن إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (629/6).

أي: ليس عليك- يا محمَّد- هداية الخَلْق إلى الإسلام هدايةَ توفيقٍ، وإنَّما عليك البلاغ وهو هداية الإرشاد، فلا تَمتنعْ من بذْل الصَّدقة للكفَّار والمشركين؛ كي يَدخلوا في الإسلام حاجةً منهم إليها، ولكنَّ الله تعالى هو الَّذي يَهدي وحده مَن يشاء من خلْقه إلى الإسلام فيُوفِّقهم له، فلا تمنعهم الصَّدقة ولو لم يهتدوا.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ.

أي: إنَّ كلَّ ما تَبذُلونه صدقةً من الأموال- قليلةً أو كثيرةً- على أيِّ شخص- مسلمًا كان أو كافرًا- فنفْعُه في الحقيقة عائدٌ إليكم، وليس لله تعالى حاجةٌ به، والنفقة النافعة لصاحبها والمعتدُّ بها، هي ما كانت خالصةً لله تعالى، وطلَب بها صاحبُها الفوزَ في الآخرة بالنظر إلى وجهه الكريم سبحانه، وتلك هي صدقات المؤمن؛ فإنَّ إيمانهم يُحتِّم عليهم الإخلاصَ لله عزَّ وجلَّ، وإذا تَصدَّق بهذه النيَّة فقد وقع أجرُه على الله تعالى، ولا عليه في نَفْس الأمْر لمن أصاب: ألِبَرٍّ أو فاجرٍ، فهو مُثابٌ في جميع الأحوال على قصْده.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ.

أي: إنَّ أيَّ مالٍ تَتصدَّقون به، قليلًا كان أو كثيرًا؛ فإنَّ أجره يُؤدَّى إليكم في الآخرة كاملًا من غير نَقْص؛ فلا يَضيع عنده سبحانه مثقالُ ذرَّةٍ من ذلك.

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (273).

لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ.

أي: اجعلوا صدقاتِكم للمُعْدَمين، الخاليةِ أيديهم من أيِّ شيء يقوم بمعيشتهم، لمَن حبَسوا أنفسَهم على الجهادِ في سبيل الله تعالى، فحبَسهم ذلك بدوره- مع خوفهم مِن تَربُّص أعدائهم بهم- عن التَّصرُّف في أشغال الدنيا، فلا يستطيعون تقلُّبًا في الأرض، وسفرًا في البلاد؛ ابتغاءَ المعاش وطلب الرزق.

يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.

أي: يَحسَبهم الجاهلُ بأمرهم وحالهم ممَّن لا فِطْنة لديه، أغنياء من شدَّة تَرْكهم التَّعرض لما في أيدي الناس، وكِتمانهم حاجتهم صبرًا منهم على البأساء والضَّراء، لكن بإمكان ذوي الألباب تمييزُهم بالتَّوسُّم والتَّفرُّس فيهم، وعلى رأسهم محمد - ﷺ -، فيعلمون حقيقةَ حالهم من خلال علاماتهم، وآثار الحاجة البادية عليهم، من ملامِح وجوههم، أو نظراتهم، أو بعض عباراتهم، أو غير ذلك.

ونفَى اللهُ تعالى عنهم بالكلِّيَّة طلبَ حاجةٍ من الناس، وخاصَّةً الطلب المُصاحِب للشَّرَهِ والضَّراعة التي تكون في المُلحِّين، فهم بعيدون عن ذلك تمامًا؛ لأنهم يَستَمِدُّون العَونَ من الله تعالى وحده.

فهذا الصِّنف من الفقراء هو أَوْلى المستحِقِّين للصَّدقة؛ لدَفْع حاجتهم، وإعانتهم على مَقصِدهم، وشكرًا لهم على ما اتَّصفوا به من جميل الأخلاق، وقصْر أنظارِهم على الخلَّاق.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ.

أي: إنَّ كلَّ ما تُنفِقونه من أيِّ خيرٍ كان قليلًا أو كثيرًا، فإنَّ الله تعالى يعلمه، ويُحصيه لكم، وسيَجزيكم عليه أتمَّ الجزاء.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (274).

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

أي: إنَّ الإنفاق في أيِّ وقتٍ كان ليلًا أو نهارًا، وعلى أيِّ حالٍ وُجِد سرًّا أو علانيةً، فإنَّه سبب الجزاء على كلِّ حال؛ فليبادرْ إليه العبد- ولا يؤخِّره- في جميع الأوقات والأحوال،

فإنَّ مَن يقوم بذلك، له يوم القيامة أجرٌ عظيمٌ، ولا يُصيبه خوفٌ على ما يُستقبَل، ولا يَعْتريه حزنٌ على ما مضَى، فيفوز بحصول المرغوب، والنَّجاة من المرهوب.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (275–281)

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ
مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(275)**

يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ **(276)**

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ **(277)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ **(278)**

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا
تُظْلَمُونَ **(279)**

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280)

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281)



تفسير الآيات:

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (275).

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

أي: إنَّ الذين يأخذون الرِّبا، فينتفعون به بأكلٍ، أو شربٍ، أو لِباسٍ، أو سكَنٍ، أو غير ذلك من وجوه الانتفاع، إنَّما يقومون في الآخرة من قُبورهم لبَعْثهم ونُشُورهم، كهيئةِ المصروعِ الذي أصابه الشيطانُ بالجنونِ، كما كانوا في الدُّنيا كالمجانين في طلَبِ هذا المكسَب الخبيث.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا.

أي: هذا الذي يُصيبهم يومَ القيامة، من قُبْح حالهم، ووَحْشة قيامهم من قبورهم؛ من أجل أنهم كانوا في الدنيا يَكذِبون فيقولون اعتراضًا على أحكام الله تعالى في شَرْعه -: إنَّما البيعُ الذي أحلَّه الله لعباده مِثْلُ الرِّبا؛ فمَا الفرق بينهما وكلاهما وسيلتان للتَّكسُّب؛ فِلمَ حُرِّم هذا وأُبيح هذا؟ فكذَّبهم الله في قيلهم هذا؛ بأنَّ الله تعالى المُستحِقَّ للعبادة وحده هو الذي أحلَّ الأرباحَ في التجارة والشراء والبيع، وحرَّم أخْذ الزِّيادة بالباطل، وليسا سواءً، فالأمر أمره، والخَلْق خَلْقه، يَقضي فيهم ما يشاء، ويَستعبِدهم

بما يُريد، وعليهم طاعته والتسليم لحُكْمه؛ فهو العالِم بحقائق الأمور وما ينفع عباده، فيُبيحه لهم، وما يَضُرُّهم، فينهاهم عنه.

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

أي: مَن بلَغه النَّهي عن الرِّبا والتخويف من أكْله وتعاطيه عمومًا، فكَفَّ عنه وانزَجَر، فله ما أكَل منه وأخَذ فيما مضى قبل نزول تحريمه، وشأن آكِله إلى الله تعالى في توفيقه أو خِذلانه، وكذا عفوُه أو عُقوبته، فيما يَستقبِل من زمانه، فإنْ عَلِم مِن قلبه صحَّةَ توبتِه، غفَر له، وإلَّا عاقبه على ذلك.

ومَن عاد لأكلِ الرِّبا بعدَ بلوغِه تحريمُه مستحلًّا له، وعاد إلى القولِ بأنَّ البيعَ مثلُ الرِّبا، وأصرَّ على ذلك، فقد استوجب عقوبةَ اللهِ تعالى بملازمةِ نارِه خالدًا فيها.

يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (276).

يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ.

أي: يُذهِب الله تعالى مكاسبَ الرِّبا بالكُليَّة من يد صاحبها، أو يَحرِمه بركتَها؛ فلا يَنتفِع بها، بل يُعذِّبه بها في الدنيا، ويُعاقِبه عليها يوم القيامة جزاءً مِن جِنْس ما عمِل، بينما يُنمِّي أجرَ الصَّدقات لصاحبها حتى تَتضاعَف.

كما قال تعالى: وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [الروم: 39].

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ.

أي: إنَّ الله تعالى لا يحبُّ كلَّ من كان كثيرَ الكُفْران، مُصرًّا على الكُفْر بنِعَمه، مقيمًا على ذلك، مُستحِلًّا أكْلَ الرِّبا، متماديًا في الإثم فيما نهاه عنه من أكْله وتَعاطِيه، وغير ذلك من معاصيه، لا يَرْعوي عنه، ولا يتَّعِظ بموعظة ربِّه؛ ذلك أنَّ المرابي لا يَرضَى بما قسَم اللهُ تعالى له من الحلال، ولا يَكتفي بما شرَع له من التَّكسُّب المُباح، فهو يَسعى في أكْل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جَحودٌ لما عليه من النِّعمة، ظَلومٌ آثمٌ بأكل أموال الناس بغير وجْه حقٍّ.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (277).

أي: إنَّ المؤمنين بما يجب الإيمان به، ومِن ذلك إيمانهم بما أُنزل إليهم من ربِّهم- والذي شَمِل تحريمَ الرِّبا- وعمِلوا الصَّالحات التي أمرهم الله عزَّ وجلَّ بها، وهي المبنيَّة على الإخلاص لله تعالى، والمتابَعة لرسوله - ﷺ - ومنها بذْل الصَّدقات في سبيله تعالى- وأَدَّوُا الصَّلاةَ قويمةً بشروطها وأركانها، وواجباتها وسُنَنها، وأَعْطَوا الزَّكاة المفروضة عليهم في أموالهم لمُستحقِّيها، فأولئك لهم ثوابُهم عند الله جلَّ وعلا، ولا خوف عليهم ممَّا يَستقبِلون، ولا هم على ما مضى يَحزنون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (278).

أي: يا أيُّها المؤمنون، امتثِلوا ما أَمَرَكم الله تعالى به، وانتَهُوا عمَّا نهاكم عنه، فاتركوا ما لكم على الناس من الزِّيادة على رؤوس الأموال من المعاملات الحاضِرة التي بأيديكم، بعد هذا الإنذار الذي تلقَّيتُموه، إنْ كنتم صادقين حقًّا في إيمانكم.

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (279).

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ.

أي: إنْ لم تتركوا ما بقي لكم على النَّاس من زيادةٍ على رأس المال، مُستَمرِّين على تَعاطي الرِّبا بعد إنذاركم، فأَعلِموا أنفسَكم وغيرَكم، مُستيقنين أنَّ الله تعالى يتوعَّدكم بحرب وقتْل مِنه ومن رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام.

القِراءات ذات الأَثَر في التفسير:

في قوله تعالى: فَأْذَنُوا قراءتان:

1- (فَآذِنُوا) من آذنتُه أُوذِنه، إذا أعلنتُه، كقولهم: أَعْلِمُوا مَنْ وراءَكم، فالمعنى: فأَعلِموا غيرَكم أنَّ كلَّ مَن لم يترك الرِّبا فهو حرب، وهذا أعمُّ؛ لأنَّهم إذا أعلَموا غيرَهم بالحرب من الله ورسوله، فقد علِموا هم ذلك.

2- (فَأْذَنُوا) على أنَّه أمرٌ للمُخاطَبين بترك الرِّبا، أُمِروا أن يَعْلموا ذلك هم أنفسهم، فالمعنى: فإن لم تتركوا الرِّبا، فأَيْقِنوا بحربٍ من الله ورسوله.

وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ.

أي: إن تُبْتُم فتركتُم أكْلَ الرِّبا، وأَنَبْتُم إلى الله عزَّ وجلَّ، فلكم رؤوس أموالكم من الدُّيون التي لكم على النَّاس دون الزِّيادة التي أحدثتموها على ذلك، فلا تَظْلِمُونَ الناسَ بأخْذ الزِّيادة، وَلا تُظْلَمُون بإعطائكم رؤوسَ أموالكم ناقصةً.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (280).

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ.

أي: إنْ كان الذي عليه الدَّين مُعسِرًا لا يَجِد ما يَردُّ به حقَّكم- وهو رؤوس أموالكم التي أَسلفتُموه إيَّاها دون زيادة- فعليكم أن تُمهِلوه حتى يتيسَّر له الوفاءُ به.

وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

أي: إنَّ تصدُّقَكم على المدينِ المعسرِ بالتنازلِ والعفو عمَّا لكم عليه أو بإسقاط بعضه، خيرٌ لكم من إمهاله حتى يتيسَّر له القيام بردِّه لكم، فقوموا بذلك إذًا إن كنتم من ذوي العِلْم بفضل الصَّدقة، وما لصاحبها من ثوابٍ عظيم.

وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (281).

أي: احذروا- أيُّها الناس- يومًا تزول فيه هذه الدنيا وما فيها من الأموال وغيرها، فترجعون إلى الله فتَلقَونه فيه، فاحذروا أن تَرِدوا عليه بسيِّئات تُهلِككم، وبلا حسنات تُنجِيكم، فتَستحِقُّوا عقابَ الله تعالى، وهو يوم مُجازاة الأعمال، فتستوفي فيه كلُّ نَفْس جزاءها بالعدل من ربِّها، على ما قدَّمت واكتسَبتْ من سيِّئ وصالح، لا يُنقَصُون شيئًا من ثواب الحسنات، ولا يُزاد عليهم شيءٌ من عقوبة السيِّئات.



سُورةُ البَقَرةِ

الآيات (282-283)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282)

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (282).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ.

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا داين بعضُكم بعضًا على أنْ يكون ردُّ الدَّين في وقت معلوم بينكم، فاكتبوه- للتوثُّق والحِفْظ-؛ لكَثْرة النِّسيان، ولوقوع المُغالَطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يَخْشَون الله تعالى، واكتبوه بواسطة كاتب عارِف بكتابة ما يَحصُل به التوثُّق، معروف بالعدل والإنصاف، لا

يجورُ في كتابته على أحد، ولا يكتُب إلَّا ما اتَّفقوا عليه من غير زيادة ولا نُقصان، ولا يَميل مع أحدٍ منهم لقَرابة أو غيرها، ولا على أحد لعداوة ونحوها.

وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا.

أي: لا ينبغي أن يمتنع مَن يعرف الكتابةَ إذا سُئل أن يكتبَ للنَّاس توثيقَ دُيونهم ووقتَ ردِّها، فكما علَّمه اللهُ ما لم يكن يعلم، فخصَّه بعِلم ذلك، وحرَمه عددًا من خَلْقه، فليُحسِن إلى غيره بأن يُبادِر إلى كتابة ذلك بطريقةٍ مُستوفِية لِمَا ينبغي أنْ تكون عليه.

ولْيُمْلِلِ المدينُ على الكاتب ما في ذِمَّته من الدَّين، وليَحذَر عقابَ الله تعالى في أن يَنقُص صاحبَ الحقِّ شيئًا من مقداره أو كيفيَّته، أو نوعه أو أَجَله أو غير ذلك من توابِعه.

فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ.

أي: إنْ كان المدينُ- الذي عليه المال- جاهلًا بالصَّواب من الخطأ في الَّذي عليه إملاؤه على الكاتب، أو كان لا يُحسِن التصرُّف، أو ضعيفًا لصِغَره أو جُنونه، أو لا يستطيع الإملالَ لخَرَسه أو عيِّ لسانه، أو غَيبتِه لسفرٍ أو غيره، فإنَّه ينوبُ عنه في ذلك مَن يتوَّلى شؤونه من أبٍ، أو جدٍّ، أو أخٍ، أو غيرهم، ويَلزَم الوليَّ الإملاءُ بالصِّدق المطابِق للواقع؛ فلا يَزيد، ولا يَنقُص، ولا يَجور على الدائن أو المدين.

وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى.

أي: اطْلُبوا أيضًا- لتوثيق حقوقِكم- شهادةَ رَجلين عليها من المسلمين العدول الذين تَرضَونَهم، فإنْ لم يكن الشَّاهدان رجُلين، فليشهد رجلٌ وامرأتان على ذلك؛ كي تُذكِّر إحدى المرأتين الأخرى، إنْ وقع لها نِسيانٌ.

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا.

أي: ليس للشُّهداء أن يَمتنعوا من الإجابة إذا دُعُوا لتحمُّل الشَّهادة أو أدائها.

وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ.

أي: لا تَمَلُّوا- أيُّها الذين تُداينون النَّاس- من كتابة قليل الدَّين أو كثيره إلى أجَله المُسمَّى؛ فإنَّ كتابة ذلك أعدلُ عند الله، وأثبتُ لشهادة الشُّهود؛ فلا يقع بينهم اختلاف في ذلك لاجتماعهم على ما حواه الكتاب، وأَقْربُ إلى عدم وقوع الرِّيبة وحصول التَّنازُع، فلا تَشُكُّون فيما شَهِد به الشهود من الحقِّ والأَجَل.

ولا حَرَج ولا إثم على المُتبايِعِينَ منكم في تَرْك كتابةِ ذلك؛ إذا كان كلٌّ من البائع والمشتري، يَقبِض حقَّه فورًا بلا تأخير، فيأخذ المشتري سِلعتَه، ويَقبِض البائعُ أجرَه قبل مُفارَقة بعضهما، فلا حاجةَ لهما حينئذٍ إلى الكتابة والتَّوثيق، لكن الإشهاد على حقِّهما مشروع.

وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ.

نَهى الله تعالى أهلَ الحقوقِ عَن إيقاع ضررٍ بأيِّ وَجْه من وجوه الضَّرر على كاتبٍ أو شاهِدٍ على حقوقهم، كما لا يَحِلُّ أيضًا لكاتبٍ أو شاهدٍ أن يَضُرَّا أحدًا من أهل الحقوق بأيِّ ضررٍ كان؛ فإنَّ إحداثَ الضرر في ذلك يُعَدُّ خروجًا عن طاعة الله تعالى إلى معصيته.

وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

أي: خافوا اللهَ- أيُّها المتداينون- في الكتَّاب والشهود أن تُوقِعوا عليهم ضررًا ما، وراقِبوه في غير ذلك من حدوده فلا تُضيِّعوها، واتَّبِعوا أمرَه، واترُكوا نَهيَه، والله تعالى يبيِّن لكم على الدوام أحكامَ شريعته فضلًا منه ونعمةً؛ فهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها، وعِلْمه محيطٌ بجميع الكائنات، كما أنَّه لا يَخْفى عليه شيءٌ من أعمالكم، فيُحصيها عليكم ويُجازيكم بها.

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (283).

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ.

أي: إنْ كنتم مسافرين وتَداينتُم بدَين إلى أجل مسمًّى، ولم تَعثُروا على كاتب يكتُب لكم توثيقَ الدَّين وأجلَه، فليكُنْ بدلَ الكتابة رِهانٌ يَقبِضها صاحبُ الحقِّ، وتكون وثيقةً عنده حتى يأتيه حقُّه.

فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ.

أي: إنْ كان المَدينُ أمينًا عند صاحب الدَّين فوَثِق فيه، وأحبَّ أن يُعامِله من دون رَهْن، فعلى المَدين أن يردَّ إليه دَينَه كاملًا، غيرَ ظالمٍ له، ولا باخس حقَّه، وليَحذَر ربَّه سبحانه، من أن يُعاقِبه لمخالفته أَمْرَه، وارتكابه نَهْيَه في ذلك.

وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ.

أي: لا تُخْفوا- أيُّها الشُّهود- ما شهِدتم به؛ إمَّا بإنكاره بالكُليَّة، أو بالزِّيادة عليه والنُّقصان منه، ولكن أَجيبوا مَن شَهِدتم له إذا دعاكم لإقامة شهادتكم بالصِّدق؛ لإثبات حقِّه على غريمه، ومَن يَكتُم شهادتَه فإنَّه فاجرٌ قلبه، مُكتسِب بكِتمانه إيَّاها الإثمَ؛ لأنَّ الحقَّ مبنيٌّ عليها ولا يَثبُت بدونها، فكِتمانها من أعظم الذنوب، والله بما تعملون- في شهادتكم من القيام بها، أو كِتمانها عند حاجة مَن استشهَدكم إليها، وبغير ذلك من سرائر أعمالكم وعلانيتها- عليمٌ؛ يُحصي عليكم أعمالَكم ليَجزيكم بها، إمَّا خيرًا، وإمَّا شرًّا على قدْر استحقاقكم.

سُورةُ البَقَرَةِ

الآيات (284-286)

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ
فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ **(284)**

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ
بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ **(285)**

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا
أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا
طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ **(628)**

تفسير الآيات:

لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284).

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ.

أي: إنَّ لله تعالى وحده ما في السَّموات والأرض وما بينهما، خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا، وهو المُطَّلِع على مَنْ فيهما، لا يَخفى عليه شيء مُطلَقًا، وسيُطْلِعهم على وجه المحاسبة على إظهارِ ما انطوت عليه نفوسُهم، أو إضماره، ممَّا استقرَّ فيها وثبَت، من الكُفْر والنِّفاق، أو من الأوصاف السيِّئة التي تتَّصِف بها، أو من العزائم المصمِّمة على ارتكاب معصية.

فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

أي: فيغفر بعد المحاسبة، لِمَن أتى بأسباب المغفرة فضلًا منه، ويُعاقِب مَن يكفُر به، أو يُصِرُّ على المعاصي، في باطنه أو ظاهره عدلًا منه، فالله تعالى لا يُعجِزه شيءٌ، ومن تَمام قُدْرته محاسبةُ الخلائق، وإيصالُ ما يَستحِقُّونه من الثواب والعقاب.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (285)

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (628)

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ.

أي: آمَن رسولُ الله محمَّدٌ - ﷺ -، فأقرَّ وانقاد لِمَا أُوحي إليه من ربِّه من الكتاب والسُّنة، وكذلك آمن المؤمنون، وكلٌّ من الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام والمؤمنين جميعًا يؤمنون حقًّا بالله تعالى وبجميع ملائكته، وجميع كُتُبه، ويُعلِنون إيمانَهم بجميع رُسله عليهم الصَّلاة والسَّلام، دون أيِّ تفريق بين أحدٍ منهم، فلا يؤمنون ببعضٍ، ويَكْفُرون ببعض.

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ.

أي: قال جميع المؤمنين: سَمِعنا قولَ ربِّنا، وأمْرَه ونهيه، وفَهِمنا ذلك، فقبِلْناه، وعمِلْنا بما أَمَر، واجتنبْنا ما عنه زجَر، وقالوا: نسألك يا ربَّنا أن تَستُرَ لنا على الدوام ذنوبَنا، وتتجاوز عن عِقابنا عليها، وأنت يا ربَّنا مَرجِعُنا في كلِّ أمورنا، وإليك مَعادُنا، ومَعاد كلِّ الخلائق فتَجزيهم بما عمِلوا من خيرٍ وشرٍّ.

لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

(286).

سبب النُّزول:

عن أبي هُرَيرَة رضي الله عنه، قال: ((لَمَّا نزلَت علَى رسولِ اللهِ - ﷺ -: لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، قالَ: فاشتدَّ ذلك على أصحابِ رَسولِ اللهِ - ﷺ -، فأتَوا رسولَ اللهِ - ﷺ -، ثمَّ برَكوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رسولَ الله، كُلِّفنا منَ الأَعمالِ ما نُطيقُ: الصَّلاةَ والصِّيامَ، والجِهادَ والصَّدَقةَ، وقد أُنزِلَت عليكَ هذه الآيةُ ولا نُطيقُها، قال رسولُ الله - ﷺ -: أتُريدون أنْ تقولوا كما قال أَهْلُ الكتابَينِ من قبلِكُم: سمِعنا وعصَينا؟ بل قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا، غُفرانَكَ ربَّنا وإليكَ المَصيرُ، فلمَّا اقترَأها القومُ، ذلَّت بِها ألسنتُهم، فأنزلَ اللهُ في إثرِها: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلمَّا فعَلوا ذلك نسخَها اللهُ تعالى، وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قالَ: نعم، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا

إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قالَ: نعم، رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ، قالَ: نعم، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ، قال: نعم)).[48]

وعنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلت هذِهِ الآيةُ: وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ، قال: دخلَ قلوبَهُم منها شيءٌ لم يدخُل قلوبَهُم من شيءٍ، فقال النَّبيُّ - ﷺ -: قولوا: سَمِعنا وأطَعْنا وسلَّمنا، قالَ: فألقى اللهُ الإيمانَ في قلوبِهِم، فأنزلَ اللهُ تعالى: لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا، قالَ: قد فعلتُ، رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا، قالَ: قد فعلتُ، وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا، قالَ: قد فَعلتُ)).[49]

لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ.

أي: لا يُحمِّل الله تعالى نفسًا فوقَ طاقتِها، فلا يتعبَّدها إلَّا بما يَسعُها تَحمُّله، فلا يُضيِّق عليها، ولا يُجهِدها بما لا قِبل لها به، وهو وإنْ حاسَب وسأل، لكنَّه لا يُعذِّب بما لا يُمكِن للمرء دفْعُه؛ كوسوسة عَرَضتْ له، أو خَطْرة خطَرتْ بقلبه، ولكلِّ نَفْس ما عمِلتْ من خير، لا يَنقُص منها شيءٌ؛ وعليها ما عمِلتَ من شرٍّ، لا يُزاد عليها شيء.

---

(48) أخرجه مسلم (804)

(49) رواه مسلم (126).

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُعاقِبْنا إنْ نسِينا القيامَ بفرضٍ، أو تَرْك مُحرَّم، ولا تُعاقِبنا يا ربَّنا، إنْ أخطأنا الصَّوابَ في العمل، جهلًا منَّا بوجْهه الشَّرعي، أو وقَعْنا في معصيتك جهلًا، عن غير قصْدٍ منَّا، بارتكاب نَهيك.

رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا.

أي: قولوا: يا ربَّنا، لا تُحمِّلنا عهدًا على القيام بأعمالٍ شاقَّةٍ وثقيلةٍ علينا، فنعجِز عن القيام بها، فتَحِلَّ علينا العقوباتُ، كما وقَع لليهود والنصارى وغيرِهم ممَّن كُلِّفوا أعمالًا، وأُخِذتْ عليهم العهودُ والمواثيقُ على القيامِ بها، فلم يفعلوا، فعُوقِبوا.

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ.

أي: قولوا أيضًا: يا ربَّنا لا تُكلِّفنا من الأعمال ما لا نُطيق القيامَ به؛ لثِقَل حَمْله علينا، ولا تَبْتلِنا بما لا قِبَل لنا به.

وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا.

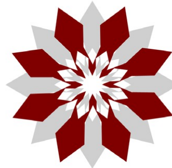
أي: يا ربَّنا، تجاوَز عمَّا بيننا وبينك من تقصيرٍ في أداء ما افترضتَه علينا، واستُر علينا فيما بيننا وبين عبادِك، فلا تُظهِرهم على سيِّئاتنا، وتجاوَز عنها، وجُدْ علينا بالرحمة حتى لا نَقَع في ارتكابِ محظورٍ، أو تهاوُنٍ في أداء مأمور، ونجِّنا برحمتك من غضبِك وعقابِك.

أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.

أنت وليُّنا وناصِرُنا دون مَن عاداك وكَفَر بك؛ لأنَّا حِزبُك المؤمنون بك، والمُطيعون لك فيما أَمَرتنا ونَهيتنا؛ فبوَلايتِك الخاصَّة انصُرنا على الكافرين، الذين جَحدوا وحدانيتَكَ، وأَشرَكوا معك، وأَنكَروا رسالةَ نبيّك، وعبدوا غيرَك، وأطاعوا الشَّيطانَ في معصيتِك، واجعل لنا العاقبةَ عليهم في الدُّنيا والآخرة.







تَفْسِيرُ سُورَةِ آلِ عِمْرانَ

سورةُ آلِ عِمْرانَ

سُورَةُ آلِ عِمرَانَ

- سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسورة: آلِ عِمْرانَ.

فعن النَّوَّاسِ بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يَعمَلون به، تَقدُمُه سورةُ البقرة وآلِ عِمْرانَ- وضرب لهما رسولُ اللهِ - ﷺ - ثلاثةَ أمثالٍ ما نَسيتُهنَّ بعدُ- قال: كأنَّهما غَمامَتانِ، أو ظُلَّتانِ سَوْداوانِ بينهما شَرْقٌ، أو كأنَّهما حِزْقانِ من طَيرٍ صوافَّ تُحاجَّانِ عن صاحِبِهما)).[50]

- سُمِّيتْ هي والبقرةُ بالزَّهْرَاوَيْنِ.

فعن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقول: ((اقْرَؤوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ.)).[51]

(50) رواه مسلم (805).

(51) رواه مسلم (804).

- عن أبي أُمامةَ الباهليِّ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ - ﷺ - يقول: ((اقْرَؤوا القُرْآنَ؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابه، اقرَؤوا الزَّهرَاوَينِ: البقرةَ وسورةَ آلِ عِمْرانَ؛ فإنَّهما تأتيانِ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمَامتانِ، أو كأنَّهما غَيَايَتانِ أو كأنَّهما فِرْقانِ من طيرٍ صوافَّ تُحاجَّانِ عن أصحابِهما، اقرَؤوا سورةَ البقرةِ؛ فإنَّ أَخْذَها بركةٌ، وتركَها حسْرةٌ، ولا يستطيعُها البَطَلَةُ))، قال معاويةُ: بلغني أنَّ البَطَلَةَ السَّحَرةُ.[52]

- عن النَّوَّاس بن سَمْعانَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسول اللهِ - ﷺ - يقول: ((يُؤتَى بالقُرْآنِ يومَ القيامةِ وأهلِه الَّذين كانوا يعمَلون به، تقدُمُه سورةُ البقرةِ وآلُ عِمْرانَ، وضرب لهما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم ثلاثةَ أمثالٍ، ما نسيتُهنَّ بعدُ، قال: كأنَّهما غمامَتانِ أو ظُلَّتانِ سَوْداوانِ، بينهما شَرْقٌ، أو كأنَّهما حِزْقانِ من طيرٍ صوافَّ، تُحاجَّانِ عن صاحبِهما)).[53]

عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((كان الرَّجُلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عِمْرانَ، جَدَّ فينا- يعني: عظُمَ- وفي رواية: يُعَدُّ فينا عَظيمًا، وفي أخرى: عُدَّ فينا ذا شأنٍ)).[54]

سورةٌ مدنيَّةٌ، نزلَتْ بعد الهجرةِ، ونقَل الإجماعَ على ذلك عددٌ من المفسِّرين.

---

(52) رواه مسلم (804).

(53) رواه مسلم (805).

(54) رواه أحمد (120/3) (12236)، وابن حبَّان (19/3) (744). صحَّح إسناده ابن تيمية في ((الصارم المسلول)) (241/2)، وقال ابن كثير في ((البداية والنهاية)) (179/6): على شرط الشَّيخين، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1268).

مِن أهمِّ المقاصد الَّتي تضمَّنَتْها سورةُ آل عِمْرانَ:

1- إثباتُ وَحْدانيَّةِ الله، وإقامة الأدلَّة والحُجَجِ عليها.

2- بيانُ أهميَّةِ عقيدةِ الولاءِ والبَرَاء، والتَّحذيرُ من ولايةِ غيرِ المؤمنين، وتفصيلُ أحوالِ أهلِ الكتاب.

3- الاهتمامُ بجوانب التَّربيَةِ والإرشادِ والتَّوجيهِ للمؤمنين.

مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ آلِ عِمْرانَ:

1- بيانُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تبارَك وتعالَى المُطلَقةِ، وتقريرُ أنواعِ التَّوحيدِ الثَّلاثةِ: الألوهيَّةِ، والرُّبوبيَّةِ، والأسماءِ والصِّفاتِ.

2- تقريرُ وَحْدةِ الجِهةِ الَّتي تنزَّلَتْ منها جميعُ الكُتُبِ والدِّياناتِ السَّماويَّةِ.

3- بيانُ أقسامِ النَّاس مع مُحكَمِ القُرْآنِ ومُتشابِهِه.

4- تحذيرُ أهلِ الكفرِ المناوئين للهِ ورسولِه - ﷺ -؛ فالسُّلطانُ والقوَّةُ والجاهُ والولَدُ لن يُغنيَ عنهم شيئًا من عذاب اللهِ وسَطوتِه، وأنَّ نهايتَهم هي الخسرانُ المُبينُ في الدُّنيا والآخرةِ، وضرب لهم الأمثالَ لكفَّارٍ قبلَهم وكفَّارٍ بعدهم، وكيف كانت نهايتُهم.

5- الإشارةُ إلى غزوةِ بَدْرٍ الكبرى، وذكرُ تفاصيلِ ما جرى في غزوةِ أُحُدٍ من أحداثٍ.

6- الإشارةُ إلى أحبِّ الشَّهواتِ النَّفسيَّةِ للإنسانِ، وبيان أنَّ هناك ما هو خيرٌ منها، وهو ما أعَدَّه اللهُ للمتَّقين مِن نعيمٍ مقيمٍ في جنَّاتِ الخُلدِ.

7- بيانُ أهميَّةِ دِينِ الإسلامِ، وأنَّه دينُ اللهِ الَّذي لا يَقبَلُ غيرَه.

8- تفصيلُ أحوالِ أهلِ الكتاب، وفَضْحُ ضلالاتِهم، وما وقَعوا فيه من اختلافٍ في أمرِ دِينهم، وما ارتكَبوه من جرائمَ وموبقاتٍ بتكذيبِهم بآياتِ اللهِ، وقتلِهم أنبياءَه والدُّعاةَ إليه، وامتناعِهم عن التَّحاكُمِ إلى كتابِه، وقِصَّتُهم مع عيسى عليه السَّلام، وكُفْرُهم به، ودعوةُ الرَّسولِ - ﷺ - إلى مُباهَلةِ كلِّ مَن جادَله منهم في شأنِ عيسى عليه السَّلام مِن بعدما جاء العلمُ، وأمرُ اللهِ لرسولِه أنْ يدعوَهم إلى كلمةٍ سواءٍ، وهي كلمةُ التَّوحيد، ومجادلتُهم في إبراهيمَ عليه السَّلام، وبيانُ الحقّ لهم في شأنِه، وذِكْرُ مجموعةٍ من صفاتِهم الَّتي اتَّصفوا بها؛ كإرادتِهم إضلالَ المسلمين، وكُفرِهم بآياتِ الله، ولَبْسِهم الحقَّ بالباطل، ولَيِّهم ألسنتَهم بالكتاب بما ليس منه إيهامًا للمؤمنين، وغيرُها. وأمرُ اللهِ لنبيِّه بمجادلتِهم، وبيانُ الحقّ لهم في أكثرَ مِن موضعٍ من مواضعِ السُّورةِ، وتحذيرُ اللهِ لأوليائه المؤمنين من اتِّباعِهم وطاعتِهم، وإخبارُ اللهِ تبارَك وتعالَى أنَّ أهلَ الكتاب ليسوا سواءً، وثناؤُه على طائفةٍ منهم، وهم الَّذين يتلُون آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيل، ويُؤمنون باليومِ الآخِرِ، ويَأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَوْن عن المنكَرِ، وغير ذلك ممَّا يتعلَّقُ بأهلِ الكتابِ.

9- التنبيهُ على عقيدةِ الولاء والبَرَاءِ، والتَّأكيدُ عليها، والتَّحذيرُ مِن ولاية غيرِ المؤمنين، واتِّخاذِهم بِطانةً من دونِ المؤمنين.

10- بيانُ أنَّ محبةَ الله لها دلائلُ وعلاماتٌ وثمارٌ؛ فمِن دلائلِها: اتباعُ رسولِه - ﷺ -، ومن ثمارِها: محبَّتُه لِمَن أطاع رسولَه - ﷺ -.

11- ذِكرُ الأنبياء، وبيانُ علوِّ مراتبِهم، واصطفاءِ الله لهم، وبيان قصَّةِ مريمَ وابنِها عيسى عليهما السَّلام، وقصَّة زكريَّا وابنِه يحيى عليهما السَّلام.

12- ذِكرُ مجموعةٍ من الآدابِ التَّربويَّةِ للجماعةِ المسلِمةِ؛ كالوصيَّةِ بالتَّقوى، والاعتصامِ بحبلِ اللهِ، ونَبْذِ الفُرقةِ والاختلافِ، وأمرهم بالدَّعوةِ إلى الخيرِ، وامتنانه عليهم بأنْ جعَلَهم خيرَ أمَّةٍ أُخرِجت للنَّاسِ، وحثهم على الإنفاقِ، وغيرها من الآدابِ العظيمةِ المنثورة في ثنايا السُّورةِ.

13- ذِكرُ بعض الأحكام الشَّرعيَّة؛ كالجهادِ في سبيلِ الله، والنَّهيِ عن أكلِ الرِّبا، والنَّهيِ عن الغُلولِ، وعقوبة مانع الزَّكاةِ.



سُورَةُ آل عِمْرانَ

الآيات (1-4)

الم (1) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2)

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3)

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

ذُو انْتِقَامٍ (4)

تفسير الآيات:

الم (1)

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآن؛ حيث تُظهرُ عَجْزَ الخَلْقِ عن مُعارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يَتحدَّثون بها!

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (2):

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: لا أحدَ معبودٌ بحقٍّ سِوى الله تعالى؛ فهو وحْدَه المستحِقُّ للعبادة حبًّا وتعظيمًا له سبحانه؛ لكمالِ صِفاتِه.

قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: 62].

الْحَيُّ الْقَيُّومُ:

أي: إنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى هو الذي له الحياةُ الكاملة، التي لم يَسبِقها عَدَمٌ، ولا يَلحَقها زَوالٌ، المُستلزِمةُ لجميعِ صِفاتِ الكمال، وهو أيضًا القائمُ بنفْسِه؛ فلا يَحتاج لأحدٍ، القائمُ بأمورِ غيرِه من خَلْقه مِن الرِّزق وغيرِه؛ فكلُّ الموجوداتِ إليه مُفتَقِرةٌ، ولا قِوامَ لها بدونه، وهذه القَيُّوميَّة مُستلزِمةٌ لجميعِ أفعالِ الكَمال.

قال تعالى: وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ [الفرقان: 58].

وقال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ [الروم: 25].

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (3)

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

أي: أَنزل اللهُ القُرْآنَ عليك- يا محمَّدُ- مُشتملًا على الحقِّ والصِّدق، وأيضًا فنزولُه حقٌّ لا شكَّ فيه؛ فهو منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى.

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ

أي: مصدِّقًا للكتُبِ السَّابقةِ المنزَّلةِ قَبله مِن اللهِ على أنبيائه ورُسُله؛ وذلك إمَّا باعتبار أنَّها أَخبرتْ به فكان نزولُهُ مصدِّقًا لها، وإمَّا باعتبار أنَّه حاكمٌ عليها بالصِّدق.

فإنْ قيل: كيف يكونُ القرآنُ مُصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَديهِ وهو ناسخٌ لعامَّة أحكامِه؟

قيل: تَصديقُه إيَّاه تحقيقُه أنَّه مِن جِهة الله، ومطابقتُه إيَّاه في كونِه داعيًا إلى التَّوحيدِ وفِعلِ الخيرِ ونحوِ ذلك، وإلى أنواعِ العباداتِ دون قَدْرِها وهَيكلِها، وكيف إيقاعُها.

وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ

أي: أنزل التَّوراةَ على موسى عليه السَّلام، والإنجيلَ على عيسى عليه السَّلام.

مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (4)

مِنْ قَبْلُ مِن قَبلِ هذا القُرْآنِ الَّذي نزَّله عليك.

هُدًى لِلنَّاسِ أي: بيانًا للنَّاسِ عُمومًا مِن اللهِ تعالى.

وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ

أي: وأنزَلَ في كُتبِه ما يُفرِّقُ بين الحقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

أي: إنَّ الذين كَفروا بآياتِ اللهِ، فأَنكَروها، وردُّوها بالباطِلِ لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامةِ.

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ

أي: عزيزٌ في سُلطانِه، لا يَمنَعُه مانعٌ ممَّن أراد عذابَه منهم، ولا يحُولُ بينه وبينه حائلٌ، ولا يَستطيعُ أنْ يُعانِدَه فيه أحدٌ، وأنَّه ذو انتقامٍ ممَّن جحَد حُجَجَه وأدلَّته، وخالَف رُسلَه.



سُورةُ آل عِمْران

الآيتان (5-9)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5)

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (6)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا
اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (5)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغيبُ عن عِلمِه شيءٌ في الأرض ولا في السَّموات؛ فهو سبحانه عالِمٌ بجميعِ الأشياء على التَّفصيلِ.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ

أي: هو الَّذي يجعلُكم صُوَرًا في أرحام أمَّهاتِكم على أيِّ كيفيَّةٍ شاء، فيجعَلُ هذا ذَكَرًا وهذا أنثى، وهذا أسودَ وهذا أحمرَ، وهذا حَسَنًا وهذا قَبيحًا، وهذا طويلًا وهذا قصيرًا، إلى غير ذلك من الاختِلافاتِ.

قال الله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا. [الحج: 5].

وقال سبحانه: وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ [المؤمنون: 12-14].

ودلَّت هذه الآيةُ على أنَّ عيسى ابنَ مريمَ عبدٌ مخلوق، كما خَلَق اللهُ سائرَ البشر؛ لأنَّ اللهَ تعالى صوَّره في الرَّحِم وخَلَقه كما يشاء؛ فكيف يكونُ إلهًا كما زعمَتْه النَّصارى، وقد تقلَّب في الأحشاءِ، وتنقَّل من حالٍ إلى حال؛ كما قال تعالى: يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ [الزمر: 6]؛ لذا قال اللهُ تعالى بعد ذلك مقررًا انفرادَه بالأُلوهيَّة:

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أي: هو المستحقُّ للإلهيَّة وحْدَه لا شريكَ له، العزيزُ في مُلكِه، لا يَغلِبُه شيء، ولا يمتنعُ منه شيءٌ، وما شاء كان بلا ممانعٍ، والحكيمُ في خَلْقِه وصُنعِه وتدبيره.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (7)

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

أي: هو الَّذي أنزلَ عليك- يا محمَّدُ- القُرْآنَ.

مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

أي: مِن القُرْآن آياتٌ بيِّناتٌ واضحاتُ الدَّلالة، لا التباسَ فيها على أحدٍ من النَّاسِ، ولا شُبهةَ، ولا إشكالَ.

هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

أي: وهذه الآياتُ المُحكَماتُ هي أصل هذا الكتابِ، ومُعظَمُه الَّذي يُرجَعُ إليه عند الاشتباهِ.

وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ

أي: ومِن القُرْآنِ آياتٌ أُخَرُ يَلتبسُ معناها، أو تشتبهُ دَلالتُها على كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضهم.

فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ

أي: فأمَّا الَّذين في قلوبِهم مَيْلٌ عن الحقِّ، وانحرافٌ عنه وضلال، فيَتعلَّقون بالمتشابِهِ من آياتِ القُرْآن، ويأخذون به ويتركون المُحكَمَ.

ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ

أي: طلَبًا للشُّبهاتِ واللَّبْسِ على المؤمنين، وإضلالِهم؛ إيهامًا بأنَّهم يحتجُّونَ بالقُرْآن.

وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ

أي: وطلَبًا لتفسيرِه على ما يُريدون؛ تحريفًا له وَفْقَ أهوائِهم الفاسدةِ لاحتمالِ لفظِه لِما يصرِفونه إليه.

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ

أي: وما يعلَمُ عواقِبَ الأمورِ وما تؤولُ إليها، ولا حقائقَها، إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ وحده؛ وذلك كحقائقِ صفاتِ الله وكيفيَّتِها، وحقائق أوصاف ما يكونُ في اليومِ الآخِرِ، ونحو ذلك.

أمَّا الرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له، فيقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكِتابِ، وأنَّه حقٌّ وإن لم نعلَمْ تأويلَه، هذا على قراءة الوقفِ على اسمِ الله.

أمَّا على قِراءة الوصلِ فيكون المعنى: وما يَعلَمُ تفسيرَ المتشابهِ، وبيانَه، وردَّه إلى المُحكَم، ودَفْعَ شُبَهِه، إلَّا اللهُ والرَّاسخون في العِلم، المتمكِّنون منه، المُتقِنون له أيضًا، يعلَمون ذلك، ويقولون: آمَنَّا وصدَّقْنا بالمتشابهِ من آيِ الكتابِ.

كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا

أي: كلٌّ مِن المحكَمِ من الكتاب والمتشابهِ منه، الجميعُ مِن عند ربِّنا، أوحاه إلى نبيِّه - ﷺ -، يُصدِّقُ كلٌّ منهما الآخَرَ، ويشهَدُ له.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ

أي: وما يَتذكَّرُ ويتَّعِظُ ويفهَمُ ويقبَلُ النُّصحَ إلَّا أصحابُ العقول السَّليمة.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (8)

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا

أي: ويقول الرَّاسخونَ في العِلم أيضًا: يا ربَّنا، لا تُمِلْ قلوبَنا عن الهُدى والحقِّ بعد إذ هديتَنا إليه، فوفَّقْتَنا للإيمانِ بمُحكَمِ كتابِك ومتشابِهِه، فلا تَجْعَلْنا كالَّذين في قلوبهم زَيغٌ، ممَّن يتَّبِعُ ما تشابَهَ من القُرْآن.

وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً

أي: وأعطِنا يا ربَّنا– تفضُّلًا مِن عندك– رحمةً عظيمةً تَزيدُنا بها إيمانًا وثَباتًا ويقينًا وسَدادًا.

إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

أي: إنَّك أنت واسعُ العطايا والهِبَاتِ، كثيرُ الإحسان، فإنَّنا إنَّما طلَبْنا منك هبةَ الرَّحمةِ؛ لأنَّك أنتَ الوهَّابُ.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (9)

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ

أي: ويقول الرَّاسخون في العِلمِ أيضًا: يا ربَّنا، إنَّك تبعَثُ النَّاسَ، وتجمَعُهم في يومٍ لا شكَّ فيه، وهو يوم القيامة، وذلك للفصلِ بينهم، ومجازاةِ كلِّ واحد بعمَلِه، فاغفِرْ لنا يومئذٍ، واعفُ عنَّا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أي: إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعده؛ أنَّ مَن آمَن به واتَّبَع رسولَه، وعمِل صالحًا، أنَّه يغفِرُ له.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (10-11)



إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ

(10)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(11)



تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ

(10)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا.

أي: إنَّ الَّذين كفروا باللهِ وآياتِه، وكذَّبوا رُسلَه، وجحَدوا دينَه، لن تُنجيَهم أموالُهم ولا أولادُهم من عُقوبةِ اللهِ إذا حلَّتْ بهم.

كما قال تعالى: يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ [الشعراء: 88-89].

وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ

أي: وأولئك هم حطَبُ النَّارِ الَّذي توقَدُ به، الملازِمونَ لها دائمًا أبدًا؛ كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.

ثمَّ ذكَرَ تعالى مثلًا لهؤلاء الكافرينَ الذين استغْنَوْا بما أُوتوا في الدُّنيا عن الحقِّ فعارضُوه وناهضُوه حتَّى أَخَذهم، فقال:

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

(11)

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أي: شأنُهم في ذلك كشأنِ فِرْعون وآلِه، والأُمَم المكذِّبةِ بآياتِ الله مِن قبلِهم؛ كقوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وأمثالِهم.

فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ

أي: أهلَكهم اللهُ بسببِ ذُنوبِهم، واللهُ شديدُ الأخذِ، أليمُ العذابِ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (12-13)



قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12)

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)



تفسير الآيتين:

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (12)

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للَّذين كفروا: ستُغلَبون من قِبَلِ المؤمنين في الدُّنيا.

كما قال تعالى: كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي، وكما قال: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: سَتُغْلَبُونَ قراءتان:

1- قراءة (سَيُغْلَبُونَ) على معنى أنَّ الكُفَّارَ غُيَّبٌ.

وقيل معناه: قلْ لليهود: سيُغلبُ مُشرِكو العربِ ويُحشرون إلى جهنَّمَ، فتكونُ المخاطبةُ لليهود، وتكونُ الغلبةُ واقعةً على مُشركي قريش، والتوجيهُ الأوَّل أرجحُ لصريحِ الخِطاب قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا.

2- قِراءة (سَتُغْلَبُونَ) هي أمرٌ من الله لنبيِّه أنْ يُخاطِبَ الكفَّارَ بهذا، أي: قل لهم- يا محمَّدُ- مواجهًا بالخطاب: ستُغلبون وتُحشرون إلى جهنَّمَ.

وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ

أي: وتُجمَعون يومَ القِيامةِ إلى النَّار.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [الأنفال: 36].

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَتُحْشَرُونَ قِراءتان:

1- قِراءة (وَيُحْشَرُونَ) بالياء، على لفظِ الغيبة.

2- قِراءة (وَتُحْشَرُونَ) بالتَّاء بالخِطابِ.

وَبِئْسَ الْمِهَادُ:

وبئس الفِراشُ جهنَّمُ الَّتي تُحشَرون إليها.

كما قال تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ [الأعراف: 41].

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ

أي: قد كان لكم علامةٌ ودلالةٌ على أنَّ الغَلَبةَ تكونُ للمؤمنين، وأنَّ اللهَ مُعِزٌّ دِينَه، وناصرٌ رسولَه، ومُظهِرٌ كلمتَه.

فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ

أي: في طائفتينِ لقِي بعضُهما بعضًا للقتالِ فيما بينهما: طائفةٍ تُقاتِلُ في سبيلِ اللهِ، وهم النَّبيُّ - ﷺ - ومَن معه من المسلِمين، وطائفةٍ كافرةٍ، وهم مُشرِكو قُريشٍ، وذلك يومَ بَدْرٍ.

كما قال تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا [النساء: 76].

يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ

أي: يرَى المسلِمون الكافرين مثلي عدد المسلمين، رؤيةً ظاهرةً لا لَبْسَ فيها؛ حيث تَلحقُهم أبصارُهم، وإنْ كانوا أكثرَ من ذلك في حقيقةِ الأمر؛ ليتوكَّلوا على اللهِ، ويَطلُبوا منه الإعانةَ.

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: واللهُ يُقوّي بنَصرِه مَن يشاء ممَّن تَقتضي الحِكمةُ نَصْرَه أو تأييدَه.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ

أي: إنَّ في تأييدِنا الفئةَ المسلِمةَ- مع قلَّتِها في العدَدِ- على الفئةِ الكافرة- مع كثرتها في العدَدِ- لَمُعتَبَرًا ومتَّعظًا لِمَن له بصيرةٌ وفهمٌ يَهتدي به إلى حِكَمِ اللهِ وأفعالِه، وقَدَرِه الجاري بنصرِ عباده المؤمنين في هذه الحياة الدُّنيا، ويومَ يقومُ الأشهادُ.

سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (14-17)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15)

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16)

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17)

تفسير الآيات:

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (14)

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ

أي: زيَّن اللهُ تعالى للنَّاسِ محبَّةَ المشتهَيات؛ من النِّساءِ، والذُّكورِ من الأولاد، والمال الكثير المتضاعف؛ من الذَّهب والفضَّةِ والخيل الرَّاعية، والإبل والبقَر والغَنَم، والأرض المتَّخذة للزِّراعة.

ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

أي: جميعُ ما ذُكِر من النِّساء والبنين، والقناطير المقنطَرة مِن الذَّهب والفضَّة، والخيلِ المسوَّمة، والأنعام والحَرْث، ممَّا يُستمتَعُ به في الدُّنيا، وهو مع قلَّتِه إلى زوالٍ.

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ

أي: والله عنده حُسنُ المرجعِ إلى جنَّات تجري من تحتها الأنهارُ، وإلى أزواج مُطهَّرةٍ، ورضوانٍ من الله، وذلك للَّذين اتَّقوا ربَّهم.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (15)

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للنَّاس: أأُخبِرُكم وأُعلِمُكم بخيرٍ وأفضلَ ممَّا زُيِّن لكم في هذه الحياةِ الدُّنيا.

لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أي: للَّذين خافوا اللهَ فأطاعوه؛ بأداء فرائضِه، واجتنابِ معاصيه: عند ربِّهم جنَّاتٌ كثيرةٌ ومتنوِّعة، تجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها ومن أرجائِها أنهارُ العسَلِ واللَّبَنِ والخمرِ والماءِ، وغير ذلك، ماكثين فيها أبدَ الآبادِ، لا يذوقون فيها الموتَ.

وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

أي: ولهم أزواجٌ من نِساء الجنَّةِ، اللَّواتي طهُرْنَ من كلِّ أذًى؛ مِن الحَيضِ، والمنِيِّ، والبولِ، والنِّفاس، ومن مساوئِ الأخلاق، وآفاتِ القلبِ واللِّسانِ والجوارحِ، وغير ذلك من كلِّ عيبٍ ظاهرٍ وباطنٍ ممَّا يعتري نساءَ أهلِ الدُّنيا.

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ

أي: ولهم رضًا مِن الله تعالى يُحِلُّه عليهم.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ:

أي: واللهُ بصيرٌ بكلِّ العباد- مؤمنِهم وكافرِهم، بَرِّهم وفاجرِهم، مُتَّقيهم وعاصيهم- بَصرَ نظَرٍ؛ فلا يغيبُ عن نظَره شيءٌ، وبصَرَ عِلمٍ؛ فلا يعزُبُ عن عِلمه شيءٌ، وإذا كان كذلك جازاهم بما يستحقُّون.

ثم فسَّر أحوالَ المتَّقين الموعودين بالجنَّاتِ فقال:

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (16)

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

أي: هم الَّذين يقولونَ: يا ربَّنا، إنَّنا آمنَّا بك، وبكتابِك وبرسولِك؛ فبسببِ إيمانِنا، استُرْ ذنوبَنا، ولا تُعاقِبْنا عليها.

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

أي: ادفَعْ عنَّا عذابَ النَّار، ولا تُعذِّبْنا بها.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (17)

الصَّابِرِينَ

أي: على القيامِ بالطَّاعات، وتَرْك المحرَّمات، وعلى أقدارِ الله المؤلِمَة.

وَالصَّادِقِينَ

أي: في أقوالِهم وأفعالِهم.

وَالْقَانِتِينَ

أي: والمطيعين، الذين يُداومون على الطَّاعةِ، مع مُصاحَبةِ الخشوعِ والخُضوعِ للهِ تعالى.

وَالْمُنْفِقِينَ

أي: مِن أموالِهم في جميعِ ما أُمِروا به من الطَّاعاتِ؛ كأداءِ الزَّكاةِ والصَّدقات، وصلةِ الأرحام والقَرابات، ومواساةِ ذوي الحاجاتِ، وغيرِ ذلك مِن الوجوه الَّتي أذِنَ اللهُ لهم بالإنفاقِ فيها.

وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

أي: السَّائلين المغفرةَ في آخِرِ اللَّيل؛ فهو وقتُ نُزولِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى سماءِ الدُّنيا.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآية (18)



شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)



تفسير الآية:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (18)

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أي: عَلِمَ اللهُ تعالى أنَّه لا معبودَ حقٌّ إلَّا هو، وتكلَّمَ بذلك، وأخبر به خلْقَه، وأَمَرَهم وأَلْزَمهم به.

وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ

أي: وشهِدَتِ الملائكةُ أيضًا بذلك وأصحابُ العِلم.

قَائِمًا بِالْقِسْطِ

أي: حالَ كونِه قائمًا بالعَدْلِ، وهو في جميعِ الأحوال كذلك، لم يزَلْ متَّصِفًا بالقِسطِ في أفعالِه وتدبيرِه بين عِبادِه؛ فهو على صراطٍ مستقيمٍ فيما أمَر به ونهى عنه، وفيما خلَقه وقدَّرَه.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

تأكيدٌ لتفرُّدِه بالألوهيَّةِ، وتقريرٌ لتوحيدِه، وأنَّه لا يستحقُّ العبادةَ غيرُه.

الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أي: القويُّ المتينُ، الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتنعُ عليه شيءٌ أراده، ولا يَنتصِرُ منه أحدٌ، أو يَنالُ منه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والحَكيمُ يتضمَّنُ حُكْمَه وعِلْمَه وحِكمتَه فيما يقولُه ويفعلُه،

فإذا أمَر بأمرٍ كان حَسَنًا، وإذا أخبَرَ بخبَرٍ كان صِدقًا، وإذا أرادَ خَلْقَ شيءٍ كان صوابًا؛ فهو حكيمٌ في إراداتِه وأفعالِه وأقوالِه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (19-20)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (20)

تفسير الآيتين:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (19)

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ.

أي: إنَّ الدِّينَ المقبولَ عند اللهِ، الَّذي لا دِينَ سواه، هو الإسلام؛

كما قال تعالى: وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ [آل عمران: 85].

والإسلامُ هو الانقيادُ لله وحده، ظاهرًا وباطنًا، بما شرَعه على ألْسنةِ رُسله، إلى أنْ خُتِموا بمحمَّدٍ - ﷺ -؛ فجميعُ الطُّرقِ مسدودةٌ إلَّا مِن جِهته.

وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ

أي: اختلَف الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ بعدَما قامتْ عليهم الحُجَّة؛ بإرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإنزال الكتُب عليهم، وعِلمِهم بالحقّ، وحَمَلَهم على ذلك مجاوزتُهم الحدَّ بالعدوانِ والظُّلم، وبالتَّفريط وتضييعِ الحقّ.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَاب

أي: ومَن يكفر بحُجَج اللهِ تعالى وما أنزَل في كتابِه، فإنَّ اللهَ سيُجازيه ويُحاسبه على ذلك؛ فإنَّه سبحانه يُحصي أعمالَ العبادِ بسرعةٍ، دون الحاجةِ إلى عَقدِ أصابعَ، أو استخدامِ أداةٍ، وبلا حاجةٍ إلى

فِكرٍ أو رَوِيَّة، كما يَفعَلُ الخَلقُ، وهو سريعُ المحاسَبة للخَلْقِ يومَ القيامة دون أنْ يَظلِمَ أحَدًا شيئًا ودون الحاجةِ إلى تذكُّرٍ أو تأمُّلٍ، فيُحاسبُهم على كثرتِهم في وقتٍ وجيزٍ جدًّا، وهو سبحانه سَريعُ المجازاةِ لعباده، كما أنَّ حسابَه عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسرعةِ انقضاءِ هذه الحياةِ الدُّنيا.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ

أي: فإنْ جادَلوك وخاصَموك بالباطل، فقُلْ- يا محمَّدُ-: أخلصتُ عملي وعبادتي للهِ وحْدَه لا شريكَ له، أنا ومَن على دِيني، فلا نُوجِّهُ وُجوهَنا إلى غيره.

وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ

أي: وقلْ- يا محمَّدُ- للَّذين أوتوا الكِتابَ مِن اليهودِ والنَّصارى والأُمِّيِّين الَّذين لا كتابَ لهم مِن مُشرِكي العربِ: أَأفرَدْتُم التَّوحيدَ لله وأخلَصْتم له العبادةَ؟ والمعنى: أسلِموا للهِ تعالى ووحِّدوه وأَخلِصوا له.

فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا

أي: فإنِ انقادُوا واستسلَموا للهِ ظاهرًا وباطنًا، فقدِ اهتدَوْا هدايةَ توفيقٍ، وأصابوا سبيلَ الحقِّ.

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ

أي: وإنْ أَدبَروا مُعرِضين عمَّا تَدْعوهم إليه من الإسلامِ، وإخلاصِ التَّوحيد للهِ، ولم يَنقادوا بظَواهرِهم ولا ببَواطِنهم، فليس عليك إلَّا تبليغُ رسالةِ ربِّك، وبه وقَعَ أَجرُك على ربِّك، وقامتْ عليهم الحُجَّة.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ

أي: مطَّلِع على جميعِ الخَلْق أتمَّ الاطِّلاعِ، ويعلمُ أحوالهم؛ مَن يُطِيع منهم، ومَن يُعرِض، ويتولَّى جزاءَهم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (21-22)



إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21)

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)



تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (21)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

أي: إنَّ الَّذين يَكفُرون بآياتِ الله فيُكذِّبون بها استكبارًا وعِنادًا.

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَيَقْتلُونَ قِراءتان:

1- قراءة (وَيُقَاتِلُونَ) من القِتال، أي: يُحارِبون الذين يُخالفونهم في كُفرِهم، فالمقاتلةُ مِن اثنينِ.

2- قِراءة (وَيَقْتلُونَ) من القتْل؛ فالقتْلُ مِن جانبٍ واحد.

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ

أي: ويَقتُلون أنبياءَ الله المرسَلين إليهم بغيرِ سببٍ ولا جريمةٍ منهم!

وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ

أي: ويَقتُلون الَّذين يَأمرون بالعَدلِ مِن النَّاس من غيرِ الأنبياء، وهو الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَر، وقتلُهم لهم هو غايةُ الكِبْر.

فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

أي: فأخبِرْهم أنَّ لهم عذابًا مؤلِمًا موجِعًا بالغًا في الشِّدَّةِ.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (22)

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أي: الَّذين ذكَرْناهم هم الَّذين بطَلَتْ أعمالُهم في الدُّنيا، فلا يَنتفعون بآثارِها الطَّيِّبةِ في الدُّنيا، ولا يَنالون بها مَحْمدةً ولا ثناءً مِن النَّاس، مع بقاء الذَّمِّ واللَّعنة عليهم، وأمَّا في الآخرةِ، فلا يَنتفعون بثوابِ أعمالِهم، مع ما أعدَّ لهم فيها من العقابِ.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

أي: وما لهؤلاءِ القومِ مِن ناصرٍ ينصُرُهم مِن اللهِ، ويُنقِذهم من العذابِ إذا هو انتقَم منهم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (23–25)



أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)



تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (23)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ

أي: ألم ترَ- يا محمَّدُ- إلى اليهودِ الَّذين أُعطُوا حظًّا من العِلم بالتَّوراة.

يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

أي: يُدْعَون إلى التَّوراةِ لتحكُمَ بينهم؛ فهم يُقرُّون ويُصدِّقون بها.

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ

أي: يَستدبرُ فريقٌ منهم عن كتابِ الله مُعرِضًا عنه مُنصرِفًا.

وذكَر الله تعالى سبب إعراضِهم فقال:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (24)

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ

أي: ذلك التَّولِّي والإعراضُ بسبب قولِهم: لن نُعذَّبَ في النَّار إلَّا أيَّامًا قلائلَ، ثمَّ يُخرِجنا منها ربُّنا.

وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

أي: ثَبَّتَهم على دِينِهم الباطل ما خدَعوا به أنفسَهم مِن زعمِهم أنَّ النَّارَ لن تمسَّهم إلَّا أيَّامًا معدوداتٍ، وادِّعائِهم أنَّهم أبناءُ الله وأحبَّاؤه، إلى غيرِ ذلك، وهم الَّذين افترَوْا هذا مِن تلقاءِ أنفسِهم واختلَقوه.

ثمَّ قال الله تعالى مُتهدِّدًا لهم ومتوعِّدًا:

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (25)

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ

أي: فكيفَ يكونُ حالُهم مع ما صنَعوا إذا جمَعَهم اللهُ للفصلِ بينهم، ولحسابِهم في يومٍ لا شكَّ في مجيئِه ووقوعِه، وهو يومُ القيامة؟! وما أعظَمَ ما يلقَوْنَ من عقوبةٍ!

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ

أي: وأَعْطَى اللهُ كلَّ نفسٍ جزاءَ ما عمِلَتْ من الخيرِ أو الشَّرِّ كاملًا وافيًا.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

أي: لا يُنقَصُ أحدٌ من حَسناتِه، ولا يُزاد في سيِّئاتِه، أو يُعاقَبُ بغير جُرمِه.

كما قال تعالى: وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا [الكهف: 49]، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ [فصلت: 46]، وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ يَخَافُ ظُلْمًا وَلاَ هَضْمًا [طه: 112].



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (26–27)

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)

تفسير الآيتين:

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26)

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: يا أللهُ، يا مَن لك الملكُ كلُّه؛ مُلكُ الدُّنيا والآخِرة، فتملِك جميعَ الممالكِ وتُصرِّفها وتُدبِّرها.

ثمَّ فصَّل في بعضِ وجوه تصاريفِه وتدابيرِه في مُلكِه فقال:

تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

أي: تُعطي المُلكَ مَن تشاءُ أنْ تُعطيَه.

وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ

أي: وتَنزِعُ الملكَ ممَّن تشاءُ أنْ تنزعَه منه؛ فتُزيلُ عنه وصْفَ المُلكِ.

وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ

أي: وتُعزُّ مَن تشاء أنْ تُعزَّه بطاعتِك، أو بإعطائِه المُلكَ، وبَسْطِ القدرةِ له، أو نَصْرِه، وغير ذلك.

وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ

أي: وتذلُّ مَن تشاءُ أنْ تذلَّه بمعصيتِك، أو بسَلْبِ مُلكِه، وتسليطِ أعدائِه عليه، أو هزيمتِه، وغير ذلك.

بِيَدِكَ الْخَيْرُ

أي: الخيرُ كلُّه بيديك، ليس لأحدٍ معك منه شيءٌ.

إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أي: إنَّ الله قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْه؛ فلا يمتنعُ عليه أمرٌ من الأمور.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ

أي: تُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهار، وتُدخِل النَّهارَ في اللَّيل، فتجعلُ ما نَقَصْتَ من ساعاتِ اللَّيل زيادةً في ساعاتِ النَّهار، وما نقَصْتَ من ساعاتِ النَّهار زيادةً في ساعات اللَّيل.

وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ

أي: وتُخرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَف الميتةِ، وتُخرِج الزَّرعَ من الحبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواة، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِر، إلى غيرِ ذلك.

وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ

أي: وتُخرجُ النُّطفةَ الميّتة من الإنسانِ الحيِّ والأنعامِ والبهائمِ الأحياءِ، وتُخرجُ الحَبَّةَ من الزَّرع، والنَّواةَ من النَّخلةِ، والبيضةَ من الدَّجاجةِ، والكافرَ من المؤمِن، إلى غير ذلك.

وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

أي: وتُعطي مَن تشاءُ من الخَلْقِ الرِّزقَ الواسعَ دون تَقتيرٍ أو تضييقٍ أو مُحاسَبةٍ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآية (28)

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (28)

تفسير الآية:

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: لا تتَّخِذوا- أيُّها المؤمنون- الكفَّارَ أنصارًا وأعوانًا، تحبُّونهم وتظاهرونهم وتوالونهم متجاوزين المؤمنين إليهم.

كما قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ.

وقال سبحانه: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ [المائدة: 51].

وقال عزَّ وجلَّ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ [النساء: 144].

ثُمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن يفعل ذلك فقال:

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ

أي: ومَن يفعلْ ذلك المذكورَ فيتَّخِذهم أولياءَ من دون المؤمنين، فقد بَرِئ مِن اللهِ، وبرِئَ اللهُ منه.

ثُمَّ استثْنَى اللهُ تعالى، فقال:

إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً

أي: إلَّا أنْ تخافوا على أنفسِكم مِن شرِّهم، فلكُم أنْ تتَّقوهم بمداراتِهم، وإظهارِ الوَلايةِ لهم بألْسنتِكم، مع إضمارِ العَداوةِ والبُغضِ لهم، وعدمِ مُشايعتِهم على كُفرِهم، أو إعانتِهم على المسلمين.

ثمَّ هدَّد وتوعَّد مَن فعَل ما نَهى عنه فقال:

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ

أي: ويُخوِّفُكم اللهُ من نفسِه؛ فلا تَتعرَّضوا لسَخطِه وعذابِه بركوبِ مَعاصيه، أو موالاةِ أعدائِه.

وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ

أي: إليه المرجعُ بعدَ الموت، فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله؛ فإيَّاكم أنْ تفعلوا مِن الأعمالِ ما تَستحقُّون به العقوبةَ، واعمَلوا ما به يَحصُل الأجرُ والمثوبة.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (29-30)



قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)



تفسير الآيتين:

لَمَّا نَهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتِّخاذ الكافِرين أولياءَ ظاهرًا وباطنًا، واستَثْنى منه التَّقيَّةَ في الظَّاهر، أتْبَع ذلك بالوعيدِ على أنْ يَصيرَ الباطنُ موافقًا للظَّاهر في وقت التَّقيَّة؛ وذلك لأنَّ مَن أَقْدَم عند التَّقيَّةِ على إظهارِ الموالاة، فقد يصيرُ إقدامُه على ذلك الفعلِ بحسَب الظَّاهر سببًا لحصولِ تلك الموالاةِ في الباطن؛ فلا جَرَم بَيَّن تعالى أنَّه عالمٌ بالبواطن كعِلْمِه بالظَّواهر، فيعلم العبدُ أنَّه لا بدَّ أنْ يجازيَه على كلِّ ما عزَم عليه في قلبه؛ لذا قال:

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (29)

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ

أي: قلْ- يا محمَّدُ-: إنْ تُخفوا ما في قلوبِكم وضمائرِكم- من الخيرِ أو الشَّرِّ، أو الولايةِ أو العَداوةِ وغير ذلك- أو تُظهروه، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَعلمُه ويُجازيكم عليه.

وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: وقُلْ لهم أيضًا: إنَّ الله يَعلمُ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض، لا يغيبُ عنه شيءٌ.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أي: واللهُ قادرٌ على كلِّ شيء؛ فقُدرتُه نافذة، ولا يُعجِزه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، ولكمالِ عِلمه وكمالِ قُدرته إذا أراد معاجلةَ أحدٍ بعقوبة، فلن يُفلِتَ من عِقابه، فاحذَروا.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (30)

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا

يومَ تجِد كلُّ نفْسٍ الَّذي عمِلَتْه من خيرٍ- سواء كان قليلًا أو كثيرًا- قد أُحضِر كاملًا موفَّرًا.

كما قال الله تعالى: وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا [الكهف: 49].

وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا

أي: والَّذي عمِلَتْه كلُّ نفْس من سوء- قلَّ أو كثُر- تُحبُّ وتتمنَّى لو أنَّ بينها وبينه مسافةً بعيدةً، أو زمانًا طويلًا متأخِّرًا.

ثمَّ قال تعالى مؤكِّدًا ومهدِّدًا ومتوعِّدًا:

وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ

أي: ويُخوِّفُكم الله مِن نفْسِه.

وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ

أي: واللهُ رحيمٌ بخَلْقه أشدَّ الرَّحمةِ وأرقَّها؛ لذا حذَّرهم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (31-32)



قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)



تفسير الآيتين:

لَمَّا نهى الله سبحانه وتعالى عن مُوالاةِ الكفَّارِ ظاهرًا وباطنًا، وكان الإنسانُ ربَّما والَى الكافرَ وهو يدَّعي محبَّةَ الله سبحانه وتعالى، وختَم برأفتِه سبحانه وتعالى بعبادِه، وكانت الرَّأفةُ قد تكونُ عن المحبَّة الموجبة للقُرب، فكان الإخبارُ بها ربَّما دعا إلى الاتِّكال، ووقَع لأجْلِه الاشتباهُ في الحِزبَينِ، جعَل لذلك سبحانه وتعالى علامةً، فقال:

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31)

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

أي: قل- يا محمَّدُ- لِمَن يدَّعون محبَّةَ الله:

إنْ كنتُم تحبُّون الله كما ادَّعيتم فاتَّبِعوني بتصديق خبَري وطاعةِ أمْري والاقتداءِ بي.

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

أي: إنَّكم إنِ اتَّبعتموني يُحبَّكم الله، ويَغفِرْ لكم جميعَ ذُنوبِكم،

فَمَن كَانَ محبًّا لله لزِم أنْ يتَّبع الرَّسُول،

ومَن اتَّبع الرَّسولَ فقد فعَل ما يُحبُّه الله، فيُحِبه الله.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

واللهُ غفورٌ لذنوبِ عِبادِه؛ يسترُها عليهم، ويتجاوزُ عنها، رحيمٌ بهم؛ يَعطِفُ عليهم، ويُحسِن إليهم.

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (32)

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ-: أطيعوا اللهَ والرَّسول محمدًا - ﷺ -؛ وذلك بامتثالِ الأمْر، واجتنابِ النَّهي.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ

أي: فإنْ أعرَضوا عن الطَّاعة، ولم يَنقادوا، فهذا كُفرٌ منهم، واللهُ عزَّ وجلَّ لا يحبُّ الكافرين، بل يُبغِضهم ولا يغفِرُ لهم.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (33-37)

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ
بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34) إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا
فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي
سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا
الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ
مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)

تفسير الآيات:

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (33)

أي: إنَّ اللهَ اختار واجتبى آدمَ عليه السَّلام، فخلَقه بيدِه، ونفَخ فيه من رُوحِه، وأَسجدَ له ملائكته، وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيء، إلى غيرِ ذلك، واختار نوحًا عليه السَّلام، فكان أوَّلَ رسولٍ بعَثه، وجعَل ذُرِّيَّته هم الباقين، واختار إبراهيمَ عليه السَّلام- خليلَ الله- وقومَه، ومنهم الأنبياء الَّذين مِن بعده؛ فهم مِن ذرِّيَّته، ومنهم محمَّد - ﷺ -، واختار عِمْرانَ والدَ مريم، وزوجتَه أمَّ مريم، ومريمَ وابنها عيسى عليه السَّلام؛ اختارَهم وفضَّلهم على العالَمين.

قال الله تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ [الحديد: 26]،

وقال: فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا [النساء: 54].

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (34)

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ

أي: نَسْلًا بعضُه من بعض، في وراثةِ الاصطفاءِ والإيمانِ، والطَّاعةِ والموالاةِ في الدِّين، والتَّناصُر على الحقِّ.

كما قال تعالى لَمَّا ذكَر جملةً من الأنبياء الدَّاخلين في ضِمن هذه البيوتِ الكبار: وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ [الأنعام: 87].

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أي: واللهُ يعلَمُ من يستحقُّ الاصطفاءَ فيَصطفيه؛ فهو يسمَعُ أقوالهم، ويَعلَم أحوالَهم، وما في ضَمائرِهم؛ فلذا فضَّلهم واختارَهم.

وهذا كقوله: اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ، وقوله: وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (35)

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا

أي: واذكُرْ إذ قالت امرأةُ عِمْران: يا ربِّ، إنِّي أوجبتُ على نفْسي أنْ أَجعلَ ما في بطني مفرَّغًا لعبادتك، حبيسًا على خِدمةِ بيتِ المقدس.

فَتَقَبَّلْ مِنِّي

أي: فتقبَّلْ منِّي يا ربِّ، ما نذرتُ لك.

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

أي: إنَّك أنت السَّميعُ لقولي ودُعائي، المستجيبُ له، العليمُ بنيَّتي وقَصْدي.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (36)

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى

أي: فلمَّا ولَدَتِ امرأةُ عِمْران إذَا بالمولودِ أُنثى، فاعتذرتْ قائلةً: يا ربِّ، إنِّي ولَدْتُها أنثى.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ

أي: واللهُ أعلمُ مِن كلِّ أحدٍ بما وضعَتْه.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَضَعَتْ قراءتان:

1- (وَضَعْتُ) وتَعني أنَّه من قولِ أمِّ مريمَ وفِعلها.

2- (وَضَعَتْ) وتَعني الإخبارَ مِن الله عزَّ وجلَّ عن فِعلها.

وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى

أي: وليس الذَّكَرُ كالأنثى في القوَّة والجَلَدِ على خِدمةِ بيت المقدس، بالإضافةِ إلى ما يَعتري الأُنثى من الحيضِ.

وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ

أي: وإنِّي جعلتُ اسمَها مريمَ، فأَطلقتْ عليها هذا الاسمَ يومَ ولادتِها.

وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ

أي: وإنِّي أُجيرُها وأولادَها- أي: عيسى عليه السَّلام- بكَ وحْدَك من الشَّيطانِ المبعَدِ المطرودِ.

وقد استجابَ اللهُ تعالى لها.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ

أي: قَبِل اللهُ مريمَ قَبولًا حسَنًا، ورضِي نَذْرَ أمِّها وإنْ كان أنثى، فيسَّرها لليُسرى، وسلَكَ بها طريقَ السُّعداء.

وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا

أي: أنشأَها نشأةً حسنةً في بَدَنِها، وخِلْقتِها، ودِينها، وأخلاقِها.

وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

أي: جعَل اللهُ تعالى نَبيَّه زكريَّا عليه السَّلام كافلًا وضامنًا لها؛ وذلك بعدَ أنْ وقَع الخلافُ فيمَن يَكفُل مريم، فاقْترَعوا، فكانتْ من نصيبِ زكريَّا عليه السَّلام؛ كما قال تعالى: وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ [آل عمران: 44].

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله: وَكَفَّلَهَا قراءتان:

1- (وَكَفَّلَهَا) أي: ضَمَّها اللهُ تعالى إلى زكريَّا.

2- (وَكَفَلَهَا) أي: ضَمَّها زكريَّا إليه.

كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا

أي: كلَّما دخَلَ عليها زكريَّا عليه السَّلام مكانَ عِبادتها، وجَد عندها طعامًا تتغذَّى به، بلا كَسبٍ ولا تعبٍ؛ فهي منقطعةٌ للعبادة، فيتعجَّبُ ويسألُها عن ذلك؛ كما قال تعالى:

قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا

أي: قال زكريَّا لمريم: يا مريمُ، مِن أينَ لك هذا الرِّزق؟

قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: إنَّ هذا الرِّزق مِن عندِ الله؛ فهو الَّذي ساقه إليَّ ورزَقَنِيه.

إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

أي: إنَّ اللهَ يُعطي الرِّزقَ مَن يشاء من غيرِ إحصاءٍ ولا حصرٍ ولا عددٍ يُحاسِب عليه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (38-41)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ
وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ
(40)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا
وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)

تفسير الآيات:

لَمَّا رأى زكريَّا عليه السَّلام ما منَّ الله سبحانه به على مريمَ، وما أكرمَها به من رِزقه الهَنِيء الَّذي أتاها بغيرِ سعيٍ منها ولا كسبٍ، طمعتْ نفسُه بالولدِ مع كونه شيخًا كبيرًا قد وهَن عَظمُه، واشتعلَ رأسه شيبًا، وكانتِ امرأتُه مع ذلك كبيرةً وعاقرًا؛ قال تعالى:

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (38)

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ

أي: في ذلك المكانِ الَّذي وجَدَ فيه زكريَّا ذلك الرِّزقَ عند مريم، سأل ربَّه وناداه نداءً خفيًّا.

قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً

أي: قال: يا ربِّ، أَعطِني من عندك ولدًا صالحًا مباركًا.

إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ

أي: ذو سَمعٍ لدعاءِ مَن دعاك، ومجيبٌ له.

قال الله تعالى: ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا [مريم: 2- 6].

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (39)

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ

أي: فاستجاب اللهُ دُعاءَه، وأرسل إليه جماعةً من الملائكة، تُبشِّره بذلك، فنادتْه حالَ قيامِه مُصلِّيًا في مكان عبادتِه.

أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى

أي: إنَّ الله يبشِّرُك يا زكريَّا بمولودٍ مِن صُلبك اسمُه يحيى.

مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ

أي: مُصدِّقًا بعيسى عليه السَّلام.

كما قال تعالى: إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ... [النساء: 171]، وقال: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ [آل عمران: 45].

وَسَيِّدًا

أي: يسُودُ قومَه، ويَفُوقهم بخِصالِه الجَميلةِ، وعِلمه ودِينه.

وَحَصُورًا

أي: ممتنِعًا من قُربِ النِّساء، وعن كلِّ ما تَشتهيه النفوسُ عادةً ممَّا أحلَّ الله؛ لانقطاعِه لعبادةِ الله.

وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ

أي: نبيًّا كائنًا من جملة الصَّالحين، وهذه بِشارةٌ ثانيةٌ بنبوَّةِ يحيى عليه السَّلام، وهي أعْلى مِن البِشارةِ الأُولى بولادتِه.

لمَّا سمِع زكريَّا عليه السَّلام البِشارةَ بوجود الولد، أخَذ يتعجَّبُ من كمال قدرةِ الله.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (40)

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، كيف يكون لي غلامٌ؟.

وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ

أي: وقد كبِرْتُ وبلغتُ سنًّا مَن بلغها لم يولد له.

وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ

أي: وامرأتي لا تلِدُ.

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

أي: مِثْلَ ذلك الفعلِ، وهو إيجادُ الولدِ مِن الشَّيخ الكبير والمرأة العاقر يفعل اللَّه ما يشاء مِن الأفعال العجيبة.

لمَّا سمِع زكريَّا عليه السَّلام البِشارةَ بوجود الولد، أخَذ يتعجَّبُ من كمال قدرةِ الله.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (41)

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامة تدلُّ على وجود الولَد منِّي.

قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا

أي: قال: العلامةُ الَّتي تدلُّك، أنَّك ينحبِسُ لسانُك، فلا تستطيع النُّطقَ أو مخاطَبةَ النَّاس إلَّا إشارة، مدَّةَ ثلاثة أيَّامٍ بلياليها، مع كونك سويًّا صحيحًا.

وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا

أي: وأكثِرْ من ذِكر ربِّك؛ فإنك لا تُمنَعُ ذِكرَه.

وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ

أي: وعظِّم ربَّك بعبادته، منزِّهًا له عمَّا لا يليق به آخرَ النَّهار وأوَّله.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (42-44)



وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)



تفسير الآيات:

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42)

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ

أي: واذكُرْ إذ قالتِ الملائكة: يا مريمُ.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

أي: إنَّ اللهَ اختارَكِ وطهَّرَكِ في خُلُقِكِ ودِينكِ.

وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ

أي: اختارَكِ على نِساءِ العالَمين وفضَّلكِ عليهنَّ.

لَمَّا كان في هذا الاصطفاءِ والتَّطهير لمريمَ من النِّعمة العظيمة، والمِنحةِ الجَسيمةِ، ما يُوجِب لها القيامَ بشُكرها، قالت لها الملائكةُ:

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (43)

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ

أي: قالت الملائكةُ أيضًا: يا مريمُ، أخلِصي الطَّاعة لربِّكِ وحده، وداومي على عبادتِه.

وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ

أي: وصَلِّي، وكوني مع الخاشعين العابدين المصلِّين.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (44)

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ

أي: هذه الأخبارُ الَّتي تَقدَّم ذِكرُها عن امرأةِ عِمْران وابنتِها مريم وزكريَّا وابنه يحيى عليهما السَّلام من أخبارِ القوم الخفيَّة، الَّتي غابتْ عنكَ وعن قومِك فلم تَطَّلعوا عليها، نقصُّها عليك ونخبرُك بها؛ دليلًا على نُبوَّتِك، وتحقيقًا لصِدْقِك.

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ

أي: وما كنتَ- يا محمَّدُ- عند زكريَّا وقومِه حين اقترَعوا في شأنِ مريمَ بإلقاء أقلامِهم؛ ليَنظروا أيُّهم يَكفُلُها ويَضمُّها إليه.

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

أي: وما كُنتَ عندَهم حالَ اختصامِهم أيُّهم أحقُّ بها، فلولا أنَّ الله أَوحى إليك ذلك لَمَا كان لك علمٌ به.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (45-51)

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (48)

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50)

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)



تفسير الآيات:

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (45)

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ

أي: واذكُرْ إذ قالتِ الملائكةُ: يا مريمُ، إنَّ الله يُبشِّرُك بولد يكونُ وجودُه بكلمةٍ صادرةٍ من الله، وهي قوله: (كُنْ) فيكون.

قال الله تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ [آل عمران: 59].

اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ

أي: يَشتهِرُ بأنَّ اسمَه المسيحُ عيسى ابنُ مريم، نِسبةً لأمِّه؛ لأنَّه لا أبَ له، فنفَى الله بذلك عنه ما أضافَ إليه النَّصارى، مِن إضافتِهم بنوَّتَه إليه عزَّ وجلَّ.

وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أي: حالَ كونه ذا وجاهةٍ ومنزلةٍ عالية ومكانةٍ عند الله: في الدُّنيا؛ لكونِه أحدَ المرسَلين مِن أُولي العزم الَّذين نَشَر الله ذِكرَهم، وفي الآخرة لِمَا له من الشَّفاعة عند الله، والدَّرجات العُليا في الجنة.

وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ

أي: من المقرَّبين إلى الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخِرة.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (46)

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

أي: ويُكلِّمُ النَّاس طفلًا في الفِراش؛ آيةً من الله، وتبرئةً لأمِّه، ويكلِّمهم أيضًا بالغًا كبيرًا حال كهولتِه، تكليمَ المرسَلين، بعد أنْ يوحيَ اللهُ إليه.

كما قال الله تعالى: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا [مريم: 29-33].

وَمِنَ الصَّالِحِينَ

أي: وهو مِنَ الصَّالحين في قولِه وعمَلِه.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (47)

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ

أي: قالت مريمُ: يا ربِّ، كيف يوجَدُ هذا الولد منِّي ولم يُجامِعْني بَشرٌ لا بنِكاحٍ ولا بزنًا.

قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

أي: قال: مِثْلَ ذلك الخَلْقِ- وهو إيجادُ الولد بدون مسيسٍ- يَخلُقُ اللهُ ما يشاء، ويصنَعُ ما يُريد، فلا يُعجِزه شيءٌ.

إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

أي: إذا أراد إيجادَ شيء، فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيوجَدُ كما شاء عَقِيبَ الأمر، فلا يتأخَّرُ شيئًا.

كما قال تعالى: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: 40].

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ

أي: ويُعلِّمُ الله عزَّ وجلَّ عيسى عليه السَّلام الكتابةَ، ويُعلِّمه السُّنَّة الَّتي يُوحيها إليه في غير كِتابٍ من الشَّرائع ونحوها، ويُعلِّمه التَّوراةَ الَّتي أنزلها على موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي يُنزِّله عليه.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (49)

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

أي: ويَجعلُه رسولًا يُرسلُه إلى بَنِي إسرائيلَ.

قائلًا لهم:

أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ:

أي: أنِّي قد جئتُكم بعلامةٍ من ربِّكم، تحقِّقُ قولي، وتصدِّقُ خبَري في كوني مُرسَلًا مِن الله إليكم.

ثم بَيَّن هذه الآيةَ الَّتي جاءَ بها قائلًا:

أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ

أي: أُصوِّرُ لكم من الطِّين شيئًا مقدَّرًا على شكلِ الطَّير، فأنفُخُ فيه فيكون طيرًا له رُوح، يَطيرُ بعِلم الله وتمكينِه لي.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى: أَنِّي أَخْلُقُ قراءتان:

1- إِنِّي بالكَسرِ، وذلك مِن أوجه، منها: على إضمارِ القولِ، أي: فقلت: إِنِّي أَخلُق. ومنها: أنَّه على الاستئناف. أو على التفسير، فَسَّر بهذه الجملةِ قولَه: بِآيَةٍ كأنَّ قائِلًا قال: وما الآيةُ؟ فقال هذا الكلامَ.

2- أَنِّي بالفتحِ على أنَّهَا بدلٌ من قَوْله قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فالمعنى: بأَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ. أو أنها خَبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، تقديرُه: هي أنِّي أَخلُق. وقيل غير ذلك.

ب- وفي قوله تعالى: كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ثلاثُ قراءات:

1-... كَهَيْئَةِ الطَّائرِ... فَيَكُونُ طَائرًا، أي: إنَّه كان يَخلُق واحدًا ثمَّ واحدًا.

2-... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَائرًا أي: تُقدِّر هيئةً كهيئةِ الطَّير، فتكونُ الهيئةُ طائرًا، أي: كلُّ هَيئةٍ تُقدِّرها تكونُ واحدًا مِن الطَّير.

3-... كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ... فَيَكُونُ طَيْرًا، أي: إنَّ الله تعالى أذِن له أن يَخلُقَ طيرًا كثيرةً، ولم يكُن يَخلُقُ واحدًا فقط.

وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ

أي: وأَشفي مَن يُولد أعْمَى، ومَن به داءُ البرصِ الَّذي يُصيب الجِلدَ، وأُحيي الموتى بإذنِ الله.

وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ

أي: وأُخبِرُكم بما تأكلونَه وما تدَّخِرونه في بُيوتِكم فلا تأكلونه، دون أنْ أُعاينَ ذلك، أو يأتيَني أحدٌ بخبَرِه.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

أي: إنَّ في إبراءِ الأَكْمَهِ والأبرصِ وإحياءِ الموتى وغيرِ ذلك ممَّا سبق ذِكره، لآيةً تدلُّ على صِدقي، وتَهديكم، وتَنفعُكم، إنْ كنتم مؤمنين، وإلَّا فليستْ هاديةً ولا نافعةً لكم.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (50)

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ

أي: وجئتُكم مُقررًا ومخبرًا بصِدْق ما قبلي من التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى عليه السَّلام.

وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ

أي: وجئتُكم أيضًا لأحلَّ لكم بعضَ الَّذي حُرِّم عليكم.

وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: وجئتُكم بحجَّةٍ ودلالةٍ على صِدقي فيما أقولُ لكم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ

أي: فاتَّقوا الله بفِعلِ ما أمَر به، واجتنابِ ما نَهى عنه، وأطِيعوني فيما دعوتُكم إليه.

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (51)

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ

أي: إنَّ اللهَ ربِّي وربُّكم، وخالقُنا، ومالكُنا ورازقُنا؛ لذا فاعبُدوه وحده؛ فاستدلَّ بتوحيدِ الرُّبوبيَّة على توحيدِ الألوهيَّة؛ لأنَّه يستلزمُه.

كما قال تعالى: مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ [المائدة: 117].

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

أي: ما سبَق ذِكرُه- من تقوى الله، وطاعة رسولِه، وتحقيق العبادة له- طريقٌ مستقيمٌ لا اعوجاجَ فيه، مُوصلٌ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه.

سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (52–58)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56)

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

تفسير الآيات:

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (52)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

أي: فلمَّا وجَد عيسى عليه السَّلام من بني إسرائيل- الَّذين أُرسِل إليهم- التَّكذيبَ به، ورأى الإعراضَ عنه والجَحْد لنبوَّته، والصَّدَّ عن دعوتِه، قال: مَن أعواني في الدَّعوة إلى اللهِ ونُصرةِ دِينه، ومَن يُضيفُ نُصرتَه ويَضمُّها إلى نُصرةِ الله لي؟

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

أي: قال الأنصارُ مِن أصحابِ عيسى عليه السَّلام: نحن أنصارُ دِين الله.

آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

أي: آمنَّا بالله، واشهَدْ- يا عيسى- بأنَّنا مسلِمون.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (53)

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ

أي: قال الحواريُّون أيضًا: يا ربَّنا، آمنَّا بالإنجيل الَّذي أَنزلتَ على عيسى عليه السَّلام.

وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ

أي: واتَّبعنا رسولَك عيسى عليه السَّلام.

فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ

أي: أَثبِتْ أسماءَنا مع أسماء الَّذين شهِدوا لك بالوَحْدانيَّة، ولرُسلِك بالصِّدق، ولدِينك بأنَّه الحقُّ، واتَّبَعوا أمرَك ونهيَك- ومنهم أمَّةُ محمَّد - ﷺ - فاجعَلْنا في عِدادِهم ومعهم؛ لنفوزَ بمِثْلِ ما فازوا به.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (54)

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ

أي: ومكَر الَّذين كفَروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السَّلام، فحاوَلوا قَتْلَه مُتحيِّلين على ذلك، ومكَر اللهُ بهم؛ فألْقى شَبَهَ عيسى عليه السَّلام على رَجُلٍ آخرَ، فأَخَذوه وقتَلوه، ظنًّا منهم أنَّه عيسى عليه السَّلام.

وبيَّن اللهُ تعالى مكرَهم في قوله: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ [النساء: 157]، وبيَّن مكرَه بهم في قوله: وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ [النساء: 157]، وقوله: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ [النساء: 157-158] الآيةَ.

وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ

أي: أقواهم في المكرِ بمن يستحقُّ المكرَ، وأعلمُ بالأسبابِ الَّتي تُحيطُ بأعدائِه، وأشدُّ بطشًا، وأنفَذُ إرادةً.

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (55)

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

أي: واذكُرْ إذ قال اللهُ لعيسى عليه السَّلام: يا عيسى، إنِّي مُتوفِّيك وفاةَ نومٍ.

كما في قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ [الأنعام: 60]، وقوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا [الزمر: 42].

وَرَافِعُكَ إِلَيَّ

أي: ورافِعُك برُوحِك وبَدَنِك إلى السَّماء.

كما قال تعالى: وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا [النساء: 157-159].

وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: مخلِّصُك ممَّن كفرَ بك، ومُخرِجك من بينهم، برفعي إيَّاك إلى السَّماء.

كما قال تعالى: وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ [المائدة: 110].

وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أي: وجاعلٌ أتباعَك يا عيسى فوق الَّذين كفروا، بالحُجَّةِ والبُرهان، وبالعزَّة والغَلَبة.

ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ

أي: ثمَّ يومَ القيامة إليَّ مصيركم- أيُّها المختلِفون في عيسى عليه السَّلام جميعًا- فأَقضِي بينكم فيما كُنتُم تَختلفونَ فيه مِن أمْرِه عليه السَّلام.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمَه فيهم وما يَفعلُه بهم فقال:

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (56)

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أي: فأمَّا الَّذين كفروا، فإنِّي أُعذِّبهم عذابًا شديدًا قويًّا في الدُّنيا؛ بالقتلِ والسَّبيِ والذِّلَّة والمسكنةِ، وأخْذِ الأموال، وما يَحصُل لقلوبهم من الضِّيقِ والضَّنك، والقلَقِ والحسرة، وغير ذلك، وفي الآخرةِ بنارِ جهنَّم.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

أي: وليس لهم أحدٌ يَدفعُ عنهم العذابَ، ولا يمنَعُ عنهم أليمَ العِقاب، لا من الأهلِ، أو الشُّفعاء، أو الأصدقاء، أو غيرِهم.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (57)

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ

أي: وأمَّا الَّذين آمنوا وعمِلوا الصَّالحات، فيُتِمُّ لهم جزاءَهم من الثَّواب دون نَقصٍ أو بَخْسٍ في الدُّنيا والآخرة، في الدُّنيا بالنَّصر والظَّفَر، والإعزاز،

والحياة الطَّيِّبة، وحُسن الذِّكر، وغير ذلك، وفي الآخِرة بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيم.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

أي: واللهُ لا يحبُّ مَن ظلَم غيرَه حقًّا له، أو وضَع شيئًا في غير موضعِه، بل يُبغِضهم ويُحِلُّ عليهم غضَبَه وعقابه، فنَفَى اللهُ بذلك عن نفْسِه أنْ يَظلِمَ أحَدًا مِن خلقِه؛ لأنَّه إذا كان لا يحبُّ الظَّالِمين، فكيف يظلِمُ خَلْقَه؟!

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (58)

أي: هذه الأنباءُ الَّتي أخبرَ اللهُ بها عن عيسى عليه السَّلام وأمِّه مريمَ، وما قصَّه اللهُ من قَصص نقرؤُها عليك- يا محمَّدُ- على لسان جِبريل عليه السَّلام، هذه الأنباءُ والأخبارُ من العلاماتِ والحُجَج الدَّالَّة على صِدقِك ونبوَّتِك، وهي أيضًا من القُرْآن ذي الحِكمةِ؛ فهو مُحكَم مُتقَنٌ وحاكمٌ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (59-63)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا

وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

تفسير الآيات:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (59)

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ

أي: إنَّ شَبَهَ عيسى في خَلْقِ اللهِ له من غيرِ أبٍ كشَبَهِ آدمَ.

خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ

أي: خلَقَ آدمَ من ترابٍ بلا أبٍ ولا أمٍّ، ثمَّ قال له: كُنْ، فكان، فليس خَلْقُ اللهِ عيسى بلا أبٍ بأعجَبَ مِن خَلْقِ آدمَ؛ فكيف يَستنكِرُ وجودَ عيسى من غيرِ أبٍ مَن يُقِرُّ بوجود آدمَ من غير أبٍ؟!

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (60)

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ

أي: هذا القولُ الَّذي أنبأتُك به مِن خبرِ عيسى هو الحقُّ مِن عند ربِّك.

فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ

أي: فلا تكُنْ من الشَّاكِّين في شيءٍ ممَّا أخبرك به ربُّك.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (61)

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ

أي: فمَن جادَلك- يا محمَّدُ- في المسيحِ عيسى ابنِ مريم.

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

أي: مِن بعدِ ما جاءَك من العِلم الَّذي قد بيَّنْتُه لك أنَّ عيسى عليه السَّلام عبدُ اللهِ ورسولُه.

فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ

أي: فقُلْ لهم: هلمُّوا وأقبِلوا، ولندعُ أبناءَنا وأبناءَكم، وزوجاتِنا وزوجاتِكم، وإيَّانا وإيَّاكم.

ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ

أي: ثمَّ نلتعِنْ فنجعَلْ لَعْنَةَ اللهِ وعقوبتَه على الكاذِبينَ منَّا ومنكم.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (62)

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ

أي: إنَّ هذا الَّذي قصَصْناه عليك من أمرِ عيسى عليه السَّلام، وأنَّه عبدٌ لله ورسوله، هو القَصَصُ الحقُّ، والصِّدقُ، وما خالَفه فهو باطلٌ.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ

أي: وما من معبود بحقٍّ إلَّا اللهُ؛ فهو الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له.

وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

أي: وإنَّ اللهَ هو الَّذي لا يُغلَب؛ فهو الَّذي قهَر كلَّ شيءٍ وخضع له، ذو الحكمةِ فهو الحاكمُ، ولا حاكمَ غيره، والمُحكِم أي المُتقِنُ لِما حكَم به.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (63)

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ

أي: فإنْ أعرَضوا عن الإقرار بالتَّوحيد، وأنَّ عيسى عبدُ الله ورسولُه، وعدَلوا عن الحقِّ إلى الباطل، فهُمُ المفسِدون، واللهُ عليمٌ بهم، ويُجازيهم على ذلك شرَّ الجزاء، ويُعاقبُهم أشدَّ العُقوبة.



سُورةُ آل عِمْران

الآيتان (64-68)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ **(64)**

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ **(65)** هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ **(66)**

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ **(67)**

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ **(68)**

تفسير الآيات:

لَمَّا نَكَصَ أهلُ الكتاب عن المباهلة بعد أنْ أَوْرَدَ عليهم أنواع الحُجج فانقطعوا، فلم تبقَ لهم شُبهةٌ، وقَبِلوا الصَّغارَ والجزية، وكان - ﷺ - حريصًا على هداية الخَلق- أمَره الله تعالى أن يقومَ بتكرير دَعوتهم، وإرشادِهم بطريقٍ أخفَّ ممَّا مضى، بأنْ يُؤْنِسَهم فيما يدعوهم إليه بالمؤاساةِ، فيدعو دُعاءً يشملُ المحاجِّين من النَّصارى وغيرِهم- ممَّن له كتابٌ من اليهود وغيرهم- إلى الكلمةِ الَّتي قامت البراهين على حقيَّتها، ونهضت الدَّلائل على صِدقها، على وجهٍ يتضمَّن نفْيَ ما قد يُتَخَيَّلُ من إرادة التفضُّل عليهم والاختصاصِ بأمرٍ دونهم؛ وذلك أنَّه بدأ بمباشرةِ ما دعاهم إليه، ورَضِيَ لهم ما رَضِيَ لنفْسه، وما اجتمعتْ عليه الكتُبُ، واتَّفقت عليه الرُّسلُ فقال تعالى:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (64)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

أي: قل- يا محمَّدُ- لأهل الكِتابِ من اليهود والنَّصارى: يا أهلَ الكتاب، هَلُمُّوا وأَقْبِلُوا إلى كلمةِ عدْل نستوي- نحن وأنتم- فيها.

ثمَّ فسَّر هذه الكلمةَ بقوله:

أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ

أي: نوحّد الله ونُفرِده بالعبادة.

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا

أي: لا نُشرِك بالله شيئًا؛ لا نبيًّا، ولا مَلَكًا، ولا وَلِيًّا، ولا صنمًا، ولا وَثَنًا، ولا حيوانًا، ولا جمادًا، ولا غير ذلك.

فهذه دعوةُ الرُّسل- كما قال الله تعالى: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ [الأنبياء: 25]، وقال أيضًا: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ.

وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

أي: ولا يُنْزِلُ بعضُنا بعضًا منزلةَ الرُّبوبيَّة؛ فيُعبد، أو يُسجَد له، أو يُطاع في تحليل ما حرَّم الله، أو تحليل ما أحلَّ الله.

كما قال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا [التوبة: 31].

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ

أي: فإنْ أعْرَضوا عن إجابة ما دُعُوا إليه فقولوا- أيُّها المؤمنون- لهؤلاء المعرِضين: اشهدوا أنَّنا مُستمرُّون على الإسلام، منقادون لشريعتِه، مقرُّون بتوحيد الله، مُخلِصون في عبادتِه.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (65)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ

أي: يا أهلَ الكتاب، من اليَهود والنَّصارى، لِمَ تجادلون وتخاصمون في إبراهيمَ خليلِ الرَّحمن، ويدَّعي كلُّ فريقٍ منكم أنَّه كان منهم ويَدِينُ دِينهم.

كما قال تعالى مُبَيِّنًا وجْهَ مُحاجَّتِهم في إبراهيم: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ، وكما قال: مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا.

ثمَّ يُقيمُ الحُجَّة الداحِضة لدعواهم، والدَّليل المبطِل لقولهم، فيقول:

وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ

أي: كيف تَدَّعُونَ- أيُّها اليهود- أنَّه كان يهوديًّا، وأيُّها النَّصارى- أنَّه كان نصرانيًّا، وما أُنْزِلَت التَّوراة ولا الإنجيل إلَّا بعد موته بزمن. واليهوديَّةُ ما حَدَثَتْ إلَّا بعد نزول التَّوراة، ولا حدَثت النصرانيَّة إلَّا بعد نزول الإنجيل؟!.

ولَمَّا كان الدَّليل عقليًّا، قال الله مُوَبِّخًا لهم:

أَفَلَا تَعْقِلُونَ

أي: أفلا تَعقِلون بُطْلانَ قولَكم؟! فلو عَقَلتم ما تقولون، لم تقولوا ذلك.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (66)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

أي: ها أنتُم- يا هؤلاء- جادلتُم وخاصَمتُم فيما لكم به عِلمٌ من أمْر دِينكم ممَّا وجدتموه في كُتُبكم.

فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

أي: فلِمَ تُجادلون وتُخاصِمون في الَّذي لا عِلمَ لكم به من أمْر إبراهيم وما كان عليه مِن الدِّين؟!

وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

أي: واللهُ يعلمُ ما غاب عنكم، ولم يَأتِكم عِلمُه عن طريقِ رُسله من أمْر إبراهيم عليه السَّلام وغيرِه من الأمور، وأنتُم لا تعلمونَ ما يَعلمُه اللهُ مِن هذا وغيرِه.

كما قال تعالى: أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ.

ثم يُقرِّر الله تعالى ما كان عليه إبراهيمُ عليه السَّلام من الدِّين، فيقول:

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (67)

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام يَهوديًّا على ملَّة اليهود، ولا نصرانيًّا على ملَّة النَّصارى.

وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

أي: ولكن كان إبراهيمُ عليه السَّلام مستقيمًا، مُتَّبِعًا لأمْر الله، مُخْلِصًا له، قد خشَع لله قلبُه، وانقادتْ له جوارحُه، والتزم بأحكامِه.

وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

أي: لم يكُن إبراهيمُ عليه السَّلام من المشركين، الَّذين يَعبُدون غيرَ الله من الأصنام وغيرِها.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (68)

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ

أي: إنَّ أحقَّ النَّاسِ بإبراهيمَ وولايتِه ونُصرتِه وأقربَهم إليه،

هم الَّذين اتَّبعوه على دِينِه وملَّته، وسلَكوا طريقَه.

وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

أي: ومحمَّد - ﷺ -، والَّذين آمنوا به من أصحابه ومَنْ بعدَهم.

وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ

أي: والله ناصرُ المؤمنين، ومُعِينُهم ومؤيِّدهم.

سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (69-71)

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)﴾

تفسير الآيات:

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (69)

يقول اللهُ تعالى محذِّرًا من مَكْرِ هذه الطَّائفة مِن أهل الكتابِ:

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ

أي: تمنَّتْ جماعةٌ من أهل التَّوراة مِن اليهودِ، وأهلِ الإنجيل مِن النَّصارى- أنْ يُخرجوكم من الهُدى إلى الضَّلال، ومِن الإسلامِ إلى الكفرِ.

كما في قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ [البقرة: 109].

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

أي: هم بذلك لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم؛ لأنَّهم ابتعدوا عن الإسلامِ، وانْشَغلوا بمحاولةِ إضلالِ المؤمنينَ عن طلبِ الهِداية.

وَمَا يَشْعُرُونَ

أي: وما يَدْرُون، ولا يَعلمون أنَّهم لا يُضِلُّون إلَّا أنفسَهم، وأنَّهم لا يَصِلون إلى إضلالِ المؤمنين.

ثم قال تعالى مُنْكِرًا عليهم:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (70)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

أي: يا أهلَ الكتاب، ما الَّذي دعاكم إلى الكُفر بالقرآن؟!

وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ

أي: وأنتم تَشهدون بصحَّةِ القرآن، وتعلمون صِدقَه، وأنَّه حقٌّ من عند ربِّكم.

فهم يَعلمون نعْتَ الرَّسولِ - ﷺ - الَّذي جاء في كتبهم وأنَّ ما جاء به حقٌّ، قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ [الأعراف: 157]، وقال تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ [البقرة: 146].

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (71)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ

أي: يا أهلَ الكتاب، لِمَ تَخْلِطون الحقَّ بالباطلِ حتَّى يلتبسَ أحدُهما بالآخر.

ثم ذكَر لازِمَ لَبْسِ الحقِّ بالباطِل، وهو كتمانُ الحقِّ، فقال:

وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ

أي: وتُخْفون الحقَّ، ومن ذلك كتمانُهم صفةَ محمَّدٍ - ﷺ - الموجودةَ في كتُبهم، ونبوَّتَه.

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

أي: وأنتُم تعلمون أنَّكم تَلْبِسون الحقَّ بالباطل، وأنَّ الَّذي تكتُمونَه من الحقِّ حقٌّ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (72-74)



وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72)

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)



تفسير الآيات:

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (72)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ

أي: وقالت طائفةٌ من أهل الكتاب من اليهود: أظهِروا الإيمانَ بما جاءَ به محمَّد - ﷺ -، وادْخُلوا في دِينه أوَّل النهار.

وَاكْفُرُوا آخِرَهُ

أي: إذا كان آخِرُ النهارِ اكفُروا بدِينهم.

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

أي: لعلَّهم يَرجعون عن دِينهم ويَتركونه؛ لأنَّه يُقال: لو كان هذا الدِّين صحيحًا ما خرَج منه مَنْ آمَن به مِن أهلِ الكِتاب.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (73)

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ

أي: وقالتْ هذه الطَّائفة أيضًا: ولا تُصدِّقوا ولا تَطمئنُّوا إلَّا لمن تَبِعَ دِينَكم، فكان يهوديًّا.

فأمَر الله نبيَّه أنْ يردَّ عليهم بهذه الجملةِ الاعتراضيَّة:

قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ

أي: قل- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ توفيقُ الله، والبيانَ بيانُه؛ فهو الَّذي يَهدي المؤمنين إلى الإيمانِ بما نزَّله على نبيِّه محمَّد - ﷺ -، وإنْ فعلتُم ما فعلتُم، فلن يَنفعَكم ذلك شيئًا.

ثم عادَ السِّياقُ إلى كلامِ اليهودِ بعضِهم لبعض:

أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ

أي: ولا تُصدِّقوا أن يُؤْتَى أحدٌ من البشرِ مِثلَ الَّذي أوتيتُم يا بني إسرائيل مِن العلمِ والحِكمةِ والكتابِ والفضائلِ والكراماتِ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: أَنْ يُؤْتَى قِراءتان:

1- (ءانْ يُؤْتَى) بالمدِّ في (ءان)، وهو استفهامٌ معناه الإنكار؛ وذلك أنَّ أحبارَ اليهود قالوا لِذَويهم: أيُؤتَى أحَدٌ مثلَ مَا أوتيتُم؟ أي: لا يُؤتى أحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ.

2- (أَنْ يُؤْتَى) من غير مدٍّ في (أنْ)، وهي المصدريَّة، والمعنى: ولا تُؤمنوا إلَّا لِمَن تبع دِينَكم ولا تُؤمنوا أنْ يُؤتَى أحدٌ مثلَ ما أوتيتم.

أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ

أي: ولا تُصدِّقوا أنَّ أحدًا يجادلكم عند ربِّكم؛ لأنَّكم أصحُّ منهم دِينًا، وأكرمُ على الله منهم.

قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: قلْ لهم- يا محمَّدُ-: إنَّ التوفيقَ للإيمانِ، والهدايةَ للإسلامِ، والإحسانِ بشتَّى أنواعِ الإحسانِ، يُعطيه اللهُ مَن أراد مِن عِبادِه،

وقد آتى الله هذه الأمَّةَ ما يَربو بكثيرٍ على الفضائلِ الَّتي آتاها بني إسرائيل.

وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ

أي: واللهُ ذو سَعةٍ بفضلِه على مَن يشاءُ،

ذو عِلمٍ بمَن يَستحقُّ الفضلَ، وهو له أهلٌ؛

فهو يُؤتي فضلَه عن عِلم وحِكمة سبحانه وتعالى.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (74)

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ

أي: يَخُصُّ بالنُّبوَّةِ والإسلامِ والقرآنِ مَن يشاء ممَّن هو أهل لذلك، وقد خَصَّ هذه الأمَّةَ ونبيَّها بما لا يُحَدُّ ولا يُوصَفُ من الفضل.

وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

أي: واللهُ صاحِبُ الإحسانِ الواسعِ الكثيرِ، الَّذي يَتفضَّلُ به على مَن أحبَّ مِن خلْقه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (75-76)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

تفسير الآيتين:

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75)

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ

أي: ومِن أهل الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْه- يا محمَّدُ- على المال الكثير يُؤَدِّه إليك، ويَرُدَّهُ دون نُقصانٍ أو تغيير، ولا يَخُنْكَ فيه، وما دونه يُؤَدِّيه من باب أَولى.

ثم ذكَر الله تعالى قِسمًا ثانيًا منهم، وهو الخائنُ الَّذي لا يُؤْتَمَنُ، فقال:

وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا

أي: ومِن أهلِ الكتاب الَّذي إنْ تَأْمَنْهُ على دِينار يَخُنْكَ فيه، فلا يُؤَدِّه إليك إلَّا ما دُمتَ عليه قائمًا؛ بالمطالبةِ، والاقتضاءِ، والملازمة، والإلحاح في استخلاصِ حقِّك وهو تاركُ أداء ما فوقه من باب أولى.

ثم بَيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ سببَ استحلالهم أموالَ المسلمين، وخيانتِهم بقوله:

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ

أي: ذلك الجُحودُ للحقّ، واستحلالُ الخيانة؛ بسببِ أنَّهم قالوا: لا حرجَ علينا ولا إثمَ فيما أَخَذْنا من أموالِ العرب وأَكَلْنا منها؛ فإنَّ الله أحلَّها لنا لأنَّهم على غير الحقِّ.

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

أي: ويقولون الكذبَ على الله بادِّعائهم أنَّه أَحَلَّ لهم خيانتَهم، وترْكَ قضائِهم، وليس ذلك عن جَهْلٍ، بل مع عِلمهم بأنَّهم يكذبون، فجَمعوا بيْن أَكْل الحرام، والكذب على الله بادِّعاء حِلِّهِ.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76)

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى

أي: ليس الأمْر كما يقولُ هؤلاء الكاذِبون على اللهِ مِن اليهود، من أنَّه ليس عليهم في أموال الأمِّيِّين حَرَجٌ ولا إثمٌ، ولكنَّ الَّذي أوْفَى بعهد الله منكم يا أهلَ الكتاب، الَّذي عاهدَكم عليه من الإيمانِ بمحمَّدٍ - ﷺ -، وصدَّق بما جاء به من الله، وأدَّى الأمانة إلى مَن ائتمنَه عليها، إلى غير ذلك، واتَّقى ما نهاه اللهُ عنه من الكُفرِ به وسائرِ معاصيه الَّتي حرَّمها عليه، وأطاعه واتَّبَعَ شريعتَه.

فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ

أي: فإنَّ الله يحبُّ الَّذين يَتَّقونه، فيخافون عقابَه، ويَحذَرون عذابه، باجتنابِ ما نهاهم عنه وحرَّمه عليهم، وطاعتِه فيما أمرَهم به.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (77–80)

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ

اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(78)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ

اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77)

سببُ النُّزول:

قال عبدُ اللهِ رضي اللهُ عنه: مَن حلَف على يمينٍ يستَحِقُّ بها مالًا، وهو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ. فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا- فقرَأ إلى- عَذَابٌ أَلِيمٌ. ثمَّ إنَّ الأشعَثَ بنَ قيسٍ خرَج إلينا فقال: ما يُحَدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ؟ قال: فحدَّثْناه، قال: فقال: صدَق، لفِيَّ واللهِ أُنزِلَتْ، كانتْ بيني وبين رجلٍ خُصومةٌ في بئرٍ، فاختصمْنا إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فقال رسولُ الله - ﷺ -: ((شاهِداك أو يمينُه)). قلتُ: إنَّه إذنْ يحلِفُ ولا يُبالي، فقال رسولُ الله - ﷺ -: ((مَن حلَف على يمينٍ يَستحِقُّ بها مالًا، هو فيها فاجِرٌ، لقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ)). فأنزَل اللهُ تصديقَ ذلك، ثمَّ اقترَأ هذه الآيَةَ: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا فقرَأ إلى عَذَابٌ أَلِيمٌ.[55]

---

(55) أخرجه البخاري (2515، 2516) واللفظ له، ومسلم (138) وفي روايةٍ: قالَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: ((مَن حَلَفَ على يمينٍ، وهوَ فاجِرٌ، لِيقْتَطِعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ، لَقِيَ اللهَ وهوَ عليه غضبانُ)). قال: فقال الأشعَثُ بنُ قيسٍ: فِيَّ واللهِ كانَ ذلكَ، كانَ بيني وبينَ رجلٍ من اليهودِ أرضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ لي رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: (أَلَكَ بَيِّنَةٌ)، قالَ: لا، قالَ: فقالَ لليَهوديِّ: (احْلِفْ)، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللهِ إذَنْ يَحْلِفُ ويَذْهَبُ

وورِدَ أيضًا عن عبدِ اللهِ بن أَبِي أَوْفَى رضِي اللهُ عنهما، أنَّ رجلًا أقامَ سِلْعةً، وهوَ في السُّوقِ، فحلَفَ باللهِ لقدْ أُعْطيَ بهَا ما لم يُعْطَ؛ ليوقِعَ فيها رجلًا من المسلمين، فنزلتْ: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا.(56)

ولا تعارُضَ بينهما؛ لاحتمالِ نُزولها في كلٍّ مِن القصَّتين إنْ تقارب الزمانُ، أو تكون نازلةً مرَّتيْن.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا

أي: إنَّ الَّذين يَستبدِلون بما عَهِدَ الله إليهم من الإيمانِ بمحمَّد - ﷺ -، وأداءِ الأمانة، ويَستبدلون بالحلفِ باللهِ كذبًا استحلالًا لِمَا حرَّم الله عليهم من أموال النَّاس، يَستبدلون بذلك ويأخذونَ به عِوَضًا قليلًا، وبدلًا يسيرًا خسيسًا من حُطام الدُّنيا، فينكُثون عهدَ الله، ويَحلِفون كذبًا من أجْل ذلك.

أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ

أي: الَّذين يَفعلون ذلك لا حظَّ لهم مِن الخيرِ يومَ القيامة، ولا نصيبَ لهم منه.

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ

أي: لا يُكلِّمهم اللهُ يومَ القِيامة تَكليمَ رضًا، أو كلامًا يَسرُّهم، ولكنَّه يُكلِّمهم تكليمَ إهانةٍ وغضبٍ وسَخَطٍ.

بمَالِي، قالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ تعَالى: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا إلى آخرِ الآيةِ أخرجه البخاري (2416، 2417)، واللفظ له، ومسلم (138).

(56) أخرجه البخاري (2088).

وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: ولا يَنظُر إليهم نظرَ رحمةٍ وعطفٍ ولا نَظرًا يَسُرُّهم.

وَلَا يُزَكِّيهِمْ

أي: ولا يُطَهِّرهم من ذُنوبهم وكُفرهم ممَّا تلوَّثوا به في الدُّنيا.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أي: ولهم عذابٌ مُؤلِمٌ موجِعٌ.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

(78)

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ

أي: وإنَّ من أهل الكتابِ جماعةً يَعطِفون ويُميلون ألسنتَهم بالكتاب؛ إمَّا بتحريفِ لفظِه، وإمَّا بتحريفِ معناه بتفسيرِه على غيرِ مرادِ الله.

لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ

أي: يَلْوُون ألسنتهم بالكتاب؛ لتظنُّوا أنَّ ما يُحَرِّفونه بكلامِهم من كتابِ الله المنزَّل.

وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ

أي: وما ذلك الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم من كتابِ الله.

وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: ويقولون عمَّا لَوَوْا به ألْسنتَهم من التحريفِ والكذبِ والباطلِ: هو ممَّا أنزلَه اللهُ على أنبيائِه.

وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: وما ذلك الَّذي لَوَوْا به ألسنتَهم فأحْدَثوه ممَّا أنزلَه اللهُ إلى أحدٍ من أنبيائه، ولكنَّه ممَّا أحْدَثوه من قِبَل أنفسِهم.

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

أي: ويتعمَّدون قولَ الكذبِ على الله، والإلحاقَ بكتابِ الله ما ليس منه وهم يَعلمون مِن أنفسِهم أنَّهم قد كذَبوا وافترَوْا في ذلك.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (79)

مَا كَانَ لِبَشَرٍ

أي: ما يَنبغي لأحدٍ من النَّاس.

أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

أي: يُنَزِّل اللهُ عليه كتابَه، ويُعلِّمه الحِكمةَ، ويُعطيه النُّبوَّة.

ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ

أي: ثمَّ يدْعو إلى عِبادةِ نفْسه، ويقول للنَّاس: اعبدوني من دونِ الله.

وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ

أي: ولكن، إذا آتاه اللهُ ذلك، فإنَّه يقولُ للنَّاس: كونوا عُلماءَ حُكماءَ حُلماءَ، مخلِصين للربِّ، مُتعبِّدين له، مُعَلِّمين للنَّاس، تُربُّونهم بصِغار العِلم قبلَ كِباره.

بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ

أي: بسببِ تَعليمِكم الكتابَ لغيرِكم الْمُتَضَمِّن لعِلمِكم.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: تُعَلِّمُونَ قراءتان:

1- (تُعَلِّمُونَ) من التعليمِ، وكلُّ مُعلِّمٍ عالمٌ بما يُعلِّم، وليس كلُّ عالمٍ بشيءٍ معلِّمًا، فهذا أبلغُ وأمدح.

2- (تَعْلَمُونَ) والمعنى: بعِلْمكم الكتابَ.

وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ

أي: بسببِ مُداومتِكم على قِراءتِه، وحِفظِ ألفاظِه.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (80)

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا

أي: وما كان له أيضًا أن يأمرَكم أن تتَّخذوا الملائكة ولا النَّبيِّين أربابًا تُعبَد من دون الله، فما يَنبغي له أنْ يأمرَكم بعبادةِ أحدٍ من الخَلقِ لا نبيٍّ مرسَل، ولا مَلَكٍ مقرَّبٍ.

أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

أي: فلا يُمكن أنْ يأمرَكم بالكفر بعد إذ أنتم مُنقادُون بالطاعةِ، مُتذلِّلون بالعبوديَّة لله، قد تقرَّر إسلامُكم وثَبَتَ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (81–82)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ **(81)**

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ **(82)**

تفسير الآيتين:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (81)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ.

أي: واذْكُر- يا محمَّدُ - حينَ أخَذَ اللهُ ميثاقَ جميعِ النَّبيّين وعَهْدَهم المؤكَّدَ.

لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ

أي: لَمَهْمَا أعطيتُكم- أيُّها النَّبيّون- من كتابٍ وحِكمةٍ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

أ- في قوله تعالى لَمَا قِراءتان:

1- (لِمَا) والمعنى: وإذ أخذ الله ميثاقَ النبيّين لِلَّذي آتيتُكم، واللَّام متعلِّقة بـ (أخذ الميثاق)، فالمعنى أخَذَ الميثاقَ لإيتائِه الكِتابَ والحِكمة.

2- (لَمَا) والمعنى: مهما آتيتُكم، على تأويلِ الجزاء، وجوابه: فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ.

ب- في قوله تعالى: آتَيْتُكُمْ قراءتان:

1- (آتَيْناكُمْ) بلفظ الجمْع، على معنى التعظيمِ لله تبارَك وتعالَى.

2- (آتَيْتُكُمْ) على معنى إخبارِ المتكلِّم بفِعله عن نَفْسِه.

ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ

أي: ثمَّ جاءَكم- أيُّها النَّبيّون- وجاء أُممَكم وأتْباعَكم رسولٌ يُصدِّق ما معكم من الكتُب، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم.

لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

أي: فعليكم أن تؤمنوا به وتصدِّقوه وتنصروه على أعدائه وتُعِينوه على نشْر رسالته. ولا يَحْمِلَنَّكم ما آتيتكم من كتاب وحِكمة على أن تَتركوا متابعتَه، أو تستغنوا بما آتيتكم عمَّا جاء به.

قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي

أي: اعترفتُم والتزمتُم بذلك الميثاقِ، وأخذتُم عهدي الثَّقيل، ومِيثاقي الشَّديد المؤكَّد، ووصيَّتي بالإيمانِ بهذا الرَّسول ونُصرته، وقَبِلتُم ذلك ورضيتُموه؟

قَالُوا أَقْرَرْنَا

أي: قالوا: اعترَفنا وقَبِلنا، والتَزمنا بأنْ نؤمِنَ به ونَنصُره.

قَالَ فَاشْهَدُوا

أي: قال اللهُ تعالى للأنبياءِ: فاشْهَدوا على أنفسِكم، وعلى أَتْباعِكم من الأُممِ بذلك.

وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ

أي: مِن الشَّاهدين عليكم وعلى أُممكم، وكفَى بالله شهيدًا.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (82)

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ

أي: فمَن تولَّى وأَعْرضَ بعد ذلك عن هذا العهدِ والميثاق، بالإيمانِ بمحمَّدٍ - ﷺ - واتِّباعِه ونُصْرتِه مِن أُممِ هؤلاءِ الأنبياء.

فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

أي: فأولئك هم الخارِجونَ مِن دِين الله، والمُعرِضون عن طاعتِه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (83-85)



أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)



تفسير الآيات:

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (83)

أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ

أي: أَيطلُبون دِينًا غيرَ دِينِ الله، وشريعةً غير شريعته؟

وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

أي: وله استسلمَ وانقادَ وخضَع وذلَّ مَن في السَّموات والأرض طائعين: كالملائكةِ والأنبياء والمؤمنين، ومُكرَهين: كالكفَّار؛ فهم تحتَ قَهْرِ الله وسُلطانِه العظيم، مستسلِمون لقضائِه وقدَره.

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [الرعد: 15]، وقال أيضًا: أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ [النحل: 48-49].

ثم يقولُ تعالى محذِّرًا لهم أن يَلقَى الإنسانُ ربَّه على غير ملَّة الإسلام:

وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ

أي: وإليه يَصيرون بعدَ مماتِهم، فيجازي كلًّا بعمله: المحسِنَ بإحسانِه، والمسِيءَ بإساءته.

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (84)

قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ

أي: فإنِ ابتغَوْا غيرَ دِينِ الله، فقل لهم- يا مُحمَّدُ-: آمنَّا بالله، والخِطاب للنبيِّ - ﷺ - وأمَّته، كما قال تعالى: قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا إلى قوله: وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُم [البقرة: 136].

وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

أي: وآمنَّا بما أُنزِل علينا مِن وحي اللهِ من القرآنِ ومن سُنَّة نبيِّه - ﷺ -.

فالسُّنَّة منزَّلة، كما قال تعالى: وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ [النِّساء: 113].

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ

أي: وقلْ: وآمنَّا أيضًا بما أُنزل الله على إبراهيمَ، وعلى ابنيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وعلى ابن إسحاقَ يعقوبَ، وعلى أنبياءِ بُطون بني إسرائيل المتشعِّبة من الأولاد الاثني عَشرَ ليعقوب، وهو إسرائيلُ.

وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة الأعلى أنَّ المنزَّل على إبراهيم عليه السَّلام إنَّما هو صُحف، وأنَّ مِن جملة ما في تلك الصُّحف: بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وذلك في قوله: إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [الأعلى: 16-19].

وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ

أي: وقل: آمنَّا أيضًا بالتَّوراة الَّتي أعطاها اللهُ موسى عليه السَّلام، والإنجيل الَّذي أعطاه الله عيسى عليه السَّلام، وما أيَّدهما الله به من الآيات، وبما أُعطِي جميع الأنبياء من ربِّهم.

لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

أي: لا نُفرِّق بين أحدٍ منهم وآخَرَ في الإيمان، فنؤمِن ببعضٍ ونكفُر ببعض، لكن نؤمِن بهم جميعًا، وهذا تعريضٌ باليهود والنَّصارى.

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

أي: ونحن للهِ مستسلِمون ظاهرًا وباطنًا، منقادُون بالطاعة، مُتذلِّلون بالعبوديَّة، لا نَدين بغير دِين الإسلام.

وقد جاءَ التصريحُ في القرآن بأنَّهم امتثلوا الأمْر في قوله سبحانه: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ [البقرة: 285]، وجاء ذِكرُ جزائِهم على ذلك في قوله: وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 152].

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (85)

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ

أي: ومَن يَطلُبْ دينًا غير الإسلام ليَدِينَ به، فلن يُقبَلَ منه ذلك الدِّينُ، وهو مردودٌ عليه.

وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ

أي: خسِرَ ثوابَ الله ونعيمَه، وصار إلى عذابِه، وبخَس نفْسَه حظَّها من رحمة الله؛ لأنَّه يَعملُ عملًا لن يُقبَل منه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (86-89)



كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87)

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)



تفسير الآيات:

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (86)

سبب النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: كانَ رجلٌ منَ الأنصارِ أسلمَ ثمَّ ارتدَّ ولحِقَ بالشِّرْكِ ثمَّ تندَّمَ، فأرسلَ إلى قومِهِ: سلوا لي رسولَ اللَّهِ، - ﷺ -، هل لي من توبةٍ؟ فجاءَ قومُهُ إلى رسولِ اللَّهِ - ﷺ - ، فقالوا: إنَّ فلانًا قد ندِمَ وإنَّهُ أمرنا أنَّ نسألَكَ: هل لَهُ من توبةٍ؟ فنزلَت: كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ إلى قولِهِ: غَفُورٌ رَحِيمٌ فأرسلَ إليهِ فأسلمَ.[57]

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

أي: لا يَهدي اللهُ قومًا ارتدُّوا بعدَ أنْ آمنوا؛ فكيف يستحقُّون الهدايةَ وقد اختاروا الكُفر والضَّلال بعدَ أن عَرَفوا الحقَّ، ودخلوا في الإيمان؟!

(57) أخرجه النسائي (4068) واللفظ له، وأحمد (2218)، وابن حبان (4477)، والحاكم (8092). صحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (105)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (48/4)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (4068)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (585) وقال: رجاله رجال الصحيح. وصحَّحه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (247/1).

وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ

أي: وبعدَ أنْ أقرُّوا أنَّ محمدًا - ﷺ - رسولُ الله إلى النَّاس حقًّا، صادقٌ فيما أخبر، عادلٌ فيما حَكم.

وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

أي: وجاءتْهم الحُجج من عند الله، وقامتْ عليهم الدلائلُ والبراهين الَّتي تُبيِّن صِدْقَ ما جاء به الرَّسول - ﷺ -.

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ لا يُوفِّق للحقِّ الَّذين ظلموا أنفسَهم فتركوا الحقَّ بعدما عرَفوه، واتَّبعوا الباطل مع عِلمهم ببُطلانه.

ثم أخبَرَ عن عقوبةِ هؤلاءِ المعانِدين الظالمين الدُّنيويَّة والأخرويَّة، فقال:

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (87)

أي: هؤلاء الَّذين كفَروا بعد إيمانِهم، وشهِدوا أنَّ الرَّسول حقٌّ وجاءَهم البيِّنات- ثوابهم ومكافأتُهم طَرْدُ الله لهم، وإبعادُهم من رحمتِه، ولعْنُ خلْقِه لهم من الملائكةِ والنَّاس جميعًا.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (88)

خَالِدِينَ فِيهَا

أي: ماكثِينَ في عُقوبةِ الله ولعنتِه.

لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ

أي: لا يُنْقَصون من العذابِ شيئًا، ولا تُهَوَّن عليهم العقوبة.

وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ

أي: ولا هم يُمْهَلون ولا يُؤخَّرون ولا يؤجَّلون.

ثم استثنى- جلَّ ثناؤه- الَّذين تابوا من هؤلاء الَّذين كفروا بعد إيمانهم، فقال:

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (89)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا

إلَّا الَّذين رجَعوا إلى الله، وراجَعوا الإيمانَ بالله ورسولِه من بعد كُفرِهم وارتدادِهم، وأصْلَحوا ما أَفْسَدوا، وعمِلوا الصَّالحات.

فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أي: فإنَّ اللهَ يَستُر عليهم الذُّنوب، ويتجاوزُ عنها، ويترُكُ العقوبةَ عليها، ويتعطَّف عليهم بالرَّحمة، الَّتي تَقتضي الإحسانَ والإنعام.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (90-91)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)

سببُ النُّزول:

عَنِ ابنِ عباسٍ أنَّ قومًا أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا ثمَّ أَسلَموا ثمَّ ارتدُّوا، فأرْسلوا إلى قومِهم يَسألَونَ لهم، فذَكروا ذلك لرسولِ الله – ﷺ –، فنزلَتْ هذه الآيةُ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ.[58]

تفسير الآيتين:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

أي: إنَّ الَّذين كفروا وارتدُّوا بعدَ إيمانهم.

ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ

أي: ثمَّ أقاموا على كُفرِهم واستمرُّوا عليه إلى الممات، وتمادَوْا في ضلالهم، وأخَّروا التوبةَ إلى حُضور الموت– فلن يَقبلَ اللهُ لهم توبةً.

كما قال تعالى: وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ [النساء: 18].

وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ

(58) أخرجَه البزار كما في ((تفسير ابن كثير)) (72/2). وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير.

وهؤلاء الَّذين كفروا بعدَ إيمانهم، ثمَّ ازدادوا كُفرًا، هم الَّذين ضلُّوا سبيل الحقِّ، وأخطؤوا الطَّريق القويم في الأقوال والأفعال.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

أي: إنَّ الَّذين كفَروا وماتوا على الكُفر.

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ

أي: مَن مات على الكُفرِ، فلن يَقبَل اللهُ منه شيئًا مِن عَمِله، ولو كان أنفقَ مِلْءَ الأرض ذهبًا تقرُّبًا إلى الله، وكذلك لو افتدَى نفْسَه من الله بمِلْءِ الأرض ذهبًا ما قَبِل الله منه.

وصرحَّ في مواضعَ أُخَرَ بأنَّه لو زِيد بمثلِه لا يُقبَل منه أيضًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ [المائدة: 36]، وبيَّن في مواضع أُخَر، أنَّه لا يُقبل فداءٌ في ذلك اليوم منهم بتاتًا كقوله: فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا [الحديد: 15].

أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هؤلاء الَّذين كفروا وماتوا وهم كُفَّار، لهم عند اللهِ في الآخِرة عذابٌ موجِعٌ مؤلِم.

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ

وليس لهم أحدٌ ينصُرهم ويَستنقذُهم من عذابِ الله، أو يُجيرُهم من أليمِ عِقابِه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآية (92)



لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92)



تفسير الآية:

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ

أي: لنْ تُدركوا الخيرَ الكثيرَ من اللهِ بتفضُّله عليكم، بإدخالِكم الجَنَّةَ، وصَرْفِ العذاب عنكم- الَّذي يُطلَب بطاعة الله وعبادته- حتَّى تُنفقوا وتتصدَّقوا من أموالِكم الَّتي تحبُّها قلوبُكم.

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ

أي: ومهما تُنفقوا من شيءٍ من أموالِكم، فإنَّ الله ذُو عِلم به، ويُجازي صاحبَه عليه جزاءَه في الآخِرة، ويُثيبه على ما أَنفَق.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (93-94)



كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93)

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)



تفسير الآيتين:

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93).

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوراة.

أي: إنَّ كلَّ أنواعِ الأطعمة كان أَكْلُها حلالًا لذُريَّة يعقوب عليه السَّلام، قبل نزولِ التَّوراة على موسى عليه السَّلام، عدا نوعًا واحدًا حرَّمه أبوهم يعقوبُ على نَفْسه، من غير أن يُحرِّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه، وهو لحومُ الإبل وألبانها، واتَّبعه اليهودُ على ذلك، فلمَّا نزلت التَّوراة بعدُ، حرَّم الله تعالى عليهم فيها ما شاء، وأحلَّ لهم فيها ما شاء وَفقِ حِكمته، فكان هذا نَسْخًا لِمَا سبَق مِن حِلِّه جميعَ الأطعمة لهم، سوى لحوم الإبل وألبانها.

قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوراة فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: جِيئوا بالتَّوراة فاقرؤوها علينا بأنفسكم؛ حتى لا تتَّهِمونا بأنَّا حذَفْنا أو أَضفْنا شيئًا، فاقرؤوها، إنْ كنتم مُحِقِّين في دعواكم.

وهذا خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ عن كَذِبهم؛ لأنَّهم لا يأتون أبدًا بما يَشهَد على صحَّة دَعواهم، فأَعلَم الله بكَذِبهم نبيَّه - ﷺ -، وجعَل إعلامَه ذلك حُجَّةً عليهم؛ لأنَّ محمدًا - ﷺ - أُمِّيٌّ ومِن غير

مِلَّتِهم، فكيف عَلِم بذلك لولا أنَّ الله تعالى هو الذي أَعلَمه إيَّاه بوحيٍ مِن عنده؟! فهذا مِن أعظم الحُجَج عليهم بأنَّه رسول الله تعالى إليهم صِدقًا، وأنَّ النَّسخ واقعٌ حقًّا.

فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (94)

أي: فمَن تقوَّل على الله تعالى الكَذِبَ بادِّعاء أنَّ ما حرَّمه إسرائيلُ على نفْسِه كان مُحرَّمًا عليهم كذلك، فهؤلاءِ هم الكافِرونَ القائِلونَ على الله تعالى الباطلَ، والظالِمونَ أنفسَهم بالعُدُول عن الحقِّ بعدَما تَبيَّن.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (95–97)



قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95)

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96)

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ
اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)



تفسير الآيات:

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأولئك اليهود: إنَّ كلَّ ما أَخبرَ اللهُ تعالى به وكلَّ ما شرَعه فهو صِدْق، ومِن ذلك: إخبارُه بأنَّه لم يُحرِّم على اليهود شيئًا من الأطعمةِ قبل نُزول التَّوراة، إلَّا ما حرَّمه يعقوبُ عليه السَّلام على نَفْسِه، فجاء ما في التَّوراة مُوافِقًا لِمَا أَخبرَ الله سبحانه عنه؛ فهُم كَذَبوا، وصدَق اللهُ عزَّ وجلَّ، وممَّا بيَّنه الله تعالى في كتابه الصَّادق مِلَّةَ إبراهيمَ الخليل عليه السَّلام، فإنْ كُنتم صادقينَ في مَحبَّتِكم واعتزازِكم بالانتسابِ إليه، فاتَّبِعوه على توحيدِه اللهَ سبحانه ومَيلانِه عن الشِّرك، وما كان إبراهيمُ مِثْلَكم- مَعشَرَ اليهودِ- في عِدادِ المحسوبين من المشرِكين بالله جلَّ وعلا.

قال تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96)

أي: إنَّ أوَّل بيتٍ وُضِع لجميعِ النَّاس لعبادةِ الله تعالى، فيَطوفون به، ويُصَلُّون إليه، ويَعتكِفون عنده- البيتُ الحرام الواقع في مكَّة، والذي يَزدحِم النَّاس حولَه، وهو الكعبةُ التي بناها إبراهيمُ الخليلُ

عليه السَّلام، الذي يَزعُم كلٌّ مِن طائفتي النَّصارى واليهود أنَّهم على مِلَّته، ومع ذلك لا يَحُجُّون إلى البيتِ الذي بناه، ونادى النَّاس إلى حَجِّه! وهو مَوضِع مُبارَكٌ؛ فيه بركاتٌ كثيرةٌ من المنافعِ الدِّينيَّة والدُّنيويَّة: كالأجورِ المضاعفة، والأرزاقِ الوفيرة، وهو مَنارٌ يُهتدى به، وتَحصُل فيه أنواعُ الهدايات لجميعِ العالَمين، ومِن ذلك: أنَّه قِبْلةٌ يَستقبِلها المسلمون في صَلواتهم، ويَقصِدونه في حَجِّهم وعُمراتِهم.

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97).

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ.

أي: في هذا البيتِ أدِلَّةٌ واضحةٌ على توحيدِه سبحانه، ورحْمتِه وحِكمتِه وعظَمتِه وقُدْرتِه، وغير ذلك من صِفاته الحُسنى، وفيه علاماتٌ ظاهرةٌ على شرَفِ هذا البيت وعظيمِ فضْله، وأنَّه من بِناء إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن تلك العلامات، المواضِع التي قام فيها الخليلُ عليه السَّلام لأداءِ مناسك الحجِّ: كعَرَفة، ومُزْدَلِفة ومِنًى، ومن مَقاماته: الحَجرُ الذي قام عليه لاستِكمالِ بِناء الكعبة لَمَّا ارْتفَع بُنيانُها.

وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا

أي: إنَّ مِن الآيات البيِّنات الدالَّةِ على شرفِ البيتِ الحرام وفضْلِه، وغير ذلك: أنَّ مَن يدخُل الحرمَ يكون بمعزلٍ عن أنْ ينالَه أحدٌ من الناس بسوءٍ على وجهِ العموم، وهذا امتنانٌ مِن الله تعالى بما تقرَّر في ماضي العصور، وبما هو متقرِّرٌ شرعًا.

قال الله تعالى: أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ [العنكبوت: 67].

وقال سبحانه: فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ [قريش: 3-4].

وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا

أي: إنَّ شعيرةَ حَجِّ بيتِ الله تعالى الحرام فرْضٌ واجبٌ لله عزَّ وجلَّ على مَن قَدَر مِن أهلِ التَّكليفِ على القصدِ إليه، وذلك بتوفُّر القُدرةِ الماليَّة والبدنيَّة وغيرِهما ممَّا يُحقِّق الاستطاعةَ.

وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ

أي: إنَّ مَن جحَد فرض الحجِّ فأنكر وجوبه وكفر به، فإنَّ الله غنيٌّ عنه، وعن حَجِّه، وعن سائرِ خَلْقه.

سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (98-99)



قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98)

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99)



تفسير الآيتين:

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (98).

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأصحابِ التَّوراة والإنجيل مُوبِّخًا لهم: يا معشرَ اليهود والنَّصارى، ما الذي يَحمِلكم على جحْد حُجَج الله تعالى التي جاءت بها كُتُبكم، التي تُثبِت نبوَّتي وصِدْقَ ما جئتُ به من الله تعالى؛ فلِمَ تَجْحَدون ذلك وأنتُم على عِلْم بالحقِّ، والله تعالى شهيدٌ على كُفْركم؟!

فإنَّه سبحانه لا يَخفى عليه شيءٌ،

وسيُجازيكم على كُفْركم بما تَستحِقُّون.

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (99).

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لأهل الكتاب مُوبِّخًا: يا معشرَ اليهود والنَّصارى

لِمَ تُضِلُّون عِبادَ الله المؤمنين عن طريقِ الله الذي جئتُ به من عندِ الله والمُوصِل إلى الله،

تُريدون انحرافَ هذا الطريق عن استقامتِه؛ ليَزيغَ بالمؤمنين مِن الهدى إلى الضَّلال، والحال أنَّكم تعلمون الحقَّ؛ مِصداقًا لِما تَجِدونه في كُتُبكم كصِفة محمد - ﷺ -، وتَعلَمون سوءَ ما تَصْنعون؟!

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

أي: ليس الله عزَّ وجلَّ بغافلٍ -أيُّها اليهود والنَّصارى- عن ضلالِكم وإضلالكِم، بل يُحصي أعمالَكم، وعليها يُجازيكم.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (100-101)



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)



تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (100)

أي: يا أيُّها المؤمنون، إذا أَطعْتم تلك الفئةَ من أهلِ التَّوراة والإنجيل، الحريصةَ على ردِّكم إلى الكُفْر، التي تَسعى جاهدةً بكلِّ ما تَستطيع، وتبذُل محاولاتٍ مُضنيةً في سبيل ذلك، فقَبِلتم منهم ما يأمرونكم به؛ فإنَّكم ستُحقِّقون لهم ما يَبْتغون بإخراجِكم من الإيمانِ الذي تَعتقِدون.

قال تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ [البقرة: 109].

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (101)

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ

أي: كيف تَرتدُّون عن إيمانكم- أيُّها المؤمنون- ومعكم ما يُثبِّتكم عليه، ويمنعكم من الارتداد عنه، وهو القرآنُ الذي تُقرأُ عليكم آياتُه، ورسولُ الله - ﷺ - الذي بين أَظْهُركم؛ إذ يُبلِّغه ويُبيِّنه لكم؛ فإنَّ الإيمانَ إذا تَغلغل في شَغافِ القلب لا يَخرُج منه بإذن الله تعالى.

وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

أي: إنَّ مَن يتعلَّق بأسباب الله مُتمسِّكًا بدِينِه مُتوكِّلًا عليه، فقد وُفِّق لطريقٍ واضحٍ غير مُعوجٍّ، فيستقيمُ به حتى يُوصِلَه إلى رِضوان الله، وإلى النَّجاة من عذابِه والفوزِ بجنَّته سبحانه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (102-109)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ

أي: يا أيُّها المؤمنون ابذُلوا كلَّ جَهْدكم وطاقتكم؛ لتَمتَثِلوا أوامرَ الله عزَّ وجلَّ وتَجتنِبوا نواهيَه، ولتُحقِّقوا تقوى الله تعالى الاتِّقاءَ الحقَّ الواجبَ الثابتَ بقَدْرِ ما تستطيعون.

كما قال تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ [التغابن: 16].

وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

أي: داوِموا في حياتِكم على التَّمسُّك بدِين الإسلام، وحافِظوا عليه حتى يأتيَكم الموتُ وأنتم على ذلك.

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (103)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا

أي: تَمسَّكوا بدِينه، وعهْدِه إليكم بالأُلفةِ والاجتماعِ على كلمةِ الحقّ، ولا تَرتكِبوا ما يُفرِّق جمْعَكم عن هذا الدِّين والعَهْد.

قال تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ [الشورى: 13].

وقال جلَّ وعلا: وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [الأنعام: 153].

وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا

أي: اذكُروا بقلوبِكم وألْسنتِكم- أيُّها المؤمنون- ما أَنعَم اللهُ تعالى به عليكم من الأُلْفةِ والاجتماعِ على دِينِ الإسلام، فقد كنتُم من قبلِ اعتناقِكم الإسلامَ أعداءً مُتفرِّقين، يُقاتِل بعضُكم بعضًا، في غيرِ طاعةِ الله تعالى، فجَمع الله عزَّ وجلَّ بالإسلامِ قلوبَكم، فجعَل بعضَكم لبعضٍ إخوانًا مُتحابِّين، بلا ضغائنَ ولا أحقادٍ بينكم.

قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [الأنفال: 62-63].

وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا

أي: كنتُم- أيُّها المؤمنون- قبلَ اجتماعِ قلوبِكم على الإسلام، على وَشْكِ الوقوعِ في النَّار، إذ لم يَبقَ بينكم وبينها إلَّا أنْ تموتوا على كُفْركم، فأنقَذَكم اللهُ تعالى منها بِهدايتِكم إلى الإسلام.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

أي: بمِثْل هذا الوضوحِ الذي بيَّن الله تعالى به ما تَقدَّم من الآيات الدَّالَّات على الحقِّ القويم، يُبيِّن أيضًا بوضوحِ بقيَّة الآيات الأخرى؛ لأجْل أن تَحصُل لكم بها الدَّلالةُ على طريق الحقِّ وتُوفَّقوا لسُلوكه.

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104)

أي: لتوجدْ منكم- أيُّها المؤمنون- فِرْقةٌ مُتصدِّيةٌ للقيام بشأنِ الدَّعوة إلى دِين الله تعالى وبيانِ شرائعِه، وقائمةٌ بواجب أمْر النَّاس بامتِثال ما أمرهم به الشَّرع، ونَهْي النَّاس عن ارتكابِ ما نَهاهم عنه الشَّرع؛ فإنَّ المتَّصِفين بهذه الصِّفات هم الفائزون في الدَّارينِ بما يَرْغَبون، والنَّاجون فيهما ممَّا يَرهَبون.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

أي: لا تكونوا- يا معشرَ المؤمنين- مُتفرِّقين في دِينكم، كما تَفرَّق الذين مِن قبلكم كاليهودِ والنَّصارى الذين اختلَفوا في دِينهم، فأصبحوا أحزابًا مختلفةً، وذلك مِن بعد ما جاءتْهم دلائلُ الحقِّ الواضحات، وعلِموا الحقَّ المبين، فوقَعوا في مُخالفته عامدين، وعلى اللهِ تعالى مُتجرِّئين.

وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

أي: لهؤلاء عذابٌ من عند الله عظيمٌ؛ فلا تكونوا مِثْلهم فيكونَ لكم من عِقابِ الله مِثْلُ الذي لهم.

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106)

يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ

أي: إنَّ أولئك لهم عذابٌ عظيمٌ في اليومِ الذي تكونُ فيه وجوهُ أهل السعادةِ بيضاءَ، وهم الذين اعتَصَموا بحبلِ الله جميعًا، وائتلَفوا بينهم، وتكونُ فيه وجوهُ أهلِ الشَّقاوة سوداءَ، وهم الذين تَفرَّقوا بعدَ ظهورِ البيِّنات لهم.

فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ

أي: إنَّ الَّذين اسودَّت وجوهُهم، يُقال لهم توبيخًا وتقريعًا: أكفرتُم بعد توحيدِ الله تعالى وعهْدِه الذي أخَذه عليكم بألَّا تُشرِكوا به شيئًا؟!

فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

أي: فذوقوا إذَنْ عذابَ الله تعالى؛ بسببِ كُفْركم هذا.

وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

أي: أمَّا أولئك الذين قد ابيضَّتْ وجوهُهم فهُمْ يتقلَّبون في رحمةِ اللهِ تعالى بما أعدَّ لهم في جنَّته من أنواعِ النعيم، ماكثين فيه أبدًا بغير نهاية.

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ (108)

تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

أي: تلك الآياتُ التي تقدَّمت، ومنها ما ذكره الله تعالى من ثوابِ المؤمنين وعذابِ الكافرين، نقرؤها عليك- يا محمَّدُ- بالصِّدق المُطابقِ للواقع؛ صِدقًا في أخبارها، وعدْلًا في أحكامها.

وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ

أي: إنَّ الله تعالى لا يَظلمُ أحدًا مُطلقًا؛ لأنَّه غيرُ مريدٍ للظُّلم سبحانه، ومِن ذلك أنَّه لا ينقص أحدًا شيئًا من الحَسنات، ولا يَزيدُ على أحدٍ شيئًا من السَّيِّئات.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وحْده المالكُ لجميع مَا في السَّموات وما في الأرض، والخالقُ الرازقُ المدبِّر.

وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ

أي: هو الذي يتصرَّفُ في شؤون عبيدِه، والحاكمُ عليهم في الدُّنيا والآخرة، ومن ذلك رجوعُ النَّاس إليه يومَ القيامة؛ ليُجازيَهم بأعمالهم؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (110-112)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ
آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)
لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111)
ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ
ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112)

تفسير الآيات:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (110)

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

أي: أنتم- يا أُمَّة الإسلامِ- قد جُعِلتم خيرَ الأمم وأكرمَها على الله تعالى؛ لأسبابٍ أَنعَم الله بها عليكم، فتميَّزتُم وفُقْتُم مَن سبَقكم، وأنتم أنفع النَّاس للنَّاس.

تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

أي: حُزْتم خيريَّتَكم بأمركم النَّاسَ بكلِّ ما يأمر به الشَّرعُ، ونهيِكم لهم عن كلِّ ما ينهى عنه الشَّرعُ، ولأنَّكم تُقِرُّون بالله تعالى وجودًا وربُوبيَّة وأُلوهيَّة وبما له من أسماء وصفات، وتُتْبِعون ذلك بالانقياد لِما أمَر واجتناب ما نهى سبحانه.

فجمَعوا بين تكميلِ الخَلْق، والسَّعيِ في منافعِهم بحسَب الإمكان، وبين تكميلِ النَّفْس بالإيمانِ بالله تعالى، والقيامِ بحقوق الإيمان.

وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

أي: ولو آمَن أهلُ التَّوراة والإنجيلِ من اليهود والنَّصارى بمحمَّد - ﷺ -، وما جاءَهم به من عند اللهِ عزَّ وجلَّ، لاهتدَوْا وكان ذلك خيرًا لهم عندَ الله تعالى في دُنياهم، وآخرتهم.

مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ

أي: ولكنْ لم يُؤمِنْ منهم إلَّا القليلُ، وأمَّا أكثرُهم فخارجون عن طاعةِ ربِّهم، وخارجون عن دِينِهم الذي فيه صفاتُ محمَّدٍ - ﷺ -، والأمرُ باتِّباعه.

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111)

لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى

أي: لن يَضُرَّكم- يا أُمَّة محمَّد- هؤلاء الفاسقون من اليهود والنَّصارى، في دِينِكم ولا في أبدانِكم، وإنَّما غايةُ ما تَلْقَون منهم أذيَّةَ اللسان، كإسماعِكم كُفرَهم، ودُعائِهم إيَّاكم إلى الضَّلالة، ولا يَضرُّونكم بذلك.

وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ

أي: قد ردَّ الله تعالى كيدَهم في نُحُورهم؛ فإنَّهم لو قاتَلوكم لَلَاذُوا بالفِرار، ثم تستمرُّ هزيمتُهم ويدومُ ذُلُّهم.

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (112).

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ

أي: أُلزِمِ اليهودُ الذِّلَّةَ والصَّغار، فجُعِل ذلك أمرًا محتومًا عليهم، لا يُفارِقهم حيثما وُجِدوا وأينما كانوا، لكنَّهم يأمَنون على أموالِهم وأنفسِهم وذَراريهم بعهدٍ مِن الله تعالى، وعهدٍ من النَّاس.

وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ

أي: قد انصرَفوا مُستحقِّين غضبَ الله عليهم.

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ

أي: كما أُلزِموا قَدَرًا وشرعًا بالذُّلِّ في بَواطِنِهم،

عُوقِبوا كذلك ببُدوِّ أَثَرِ الحاجةِ وذُلِّ الفاقةِ على ظَواهِرِهم.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

أي: وقعتْ عليهم هذه العقوباتُ المذكورة؛

بسببِ كُفْرِهم الدَّائم بدلائل الحقِّ بغيًا وعِنادًا، وقتْلِهم المستمرِّ لأنبيائه عليهم السَّلام ظلمًا واعتداء.

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ

أي: إنَّما حمَلهم على هذا الكُفرِ والقتلِ أنَّهم مُقيمون على معصيةِ الله عزَّ وجلَّ، ومُستمِرُّون في الاعتداء على حدود شَرْع الله تعالى،

فهذا الذي أوصَلهم إلى التجرُّؤ على الكفرِ بالله سبحانه، وقتْلِ أنبيائه عليهم السَّلام.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (113-115)



لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ

(113)

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)



تفسير الآيات:

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113)

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ

أي: ليس جميعُ أهلِ الكتاب على حدٍّ سواء، فلا يَستوي مَن تقدَّم ذمُّهم من أهلِ الكتاب، وهؤلاء الذين أَسْلَموا منهم، فإنَّ منهم جماعةً ثابتة على الحقّ، مُتمسِّكة به، مستقيمةً على هَدْي القرآن والسُّنَّة.

يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ

أي: يَقرؤون كتابَ الله تعالى في صلاتِهم في ساعات اللَّيل.

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

أي: يُؤمنون بالله تعالى، وبكلِّ ما يتعلَّق باليوم الآخِر من بعدِ الموت: كالبعث، والحشر، والجزاء على أعمالِهم.

ودخولِ الجنَّة أو النَّار وغير ذلك، ولا يَكْتفون بتطهيرِ قلوبِهم وصلاح أنفسهم، بل يَسْعون أيضًا في إصلاحِ الآخَرين، فيأمرونهم بكلِّ ما أمَر به الشَّرع من مُعتقَدات وأعمال، ويَنْهَوْنهم عن كلِّ ما نَهى عنه الشَّرعُ مِن مُعتقَداتٍ وأعمال، ويَبتدِرون فِعْلَ الخيرات، ويَنتهِزون الفرصَ إليها؛ خَشيةَ الفَواتِ بحلول وقتِ الممات.

وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ

أي: إنَّ هؤلاءِ الذين قاموا بهذه الأعمالِ الجليلةِ ممَّن أَسلَم من أهل الكتاب هم في الحقيقةِ من عِداد الصَّالحين.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (115)

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ قراءتان:

1- وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ بياءِ الغَيبة، على أنَّ المرادَ الطَّائفةُ المؤمنةُ من أهل الكتابِ التي تقدَّم ذِكْرُها.

2- وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوهُ بتاءِ الخطابِ على أنَّ الخطاب لأُمَّة محمَّد - ﷺ -.

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ

أي: إنَّ كلَّ ما يَعمَله مَن أَسلَم مِن أهل الكتاب، مِن خير (قليلًا كان أو كثيرًا) فلن يُجحَد ويَذهَب سُدًى بلا ثوابٍ ولا مُجازاة، بل سيُشكَرون على ما فَعلوا، ويُجزَون عليه أوفرَ الجزاء.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ.

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يَخْفى عليه كلُّ مَن قصَد تقواه وأراد رِضاه، بامتثالِ أوامرِه واجتنابِ نواهيه، وسيَجزي الله المتَّقين.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (116-117)



إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ **(116)**

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ **(117)**



تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (116)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

أي: إنَّه لا يَرُدُّ بأسَ الله عن الكفَّار شيءٌ؛ فلا تدفعُ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم التي حسبوها نافعةً لهم في الشَّدائد والمكاره شيئًا من عذابِ الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، ولا تكون سببًا في رَحْمتهم.

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

أي: سيَظَلُّون مُلازِمين لنار جَهنَّمَ ماكِثين فيها بلا نهايةٍ .

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (117)

مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ

أي: إنَّ ما يُنفِقه الكفَّارُ من صَدَقاتٍ، وما يُنفِقونه من أموالٍ للصدِّ عن سبيل الله تعالى، نفقاتٌ باطِلة، وثوابها الذي يَرْجونه مُضمَحِلٌّ عند الله عزَّ وجلَّ، وشَبَّه الله تعالى ذلك بهُبوب ريحٍ عاصفٍ شديدةِ البرودةِ، قويَّة الصَّوت، قد سُلِّطتْ على زرعِ أُناسٍ استَحقُّوا أنْ يُعذِّبَهم الله تعالى بها، فدمَّرت زرعَهم وأصبح يابسًا، بعد أن أَمَّلوا حصادَه، ورَجوا الاستفادةَ من خيراتِه .

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ [الأنفال: 36] .

وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

أي: إنَّ ما فعَله الله تعالى بهؤلاء الكفَّار، من إحباطِ ثواب أعمالِهم، وإبطالِ أُجورِها إنَّما وضَعَه في مَوضِعه، وفعَل بهم ما هم أهلُه، وهم الذين نقَصُوا أنفسَهم في الحقيقةِ، ووضَعوها في غيرِ موضِعها الذي يَليق بها.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيتان (118-120)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119)

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (118)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَجعلوا مِن خاصَّةِ أصدقائكم والمقرَّبين منكم أُناسًا من غير المؤمنين، كفَّارًا أو منافقين؛ فيَطَّلِعوا على أسرارِكم، أو يتولَّوْا لكم أعمالًا، أو تَجعلوا لهم مناصبَ ونفوذًا؛ فإنَّ الكافرَ لا يُؤمَن جانبُه، وما تنطوي عليه نَفْسُه من الغِشِّ والخداع، وإذاعة أسرار المؤمنين إلى الأعداء، ولا يترك مجالًا يُمكِن أنْ يُفسِد أحوالَكم فيه إلَّا وسعَى إليه بكلِّ طاقته، ولا يُقصِّر في إلحاقِ أنواع الضَّررِ بكم.

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

أي: يُحِبُّون ويتمنَّون بكلِّ قلوبِهم وقوعَ الضِّيقِ، وحصولَ المشقَّة عليكم في دِينكم وأموالِكم وأبدانِكم، وكلِّ ما يسوؤكم.

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ

أي: ظهرتْ على فَلتات ألْسنتهم البغضاءُ لكم، فلم يَستطيعوا كِتمانَها.

وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ

أي: إنَّ ما انطوت عليه صدورُهم من الكراهيةِ للإسلامِ وأهلِه أشدُّ وأعظمُ ممَّا بَان على ألْسنتِهم.

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

أي: قد أَظهَرْنا لكم بوضوحٍ- أيُّها المؤمنون- آياتِ الله تعالى، ومنها العلاماتُ والبراهين التي تُظهِر لكم أمْرَ هؤلاء الذين حذَّرناكم من اتِّخاذهم بِطانة، تُفسِد عليكم مصالحَكم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة، فتتمكَّنوا من خلالها من التَّفْرِقة بين الصَّديق والعَدوِّ إنْ كنتم تَعقِلون عن الله آياتِه؛ فإنَّ ذلك لا يَخفى على لبيبٍ عاقل.

هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (119)

هَاأَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ

أي: ها أنتم- أيُّها المؤمنون- تُحِبُّون هؤلاء الذين نَهيتُكم عن اتخاذِهم بِطانةً، فتودُّونهم وتُريدون لهم الخيرَ، وهم لا يُحِبُّونكم، بل يُبغِضونكم ويُريدون لكم السوءَ والضَّررَ؛ فكيف تُحِبُّونهم؟!

وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ

أي: إنَّكم تؤمنون بجميعِ الكُتُب التي أنزَلها الله تعالى، وتَعلَمون أنَّ هؤلاء القومَ لا يؤمنون بما أُنزِل إليكم، وقد حرَّفوا وبدَّلوا ما أُنزِل إليهم، فالأَوْلى بكم إذنْ أن تُعادوهم وتُبغِضوهم.

وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا

أي: إنَّ هؤلاء الذين نهاكم اللهُ أن تتَّخِذوهم بِطانةً إذا لَقُوكم أَعلَنوا لكم بألْسنتهم إيمانَهم نِفاقًا منهم.

وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ

أي: إذا صاروا في خَلاءٍ مع أضرابِهم من حيث لا تَرونهم، عَضُّوا أطرافَ أصابعهم من شِدَّة الحَنَق والغيظ على ما يَرون مِن ائتلافكم، واجتماعِ كلمتِكم على الحقّ.

قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ

أي: قل– يا محمَّدُ– لهؤلاء: لتَهلِكوا بغيظِكم الذي بكم على المؤمنين؛ ذلك أنَّ الله تعالى مُتِمُّ نِعمتِه على عبادِه، وستَرَوْن من عِزِّ الإسلام وذُلِّ الكُفر ما يسوؤكم، وتموتون بغيظكم فلا تَضُرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم.

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

أي: إنَّ الله سبحانه لا يَخفى عليه ما تَنطوي عليه صدورُ هؤلاء من الغِلِّ والبغضاء لعبادِه المؤمنين، ويعلمُ أيضًا ما تحويه صدورُ جميعِ خَلْقه، فيحفظُ عليهم ذلك؛ ليُجازيَ كلًّا منهم بما يُكِنُّه قلبُه من خيرٍ أو شرٍّ.

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (120)

إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ

أي: إنْ تنالوا- أيُّها المؤمنون- سرورًا بظهوركم على عدوِّكم، أو بكَثْرة أنصارِكم، أو ظَفِرتُم بالنَّصر على أعدائكم، أو بحصولِ العافية لكم، وغير ذلك من أنواع الخيرِ، يَغُمُّهم ذلك ويُحزِنهم.

وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا

أي وإنْ تنالوا- أيُّها المؤمنون- ما يسوؤكم كانتصارِ عدوِّكم عليكم، أو حدوثِ اختلاف بينكم، أو وقوع جَدْبٍ في أرضكم، وغير ذلك من أنواع الضُرِّ، فإنَّهم يُسَرُّون بذلك.

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا

أي: إن تَصبِروا- أيُّها المؤمنون- على كلِّ ما وجَب عليكم الصَّبرُ عليه، ومن ذلك: أقدارُه سبحانه، وتمتثلوا ما أمَركم الله تعالى به، وتجتنبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ استعمالَ هذا الصَّبرِ ولُزومَ هذه التَّقوى يدفعُ عنكم بإذنه كلَّ كيدٍ للأعداء، وكلَّ ضررٍ أرادوا إلحاقَه بكم، فتَسلَموا من أذاهم.

وقال تعالى عن إنجائه يوسف من كيدِ إخوته وغيرهم: قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف: 90].

إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى بما يقوم به هؤلاء الكفَّار من كيدٍ وضُرٍّ بأهل طاعته، مُحيطٌ بجميعه، لا يَغيب عنه شيءٌ من ذلك، فهو سبحانه يُحصيه عليهم ويُجازيهم به.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (121–129)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (126)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127)

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(129)



تفسير الآيات:

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (121)

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ

أي: واذكُر– يا محمَّدُ– حين خرجتَ مِن بيتك مُغادِرًا المدينةَ، للقاءِ المشركين في غزوة أُحُد، وأخذتَ تُنزِل المؤمنين في مَواضِع القتالِ التي يَثبُت فيها الجيشُ، ولا يَنتقِل عنها؛ لأنَّها لائقةٌ بتحرُّكاته، كل في الموضِع الذي يَصلُح له مَيمنةً أو مَيسرةً وغير ذلك.

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ سميعٌ لِمَا تتشاورُ فيه أنت ومَن معك حول مَوضِع لقاءِ العَدوِّ، عليمٌ بأصلحِ تلك الآراء لكم، وبما تُخفيه صدورُ المُشيرين من المؤمنين والمنافقين من نيَّات، كما أنَّه سبحانه يسمعُ ويعلمُ غيرَ ذلك من أمورِكم وأمورِ سائر خَلْقه، فيُحصي على عبادِه ما يقولون ويعملون، وبحسَب ذلك يُجازون.

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (122)

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا

أي حدَّث بنو سَلِمةَ وبنو حارثة أنفسَهم بالفِرار والانصرافِ عن القتال مع رسول الله – ﷺ – يومَ أُحُد؛ خوفًا وضَعْفًا من لِقاء العدوِّ، لا شكًّا منهم في الإسلام ولا نفاقًا.

وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا

أي: عصَمهم اللهُ ممَّا همُّوا به، فثبَّتهم برعايته الخاصَّة، وأيَّدهم ووفَّقهم ليَمضوا مع رسولِ الله - ﷺ - لقتالِ الأعداء.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

أي: على اللهِ تعالى وحْده اعتَمِدوا بصِدقٍ- أيُّها المؤمنون- في كلِّ شؤونكم؛ جلبًا للخيرات، أو دفعًا للكريهات.

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (123)

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ

أي: قد أَظهَركم اللهُ على عدوِّكم فغلَبتموهم في الغزوة التي دارتْ في محلَّة بَدْر، والحال أنَّكم يومئذٍ ضعفاءُ، فقليلٌ عَددُكم وعُددُكم، وكنتم في غير مَنَعَةٍ من النَّاس، وهم كانوا أكثرَ منكم عَددًا وعُددًا، فإنْ تَصبِروا لأمْر الله وتتَّقوه سبحانه يَنصرْكم كما نصرَكم في ذلك اليوم.

فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

أي: لأنَّ الله تعالى جعَل لكم الغَلَبة يومَ بدر، فاتَّقوه بامتِثال أوامِره، واجتنابِ نواهيه؛ لتكونوا بذلك من الشَّاكرين له على ما منَّ به عليكم من النَّصرِ على الأعداء، وجَعْلِكم مِن بعد الهوانِ أعزَّاء.

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (124)

أي: اذكُر- يا محمَّدُ- حين قلتَ للمؤمنين من أصحابك مُبشِّرًا لهم: ألَا يكون كافيًا إمدادُ الله تعالى لكم بثلاثة آلاف من الملائكة، يُنزِلهم الربُّ سبحانه من السماء، ليُقاتِلوا معكم المشركين يوم بَدْر؟

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (125)

بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا

أي: هذا الإمدادُ يَسُدُّ حاجتَكم، ولكن إنِ استعملتُم الصَّبر في كلِّ ما وجب فيه الصَّبر، ولَزِمتُم التَّقوى بامتِثال أوامرِ الله تعالى واجتناب نواهيه، وخرج المشركون عليكم مباشرةً من حيث خرَجوا مُسرِعين إليكم، في حدَّةٍ وحرارةٍ لقتالكم.

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: مُسَوِّمِينَ قِراءتان:

1- (مُسَوِّمِينَ) -بكَسرِ الواو على أنَّها اسمُ فاعل- أي: سوَّم الملائكةُ أنفسَهم، أو سوَّموا خُيولَهم.

2- (مُسَوَّمِينَ) -بفَتحِ الواو على أنَّها اسمُ مفعول- أي: إنَّ الملائكةَ قد سُوِّموا.

يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ

أي: إنَّ ربَّكم الذي له بكم عِناية خاصَّة، يُزوِّدكم بأكثر ممَّا وعدكم من قَبْل بزيادة ألفين من الملائكة، يأتونكم وعليهم أو على خيولهم علامة الشُّجعان الأبطال، دَلالة على أنَّهم لا يَكترِثون بأنْ يَعرِفهم عدوُّهم من شدَّة شجاعتهم.

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

(126)

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ

أي: وما أَخبَرَكم اللهُ سبحانه بنبأِ إمدادِكم بالملائكةِ إلَّا لإدخالِ السُّرور عليكم.

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ

أي: جعَل اللهُ تعالى هذا المددَ لكم؛ لحصولِ الطُّمأنينة أيضًا في قلوبِكم، فتَسكُن ولا يُصيبها الهَلَعُ والانزعاجُ من تفوُّق عدوِّكم عليكم في العَدد والعُدد.

وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ

أي: لا يتحقَّق لكم الظَّفَرُ بعدوِّكم إلَّا بعَونِ الله وحده، لا من قِبَل المددِ الذي يأتيكم من الملائكة، فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستَعينوا، لا على ما أُوتيتم من أسباب؛ فإنَّه الذي ذَلَّ له كلُّ الخلائق فهم

تحتَ تدبيره وقَهْره، وهو الغالبُ على أمْره، وهو الذي يَضَع الأشياء مَواضِعها فيتصرَّف في عبادِه بحِكمتِه، ومن ذلك أنَّه يَنصُر أولياءَه كما في بَدْر، أو يُقدِّر هزيمتَهم، كما وقَع في أحدٍ.

قال تعالى بعدَ أمْرِه المؤمنين بالقتال: ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ [محمد: 4].

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (127)

لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: مِن أسبابِ نَصْر الله تعالى لعباده إهلاكُ بعض الكفَّار كاستئصالِ صناديدِهم، وأسْر بعضِهم، وقتْل آخرين، كما وقَع يومَ بَدْر، أو الاستيلاءِ على أراضيهم وأموالِهم، وغير ذلك.

أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ

أو يُخْزي بعضَهم، ويُصيبهم بالغمِّ والحَزَن بسببِ رُجوعهم مُحمَّلين بالخيبةِ والفشل الذَّريع؛ إذ لم ينالوا ما أمَّلوا من الانتصارِ عليكم- أيُّها المؤمنون.

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)

سببُ النُّزول:

عن أنسِ بن مالكٍ رضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - كُسِرَتْ رَباعيَتُه يومَ أُحُدٍ، وشُجَّ في رأسِه، فجَعل يَسلُتُ الدمَ عنه ويقول: ((كيف يُفلِحُ قومٌ شجُّوا نبيَّهم وشجُّوا رَبَاعِيَته وهو يَدعوهم إلى اللهِ؟!. فأنزل اللهُ تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيءٌ)).[59]

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (128)

أي: إنَّ شأنَ أولئك الكفَّار راجعٌ إلى اللهِ تعالى لا إليكَ- يا محمَّدُ-؛ فاترُك أمرَهم للهِ عزَّ وجلَّ، وامضِ أنتَ لشأنِكَ في تبليغِ رِسالةِ ربِّك، فإمَّا أنْ يُوفِّقهم الله تعالى للدُّخول في دِينه، فيُسلِموا محضَ فضلٍ منه جلَّ وعلا، أو يُعذِّبهم في الدُّنيا أو الآخِرة عدْلًا منه سبحانه؛ بسببِ وضْعهم أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقُوا لأجله، باعتناقِهم الكفرَ وارتكابِهم المعاصي.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

(129)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(59) رواه مسلم (1791).

أي: إنَّ جميعَ المخلوقات مُلْكٌ لله تعالى وحده، يحكُم فيهم بما شاءَ ويتصرَّف فيهم بما أَحبَّ سبحانه.

يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ

أي: ما دامَ أنَّ له مُلْك كلِّ شيءٍ سبحانه، فعباده دائرون بين مَغفرتِه وتعذيبه، فيَتجاوَز عن عقوبةِ مَن يشاء بِحكمته فضلًا منه سبحانه، ويُعاقِب مَن يشاء بِحكمته عدْلًا منه سبحانه.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أي: هو الذي يَستُر ذُنوبَ عباده، ويتجاوَز عن المؤاخذة بها، وهو الرَّحيم الذي رحْمته غلبتْ غضبه، ومِن رحمته سَعةُ إحسانِه إلى عباده.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (130-132)



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (131)

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (132)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (130)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تتعاملوا بالرِّبا بعدَ إسلامِكم كما كُنْتم تتعاطَوْنه في جاهليَّتكم؛ فإنَّهم كانوا إذا حلَّ الدَّينُ على المُعسِرِ ولم يتمكَّن مِن سداده في وقتِه، قالوا له: إمَّا أن تَقضِيَ، وإمَّا أنْ تُرْبِيَ، أي: إما أنْ تَقضيَنا ما عليك من الدَّين، أو نَزيدك في المدَّة، وتَزيدنا على القَدْر المطلوب، فربَّما تَضاعَف القليلُ بهذه الطَّريقة حتى يُصبِح كثيرًا جدًّا.

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أي: امتَثِلوا- أيُّها المؤمنون- ما أمَركم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه، ومن ذلك أكْل الرِّبا؛ كي تَظفَروا بما تَطلُبون، وتَنجوا في الدُّنيا والآخرة ممَّا منه تَحْذرون.

وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

أي: امتثِلوا أوامرَ الله تعالى، واجتَنِبوا نواهيَه، ومنها: ترْك أكلِ الرِّبا؛ فإنَّه وقايةٌ لكم من النَّار، التي هُيِّئَت مُسْبقًا لكلِّ مَن كفَر بالله العظيم.

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أي: اعمَلوا- أيُّها المؤمنون- بما أمَركم اللهُ تعالى به ورسولُه، وانتَهُوا عمَّا نَهاكم اللهُ ورسولُه عنه من أكلِ الرِّبا وغيرِه من المُحرَّمات؛ لتُرحَموا في الدُّنيا والآخِرة.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (133-136)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)

تفسير الآيات:

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133)

وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: ليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمُبادَرة إلى فِعل الخيرات؛ للحصولِ على مغفرةِ الله تعالى، التي تَعني سَتْرَ الذُّنوب والتَّجاوزَ عنها.

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

أي: وليُسابِقْ بعضُكم بعضًا بالمبادرةِ إلى ما يُحقِّق- بإذن الله تعالى- دُخولَكم الجنَّةَ، التي يَبلُغ عَرضُها مِثْلَ عَرْض السَّمواتِ والأرض.

قال تعالى: سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ [الحديد: 21].

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

أي: إنَّ الجَنَّة قد هُيِّئَت مُسبقًا للذين اتَّقوا الله تعالى بامتثالِ أوامره، واجتناب نواهيه؛ فهُم أهلُها وساكِنُوها.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (134)

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين، أنَّهم يَتصدَّقون باستمرارٍ، وفي جميع الأحوال، سواء كانوا في حال سُرورٍ- بتوفُّر المال ورَغَد العيش؛ فلا يُلْهيهم ذلك عن مساعدة الآخرين- أو أصابَهم الضرُّ وضيقُ العيش؛ لقِلَّة ذاتِ اليد، فلا يَصرِفهم ذلك أيضًا عن مواصلةِ العطاء.

فأصبحَ الإنفاقُ سَجِيَّةً دائمةً لهم، لا يَشغَلهم عنه أيُّ حالٍ أصابهم، ولا يَنشأ ذلك إلَّا عن نَفْس طاهرة.

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ

أي: إنَّ مِن صِفات المتَّقين المُتأصِّلة فيهم، والمستمرَّة معهم: أنَّهم يَمتلِكون السَّيطرةَ التَّامَّةَ على غضبِهم مهما بلغت شِدَّتُه، حتى لو كاد أنْ يخرج منهم من شدَّةِ امتلاءِ نُفُوسهم وغليانِ قلوبِهم به؛ فإنَّهم يَملِكون أيضًا كتْمَه وحبْسَه.

وهذا يدلُّ على عزيمةٍ راسخةٍ في النَّفْس، وقهْرِ قوَّة إرادتِهم للغضبِ وشهوةِ الانتقام، وهذا من أكبرِ قُوى الأخلاقِ الفاضلة.

وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ

أي: ومِن صِفاتهم أيضًا صَفْحُهم وتَجاوُزهم عن مؤاخذة مَن أساء إليهم- ما لم يتعلَّق بحقٍّ من حقوقِ الله تعالى- مع قُدْرتهم على الانتقامِ منه، فلا تَبقَى بذلك في نُفوسِهم مَوْجِدةٌ على أحد.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

أي: إنَّ جميعَ ما سبَق ذِكْرُه من صفاتٍ للمتَّقين، فهو داخلٌ في عُمُوم الإحسان، الذي هو سببٌ لنيل محبَّة الله تعالى لِمَن تَحلَّى بها، وصارتْ له طبْعًا وسَجِيَّة.

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (135)

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

أي: إنَّ من صِفات المتَّقِين أنَّهم إذا ارتكبوا فَعْلةً قبيحةً قد تَجاوَزت الحدَّ في الفساد، أو فعلوا بأنفسِهم غيرَ الذي كان ينبغي لهم أنْ يفعلوا بها، من رُكوبِهم عُمومَ معصيةِ الله سبحانه، كبيرةً كانتْ أو صغيرة.

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ

أي: إنَّهم إنْ وقعوا في ذَنبٍ، ذَكَروا رحمتَه سبحانه ونِعَمَه عليهم، وما أَعدَّ للطائعين من ثواب، وذكروا عَظمتَه، وبطْشَه وعقابَه، وغير ذلك، فأَوجَب لهم هذا الحياءَ من الله تعالى والخوفَ منه، ففرُّوا إليه في الحال نادِمين، وطالبين منه السَّترَ وعدمَ المؤاخذة على ذُنوبهم.

وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ

أي: لا يَغفر ذُنوبَ العبادِ أحدٌ غيرُ الله تعالى.

وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ

أي: إنَّهم يُقلِعون عن الذَّنبِ ولا يُقيمون عليه- وإنْ تكرَّر منهم مرَّةً بعد مرَّة- وهم يَعلَمون أنَّ ما ارْتكبوه معصيةٌ، وأنَّهم مُعرَّضون للعُقوبة إنْ أصرُّوا عليها، ويعلمون وجوبَ التَّوبة منها إلى الله عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (136)

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ

أي: إنَّ أولئك المتَّقين الَّذين ذكَر الله تعالى بعضَ أوصافِهم، لهم أجرٌ كريمٌ مُقابِلَ ما قدَّموه من أعمالٍ صالحةٍ، وهو أوَّلًا مغفرةُ الله تعالى لهم بسَتْرِ ذنوبهم، والتَّجاوز عن المُعاقَبة بها، فيَنجُون بذلك ممَّا كانوا يحذَرون.

وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أي: ويُثابَون ثانيًا بدخولِ الجنَّات التي تَجري من تحتِ أشجارِها وقصورِها الأنهارُ المتنوِّعة، فيَمكُثون فيها بلا نهايةٍ، وبذلك يَفوزُون بما كانوا يأمُلون.

وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ

أي: ونِعَم جزاءُ العاملين لله تعالى مغفرتُهُ، والخُلودُ في دار كرامتِه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (137-141)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ
الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)

تفسير الآيات:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

أي: قد مضَى على مَن كان قبلكم من الأُمم طرائقُ إلهيَّةٌ جاريةٌ باعتيادٍ على الخَلق، ومِن ذلك: أنْ يكون النصرُ والهزيمة سِجالًا ومداولةً بين المؤمنين والكافرين، ومِن تِلك السُّنن: إمهالُ الكفَّارِ واستدراجُهم حتى يَحين موعدُ إهلاكِهم، وإنجاءُ المؤمنين مِن بعد ابتلائِهم؛ فتلك أمثلةٌ صالحةٌ للعِظةِ والاعتبار.

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ

أي: سِيروا على أقدامِكم وبقُلوبِكم، ناظرين ومُتفكِّرين فيما بقِي للأُممِ الكافرةِ السَّابقة من آثارٍ أرضيَّة، تقِف شاهدةً على جريان سُنَّة اللهِ تعالى في الكافرين بعد إمهالِهم واستدراجِهم، حيث كانت نهايتُهم بإهلاكِهم وتَدميرِهم بأنواعِ العقوبات؛ جرَّاءَ تكذيبهم بآيات الله تعالى ورسلِه عليهم السَّلام.

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)

هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ

أي: إنَّ هذا القُرآنَ العظيم- ومن ذلك: الآيات التي تَقدَّم ذِكرُها- يُبيِّن لعمومِ الناس الأمورَ بوضوحٍ تامٍّ، فيُعرَف به الحقُّ من الباطل، وتنكشفُ به الحقائق، فيتميَّز مِن خلاله أهلُ السَّعادة من أهل الشَّقاوة.

وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ

أي: إنَّ القرآن يُرشِد أهلَ التَّقوى- الذين دأَبوا على امتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه- إلى طريق الحقِّ والرَّشاد، ويَزجُرهم عن سلوك طُرُقِ الغَيِّ والفساد.

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (139)

أي: لا تَضعُفوا ولا تَتثبَّطوا- أيُّها المؤمنون- عن جِهاد عدوِّكم، ولا يُصيبنَّكم الحزنُ؛ بسببِ الهزيمةِ التي تَعرَّضتم لها من قِبَل عدوِّكم يومَ أحد، وما نالَكم فيه من قتْلٍ وجراح؛ فأنتُم الأعلى دائمًا في جميعِ الأحوالِ حتى لو كنتُم مغلوبينَ، ما دُمتُم باقين على إيمانكم؛ فإنَّ هذا الوهنَ والحزنَ غيرُ لائقٍ بالمؤمنين.

قال تعالى: فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ [محمد: 35].

وقال سبحانه: وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ [النساء: 104].

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (140)

إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ

أي: إنْ كنتُم قد أصابتْكم جراحٌ، وقُتِلَ منكم جماعةٌ في غزوة أُحُد، فقد أصابَ أعداءَكم قَريبٌ من ذلك، مِن قتْلٍ وجراحٍ في أُحُد أو بَدْر، فتساويتُم أنتُم وإيَّاهم في ذلك؛ فلا تبتئِسوا.

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعل الأيَّام دُوَلًا بين الناس؛ مؤمنِهم وكافرِهم، فيُصرِّفُها كيف يشاء؛ فمرَّةً يُديل المؤمنينَ على الأعداءِ، فتكونُ لهم الغَلَبَةُ، ومرةً يُديل الأعداءَ على المؤمنين، فتكونُ الغلبةُ لهم؛ ففي بدرٍ كان النصرُ للمُؤمنين، وفي أُحُدٍ كان النصرُ للمُشرِكين.

وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُصرِّف الأيَّام بين الناس نصرًا وهزيمة؛ ليظهرَ بذلك صادقُ الإيمانِ من غيرِه كما عَلِمه الله تعالى بسَابِق عِلْمه في الأزلِ؛ فإنَّ المؤمنين لو كانوا دائمًا مَنصورِينَ، فإنَّ الجميعَ سيُظهرون لهم الموالاةَ، ولن يَتميَّز أعداؤُهم من أوليائِهم حقيقةً.

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ

أي: ومِن أسبابِ إدالةِ اللهِ تعالى الأيَّامَ بين الناس بتمكينِه للكفَّار أحيانًا على بعض المؤمنين: إكرامُ عِبادِه المؤمنين بالشَّهادةِ بالقتْلِ في سبيلِه، كما وقَع يوم أُحُد، ولولا ذلك لَمَا نالوا تلك الحُظوةَ الرَّفيعة، وذلك المقامَ السَّامي.

وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ الكافِرين والمنافِقين، الذين وَضَعوا- بالكفر- أنفسَهم في غيرِ ما خُلِقتْ لأجْله، فبَخَسوها حقَّها؛ ولذا أَقعدَ المنافقين يومَ أُحُدٍ عن القتال مع المؤمنين؛ لأنَّه يُبغضُهم، كما أنَّ الله تعالى إذا أدالَ الكافِرين على المؤمنين أحيانًا لا لأنَّه يُحبُّهم، بل لِمَا سبَق ذِكرُه من أسباب، وإذا أدالَ المؤمنين عليهم فلأجْل محبَّتِه سبحانه لهم.

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (141)

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا

أي: ومِن حِكَم الإدالةِ على المؤمنين تَنقيتُهم من الذُّنوب، سواءٌ بما حصَل لهم مِن قتْل، أو بما أصابَهم من جِراح، ومِن ذلك أنَّهم إنِ انتصروا دائمًا، حصَلَ لنفوسِهم طغيانٌ وضَعْفُ إيمان، يُوجِب لهم العقوبةَ والهوان.

وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ

أي: يُهلِكُهم ويُفنيهم؛ فإنَّهم إنِ انتَصروا طَغَوْا وبغَوْا وبطَروا؛ فيكون ذلك سببًا في استئصالِهم بعقوبةٍ تُدمِّرهم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (142-145)

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

تفسير الآيات:

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (142)

أي: لا تظنُّوا- يا معشرَ المؤمنين- أنْ تنالوا شَرَفَ دخولِ الجنَّة قبلَ أن تُبتَلَوْا، ويرَى اللهُ تعالى- واقعًا ظاهرًا- المجاهدين منكم في سبيلِه، ويرَى كذلك الصَّابرين على الجهادِ وعلى ما يَنالهم من مَصائبَ وآلامٍ، كما وقَع يوم أُحُد.

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (143)

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ

أي: قدْ كنتم- يا مَعشرَ المؤمنين- قبلَ مجيء غزوةِ أُحُدٍ تتحرَّقون شوقًا لمناجزةِ الأعداء، وتَطمَعون في الموتِ؛ لنَيلِ الشَّهادة في سَبيلِ الله تعالى كما وقَع لإخوانِكم يومَ بدر.

فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

أي: ها قدْ حصَل لكم ما تمنَّيتموه من لِقاءِ الأعداءِ، وشاهدتُم بأمِّ أعينِكم يومَ أُحُد الموتَ وأسبابَه وشِدَّته، ومَن يموتُ مِن الناس، أبصرتُم ذلك عِيانًا، فلِمَ لمْ تَثبُتوا وتَصبروا؛ حتى تنالوا ما أردتموه من قبلُ؟!

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (144)

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

أي: إنَّ محمَّدًا - ﷺ - غيرُ مخلَّدٍ في الدُّنيا، بل له أُسوةٌ في إخوانِه المرسَلين في انقضاءِ أجلِه الدُّنيوي بالموتِ أو القتْل، كما وقَعَ لهم من قبلُ.

أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ

أي: هلْ يَعني انقضاءُ أجَل نبيِّكم محمَّد صلَّى الله عليه وسلِّم بالموت أو القَتْل، أنْ يكونَ مبرِّرًا لكم لترتدُّوا عن دِينكم، فترجعوا من بعد نبيِّكم كفَّارًا؟!

وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا

أي: إنَّ كلَّ مَن يَرتدُّ عن دِين الله تعالى، فإنَّما يضرُّ نفسَه في الحقيقةِ، ولن يُصيبَ اللهَ سبحانه شيءٌ من ضررِ ذلك؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ غنيٌّ عنه وعن إيمانه، فلن يُوهِن ارتدادُه سُلطانَه، ولن يَنقصَ ذلك شيئًا من مُلكِه، ولن يَنال اللهَ سبحانه وتعالى بأيِّ سوء.

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ

أي: إنَّ اللهَ تعالى سيُثيب مَن قاموا بشُكر نِعَمه بقلوبِهم وألْسِنتِهم وجوارِحِهم، كالذين ثَبتوا على إيمانِهم، واتَّبعوا محمَّدًا - ﷺ - في حياتِه وبعد مماتِه.

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (145)

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا

أي: لا يَنبغي أن تموتَ نفْسُ أيِّ أحدٍ مِن خَلْق الله تعالى، سواء كان محمَّدًا - ﷺ - أو غيره، إلَّا إذا أذِن الله جلَّ جلاله، وذلك حين يَبلُغ الوقتَ المحدَّد الذي كتَبه اللهُ تعالى لموته، فيَستوفي بذلك المدَّةَ المضروبةَ لحياته الدنيا؛ فأمَّا قبلَ ذلك فلنْ يموتَ أحدٌ لا بكيدِ كائدٍ، ولا بحِيلة محتالٍ، ولو اجتمعتْ حوله جميعُ أسبابِ الموت، فالجُبن لا يَزيد في العُمر، والشجاعةُ والإقدامُ لا تَنقص منه، وفي هذا تقويةٌ للنفوسِ على الجِهاد في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ [النحل: 61].

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا

أي: إنَّ مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ الدنيا فحسبُ، فسيُؤتيه اللهُ تعالى مُبتغاه منها، إنْ شاء، وليس له في الآخِرة من ثوابٍ على تلك الأعمالِ.

قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا [الإسراء: 18].

وقال سبحانه: وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ [الشورى: 20].

وقال عز وجل: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ [البقرة: 200].

وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا

أي: وأمَّا مَن قصَد بأعمالِه وسَعيِه طلبَ ثوابِها الأُخروي، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُعطيه– بإذنه– ما ابْتغَى.

ولا يَمنع هذا مِن نَيلِ نَصيبِه الدُّنيويّ الذي قَسَمه اللهُ تعالى له.

كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا [النساء: 134].

وقال أيضًا: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [البقرة: 201].

وقال سبحانه: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19].

وقال عزَّ وجلَّ: مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ [الشورى: 20].

وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ

أي: إنَّ الله تعالى سيُثيب كلَّ شاكرٍ فضلًا منه سبحانه.

قال تعالى: وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا [الإسراء: 19].



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (146-148)



وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147)

فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)



تفسير الآيات:

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: قَاتَلَ قِراءتان:

1- قِراءة قُتِلَ على البِناء للمَفعول.

2- قِراءة قَاتَلَ على البِناءِ للفاعِل.

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ

أي: كَثيرون هم الأنبياءُ الذين قاتَلَ جموعٌ كثيرةٌ من أتْباعهم، وقُتِلَ كثيرٌ منهم، فلم يحملْ ذلك بقيَّتهم على التزعزع عن دينهم، أو على أن يتركوا جهاد عدوهم.

فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: إنَّ أبدانَهم لم تضعُفْ، وهمَّتهم لم تتَثبط، ولم يَجبُنوا عن جِهادِ العدوِّ؛ بسببِ ما نالهم من جِراحٍ، وغيرِ ذلك مِن أذًى في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا

أي: إنَّ قلوبَهم لم تضعُف، وعَزائمَهم لم تَلِنْ، وقُواهم لم تَخِرْ؛ بسببِ ما أصابَهم، ولم يَذِلُّوا لعدوِّهم.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ

أي: إنَّ الله تعالى يحبُّ هؤلاءِ وأمثالَهم من الصَّابرين على طاعتِه وجِهادِ أعدائه، ويُحبُّ مَن صبرَ عن معصيتِه، وعلى أقدارِه سبحانه.

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا

أي: ولم يكُن لدَى الرِبِّيِّين من قولٍ يَنطِقون به، سوى طلبِ المغفرةِ من الله تعالى بسَتْرِ ذنوبِهم، وسَتْرِ إفراطِهم في جميعِ شؤونِهم، بتجاوُزِهم ما حَدَّه اللهُ تعالى فيها، وطلبِهم التجاوزَ عن المؤاخذةِ بذلك.

وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

أي: ومِن جملةِ دُعائهم: طلبُهم مِن اللهِ تعالى الثباتَ في وجوهِ الأعداءِ لِقتالهم.

وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

أي: ومِن جملةِ ما سألوه ربَّهم سبحانه: أنْ يمنحَهم الفوزَ على الكفَّار.

فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148)

فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ

أي: إنَّ الله تعالى قد منَحهم بفضله جزاءً في الدنيا، كالنَّصرِ على الأعداءِ، والظَّفر بالغنائمِ، وغيرِ ذلك، وضمَّ لهم مع أجْر الدنيا جزاءَ الآخرة الحَسَن، من الفوز بِرِضوانِ الله تعالى، والخلودِ في دار السَّعادة الأبديَّة.

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

أي: إنَّ الله تعالى جازاهم بالإحسان الدُّنيويِّ والأخرويِّ؛ لإحسانِهم العملَ؛ فإنَّ الله تعالى يحبُّ كلَّ محسِنٍ في عِبادتِه سبحانه، وفي تعامُلِه مع مخلوقاتِه.



سُورةُ آل عِمْران

الآيتان (149–155)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153)

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ
يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ
لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي
صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا
اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (149)

أي: احْذَروا- يا عبادَ الله المؤمنين- من طاعةِ الكفَّار فيما يأمرونكم به، وفيما يَنْهونكم عنه، فإنَّ طاعتَهم تَحمِلُكم على الارتدادِ عن الإيمانِ إلى الكفرِ، الذي عاقبتُه الهلاكُ في الدُّنيا والآخرة.

بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (150)

أي: فلا تُطيعوهم خوفًا منهم، أو طلبًا لنُصْرتهم، واستَغْنُوا عن موالاتهم؛ فهم لن يَنصُروكم، بل عليكم أنْ تُطيعوا اللهَ الَّذي يتولَّاكم بتوفيقِه وتأييده ونَصْره؛ فهو خيرُ مَن يَجلِب لكم النَّصرَ.

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (151)

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ

أي: إنَّ الله تعالى بشَّرَ ووعَد عبادَه المؤمنين بأمْرٍ محتومٍ وقوعُه، وقريبٍ حُصولُه، وهو إدخالُ الخوفِ والفزعِ الشَّديد في قلوب الكفَّار.

بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا

أي: إنَّ سببَ قذْفِ الرُّعب في قلوب الكفَّار، هو وقوعُهم في الشِّرك، الذي لا حُجَّةَ ولا دَليلَ على صحَّتِه.

وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ

أي: إنَّ النَّار ستكون المصيرَ الأخرويَّ لأولئك المشركين.

وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ

أي: ساءتِ النَّارُ مَقامًا لكلِّ ظالم.

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (152)

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أَنجَز لكم ما وعَدَكم به يومَ أُحدٍ أيُّها المؤمنون، وهو نصْركم على عَدوِّكم، وكان ذلك في بدايةِ المعركة حين طفِقتُم تَستأصِلونهم بقتْلهم قتلًا ذريعًا، وذلك قد وقَع عن أَمرِ اللهِ تعالى شرعًا وقدَرًا.

حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ

أي: لَمَّا استولَى عليكم الضَّعفُ والخَوَرُ، وجَبُنتم عن القِتال، ووقَع الخلافُ بين رُماتكم؛ هل يَلزَمون ثُغُورَهم- كما عهِد إليهم النَّبيُّ - ﷺ - أم يتحرَّكون لجمْعِ الغنائم، وعصَى بعضُكم في النِّهاية أمْرَ رسولِ الله - ﷺ -، مِن بعدِ أنْ أَظهَرَ الله تعالى لكم ما تُحِبُّونه من انهزام الكفَّار، وتوليتهم الأدبار، فلمَّا وقع ذلك كلُّه، حلَّت بكم الهزيمةُ.

مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ

أي: إنَّ بعضًا منكم- أيُّها المؤمنون- قد ابتَغَوا الدُّنيا، وهم الرُّماةُ الذين تَرَكوا أماكنَهم وأخَذوا في جَمْعِ الغنائمِ والحُطامِ الفاني يَومَ أُحُد، والبعضَ الآخَرَ كانوا يَرغبونَ في أجْرِ الآخرةِ الباقي، وهم الرُّماةُ الذين لزِموا مَقاعدَهم التي أَقعَدَهم فيها النَّبيُّ - ﷺ -.

ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ

أي: بعدَ أنِ انصرفَ بعضُ الرُّماة من المؤمنين من أماكنهم، مُنصرِفين بذلك عن طاعةِ رسوله - ﷺ -، وانصرَفتْ قلوبُهم للدُّنيا، ردَّ الله وجوهَكم عن الكفَّار، فصارتِ الدَّائرة عليكم؛ امتحانًا مِن الله تعالى لكم، ليَتميَّز الطَّائعُ من العاصي، والصَّابرُ على البلاء من الجازِع.

وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد تَجاوَز عن عقوبة استئصالِكم جميعًا أيُّها الرُّماة، لمعصيتكم الرَّسولَ - ﷺ - واستبدَل بها عقوبةً أخفَّ وطأة عليكم، وهي إلحاقُ الهزيمة بكم، وقَتْل بعضكم.

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

أي: إنَّ اللهَ تعالى صاحِبُ الفضلِ على جميعِ المؤمنين؛ لأجْلِ ما معهم من إيمانٍ، ومن ذلك: العَفوُ عمَّا يَقَعُ منهم من عِصيان.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (153)

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ

أي: اذكُروا- أيُّها المؤمنون- حين كنتُم تَجِدُّون في الفِرارِ والإبعادِ في الأرض، ولا أحدَ منكم يَلتفِتُ إلى غيره أو يَنظُر إليه؛ إذ لم يكُن لديكم مِن همٍّ سِوى النَّجاةِ من الأعداء.

وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ

أي: إنَّ محمَّدًا - ﷺ - قد خلَّفتموه وراءَ ظُهورِكم ممَّا يلي جِهةَ العدوِّ، وهو يدعوكم- أيُّها المؤمنون- إلى التَّوقُّفِ عن الفِرار والثَّبات، فلم تَلتفِتوا إليه.

فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ

أي: بسببِ ما قُمْتم به من الفِرار وعدمِ الاستجابةِ للنَّبيِّ - ﷺ - يوم أُحُد، جازاكم اللهُ تعالى بغمِّ نبأِ مَقتَل النَّبيِّ - ﷺ -، وهو أعظمُ من بقيَّةِ الغُموم التي نالتْكم، كفواتِ النَّصرِ والغنائم، وإصابتِكم بالقَتْل والجراح.

لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أَصابَكم بغمٍّ سماعِكم إشاعةَ مَقتَلِ محمَّدٍ - ﷺ -، وهو أشدُّ من الغُموم الأخرى؛ لئلَّا يُصيبَكم الحَزَنُ على ما ذهَب عنكم من النَّصر والغنائم، ولا على ما نالَكم من جراحٍ، وما أصابَ إخوانَكم مِن قتْل، فيُنسيكم سماعُ مقتلِ النَّبيِّ ذلك كلَّه، أو يُخفِّف من وطْأتِه عليكم.

وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه العالِمُ ببواطنِ ما تَعمَلونه من خيرٍ أو شرٍّ- أيُّها المؤمنون- ومِن ذلك: ما قُمتُم به في غزوةِ أُحُد، كما أنَّ ما ترتَّبَ عليها من ابتلاءاتٍ ومِحَنٍ وأسرار، إنَّما هو صادرٌ عن كمال عِلْمه ببواطنِ الأمور.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (154)

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً

أي: إنَّ اللهَ تعالى قدْ أَنزَل عليكم- أيُّها المؤمنون- بعدَ كلِّ تلك الغُمومِ التي أصابتْكم يومَ أُحُد، أنزل عليكم ما به حُلولُ الأمان، وحصولُ الاطمئنانِ في قلوبكم.

نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ

أي: إنَّ الأمانَ الذي نزَل بقلوبهم مصدره النُّعاس الذي غشي أهلَ الإيمان من بين مَن خرج مع رسول الله - ﷺ - لأُحد.

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ

أي: إنَّ ثمَّة جماعةً أخرى مِن بين مَن خرجَ لأُحد، لم يَغْشَهم النعاسُ مِن شِدَّة قلقِهم واضطرابِهم على حياتِهم، وهم المنافِقون الذين لا همَّ لديهم غيرُ أنفسِهم التي يَحذرون من قتْلِها.

يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ

أي: يظنُّ أفرادُ هذه المجموعةِ ظنونًا كاذبةً، كما هو دَيدنُ أهلِ الجهلِ بالله تعالى، وذلك حين رأوا هجمةَ المشركين على المسلمين، وإعمالَ القتْل فيهم؛ إذ ظنُّوا أنَّ دِينَ الله تعالى مُضمحِلٌّ وأتباعَه مَهزومون.

قال تعالى: بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا [الفتح: 12].

يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ

أي: قال هؤلاء الحريصونَ على سلامةِ أنفسِهم مُستنكِرين بأنَّهم لم يكونوا يَملِكون شيئًا من قرارِ خُروجِهم للقِتال.

قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ

أي: قل- يا محمَّدُ- لهؤلاء المنافقين: إنَّ جميعَ الأمور، مُبتدَأها ومنتهاها لله تعالى وحده لا شريكَ له، فهو الذي يُصرِّفها كيف شاء، ويُدبِّرها كيفما أراد، فجميعُ الأمورِ بقضائِه وقدَره، ومِن ذلك خُروجُكم للقتال، وما يقَعُ فيه من نصْرٍ أو هزيمة، كما أنَّ العاقبةَ في النهاية لدِين اللهِ تعالى وأوليائِه، وإنْ وقَع عليهم ما وقَع.

يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ

أي: يُضمِر أولئك المنافقون في نفوسِهم ما لا يُظهرونه لك- يا محمَّدُ.

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا

أي: إنَّ الذي كانوا يُخفونه عنك- يا محمَّدُ- هو قولهم فيما بينهم مُتحسِّرين ونادِمين: لو كان لنا في شَأنِ الخروجِ لهذا القِتال نَصيبٌ من الرأي والاختيارِ في ذلك، لَمَا اتَّخذنا قرارًا بالخروجِ مِن المدينة مُطلقًا، ولَمَا وقعتْ في صُفوفنا مَقتلةٌ.

قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ

أي: قل- يا محمَّدُ- لأولئك المنافقين- ردًّا على قولِهم الذي أسرُّوه وأَطْلَعَك اللهُ تعالى عليه-: إنَّما وقَع ما وقَع بقدَر الله تعالى وحْدَه، وهو حُكمٌ ماضٍ لا بدَّ أن ينفُذ، فحتى لو كنتُم في بيوتِكم التي ليستْ بمظنَّةٍ لوقوعِ القتْل فيها، فسيخرُج منها مَن كتَب اللهُ تعالى عليه ذلك ويأتي الموضعَ الذي يَلقَى فيه مصرعَه.

وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ قد قدَّر عليكم الخروجَ والقتل؛ ليختبرَ قلوبَكم.

وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ

أي: ليَميزَ الله تعالى ما في قلوبِكم من خَبيثٍ وطيِّب، ويُظهرَ أمْرِ المؤمِن والمنافِقِ للنَّاس في أقوالهم وأفعالهم.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ ما تُكنُّه صُدورُ عِبادِه، لا يَخفى عليه شيءٌ من ذلك، ومُجازٍ كلًّا منهم بحسبه. لكنَّ حِكمتَه اقتضتْ أنْ يُقدِّر من الأسبابِ ما تَتبيَّن به مُخبَّآتُ الصُّدور.

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (155)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا

أي: إنَّ الذين ولَّوا منكم المشركين أَدْبارَهم، وانهَزموا عنهم يومَ تلاقى جَمْعُ المسلمين والمشركين بأُحُد، إنَّما أَوْقَعَهم الشيطانُ في تلك الزَّلَّة، وما تَسلَّط عليهم إلَّا بسببِ بعضِ ذُنوبهم.

وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد تجاوزَ عن معاقبةِ أولئك الذين تَولَّوا، فلم يُؤاخِذْهم على فِرارهم.

إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويتجاوزُ عن المؤاخذةِ بها، وهو الذي يُمهِلُ عِبادَه؛ ليتوبوا، فلا يُعاجِلُهم بالعقوبةِ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (156-158)



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156)

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157)

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158)



تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (156)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا

أي: يا أيُّها المؤمنون، لا تَصيروا مثلَ الكفَّار الَّذين قالوا قولًا منكَرًا ناشئًا عن اعتقادٍ فاسدٍ بالاعتراضِ على قضاءِ الله عزَّ وجلَّ وقدَرِه، وهو قولُهم عن إخوانهم من أهلِ الكفرِ الَّذين خرَجوا من بلادهم سَفرًا لأجل التِّجارة وطلب المعيشة، أو خرَجوا غُزاةً للقتال، فماتوا في سَفَرهم، أو قُتلوا في غزوهم: لو أقاموا معنا في بِلادِنا ولم يَخْرُجوا كما فَعَلْنا نحن لَمَا ماتوا في سفَرِهم، ولَمَا قُتِلوا في غَزوِهم.

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَجعلُ هذا القولَ وهذا الاعتقادَ ندامةً في قلوبهم وهمًّا، فتزداد مصيبتُهم بذلك.

وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ

أي: واللهُ تعالى هو وحْدَه الَّذي يملِكُ الإحياءَ والإماتة، فلن يموتَ أحدٌ أو يُقتَل إلَّا بمشيئتِه سبحانه، وذلك بعدَ استكمالِ أجَلِه الَّذي قدَّره الله عزَّ وجلَّ له.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: تَعْمَلُونَ قراءتان:

1- يَعْمَلُونَ على أنَّها خِطابٌ للكافرين.

2- تَعْمَلُونَ على أنَّها خِطابٌ للمؤمنين.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يرى كلَّ ما يَعمَلُه العبادُ، مؤمنُهم وكافرُهم، من خيرٍ أو شرٍّ، قليلٍ أو كثيرٍ، وهو حافظٌ له، وسيُجازيهم عليه.

وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (157)

أي: إنَّكم إذا قُتِلتم في سبيلِ الله تعالى أو أصابَكم الموتُ في سبيله أيضًا، فهذا أمرٌ حسَنٌ ينبغي أنْ تطمَعوا فيه، وتتنافسوا عليه؛ لأنَّه موصلٌ إلى نيلِ مغفرةِ الله تعالى لذُنوبكم، وشمولِ رحمتِه عليكم، وذلك أفضلُ لكم من البقاءِ في هذه الدَّارِ وجمْعِ حُطامِها الفاني، كما يفعلُ أهلُ الدُّنيا.

قال تعالى: قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [يونس: 58].

وقال سبحانه: وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [الزخرف: 32].

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (158)

وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ

أي: إنْ أصابَكم الموتُ أو القتْلُ- أيُّها المؤمنون- فإنَّ مَصيرَكم في النهاية هو العودةُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فيُجازيكم بما صنعتُم، فآثِروا ما يُقرِّبكم من اللهِ تعالى، وكونوا مُطمئنِّين ومستبشرين للقائِه سبحانه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (159-161)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ
وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ
(159) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ (161)

تفسير الآيات:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (159)

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ

أي: بسببِ رحمةِ اللهِ تعالى لكَ ولأصحابِكَ- يا محمَّدُ- ألَانَ قلبَك لهم، فكنتَ سهلًا ورقيقًا في تعاملِك معهم.

قال تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ [التوبة: 128].

وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ

أي: لو كنتَ- يا محمَّدُ- جافيًا سيِّئَ الخُلُق، قاسيَ القلبِ مع أتْباعِك، لنفَروا منك وفارَقوك.

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ

أي: تجاوَزْ عن أصحابِك- يا محمَّدُ- فيما أخطَؤوا أو قصَّروا فيه من حقِّك، واطلبِ المغفرةَ لهم من اللهِ تعالى فيما أخطؤوا أو قصَّروا فيه من حقِّ الله عزَّ وجلَّ، واطلبْ رأيَهم فيما حزَبَك من الأمور

العامَّةِ والمشتبِهة؛ وذلك تطييبًا لقلوبهم؛ ليكونوا لك أطوعَ، وفيما يُقدِمون عليه أنشَطَ، وليقتدوا بك في ذلك مِن بعدِك.

وقد أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين بذلك فقال: فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُم...الآيات [الشورى: 36-43].

فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ

أي: إذا صحَّ عزمُك على أمرٍ من الأمورِ بعدَ استطلاعِ آراءِ أصحابِك فيه، فامْضِ فيه معتمِدًا على حولِ الله تعالى وقوَّته، واثقًا به فحسبُ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ اللَّاجئين إليه، والمعتمِدين في جميعِ أمورِهم عليه.

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (160)

إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ

أي: إذا قدَّر الله تعالى بأنْ يَكونَ النصرُ حليفَكم- أيُّها المؤمنون- فإنَّه لن يَغلِبَكم أحدٌ مُطلَقًا مهما بلغ قوَّةً وكثرة.

وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ

أي: إذا ترَكَكم اللهُ تعالى وخلَّى بينَكم وبين عَدوِّكم، ووكَلَكم إلى أنفسِكم، فلا يُمكن لأيِّ أحدٍ مطلقًا أن يَنصُرَكم من بعدِ خِذلانِ اللهِ تعالى لكم.

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ

أي: وعلى اللهِ تعالى وحْدَه، لا على أيِّ أحدٍ غيرِه، فاعتمِدوا- أيُّها المؤمنونَ- في جلْبِ الخيرِ ودَفْعِ الضُّرِّ، ومِن ذلك النَّصرُ على الأعداءِ، ودفعُ شرِّهم.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (161)

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: يَغُلَّ قِراءتان:

1- يَغُلَّ أي: ما كان لنبيٍّ أنْ يخُونَ في غنيمةٍ أو غيرها.

2- يُغَلَّ، قِيل معناها: ما كان لنبيٍّ أن يُغِلَّه أحدٌ، أي: يخُونَه، وقيل: ما كان لنبيٍّ أنْ يُتَّهم بالغُلولِ فيُخوَّن.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ

أي: وليس الغُلولُ- وهو كِتمانُ الغنيمة، وغيرُها من أوجهِ الخِيانة- من صِفاتِ الأنبياء؛ فذلك محالٌ وممتنعٌ على مَن اختارهم الله تعالى لمقام النُّبوَّة، ولا يَنبغي شرعًا لأحدٍ أن يخُونَهم، أو يُنسُبَ إليهم هذه الصِّفةَ الشَّنيعةَ.

وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: ومَن يخُنْ مِن غنائمِ المسلمين شيئًا فإنَّه يَجيءُ معه يومَ القيامةِ بنَفْسِ الشَّيءِ الَّذي أخَذه على سَبيلِ الخِيانةِ.

ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

أي: إنَّ كلَّ نفسٍ تُعطَى يومَ القيامةِ جزاءَ ما عمِلَتْ كاملًا غيرَ منقوص، فلا يُنقَصُ من حَسناتِهم، ولا يُزادُ في سيِّئاتهم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (162-168)

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162)

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (163)

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164)

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166)

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167)

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)



تفسير الآيات:

أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (162)

أي: هل مَن ترَك الغُلولَ وانتهى عن غيرِه مِن المعاصي، وعَمِل بطاعةِ الله تعالى، قاصدًا بذلك نَيْلَ رضا الله سبحانه، هل هو كالَّذي رجَع متحمِّلًا غضبَ اللهِ عزَّ وجلَّ عليه بوقوعِه في العِصيانِ، أو بترْكِ طاعةِ الرَّحمن، فاستحقَّ بذلك الإقامةَ في جَهنَّمَ، وما أسوأَه مِن مصيرٍ يُرجَع إليه!

قال تعالى: الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران: 173-174].

وقال سبحانه: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ [المائدة: 80].

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ

أي: إنَّ للمتَّبعين رِضوانَ اللهِ تعالى مراتبَ متفاوتةً في العلوِّ، كما أنَّ لِمَن باؤوا بسَخَطِ اللهِ سبحانه دَركاتٍ متفاوتةً في السُّفولِ.

وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

أي: واللهُ تعالى مطَّلعٌ على كلِّ ما يعمَلُه عبادُه من طاعةٍ أو معصيةٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ من ذلك، وهو حافِظٌ لأعمالهم، وسيُجازي كلًّا منهم بحسَبِها.

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (164).

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أنعَمَ على عِبادِهِ المؤمنين بأنْ أرسَلَ إليهم محمَّدًا - ﷺ - من جِنسِهم البشريِّ، فيألَفونه ويفهمون خِطابَه، ويَتمكَّنون من مجالستِه والتَّحدُّثِ إليه.

قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ [الكهف: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا [الإسراء: 94-95].

يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

أي: يقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويأمُرُهم بكُلِّ خيرٍ، ويَنهاهم عن كلِّ شرٍّ حتَّى تطهُرَ نفوسُهم من دَنَسِ الشِّركِ والمعاصي، ورذائلِ الأخلاقِ.

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

أي: ويُعلِّمهم معانيَ القرآنِ الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة.

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

أي: إنَّ المؤمنين كانوا قَبل بِعثةِ محمَّدٍ - ﷺ - إليهم مُنغمِسينَ في جاهليَّةٍ جَهلاءَ، وحيرةٍ عَمياءَ، وانحرافٍ واضحٍ عن طريق الهُدى.

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165)

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا

أي: أحِينَ حلَّت بكم مُصيبةُ غزوةِ أُحُدٍ بقتلِ سبعينَ رجلًا منكم، مع أنَّكم نِلتُم قبلها في بَدْرٍ ضِعْفَيْ ما نالوا منكم عددًا، بقَتلِ سبعينَ، وأَسْرِ سَبعينَ آخَرين، أحينَها تقولون: مِن أين جرَى علينا هذا الأمرُ، وكيفَ حلَّتْ بنا هذه الكارثةُ؟!

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للمؤمنين: هذه المصيبةُ الَّتي وقعتْ عليكم في أُحُدٍ إنَّما كان سببُها هو أنتم أنفسُكم، وذلك حينَ تنازَع بعضُكم فيما بينهم، وعصَوْا أمرَ رسولِهم عليه الصَّلاة والسَّلام.

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أي: إنَّ اللهَ سبحانه وتعالى قادرٌ على جميعِ الأشياء، ومِن ذلك: إيقاعُ العقوبةِ بكم أيُّها المؤمنون، كما حدَث في غزوةِ أُحُدٍ، ومِن ذلك أيضًا: قدرتُه على نصرِكم، فلا تظنُّوا بالله تعالى غيرَ الحقِّ، وإنَّما قدَّر ما قدَّر عليكم في أُحُدٍ مِن الهزيمةِ والإصابةِ بالقَتْل والجِراح لِحكمتِه سبحانه.

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (166)

وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ

أي: إنَّ الَّذي وقَع عليكم- أيُّها المؤمنون- من القَتْلِ والجِراحِ والهزيمةِ يومَ الْتَقيتُم أنتم والمشركون بأُحُدٍ، إنَّما وقَع بقَضاءِ الله تعالى وقدَرِه.

وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: إنَّ ما أصابَكم يومَ أُحُدٍ كان لأجلِ تمييزِ المؤمنين الَّذين صبَروا وثبَتوا مِن غيرهم.

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (167)

وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ

أي: إنَّ ما أصابكم يومَ أُحُدٍ- أيُّها المؤمنون- كان أيضًا لأجْلِ تمييزِ المُنافِقين المندَسِّين بين المسلِمين، الَّذين لَمَّا دُعوا للقِتالِ في سبيل الله عزَّ وجلَّ يومَ أُحُدٍ، أو لأَجْلِ دفْعِ العدوِّ عن البلادِ

والعبادِ، امتنَعوا عن المشاركةِ مُتعلِّلين بعُذرٍ قبيحٍ، وقائلين بكَذِبٍ صريح: لو نعلَمُ أنَّكم تُقاتِلون لَسِرْنا معكم، ولكن لا نَرَى أنَّه سيكونُ بينكم وبينَ المشركين قتالٌ.

هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ

أي: إنَّ أولئك المنافِقين كانوا في تِلك الحالِ الَّتي امتنَعوا فيها عن مشاركةِ المسلِمين في قِتالِ المشركين، كانوا أقرَبَ إلى الكفرِ من الإيمانِ.

يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ

أي: مِن صِفاتِهم أنَّهم يقولون خلافَ ما يُضمِرون في أنفسِهم، ومن ذلك قولُهم: لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ [آل عمران: 167]؛ فإنَّهم قد علِموا وقوعَ القتالِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ

أي: واللهُ تعالى أعلمُ مِن غيرِه بما يكتُمُه هؤلاء المنافِقون، وهو مطَّلِعٌ عليه ومُظهِرُه للمؤمنين، وسيُجازيهم به.

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (168)

الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا

أي: إنَّ أولئك المنافقين الَّذين قعَدوا عن الجِهادِ مع المسلِمين، قالوا: لو سمِع مَن قُتِل مِن قَراباتِنا بأُحُدٍ مشورتَنا بتَركِ الخروجِ للقتال- لَمَا قُتلوا هنالك؛ اعتراضًا منهم على قضاءِ اللهِ تعالى وقدَرِه، وطعنًا منهم في طاعةِ النَّبيِّ - ﷺ - الَّذي أمَر بالخروجِ، فحصَل فيه من القتلِ ما حصَل.

قُلْ فَادْرَؤُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- للقائلين بتلك المقالةِ مِن المُنافِقين: امنَعوا وقوعَ الموتِ عليكم بالقعودِ عن القتالِ، إنْ كنتم صادقين في قولِكم بأنَّ المرءَ يَسلَمُ مِن القتلِ بالقُعود عنه.



سُورةُ آلِ عِمْرانَ

الآيات (169-171)

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170)

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)

تفسير الآيات:

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169).

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قَالَ رَسُولُ الله - ﷺ -: ((لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ، جَعَلَ اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خُضرٍ، ترِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكُلُ مِن ثمارِها، وتأوي إلى قَناديلَ مِن ذهبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجَدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشرَبِهم ومَقيلِهم، قالوا: مَن يُبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا في الجنَّةِ نُرزَقُ؛ لئلَّا يَزهَدوا في الجِهَاد، ولا يَنكُلوا في الحربِ؟ فقال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأنزَلَ اللهُ تعالى: وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)).[60]

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا

أي: لا تظُنَّنَّ- يا محمَّدُ- أنَّ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في جِهادِ أعداء الدِّين- كأصحابِك الَّذين قُتِلوا في أُحُدٍ- أمواتًا لا يَشعرون بشيءٍ، ولا يتمتَّعون ويتنعَّمون.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: قُتِلُوا قِراءتان:

---

(60) أخرجه أبو داود (2520)، وأحمد (2388)، و أصلُه في مسلم (1887). حسَّنه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (338/4)، وصحَّحه ابن الملقِّن في ((شرح البخاري)) (403/17)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (123/4)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2520).

1- قُتِّلُوا -بالتَّشديد- وتعني التَّكثيرَ، أي: قُتِل كثيرٌ منهم.

2- قُتِلُوا-بالتَّخفيف- وتحتملُ التَّقليلَ والتَّكثيرَ، أي: تَعني قُتِل قليلٌ منهم، أو قُتِل كثيرون.

بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

أي: هُمْ على خِلافِ ذلك؛ فهم أحياءٌ حياةً خاصَّةً عند الله عزَّ وجلَّ في دارِ كرامتِه، وبالقُربِ منه سبحانه، مُتنعِّمين في رِزقِ الله تعالى الواسِعِ.

فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

أي: إنَّ هؤلاءِ الشُّهداءَ الَّذين قُتِلوا في سَبيلِ الله تعالى، وهم أحياءٌ عنده، مَسرورون بما منَحهم اللهُ تعالى إيَّاه، مِن النَّعيمِ المبهِجِ، والمُتعةِ العظيمةِ، جُودًا وكرَمًا منه سبحانه.

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

أي: إنَّ هؤلاء الشُّهداءَ مَسرورون أيضًا بإخوانِهم الَّذين ما زالوا أحياءً في عالَمِ الدُّنيا يُجاهِدون في سبيلِ الله تعالى؛ فإنَّهم إذا استُشهِدوا لحِقوا بهم، دون أن يُصيبَهم خوفٌ من أيِّ أمرٍ مستقبلٍ، أو حُزنٍ على أيِّ أمرٍ قد مضى، بل هم آمِنون دائمًا، وفَرِحونَ أبدًا.

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (171)

يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ

أي: إنَّ الشُّهداءَ يَفرَحون بما حَباهم اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ العَظيم،

وبما أَسبَغَ عليهم مِن جزيلِ ثوابِه الكريمِ،

وزِيادةِ إحسانِه العميمِ.

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَأَنَّ قِراءتان:

1- إِنَّ بكسرِ الهمزةِ، فتكون الجملةُ مُستأنَفةً.

2- أَنَّ بفتحِ الهمزة على أنَّ جملة: وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ معطوفةٌ على جملةِ: يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ،

وهذا يَعني أنَّ الشُّهداءَ يستبشرون أيضًا بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤمنينَ.

وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد حَفِظ لأولئك الشُّهداءِ ما قدَّموه مِن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وأعطاهم على ذلك أُجورَهم مِن فَضلِه سبحانه،

وهكذا كلُّ مؤمنٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا يترُكُه، بل يُثيبُه على ما قدَّم.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (172-176)

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ
عَظِيمٌ (172) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ
وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا
تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي
الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176)

تفسير الآيات:

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (172)

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((لَمَّا انصرَفَ المشرِكون عن أُحُدٍ وبلَغوا الرَّوحاءَ، قالوا: لا محمَّدًا قتلتموه، ولا الكواعبَ أردَفْتُم، وبِئسَ ما صنعتُم، ارجِعوا، فبلَغ ذلك رسولَ الله - ﷺ -، فندَب النَّاسَ فانتدبوا حتَّى بلَغوا حمراءَ الأسدِ وبئرَ أبي عِنَبَةَ، فأنزَل اللهُ تعالى: الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ [آل عمران: 172...)).[(61)]

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ

أي: الَّذين أَجابوا أمْرَ اللهِ تعالى ورَسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام بالنُّهوضِ مجدَّدًا لردِّ هجومٍ مُتوقَّعٍ من المشركين عقبَ غزوةِ أُحُدٍ مباشرةً، على الرَّغم ممَّا ألَمَّ بهم من جِراحٍ وآلامٍ جَسديَّةٍ، وأُخرى نفسيَّةٍ بسببِ القتْلِ والهزيمةِ الَّتي لحِقَتْهم في أُحُدٍ.

لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ

---

(61) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11083)، والطبراني (11/247) (11632). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (6/124): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن منصور الجواز وهو ثقة. وصحَّح إسنادَه الشوكانيُّ في ((تفسير الشوكاني)) (1/597)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (66).

أي: إنَّ الَّذين أَحسَنوا منهم في أعمالِهم وامتثَلوا ما أمَر اللهُ تعالى به، واجتنَبوا ما نهى عنه، لهم ثوابٌ جَزيلٌ، وأجرٌ واسع من اللهِ تبارَك وتعالَى.

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173)

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ

أي: خوَّفهم وحَذَّرهم بعضُ النَّاسِ من أنَّ كفَّارَ قُريشٍ قد أعدُّوا العُدَّةَ للكَرَّةِ عليهم، وأنَّه لا قِبَلَ لهم الآن بقتالِهم.

فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

أي: لم يَجبُنوا ولم يتزَعْزَعوا، بل منَحهم ذلك التَّخويفُ زيادةً في الطُّمأنينةِ، وقوَّةً في الإيمانِ واليقين، مُعلِنين بأنَّهم وكَلوا أمرَهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه ليكفيَهم شرَّ أعدائِهم؛ فهو سبحانه نِعْمَ مَن يُوثَق به في تفويضِ الأمورِ.

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (174)

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما قال: ((... وقد كانَ أبو سُفيانَ قال للنَّبيِّ – ﷺ –: مَوعدُك مَوسِمُ بَدْرٍ حيث قتلتُم أصحابَنا، فأمَّا الجبانُ فرجَع، وأمَّا الشُّجاعُ فأخَذ أُهْبَةَ القِتالِ والتِّجارةِ فلم يَجِدوا به أحدًا، وتسوَّقوا، فأنزَل اللهُ تعالى: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ [آل عمران: 174])).[62]

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ

أي: انصرَفَ الصَّحابةُ الَّذين استجابوا للهِ تعالى ورسولِه تأهُّبًا لردعِ المشركين، انصرَفوا مِن مَنطقةِ حمراءِ الأسدِ دون أن يَلقَوْا بها عَدوًّا، راجعين بأَجْرِ الجهادِ في سبيله، وبالأرباحِ الَّتي نالوها من الاتِّجارِ هناك.

لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

أي: لم ينَلْهم أيُّ أذًى أو مَكروهٍ مِن عدوِّهم.

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ

أي: رجَعوا أيضًا برِضَا اللهِ تعالى عنهم؛ فقدْ أرْضَوُا اللهَ تعالى باستجابتِهم لِمَا أمَرهم به، وانقيادِهم لرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام لردعِ الأعداء.

---

(62) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11083)، والطبراني (11/247) (11632). قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (6/124): رجاله رجال الصحيح غير محمَّد بن منصور الجواز وهو ثقة. وصحَّح إسنادَه الشوكانيُّ في ((تفسير الشوكاني)) (1/597)، وصحَّحه الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (66). وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (8/76): رجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس.

وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ

أي: إنَّ اللهَ تعالى صاحبُ الفضلِ الكبيرِ والإحسانِ العميمِ على عِبادِه، في الدُّنيا والآخِرَة، ومِن ذلك تَفضُّلُه على هؤلاءِ الصَّحابةِ الكرامِ بالعودةِ مِن غَزوِهم هذا سالِمين مِن العدوِّ، راجِعين برِضا اللهِ تعالى عنهم، وبما نالوه من الأُجورِ الأُخرويَّة، والمكاسِبِ الدُّنيويَّة.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (175)

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ

أي: إنَّما المخوِّفُ لكم في الحقيقةِ هو الشَّيطانُ، وقد أرادَ أنْ يُوقِعَ في قلوبِكم الخوفَ مِن أَنصارِه حِزبِ المشركين لترهَبوهم.

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

أي: فلا تَخافوا مِن المشركين أولياءِ الشَّيطان، وخافوا مِن اللهِ تعالى وحْدَه إنْ كُنتم مؤمنين حقًّا؛ فهو الَّذي يَنصُر أولياءَه، ويملأ قلوبَهم أمنًا، ويَكفيهم شرَّ أعدائِهم.

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (176)

وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ

أي: لا يُصيبك الحزنُ- يا محمَّدُ- مِن هؤلاءِ الَّذين يُبادِرون بأقوالِهم وأَفعالِهم مُتعجِّلين الوقوعَ في الكفرِ، أو التَّوغُّلَ فيه.

إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

أي: إنَّ هؤلاءِ لن يُلحِقوا باللهِ بمسارعتِهم في الكفرِ، أيَّ نوعٍ من أنواعِ الأذى، صغيرًا كان أو كبيرًا.

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ

أي: يُريدُ اللهُ تعالى بمسارعتِهم في الكُفرِ أنْ يَخذُلَهم، فلا يكونَ لهم أيُّ نصيبٍ مِن نعيم الآخرةِ، قليلًا كان أو كثيرًا.

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

أي: إنَّهم مع حِرمانِهم من نعيمِ الآخرة، لهم عقوبةٌ كبيرةٌ عند الله تعالى.



سُورةُ آل عِمْران

الآيات (177-180)

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (177)

أَيْ: إنَّ هؤلاءِ الذين استبدَلوا الإيمانَ بالكفرِ لا يُصيبون اللهَ تعالى بأيِّ ضرَرٍ كان، وإنَّما يَضرُّون في الحقيقةِ أنفُسَهم؛ فبذلك يَستحِقُّون عُقوبةَ اللهِ تعالى المؤلِمةَ.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (178)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ

أَيْ: لا تظنَّ- يا مُحمَّدُ- ولا يظنَّ الكفَّارُ كذلك، أنَّ إطالتَنا لهم في أعمارِهم، وترْكَهم يَتمتَّعون في دُنياهم، وعدَمَ مُعاجَلَتِهم بالعقوبة- أنَّه خيْرٌ وكرامةٌ مِن الله تعالى لهم ودليلٌ على مَحبَّتِه لهم ورِضاهُ عنهم كما يبدو في الظَّاهر.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ قِراءتان:

1- تَحْسَبَنَّ على معنى أنَّ الخِطاب للنَّبيِّ - ﷺ -.

2- يَحْسَبَنَّ على أنَّها نَهيٌ للذين كفروا.

إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا

أَيْ: حقيقةُ الأمْرِ أنَّ ذلك شرٌّ عليهم، وإنَّما منحَهم الله تعالى إطالةَ العُمْرِ وسَعَةَ الرِّزْق وحُصولَ النَّصْر وغيْرَ ذلك؛ مِن أَجْل أن يكتسبوا المزيدَ مِن الآثام؛ فتَكثُرَ سيِّئاتُهم.

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

أَيْ: إنَّ لهؤلاء الكفَّار المستكبِرين عُقوبَةً تُذِلُّهم وتُهينُهم.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179)

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

أَيْ: إنَّه من المُمْتَنِع على حِكْمة اللهَ عزَّ وجلَّ أن يدَعَ عبادَه المؤمنين على ذات الحال التي هُم عليها من اختلاطِهم بالمنافِقين تحتَ مُسمَّى (الإسلام) الذي يجمعهم، من دونِ أَنْ يُعرف هذا مِن هذا، بلْ لا بُدَّ أَنْ يَجعلَ كلَّ واحدٍ منهما مُتميِّزًا عن الآخر، مُنفصِلًا عنه بِلا لَبْسٍ بينهما؛ ولذا يَعقِد الله تعالى أَسبابًا مِن المِحَن يُظهِر فيها وليَّه، ويُفضَحُ فيها عدُوُّه، كما فعل بهم يوم أُحُدٍ.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ [الأنفال: 36-37].

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ

أَيْ: مِن الممتَنِع على حِكمَة الله تعالى أيضًا أَنْ يُطلِعَكم على ضَمائرِ قلوبِ عِبادِه؛ كَيْ يُظهرَ لكم المؤمِنَ من المنافِق، ولكِنَّه يَعقِد الأسبابَ التي تَكشِف لكم هذا الأمْرَ، وتَظهرُ بها طَوايا النَّاس.

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ

أَيْ: لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يختارُ بعضَ رُسُله عليهم الصَّلاة والسَّلام؛ لِيُطلِعَهم على بعض الغيبِيَّات بحِكمتِه وإذْنِه سُبحانَه، ومِن ذلك: إطْلاعُهُ محمَّدًا - ﷺ - على عددٍ من المنافِقين.

قال سُبحانَه: قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ [الجن: 25-27].

فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

أَيْ: حَقِّقُوا إيمانَكم باللهِ تعالى وجميعِ رُسُله عليهم السَّلامُ بالتَّصديق التَّامِّ، والانقيادِ والاستسلامِ؛ فهذا هو المطلوبُ منكم.

وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ

أَيْ: إنَّكم إذا حقَّقْتم المطلوبَ منكم بالإيمانِ بالله تعالى ورُسُلِه، وامتثَلْتُم ما أمرَكم اللهُ تعالى ورسولُه به، واجتنَبتُم ما نهاكم اللهُ تعالى ورسولُه عنه، إنْ قُمْتُم بذلك؛ فقد استحقَقْتُم نَيْلَ ثَوابٍ مِن الله تعالى كبيرٍ.

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (180)

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ

أَيْ: لا تظنَّنَّ- يا مُحَمَّدُ- ولا يظنَّنَّ هؤلاء الذين يشِحُّون بأموالهم التي رزَقهم الله تعالى؛ كرَمًا منه عن أداء حقِّه فيها، أَنَّ بُخلَهم هذا خيْرٌ لهم من العطاء الذي يُنقص المال كما يبدو في الظاهر.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَلَا يَحْسَبَنَّ قراءتان:

1- قراءة تَحْسَبَنَّ على الخِطاب للنبيِّ - ﷺ -، أَيْ: لا تحسَب- يا مُحَمَّدُ.

2- قراءة يَحْسَبَنَّ بإضافةِ الفِعل إلى ما بَعدَه، أَيْ: لا يَحسبنَّ الذين يبخلون.

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ

أَيْ: ليس الأمرُ كما يَظنُّون؛ فامتناعُهم عن أداءِ حَقِّ الله تعالى فيما رزَقَهم من أموالٍ بُخْلًا منهم، هو في حقيقةِ الأمْرِ شرٌّ من هذا النقْصِ الذي يَبدو لهم، ومضرَّةٌ عليهم في دِينهم ودُنياهم.

سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَيْ: سيَجعل اللهُ تعالى المالَ الذي بَخِل به مَن منعَ حقَّ اللهِ تعالى فيه، سيجعلُه طَوْقًا يُحيطُ بعُنُقِ صاحبه، ويُعذَّب به يوم القيامة.

وقال الله عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ [التوبة: 34-35].

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أَيْ: إنَّ كلَّ أملاكِ الخَلْقِ مرَدُّها بعدَ فنائِهم إلى اللهِ تعالى وحْدَه؛ فهو المالكُ ذو المَلَكوت، والحيُّ الباقي الَّذي لا يموتُ؛ فأنفِقوا في حياتِكم مِمَّا جعلَكم اللهُ عزَّ وجلَّ مُستَخلَفين فيه، وقدِّموا فيها من أموالِكم ما يَنفعُكم يومَ تأتون إلى الله سُبحانَه، وليس معكم شيءٌ مِمَّا كنتُم تملكون؛ فلا مَعنى للبُخْل بشيءٍ زائلٍ عنكم، ومُنتقِلٍ إلى غيرِكم.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

أَيْ: إنَّ الله عزَّ وجلَّ مُطَّلِعٌ على خفايا أعمال الخلْق ومُطَّلِعٌ على نيَّاتهم وضمائرهم، وسيجازيهم على أعمالهم ونيَّاتهم بحسْبها، ومن ذلك: هؤلاء الذين يبخلون بما آتاهم الله تعالى من فَضْلِه؛ فإنَّ الله سبحانَه مُطَّلِعٌ على ما يُخفونَ ويَكنِزون، ويعلمُ إنْ كانوا قد أدَّوا حقَّ الله تعالى فيه أمْ لا، وإنْ خَفِيَ ذلك على غيرِه.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: تَعْمَلُونَ قِراءتان:

1- يَعْمَلُونَ على الغَيْبة؛ جرْيًا على يَبْخَلُون وسَيُطَوَّقُونَ.

2- تَعْمَلُونَ على الالْتفاتِ للمُخاطَب؛ فيكون ذلك خِطابًا للباخِلين.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (181-184)

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181)

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (182)

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183)

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184)

تفسير الآيات:

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (181)

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((قال أبو بكرٍ رضِي اللهُ عنه لفِنْحَاص- وكان مِن علماءِ اليهودِ وأحبارِهم-: اتقِ اللهَ وأسْلِم، فواللهِ إنَّك لَتعلمُ أنَّ رسولَ اللهِ - ﷺ - مِن عندِ الله، جاءَكم بالحقِّ من عندِه، تَجدونَه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فِنْحَاصُ: يا أبا بكر، واللهِ ما بنا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن فَقْرٍ، وإنَّه إلينا لَيفتَقِر، وما نتضرَّع إليه كما يَتضرَّع إلينا، وإنَّا عنه لَأغنياءُ، ولو كان عنَّا غنيًّا لَمَا استقرَضَنا أموالَنا كما يزعُم صاحِبُكم؛ يَنهاكم عن الرِّبا ويُعطِيناه، ولو كان عنَّا غنيًّا ما أعطانا الرِّبا، فغضِب أبو بكْرٍ فضرَبَ وجهَ فِنحَاص، فأخبر فِنْحاصُ رسولَ الله - ﷺ -، فقال رسولُ اللهِ - ﷺ - لأبي بكْر: ما حمَلَك على ما صنعتَ؟ فأخبرَه، فجَحَد ذلك فِنْحَاص، وقال: ما قلتُ ذلك، فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ [آل عمران: 181] الآية)).[63]

---

(63) أخرجه الطبريُّ في ((تفسيره)) (7/441)، والطحاويُّ في ((شرح مُشكِل الآثار)) (1830)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (4589). حسَّن إسنادَه ابن حجَرٍ في ((فتح الباري)) (8/79)، وقال أحمدُ شاكر في ((عمْدة التفسير)) (1/444): إسناده جيِّد أو صحيح.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ

أَيْ: قد سمِع اللهُ جلَّ جلالُه قولَ اليهودِ الذين قالوا في الله عزَّ وجلَّ مقالةً شنيعةً؛ بإضافةِ النقْصِ إليه سبحانَه فقالوا: إنَّ الله فقيرٌ إلينا؛ لأنَّه طلَب منَّا أنْ نُقرِضَه مِن أموالِنا! ثُمَّ جعَلوا أنفسَهم أكملَ مِن الله تعالى؛ فقالوا: ونحن أغنياءُ عنه!

سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

أَيْ: سيَكتُب الله عزَّ وجلَّ ما قالوه في شأنه مِن الإفْك والفِريَة عليه ورِضاهم واستحلالِهم لِمَا قام به أسلافُهم مِن أفعالٍ فظيعةٍ بقتْلهم أنبياءَه سُبحانَه دون حُجَّةٍ أو عُذْرٍ يُسوِّغ لهم فِعْلَ ذلك؛ فسيكتُب اللهُ تعالى ذلك ويَحفظُه عليهم؛ ليُجازيَهم به.

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

أَيْ: يقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ إهانةً وإذلالًا لأصحابِ تِلك المقالةِ الشَّنيعةِ في حقِّه سبحانَه: ذوقوا عذابَ النَّار المحرِقة.

ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (182)

أَيْ: يُقال لهم: إنَّما استحقَقْتُم هذا العذابَ المخزِي؛ بسببِ ما اكتسبتموه في حياتِكم من آثامٍ؛ ولأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ حكَمٌ عدْلٌ مع كلِّ أحدٍ، لا يُجازي كلَّ نفسٍ إلَّا بما كسَبتْ، دون أن يَنقُصَ من حسناتها شيئًا أو يَزيد على سيِّئاتها شيئًا.

فما قدَّمتْ أيديهم أوجَبَ لهم حُصولَ العذاب، وعدْلُ اللهِ أوجَبَ كوْنَ هذا العذابِ في مِقدارِه المشاهَد من الشِّدَّة؛ حتَّى لا يظنُّوا أنَّ في شدَّته إفراطًا عليهم في التَّعذيب.

ثُمَّ ذكر شُبْهةً أخرى لهم، فقال:

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (183)

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ

أَيْ: هؤلاءِ اليهود الَّذين ادَّعَوْا كَذِبًا وافتراءً على اللهِ تعالى بأنَّه أَوْصاهم بوصيَّةٍ مُؤكَّدةٍ في كُتُبهم وعلى ألْسِنة رُسُله تَقضي بألَّا يَنقادوا مؤمِنينَ ومُذعنين لكلِّ مَن يقولُ: إنَّه مُرسَلٌ مِن عند الله تعالى حتَّى يُثبِتَ صِدْقَ رِسالتِه بأمرٍ واحدٍ، وهو: أنْ يَجيءَ بشيءٍ ممَّا يُتقرَّب به إلى اللهِ تعالى من الصَّدقات، فإنْ أكلَتْه النارُ كان ذلك دَلالةً على قَبولِ اللهِ تعالى منه ذلك وصِحَّة رسالتِه من ربِّه.

فجَمعوا بين الكذبِ على اللهِ بنِسبةِ الوصيَّة إليه، وحَصْرِ آيةِ صِدْق الرُّسُل بما قالوه، مع أنَّها مُعجِزةٌ لا تَطَّرِد لسائرِ الأنبياءِ كما زعَمَه اليهودُ؛ فإنَّ مُعجِزاتِ الرُّسل عليهم السَّلام إنَّما تجيءُ على ما يُناسِب تصديقَ الأُمَّة.

قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ

أَيْ: قُل- يا مُحَمَّدُ- لهؤلاء اليهود؛ ردًّا على ما زَعموه مِن افتراءٍ: قد أتَى أسلافَكم- يا مَعشَرَ اليهود- رُسُلٌ مِن اللهِ تعالى مِن قَبْل بَعْثتي، كانوا مُزوَّدين بالحُجَج، ومُدَعَّمين بالمعجِزات التي تُثبِت صِدْقَ رسالتِهم، وأتَوهم أيضًا بالذي ادَّعيتم من تقديمِهم قرابينَ تَأكُلُها النار، فوقعَتْ على أيديهم هذه المعجِزةُ التي تمسَّكتم بها.

فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أَيْ: ما دام أنَّه سبَق وأنْ جاءَتكم الرُّسُلُ بالذي زَعَمتُم أنَّه حُجَّةٌ لتصديقِهم، فلِمَ قام آباؤكم إذنْ بقتْلِهم إنْ كنتُم مُحقِّين في دَعْواكم الإيمانَ برسولٍ يأتي بقُربان تأكلُه النار؟! فتبيَّن بهذا كَذِبُهم، وعِنادُهم وتناقضُهم، وظهَر أنَّه ليس امتناعُهم مِن اتِّباع مُحمَّدٍ - ﷺ -؛ لعدمِ ظُهورِ هذه المعجِزة.

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (184)

أَيْ: إنْ كَذَّبَك- يا مُحَمَّدُ- هؤلاء اليهودُ، فلا يُوهِنك ولا يَحزُنك ذلك، ولك أُسْوَة بمَن قبلَك؛ فأنتَ لستَ بأوَّلِ مَن يُكذَّب، بل كُذِّب عددٌ من الرُّسُل عليهم السَّلام مع أنَّهم أتَوا أقوامَهم بالحُجَج القاطِعة والمعجِزات الباهِرة السَّاطعة، وبالكُتُب المنزَّلة مِن الله تعالى، المشتمِلةِ على المَواعِظ والزَواجِر، المضيئةِ لطريق الحقّ بذكْرِ الأحكامِ العادِلة والأخبارِ الصَّادِقة.

سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (185-186)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)

تفسير الآيات:

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (185)

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

أَيْ: إنَّ كلَّ نفْسٍ لا بُدَّ أنْ يُدركَها الموتُ، فتَنتقلَ بذلك مِن عالَمِ الفناءِ إلى عالمِ البَقاء.

قال تعالى: وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ [الأنبياء: 34-35].

وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أَيْ: لا يُؤدَّى إليكم كامِلُ الجزاءِ على أعمالِكم- خيرِها وشرِّها- إلَّا في يومِ القيامة.

فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ

أَيْ: فمَن نُحِّي عن النارِ وجُنِّبها وأُدخِلَ الجنَّة، فقد نجَا وظَفِرَ بعظيمِ كرامةِ الله تعالى.

وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ

أَيْ: ليستْ هذه الحياةُ الدُّنيا بما فيها مِن لذَّاتٍ وشهواتٍ إلَّا مُجرَّد مُتْعَةٍ زائلةٍ تخدع صاحبَها؛ فلا يَنبغي لعاقلٍ أنْ يَركنَ إليها.

قال تعالى: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى [القصص: 60].

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

أَيْ: لَتُختَبَرُنَّ في أموالِكم بوقوعِ المصائِب فيها: كتَلفِها، أو حُصولِ النقْص مِنْها، ولَتُمتحَنُنَّ أيضًا في أنفُسِكم: كأمرِكم بالجهادِ في سبيلِ الله، وما يَحصُل فيه مِن خوْفٍ وجِراحٍ وأسْرٍ وقتْلٍ، أو بإصابتِكم بمرَضٍ في أبدانِكم، أو موْتِ أحدِ أبنائِكم.

قال تعالى: وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ [البقرة: 155].

وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا

أَيْ: إنَّ أعداءَكم مِن المشركين وأهْل الكتاب لا بدَّ أنْ يؤذوكم كثيرًا بألْسنتِهم، ومن ذلك تَكرُّرُ طعْنِهم في دِينِكم، والنُّطْق بمعتقداتِهم الباطِلة.

وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

أَيْ: إذا تسلَّحتُم- أيُّها المؤمنون- بسِلاحِ الصَّبرِ على ما يُصيبكم مِن بلاءٍ في أموالِكم وأنفسِكم، وعلى ما تَسمعونه مِن أذًى في دِينِكم مِن المشركين وأهْل الكِتاب، واستعملتُم التَّقوى بفِعْلِ أوامرِ اللهِ تعالى واجتنابِ نواهِيه- فإنَّ ذلك الصَّبرَ والتقوى مِن الأمورِ التي تَحتاج إلى هِمَّة عالية، ويَنبغي التصميمُ عليها.

قال تعالى: إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ [آل عمران: 120].



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيتان (187-188)



وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188)



تفسير الآيات:

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ (187)

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ

أَيْ: واذْكُر- يا مُحَمَّدُ- حين عَهِد اللهُ عزَّ وجلَّ إلى اليهودِ وغيرِهم مِن أهل الكتاب عَهْدًا مؤكَّدًا: بأنْ يُبيِّنوا ما في كتُبهم للنَّاس ولا يُخفونه أبدًا، ومن ذلك صِفةُ مُحمَّدٍ - ﷺ - وإثباتُ رِسالتِه.

فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

أَيْ: فكانتِ النتيجةُ أنَّهم نقَضوا هذا العهْدَ، وترَكوا العملَ به، ككِتمانِهم صِفةَ محمَّدٍ - ﷺ - عن الناس.

وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

أَيْ: أرادُوا مُقابِلَ نقْضِهم عَهدَ الله تعالى بكِتمانهم ما في كتُبهم- الحصولَ على حُظوظٍ دُنيويَّةٍ خسيسةٍ مِن مَناصِبَ أو أموالٍ، أو غيرِ ذلك.

فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ

أَيْ: فبِئستِ الصفْقَةُ صَفْقتُهم، وما أخْسرَها مِن تجارةٍ! لأنَّهم اختاروا الدَّنِيءَ الخَسيسَ، وترَكوا العاليَ النَّفيس.

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (188).

سببُ النُّزول:

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجالًا مِن المنافقين على عَهْدِ رسولِ اللهِ - ﷺ -، كان إذا خرَجَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إلى الغَزْوِ تخَلَّفُوا عنه، وفَرِحُوا بمقعدِهم خِلافَ رسولِ اللهِ - ﷺ -، فإذا قَدِمَ رسولُ اللهِ - ﷺ - اعتَذَرُوا إليه وحَلَفُوا، وأحَبُّوا أنْ يُحْمَدوا بما لم يَفْعَلوا، فنزَلَتْ: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا الآيةُ)).(64)

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا

أَيْ: لا تظُنَّنَّ- يا مُحَمَّدُ- ولا يَظُنَّنَّ الَّذين يَفرحون بما فعَلوه من أقوالٍ وأفعالٍ باطِلة: ككِتْمان العِلم لمَن سألهم كاليهود، والتخلُّف عن الغزْو في سبيل الله تعالى كالمنافقين، وكأعمال المتزيِّنين للنَّاس المُرائين لهم بما لم يَشرَعْه الله ورسولُه.

(64) رواه البخاريُّ (4567)، ومُسلِم (2777).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ قِراءتان:

1- قراءة (تَحْسَبَنَّ) بالخِطابِ إلى النبيِّ - ﷺ -، وجَعْله الفاعِل، والَّذِينَ يَفْرَحُونَ مفعولًا.

2- قراءة (يَحْسَبَنَّ) بجَعْل الفاعل: الَّذِينَ يَفْرَحُونَ.

وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا

أَيْ: وهم مع ذلك يُحِبُّون أنْ يُثني الناسُ عليهم بالخَيرِ، على طاعاتٍ لله تعالى لم يَقوموا بها.

فجمَعوا بذلك بين فِعْلِ الشَّرِّ والفرَحِ بذلك، ومحبَّةِ حَمْدِ النَّاسِ لهم على الخيرِ الذي لم يَفعلوه.

فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ

أَيْ: لا تَظُنَّهم- يا مُحمَّدُ- ولا يظُنَّ أولئك القومُ أنفسَهم أنَّهم في سَلامةٍ ونجاةٍ من عذابِ الله تعالى.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ قِراءتان:

1- قراءة (يَحْسَبُنَّهُمْ) بجَعْل الفِعلِ للذين يفرَحون بما أَتوا ويُحبُّون أنْ يُحمدوا بما لم يَفعلوا، أَيْ: فلا يَحْسَبون أنفسَهم بمفازةٍ من العذابِ.

2- قِراءة (تَحْسَبَنَّهُمْ) بجَعْل الفِعل خِطابًا للنبيِّ - ﷺ -.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

أَيْ: إنَّهم قد استحقُّوا عذابًا مُؤلمًا سيَصيرون إليه.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (189-195)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا

مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192)

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا

سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

(195)



تفسير الآيات:

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (189)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَه المالكُ لكلِّ شيءٍ؛ فيَملِكُ السَّمواتِ والأرضَ وجميعَ ما حوتْه من أصنافِ الخَلْق.

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

أي: إنَّ الله عزَّ وجلَّ له كمالُ القُدرةِ على كلِّ شيءٍ، فلا يمتنعُ عليه أحدٌ، ولا يُعجِزُه شيءٌ سبحانه.

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190)

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أي: إنَّ في ابتداعِ اللهِ تعالى وإيجادِه من العدمِ هذه السَّمواتِ والأرضَ، المبهرةَ في إتقانِ صُنعِها، والعظيمةَ في سَعتِها وفي حُسنِها وجمالِها، والعَجيبةَ فيما أودَعَ اللهُ تعالى فيها مِن منافعَ عَديدةٍ، ومَخلوقاتٍ عجيبةٍ، وغير ذلك.

وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

أي: إنَّ في تعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ على العبادِ وتفاوتهما طولًا وقِصرًا، وغير ذلك.

لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ

أي: إنَّ في خَلْق تِلكِ المخلوقاتِ العجيبةِ وما تَحويه من الأشياءِ المبهرةِ العظيمة، لعلاماتٍ لأصحابِ العقولِ السَّليمةِ التي تُدرِكُ حَقائقَ الأشياء، فتدلُّهم على أنَّ خالقَ ذلك هو الربُّ المعبودُ وحْدَه سبحانه، كما تدلُّهم على صِفاتِ الله تبارَك وتعالَى.

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191)

الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

أي: إنَّ أُولي الألبابِ هم الذين يُديمون ذِكرَ اللهِ تعالى بقلوبِهم وألْسنتِهم، وفي جميعِ أحوالِهم، في حالِ وُقوفِهم، وحالِ جُلوسِهم، وحالِ اضطجاعِهم.

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أي: إنَّ مِن صِفاتِهم أيضًا أنهم يُعمِلون عُقولَهم في خَلْقِ اللهِ تعالى للسَّمواتِ والأرض؛ ليَستدلُّوا بذلك على المقصودِ منها، ويَفهموا ما فيها من الحِكمِ الدالَّةِ على صِفاتِ الخالقِ جلَّ وعلا.

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ

أي: إنَّهم حين يَتفكَّرون في خَلْقِ السَّمواتِ والأرض، يقولون: إنَّك يا ربَّنا، لم تَخلقْ هذا الخَلْقَ عبثًا ولا لهوًا؛ فأنتَ مُنزَّهٌ عن ذلك، ولكنَّك خلقتَه لِحِكمةٍ ولأمرٍ عظيمٍ، من تكليفٍ وبعْثٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فتُجزي كلَّ أحدٍ بما عمِله من خيرٍ أو شرٍّ.

كما قال سبحانه: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ [ص: 27].

وقال تعالى: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ [الحجر: 85].

فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ

أي: يا مَن خلقتَ الخَلْقَ بالحقِّ والعدل، وأنتَ منزَّهٌ عن النقائصِ والعيوب، أَجِرْنا من عذابِ النار، بأنْ تُوفِّقَنا للأعمالِ الصالحات، وتُجنِّبَنا بفضلِك الذُّنوبَ والسيِّئات.

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192)

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ

أي: إنَّ مَن أدخلتَه النارَ يا رَبَّنا، فقدْ أَهنتَه وفَضحْتَه.

وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ

أي: إنَّهم إنَّما دخلوا النارَ بظُلمِهم، وليس للظالمِ يومَ القيامةِ أحدٌ يُنقذُه من عذابِ اللهِ تعالى.

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (193)

رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ

أي: إنَّهم قالوا: يا ربَّنا، إنَّنا قد سمِعْنا داعيًا يَدْعو إلى الإيمانِ، وهو محمَّدٌ - ﷺ -.

أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

أي: يقولُ للنَّاسِ: آمِنوا بربِّكم، فبَادَرْنا إلى الاستجابةِ له، فأَقرَرْنا بالحقِّ وقبِلْناه، مُنقادِين إليه، ومُذعِنين له.

رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، استُرْ علينا ذُنوبَنا، وتجاوزْ عن مُؤاخذتِنا بها.

وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا

أي: بإيمانِنا واتِّباعِنا نبيَّك، امحُ عنَّا خَطايانا؛ فالحسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئاتِ.

وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ

أي: اجعلْنا إذا قَبضتَ أرواحَنا إليك في عِدادِ الصَّالحين.

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)

رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ

أي: أعطِنا- يا ربَّنا- ما وعَدتَنا به على ألْسنةِ رُسلِك عليهم السَّلامُ، من النَّصرِ على الأعداء، ومِن الثوابِ على الأعمالِ الصَّالحة.

وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: لا تَفْضَحْنا بذُنوبِنا على رُؤوسِ الخلائقِ، ولا تُذِلَّنا يومَ القيامةِ.

إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ

أي: فإنَّا قد عَلِمْنا بأنَّك لا تُخلفُ وعدَك لعبادِك.

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

(195)

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

أي: فأجابَ اللهُ تعالى أولئك الدَّاعين، بأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ منهم محفوظٌ لديهِ؛ قلَّ أو كثُر، وسواء كان صادرًا مِن ذكَر أو أُنثى؛ فلا فَرْقَ بينهم في الثَّوابِ وإجابةِ الدعوات، مِثلما أنَّه لا فَرْقَ بينهم في اتِّباع مِلَّةِ الإسلام.

فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا

أي: إنَّ الذين غادَروا قومَهم من أهلِ الكُفر، واسْتَوْطَنوا دارَ الإيمانِ مع إخوانِهم في الله، وطرَدَهم المشركونَ أو ضايقوهم بالأذَى حتى أَلْجَؤوهم إلى الخروجِ من بين أَظهرِهم، ووقَعَ عليهم الأذى بسببِ إيمانِهم باللهِ تعالى وطاعتِهم له سبحانه، وقاتَلوا في سبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلمتِه، وقُتِلوا تَقتيلًا كثيرًا، مِثل أصحابِ رسولِ الله – ﷺ –، ورضِي اللهُ عنهم.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا قِراءات:

1- قِراءة (وَقُتِلُوا وَقَاتَلُوا) قيل: على معنى أنَّ بعضَهم يُقْتل، فيَقْتُل الباقون مَن بقِي مِن عَدوِّهم، وهذا أبلغُ في مَدحِهم؛ لأنَّهم يُقاتِلون بعد أن يُقْتل منهم، فلم يَهِنوا بعدَ قتْلِ أصحابِهم.

2- قراءة (وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا) قيل: على معنى أنَّهم قاتلوا أحياءً ثم قُتِلوا؛ لأنَّ القتْلَ لا يكونُ إلَّا بعدَ قِتال.

3- قراءة (وَقَاتَلُوا وَقُتِّلُوا) بتشديدِ التاء، على معنى التَّكثير.

لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ

أي: إنَّ أولئك المؤمنين والمؤمنات؛ بسببِ ما حصَل لهم مِن تلك الأشياءِ مِن هِجرةٍ وجِهادٍ وغيرِ ذلك، يمحو اللهُ تعالى عنهم خَطاياهم.

وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: لأُسكِننَّهم جنَّاتٍ تَجري في خلالِها أنواعٌ من الأنهار؛ جزاءً عظيمًا لهم على ما قدَّموا، وأبْلَوْا في سبيلِ العظيمِ الكريم.

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عنده الجزاءُ الحسن لِمَن عمِلَ صالحًا، ممَّا لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَر على قلبِ بشَرٍ.



سُورةُ آل عِمْرانَ

الآيات (196-200)

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196)

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198)

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)

تفسير الآيات:

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196)

أي: لا تَنخدعْ- يا محمَّد- بظاهرِ ما عليه الكفَّارُ من تردُّدٍ على البلاد، وتنقُّلٍ فيها بأنواعِ التِّجاراتِ والمكاسبِ، بما يجعلُهم في بَحبوحةٍ في العيش، وترَفٍ في الحياةِ، وعِزٍّ وغلبةٍ في بعضِ الأوقات.

قال تعالى: مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ [غافر: 4].

مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)

مَتَاعٌ قَلِيلٌ

أي: إنَّ هذا الذي عليه الكفَّارُ إنما هو لذائذُ فانيةٌ؛ فزمنُها محدودٌ، وتَنتهي بانقضاءِ أعمارِهم، وهي مُتعةٌ قليلةٌ كمًّا وكيفًا.

ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

أي: إنَّهم مُنتقِلون بعدَ مماتِهم وذَهابِ مُتعِهم، إلى الإقامةِ في نارِ جَهنَّم.

قال الله عزَّ وجلَّ: نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ [لقمان: 24].

وَبِئْسَ الْمِهَادُ

أي: وبئس الفراشُ والمقرُّ هي، أي: جهنَّم.

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (198)

لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أي: أمَّا الذين امتَثلوا ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتَنبوا ما نَهى عنه، فإنَّهم يُمتَّعون في الدارِ الآخِرةِ في جَنَّاتٍ تَجري من خلالها أنواعٌ من الأنهار، وهم ماكثونَ في هذا النَّعيمِ على الدَّوام.

نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: إنَّ الله تعالى قدْ أعدَّ لهم تلك الجنَّاتِ مَنزلَ ضِيافةٍ دائمًا مِن كرامةِ اللهِ تعالى لهم.

وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ

أي: إنَّ ما عندَ اللهِ تعالى من النَّعيمِ والكرامةِ خيرٌ للطَّائعين- الذين أحْسَنوا العملَ- من متاعِ الدُّنيا القليلِ الزَّائل.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (199)

سببُ النُّزول:

عن أنسٍ رضِي اللهُ عنه قال: لَمَّا جاء نعْيُ النَّجاشيِّ، قال رسولُ اللهِ - ﷺ -: ((صلُّوا عليه، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، نُصلِّي على عَبدٍ حَبشيٍّ؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ الآية)).(65)

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

أي: إنَّ طائفةً من أهلِ الكتابِ مِن اليهودِ والنَّصارى يُؤمنون باللهِ تعالى حقَّ الإيمان، ويقرُّون بوحدانيَّته.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ

أي: إنَّهم يُؤمنون أيضًا بالقرآن، الذي أُنزل على محمَّدٍ - ﷺ -.

وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ

أي: ويُؤمنون أيضًا بالكتُب السابقةِ، التي أَنزلها اللهُ تعالى إليهم كالتَّوراة.

خَاشِعِينَ لِلَّهِ

أي: والحالُ أنَّهم خاضِعون للهِ تعالى، مُستكينين له ومُتذلِّلين.

لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

---

(65) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (11088)، والبزار (6556)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1287)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (5147). وثَّق رجالَ الطبرانيِّ الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (3/41)، وصحَّح إسنادَه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3044)، وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (70): الحديث بمجموع طُرقه يَرتقي إلى الحُجيَّة.

أي: لا يُحرِّفون ما في كُتُبِهم، ولا يُبدِّلونه، ولا يَكتمون ما فيها من العِلم- ومِن ذلك البشارةُ بمحمَّدٍ - ﷺ -، وبيانُ صِفتِه للناس-؛ ليَحْصُلوا في مُقابلِ ذلك على متاعٍ دُنيويٍّ زائل، مِن منصبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، وغير ذلك.

أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

أي: إنَّ لأولئك القومِ المؤمنين ثوابًا عظيمًا عندَ اللهِ سبحانه.

إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ

أي: إنَّ حسابَ اللهِ عزَّ وجلَّ قريبٌ؛ لسُرعةِ انقضاء الدُّنيا، كما أنَّه سبحانه يُحاسبُ الخلائقَ يومَ القيامة على أعمالِهم في مُدَّةٍ وجيزةٍ جدًّا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (200)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا

أي: يا أيُّها المؤمنون، اصبِروا على جميعِ ما أمَرَكم اللهُ تعالى بالصَّبرِ عليه، كالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والصَّبرِ عن مَعصيتِه، والصَّبرِ على أقدارِه سبحانه.

وَصَابِرُوا

أي: وغالِبوا بالصبرِ أَعداءَ الدِّين، حتى تَنتصِروا عليهم؛ فلا يكونوا أصْبَرَ منكم.

وَرَابِطُوا

أي: والْزَموا الإقامةَ في الثُّغورِ؛ لِمَنْعِ العدوِّ من الوصولِ إليها، والنفوذِ منها إلى مُبتغاه.

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

أي: استعمِلوا تَقوى اللهِ عزَّ وجلَّ بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، ومِن ذلك: الأوامرُ السَّابقة، مِن الصَّبرِ والمصابرةِ والمرابطةِ في سبيلِه؛ وذلك مِن أجْل تحقيقِ الفوزِ بالمطلوب، والنَّجاةِ من المرهوبِ في الدُّنيا والآخِرة.









تَفْسِيرُ
سُورَةِ النِّساءِ

سُورةُ النِّساءِ

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ النِّساء:

فعن مَعْدَانَ بن أبي طَلحةَ اليَعمُريِّ، قال: إنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ رضِي اللهُ عنه خطَب يومَ جمعةٍ، فذكَر نبيَّ اللهِ - ﷺ -، وذكَر أبا بكرٍ، ثم قال: إنِّي لا أَدعُ بعدي شيئًا أهمَّ من الكَلالةِ، ما راجعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلالةِ، وما أَغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيهِ! حتى طعَنَ بإصبَعِه في صَدْري، وقال: يا عُمرُ، ألَا تكفيك آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النساءِ؟! وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيةٍ، يَقضي بها مَن يقرأُ القرآنَ ومَن لا يقرأُ القرآنَ.(66)

- عن عبدِ الله بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ - وهو على المنبر-: ((اقرأْ عليَّ القرآنَ، فقلت: يا رسولَ الله، أقرأُ عليك وعليك أُنْزِل؟! قال: إنِّ أَشتهي أن أسمعَه من غيري، قال: فقرأتُ عليه سورةَ النِّساء حتى بلغتُ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ

---

(66) رواه مسلم (1617).

شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا [النساء: 41- 42]، رفعتُ رأسي، أو غمزني رجلٌ إلى جنبي- وفي رواية: بيده- فرفعتُ رأسي، فنظرْتُ إليه فرأيتُ عينيهِ تسيلُ))[67]

- عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، عن رسولِ الله - ﷺ -، قال: ((مَن أخذ السَّبْعَ الأُولَ من القرآن، فهو حَبرٌ)).[68]

- عن واثلةَ بن الأسقعِ رضِي الله عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((أُعطِيت مكانَ التوراة السَّبْعَ الطِّوالَ... الحديث)).[69]

---

(67) رواه البخاري (5055)، ومسلم (800) واللفظ له.

(68) رواه أحمد (82/6) (24575)، والبزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (165/7)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (407/3) (1377)، وابن الضريس في ((فضائل القرآن)) (72)، ورواه سعيد بن منصور في ((التفسير)) (69)، الحاكم (752/1) بلفظ : فهو خير. قال ابن الجوزي في ((العلل المتناهية)) (111/1): لا يصح، وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (55/1): غريب، وقال الهيثمي: رجال البزَّار رجالُ الصحيح غير حبيب بن هند الأسلمي، وهو ثقة، ورواه بإسنادٍ آخَرَ رجالُه رجالُ الصحيح. وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (5979).

(69) رواه أحمد (107/4) (17023)، والطبراني (75/22) (186)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (487/2) (2484). قال البغويُّ في ((تفسيره)) (61/1)، وابن كثير في ((تفسير القرآن)) (55/1):غريب، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (49/7): فيه عمرانُ القَطَّان، وبقيَّةُ رجاله ثقات. وصحَّحه الألبانيُّ بمجموع طرقه في ((السلسلة الصحيحة)) (1480).

- عن عبدِ اللهِ بن مَسعودٍ رضِي اللهُ عنه، قال: (إنَّ في النِّساء لخمسَ آياتٍ، ما يسرُّني بهنَّ الدُّنيا وما فيها، وقد علِمتُ أنَّ العلماء إذا مرُّوا بها يعرفونها: إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا [النساء: 31]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40]، وقوله: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ [النساء: 48]، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا [النساء: 64]، وقوله: وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا [النساء: 110].[70]

- عن حُذيفةَ بن اليمانِ، قال: ((صلَّيتُ مع النبيِّ - ﷺ - ذاتَ ليلةٍ، فافتتَح البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المئةِ، ثم مضى، فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ، فمضى، فقلتُ: يركع بها، ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا)).[71]

سورةُ النِّساء مدنيَّةٌ؛ حُكي في ذلك الإجماعُ.

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، أنها قالت: ((وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساء إلَّا وأنا عنده)).[72]

ولا خِلافَ أنَّ النبيَّ - ﷺ - إنَّما بَنَى بها بالمدينة.

---

(70) رواه سعيد بن منصور في ((سننه)) (4/1297)، والطبراني (9/250) (9069)، والحاكم (3194). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (7/14): رجاله رجال الصحيح.

(71) رواه مسلم (772).

(72) رواه البخاري (4993).

مِن أبرزِ المقاصدِ التي تَضمَّنتها سورةُ النِّساء:

1- الاهتمامُ بالعقيدة وتوحيدِ الله سبحانه وتعالى وقضايا الإيمان، والردُّ على العقائد الباطلة، وإيضاح الحُجَّة على صِحَّة نبوَّة محمَّد صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتحذير من المنافقين.

2- العناية بالأُسرة، وتنظيم العلاقة بين الزوجينِ، وحقوق الأرحام، وبيان نظام الإِرْث، وتقسيم التَّرِكات.

3- الاهتمام بأُسُس بناء الدولة الإسلاميَّة، ومقوِّماتها، والجهاد في سبيل الله.

4- الاهتمامُ بحِفظ الدِّماء وأحكامها، وحِفظ الأموال، ورعاية حقوق اليتامى.

أبرزُ الموضوعاتِ التي تناولتْها سورةُ النساء:

1- تناولتْ سورةُ النساء الحديثَ عن المرأة، ففصَّلت الكثيرَ من أحكامها، وأوضحتْ كثيرًا من حقوقِها، وأطالتِ السورةُ الكلامَ في هذا الجانب.

2- نظَّمت السورةُ الكثيرَ من العَلاقات القائمةِ بين الرجُل والمرأة؛ ومنها: موضوع القِوامة، وإباحة النِّكاح والتعدُّد فيه للرجل، وحق المرأة في الكرامة الإنسانية والمهر والميراث، وحُرمة عَضْل النساء، وأحكام الرَّضَاع، كما حثَّتْ على الفضيلة، وزجرت عن إتيان الفاحشة، وتطرَّقت أيضًا إلى العَلاقة مع مِلْك اليمينِ، إلى غير ذلك.

3- تحدَّثت عن حقوق الأيتام والسُّفهاء، وكيف التعامُل مع أموالِهم.

4- فيما يتعلَّق بالأموالِ، تناولت السورة موضوعَ تحريمِ أكْل أموالِ النَّاسِ بالباطل، والتحذير مِن فِعل ذلك، والحثَّ على الإنفاق في سبيل الله، وتوعُّد الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبُخل.

5- تطرَّقت السورةُ إلى بيان الكثير من الأحكام الفقهيَّةِ مع بيان يُسْرِ الشَّريعةِ، وإرادة الله التخفيفَ عن عباده، ومراعاة ضَعْفهم، ومن هذه الأحكام: أحكامُ المواريث، وحُرمة صلاة السَّكران في حالة سُكرِه، ووجوب الاغتسال من الجَنابة لمن أراد الصَّلاة، ومشروعية التيمُّم وأحكامه، كما أَوضحتِ السورةُ بعضًا من أحكام الجناياتِ، والدِّيَات، مع بيان عِظَم دماء المؤمِن، وجزاء مَن يقتل مؤمنًا متعمِّدًا، وغير ذلك من الأحكام الفقهيَّة.

6- تحدَّثت السورةُ عن أهلِ الكتابِ، وبيَّنت بعضَ ما هُمْ عليه من الضَّلال، وما حلَّ عليهم من الغضب واللَّعن، وذَكَرت بعضَ تعنُّتِهم، ونَقْضهم للعهود، وكُفْرهم بالآيات، ومعاملتهم السيِّئة لأنبياء الله، التي وصلت إلى قتْل بعضِهم. ثم تناولَتْ دعوتَهم إلى الدِّين الحقِّ، ونهيَهم عن الغلوِّ في الدِّين، ومن ذلك غلوُّهم في المسيح عيسى ابن مريمَ، وقولهم بالتثليث.

7- تَطرَّقتْ إلى قضيةِ الحُكم في الإسلام، وإلى ما يَنبغي أنْ يقومَ عليه الحُكمُ في الدَّولة الإسلاميَّة، وهو العدلُ، ووجوبُ الطاعةِ لله والرسولِ وأُولي الأمر، وأنْ يكون المرجعُ في التنازع هو شَرْعَ الله، حتى جعلَتِ الإيمانَ مربوطًا بتحكيمِ الشَّرع، والرِّضا والتسليم له.

8- الحديثُ عن المنافقين، وفضْحُهم، وبيانُ الكثير من أعمالهم، وتصرُّفاتهم، ودَسائسهم، وعقوبتهم، ومكانهم في الآخرة، وأنَّهم في الدَّرْك الأسفل من النار.

9- ومِن المواضيع التي تحدَّثت عنها السورةُ: الأمْرُ بالقتال في سبيل الله، ولإعلاء كلمته، ولنُصرة المستضعَفين من المؤمنينَ، موضِّحةً الأجرَ العظيمَ لِمَن يُقاتِل في سبيل الله، والفضل الجزيل للمجاهدين على القاعدين، ومبيِّنةً بعضَ الأحكام التي يحتاج لها المقاتلُ في سبيل الله؛ كالتعامُل مَع مَن يُلقِي السلام، وأحكام صلاة الخوف، والقَصْر للصَّلاة.

10- حضَّت السورةُ على عمَل الخير، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة؛ ومنها: العدل، وأداء الشَّهادة لله كما هي، ولو كانت على النَّفْسِ، أو الوالدينِ أو الأقربين، وألَّا يتَّبِعوا أهواءَهم فيَقعوا في الظُّلم، ومنها: أداءُ الأمانات، والحثُّ على الإحسانِ للخَلْق، ومراعاة الأقرَبينَ من الوالدينِ والأقاربِ والجيرانِ، وكذلك مراعاةُ المحتاجين من الفُقَراء والمساكينِ والضعفاءِ، والإحسانِ إليهم.

11- بيانُ العداوة الأزليَّة بين الشيطانِ وبينَ بني آدمَ، وكيف أنَّ الشيطانَ توعَّد بإضلالِ جزءٍ من العِبادِ.

12- الحثُّ على الإيمانِ بالله ورُسله وكُتُبِه واليومِ الآخِر، وتوحيد العبادة، وبيانُ خطورةِ الشِّرك، والنَّهْي عن اتِّخاذِ الكافرينَ أولياءَ من دون المؤمنينَ، والأمرُ بتقوى الله عزَّ وجلَّ، والاعتصام به، والتمسُّك بدِينه.

13- ذَكَرتِ السورةُ طَرَفًا من خبرِ أنبياء الله تعالى.



سُورةُ النِّساءِ

الآية (1)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (1)

تفسير الآية:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ

أي: يا أيها الناس حققوا تقوى الله عزَّ وجلَّ، بامتثالِ أوامره، واجتنابِ نواهيه؛ وذلك لأنَّه ربُّكم، أي: خالِقُكم ومالِكُكم ومُدبِّركم.

ولَمَّا أمَر الله عزَّ وجلَّ بتقواه، وذكَر السبَّبَ الدَّاعيَ لهذه التَّقْوى، ذكَر سببًا آخرَ موجِبًا لها، فقال:

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ

أي: الذي أوجدكم جميعًا- أيُّها الناس- من نَفْسٍ واحدةٍ، وهي آدَمُ عليه السَّلام.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [الأنعام: 98].

وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا

أي: وأَوجَدَ مِن آدَمَ عليه السَّلامُ امرأتَه حوَّاءَ عليها السَّلام.

كما قال سبحانه: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا [الأعراف: 189].

وعن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((استوصُوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلقتْ من ضِلَعٍ، وإنَّ أعوجَ شيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهبتَ تقيمُه كسَرْتَه، وإنْ تركتَه لم يزلْ أعوجَ، فاستوصُوا بالنِّساءِ)).

وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً

أي: إنَّ الله سبحانه قد نشَر من آدمَ وحواءَ عليهما السَّلام في أقطارِ الأرض أعدادًا كثيرةً من الرِّجال والنِّساء، فجميعُهم بنو أبٍ واحدٍ، وأمٍّ واحدةٍ.

كما قال سبحانه: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20].

ثم ذكَر داعيًا آخرَ من دواعي تقواه جلَّ وعلا، فقال:

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ

أي: امتثِلوا ما أمَرَكم الله تعالى به، واجتنِبوا ما نهاكم عنه؛ فإنَّ تساؤُلَكم به، وتعظيمَكم له سبحانه، من الموجِبِ الدَّاعي لتَقْواه؛ حتى إنَّكُم إذا أرَدْتُم قضاءَ حاجاتِكم، توسَّلْتُم بها بالسُّؤالِ بالله، فيقول مَن يريد ذلك لغيرِه: أسألُك باللهِ أن تفعلَ كذا؛ لعِلمه بما قام في قلب الغيرِ من تَعظيمِ الله الذي يَمنعه أنْ يردَّ مَن سأله بالله؛ فكما عَظَّمتُم الله تعالى بذلك، فلْتعظِّموه أيضًا بتقواه سبحانه.

وَالْأَرْحَامَ

أي: واحْذروا من أنْ تَقطعوا أرحامَكم، وتُفَرِّطوا في أداءِ حقِّهم، وكما تتوصَّلونَ بهذه الصِّلة فيما بينكم لعِظَمِها من أجْل قضاءِ حاجةٍ، أو نَيْل مأرب، فآتوها حقَّها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ

في قوله تعالى: وَالْأَرْحَامَ قراءتان:

1- وَالْأَرْحَامِ على أنَّها معطوفةٌ على الهاءِ في (به)، أي: تساءلونَ باللهِ وتَسَاءلون بالأرحامِ، أي: تتوسَّلونَ بها.

2- وَالْأَرْحَامَ على أنَّها معطوفة على لفظ الجلالةِ، أي: واتَّقوا الأرحامَ أن تَقْطَعوها.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى مراقِبٌ لجميع أعمالِكم، وحافِظٌ لها، ومِن جُملةِ ذلك ما أمَرَكم به من تقوى ربِّكم، ورِعايةِ حُرمة أرحامِكم.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (2-6)

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا (2) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى
وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا
(3) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4)
وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ
قَوْلًا مَعْرُوفًا (5) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا
إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6)

تفسير الآيات:

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (2)

وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ

أي: أعطُوا- يا مَعشرَ أوصياءِ اليتامى- أموالَهم إليهم كاملةً، إذا بلغوا الحُلُمَ ورَشَدُوا.

كما قال تعالى: وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ [النساء: 6].

وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ

أي: لا تأخذوا مالَ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وتَترُكوا ما أحلَّ اللهُ تعالى لكُم مِن غيرِ ذلك، ومِن استبدالِ الخبيثِ بالطيِّبِ أنْ يأخُذَ الوليُّ مِن مالِ اليتيمِ النَّفيسَ، ويجعل بدلَه من مالِه الخسيسَ.

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ

أي: لا تضُمُّوا أموالَ اليتامَى إلى أموالِكم؛ بقصد أن تأكلوا أموالَهم بالباطلِ.

إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا

أي: إنَّ ضمَّ أموالِ اليتامى مع أموالكم بقَصْد أكلِها بالباطل، إثمٌ عظيم.

كما قال الله عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا [النساء: 10].

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (3)

سببُ النُّزولِ:

عن عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رجلًا كانت له يتيمةٌ فنكَحها، وكان له عَذْق، وكان يُمسكها عليه، ولم يكُن لها من نفْسِه شيءٌ، فنزلت فيه وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى– أحسَبه قال: كانتْ شريكتَه في ذلِك العَذْق وفي مالِه.[73]

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى

أي: وإنْ خِفتُم ألَّا تحقِّقوا في تزوُّجِكم بيتامى النِّساء اللاتي تحت ولايتكم، العدلَ معهنَّ والقيامَ بحُقوقهنَّ.

فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ

أي: فإنْ خَشِيتُم عدَمَ إقامة العدل معهنَّ، فانكحوا غيرهنَّ ممَّن تطيبُ بهنَّ نفوسكم.

---

(73) رواه البخاري (4573) واللفظ له، ومسلم (3018) بنحوه.

مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ

أي: مُباحٌ لكم أن تتزوَّجوا باثنتين من النِّساء، أو بثلاث، أو بأربعٍ.

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً

أي: فإنْ خَشِيتُم عدمَ إقامَةِ العَدلِ بتَعدادِ النِّساء، فلْتَقْتصروا على التزوُّج بواحدةٍ فحسبُ.

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: أو اقتصِروا على الجواري السَّراري؛ فإنَّه لا يجب عليكم القَسْمُ بينهنَّ.

ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا

أي: إنْ خفتم ألَّا تعدِلوا بين النساء إن عدَّدْتُم، فاقتصرتُم لذلك على واحدة، أو تسرَّرتم مِلْكَ أيمانكم، فذلك أقربُ إلى تحقيقِ العَدلِ، والبُعدِ عن الجَور والظُّلْم.

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (4)

وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً

أي: أعطُوا من أَرَدْتم الزواجَ بهنَّ من النساء مهورَهنَّ، عطيةً واجبةً، طيبةً بها نفوسُكم.

فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا

أي: فإنْ وهَب لكم نساؤُكم– أيُّها الأزواج– مُهورَهنَّ أو بعضًا منها، عن رِضًا وطيبِ نفْس منهنَّ بذلك.

فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا

أي: فخذوه حلالًا طيِّبًا لكم، لا حرجَ عليكم في ذلك ولا تَبِعة.

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (5)

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا

أي: لا تُعطوا- أيُّها الناس- أموالَكم التي جعَلَها الله لكم قِيامًا- يقوم بها عيشُكم، وتحقيق مصالحكم- لا تعطوها لِمَن لا يُحسِن التصرُّفَ في المال، والقيام عليه وحِفظه؛ إمَّا لعدم عقْله كالمجنون، أو لعدم رُشده كالصَّغير، أو لغير ذلك من أسباب، حتَّى لو كان هذا المالُ مالَهم على الحقيقةِ وأنتم عليه أوصياءُ، فلا تُعطوهم إيَّاه طالَما كانوا سفهاءَ لا يُحسنون التصرُّفَ فيه؛ كي لا يَهلِك، وليكُنْ حرصُكم على أموالهم كحِرصِكم على أموالِكم.

وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ

أي: ولكنْ أنفِقوا من تلك الأموالِ على طعامِهم وشَرابِهم ومَلابِسهم وما يتعلَّق بضروراتِ عَيشِهم كمَسكنِهم، وليتَكم تتَّجِرون لهم في مالِهم؛ كي ينموَ ويكونَ الإنفاقُ عليهم من الرِّبح، لا مِن أصلِ المالِ.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

أي: وقولوا لهم قولًا طيِّبًا، كأنْ تَعِدُوهم إنْ طلبوا أموالهم، بأنَّها ستُدفَع إليهم بعدَ رُشدهم، أو حين إعطائكم لهم رزقًا أو كسوةً ونحو ذلك، قولوا لهم قولًا هيِّنًا وليِّنًا بغير منٍّ ولا أذًى.

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (6).

وَابْتَلُوا الْيَتَامَى

أي: اختبِروا عقولَ الأيتامِ ممَّن تحت ولايتِكم، وذلك قُبيلَ وصولِهم سِنَّ البلوغ، واختبِروا أفهامَهم، وصلاحَ دِينهم، وقُدرتَهم على إصلاح أموالهم.

حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا

أي: اختبِروهم إلى أن يَصِلوا سِنَّ البلوغِ، فإذا بلغوا الحُلُمَ، وأدركتم منهم حُسنَ تصرُّفٍ، وقدرةً على إصلاح الأموال.

كما قال تعالى: وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ [الأنعام: 152].

فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ

أي: فأعطوهم في هذه الحالِ أموالَهم كاملةً، ولا تحبِسوها عنهم.

وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا

أي: لا تَأخُذوا من أموالِ اليَتامى شيئًا من غيرِ حاجةٍ، فتتجاوزوا في ذلك إلى غيرِ ما أباحَه اللهُ تعالى لكم مِن أموالِهم.

وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا

أي: لا تَأكُلوها في حالِ صِغَرِهم- قبلَ بُلوغِهم وإيناسِ الرُّشدِ منهم- التي لا يُمكنُهم فيها أخذُها منكم، ولا مَنعُكم من أكْلِها، لا تأكلوها استعجالًا منكم بذلِك قبل أن يَكبَروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ

أي: ومَن كان مِن أولياء اليتامى في غنيةٍ عن أموالهم، فليتنزَّهْ عن أخْذِ أُجرةٍ من مالِ اليتيمِ نظيرَ قيامِه عليه، ولْيَكتفِ بماله.

وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ

أي: ومَن كان ذا حاجةٍ من أولياء اليَتامى، أخَذَ من أموالهم بحسَب ما جرَى العُرْف على أنَّه يَسدُّ حاجتَه ويَكفي مِثلَه من الفُقراء.

فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ

أي: إذا سلَّمتُم– يا معشرَ أولياءِ اليتامى– أموالَهم إليهم، فأَشْهِدوا عليهم بقبضها كاملةً منكم؛ لئلَّا يقعَ منهم لاحقًا إنكارٌ لِمَا تَسَلَّموه.

وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا

أي: إنَّ الله تعالى يَكفي عن كلِّ أحدٍ آخَر من الشهود؛ محاسبةً وشهادةً ورقابةً على أولياء اليتامى.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (7-10)

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7)

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8)

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)

تفسير الآيات:

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (7)

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

أي: إنَّ الذكورَ والإناث يستوونَ في أصْل الوراثةِ في حُكم الله تعالى؛ فكلٌّ ينالُ من الإرث قِسطًا وحِصَّةً، مما خلَّفه الميّت، وإن تفاوتوا بحَسَب ما فرَض الله تعالى لكلٍّ منهم، بما يُدلي به إلى الميِّت من قرابةٍ، أو زوجيَّةٍ، أو وَلاء.

مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ

أي: للذُّكورِ والإناث نصيبٌ من الإرث، سواء كان قليلًا أو كثيرًا.

نَصِيبًا مَفْرُوضًا

أي: ذلك النَّصيب لكلٍّ منهم، حصَّةٌ واجبةٌ، معيَّنةُ المقدار.

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (8)

وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ

أي: إذا حضَر توزيعَ الميراثِ الأقاربُ غيرُ الوارثين، والأيتامُ، والمحتاجون.

فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ

أي: فأعطوهم شيئًا ممَّا تيسَّر من هذه التَّركة؛ برًّا بهم، وإحسانًا إليهم، وجبرًا لخواطرهم بما لا يضُرُّكم؛ فإنَّ نفوسَهم متشوِّفةٌ إليه.

وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا

أي: فلْتقولوا لهم قولًا حسنًا جميلًا، تَطِيبُ به نفوسُهم.

وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (9)

قيل المعنى: مَن سمِع مُحتضَرًا، قد ظلَم في وصيَّته أو أضرَّ بسببها بورَثَته، فعليه أن يتَّقيَ اللهَ تعالى، ويأمرَه بالعدلِ فيها، ويُسدِّدَه للصَّوابِ، كما يحبُّ أن يُصنَعَ بورثتِه إذا خَشِي عليهم الضَّيْعةَ.

وقيل المراد: أنَّ على أولياء اليتامى معاملتَهم في مصالحهم الدِّينيَّة والدنيويَّة، بما يحبُّون أن يُعامَل به ذُرِيَّتُهم الضِّعافُ من بعدِهم، فلْيتَّقُوا الله تعالى في وِلايتِهم لهم، فكما تحبُّ أن تُعامَل ذرِّيتُك من بعدك، فعامِل الناسَ في ذرِّياتِهم إذا وَلِيتَهُم.

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (10)

إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا

أي: إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامى في الدُّنيا بغير حقٍّ، سيُعاقَبون على ذلك بأنْ تتأجَّجَ في بطونهم نارٌ يومَ القيامةِ.

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا

أي: وسيُحرَقون بنارٍ مشتعلة، متوقِّدة، شديدٍ حرُّها.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (11-14)

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13)

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)



تفسير الآيات:

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)

سببُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رضِي اللهُ تعالى عنه، قال: ((عادَني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم، وأبو بكر في بني سَلِمة ماشِيَين، فوجدني النبيُّ صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّم لا أعقِلُ، فدعا بماءٍ فتوضَّأ منه، ثم رشَّ عليَّ فأفقْتُ، فقلْتُ: ما تأمُرني أن أصنعَ في مالي يا رسولَ الله؟ فنزَلَت يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ)).(74)

وعن جابرٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((جاءتِ امرأةُ سعدِ بنِ الرَّبيعِ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ - بابنتَيها مِن سعدٍ، فقالت: يا رسولَ الله، هاتانِ ابنتَا سعدِ بنِ الرَّبيع، قُتِل أبوهُما معك في أُحدٍ شهيدًا، وإنَّ

(74) رواه البخاري (4577) واللفظ له، ومسلم (1616).

عمَّهما أخَذَ مالَهما، فلم يَدَعْ لهما مالًا، ولا يُنْكَحان إلَّا ولهما مالٌ، قال: فقال: يَقضِي اللهُ في ذلك، قال: فنزلتْ آيةُ الميراثِ، فأرسلَ رسولُ الله - ﷺ - إلى عَمِّهما، فقال: أعطِ ابنتَي سعدٍ الثُّلُثَين، وأُمَّهما الثُّمُنَ، وما بقِي فهو لك)).[75]

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ

أي: يَعهَدُ إليكم ربُّكم ويأمرُكم أمرًا مؤكَّدًا في شأنِ ميراثِ أولادِكم بالتَّسْويةِ بينهم، ذُكورًا وإناثًا في أصْلِ الاستحقاقِ من الميراثِ.

لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ

أي: إذا اجتمَع في أولادِ الميِّتِ ذكورٌ وإناثٌ، فإنَّنا نُعطي الذَّكَرَ ضِعْفَ ما تُعطَى الأنثى، (وذلك إنْ لم يكُن معهم صاحبُ فرضٍ، أو ما أَبقتِ الفروضُ يَقتسمونَه كذلك).

فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ

أي: فإنْ كان بناتُ الميِّت أكثرَ في العدد من اثنتين- مهما بلغ عددُهن- فإنهنَّ يستحققْنَ ثُلُثي التركة.

ولَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ميراثَ البناتِ حالَ اجتماعِهنَّ، ذكَر ميراثَ البنتِ الواحدة، فقال:

---

(75) رواه أبو داود (2892)، والترمذيُّ (2092)، وابن ماجه (2720)، وأحمد (14840) واللفظ له. قال أبو داود: هذا أصح. وصححه الترمذيُّ، واحتجَّ به ابن حزم في ((المحلى)) (255/9)، وحسَّنه ابن عبد البر في ((الاستذكار)) (130/4)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (2092).

وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ

أي: وإنْ خلَّف الميّتُ بنتًا واحدةً، فإنَّ لها نصفَ التَّرِكة.

ولَمَّا ذكَر اللهُ تعالى مِيراثَ الأولاد، انتقَلَ إلى ذِكر ميراث الأبوين، فقال:

وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ

أي: إنَّ لكلٍّ من والد الميّت ووالدته، السُّدسَ من التركة، إنْ كان للميِّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، واحدًا أو جماعةً.

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ

أي: فإن لم يكن للميّت ولدٌ، ذكرًا كان أو أنثى، وله أبٌ وأمٌّ، فإنَّ لأمِّه ثُلُثَ التَّركة، وللأبِ ما بَقيَ منها.

فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ

أي: إذا وَرِث الميّتَ أبواه، وكان له إخوةٌ، سواء كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ، وسواء كانوا اثنين أو أكثر، فإنَّ للأمِّ سدسَ التركِة، وللأب ما بقي منها.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: هذه المواريثُ التي ذَكَرها الله تعالى، إنَّما تُستَحقُّ لأهْلِها ممَّا تبقَّى من تركة الميِّت، بعد تنفيذ وصيَّتِه المشروعةِ الثابتة عنه (على ألَّا تتجاوزَ الوصيةُ ثُلُثَ مال الميِّت- إلَّا إذا أجاز الوَرَثةُ تلك الزِّيادةَ- ولا تكون لوارثٍ، ولا تكون لشيءٍ محرَّم)، وقضاء دُيونه.

آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا

أي: إنَّما فرَضَ اللهُ تعالى للآباء والأبناء نَصيبَهم من الميراث، كلٌّ بحسَبه؛ لأنَّ الإنسان قد يأتيه مِن أبيه النفعُ- دُنيويًّا كان أو أخرويًّا أو هما معًا- ما لا يأتيه من ابنه، وقد يكون الأمرُ بالعكس؛ فلا ينبغي أن يُمنَع أحدٌ حقَّه من الإرث؛ فإنَّه لو رُدَّ تقديرُ الإرث إلى عقول الناس واختيارِهم لحَصَل مِنَ الضَّررِ ما اللهُ به عليمٌ؛ لنقصِ العُقولِ وعَدمِ مَعرفتِها بما هو اللائقُ الأحسن في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فلا يدرون أيُّ الأولادِ أو الوالِدين أنفعُ لهم، وأقربُ لحصول مقاصدِهم الدِّينيَّة والدنيويَّة.

فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذا التقسيم المقدَّر للميراث، فرْضٌ من الله تعالى وحده، قد حَكم به على عِبادِه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بكلِّ شيء، ومن ذلك عِلمُه بمَن يستحقُّ الأخذَ من الميراث، ومقدارِ ما يستحقُّه كلُّ أحد، وهو الحكيمُ الحاكم على عِبادِه، الذي يَضعُ الأشياءَ في مواضعها اللائقة بها، ومِن

ذلك: وضْعُه حقَّ الميراث في أهلِه المستحقِّين له، وتقديرُه ما يستحقُّه كلُّ أحدٍ منهم على أحسنِ تقديرٍ.

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (12)

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ

أي: ولكم- أيُّها الأزواجُ- نصفُ تركة زوجاتكم بعد وفاتهنَّ، إذا مِتْنَ عن غيرِ ولدٍ، ذكَرًا كان أو أُنثى، واحدًا أو أكثر.

فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ

أي: فإنْ كان لزوجاتكم ولدٌ، من ذكَر أو أنثى، واحد أو أكثر، فلكم- أيُّها الأزواج- رُبُع تركة زوجاتكم.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: ذلك الفَرْض لكم- أيُّها الأزواج- تستحقُّونه ممَّا تبقَّى من ترِكة أزواجِكم، بعد تنفيذ وصيتهنَّ المشروعة الثابِتَةِ عنهنَّ، وقضاءِ ديونهنَّ.

وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ

أي: ولأزواجكم- أيُّها الأزواج- رُبُعُ ما تركتم بعد وفاتكم، إنْ لم يكُن لكم ولدٌ.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ

أي: فإنْ كان لكم- أيُّها الأزواج- ولدٌ، وأصابَكم الموتُ، فإنَّ لزوجاتِكم ثُمُنَ ما تركتُم.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: إنَّما يستحقُّ زوجاتكم ذلك النَّصيبَ ممَّا تبقَّى من ترِكتكم، بعد تنفيذ وصيَّتكم المشروعة الثابتة عنكم، وقضاء دُيونكم.

وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ

أي: إنْ كان المتوفَّى، رجلًا كان أو امرأةً، قد تُوفِّيَ عن غير ولدٍ ولا والدٍ، وله من جهة الأمِّ أخٌ أو أختٌ، فإنَّ لكلِّ واحدٍ منهما- أي الأخ أو الأخت- سُدُسَ التَّركةِ.

فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ

أي: فإنْ كان الإخوةُ والأخواتُ من جِهةِ أمِّ الميِّت الموروث كلالةً- رجلًا كان الميِّت أو امرأةً- أكثرَ من واحد، فلهم جميعًا ثُلُثُ التركة، يقتسمونها ذُكورًا وإناثًا بينهم بالتَّساوي.

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ

أي: هذا الذي فرَضَه الله تعالى لأخي الميِّتِ الموروث كلالةً وأخته، أو لإخوته وأخواته، إنَّما يستحقُّونه مِن بعدِ تنفيذِ وصيَّته المشروعةِ الثابتةِ عنه وقضاءِ دُيونِه.

غَيْرَ مُضَارٍّ

أي: غير مقصودٍ بها الإضرارُ بالوَرَثة بأيِّ وجهٍ من الوجوه، كأنْ يَحرِمَ بعضَ الورثة حقَّهم أو يَنقُصه، أو يزيدَ عليه.

وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذا الذي ذَكَره الله تعالى من أحكامٍ فيما يجب من ميراثِ مَن مات منكم، عهدٌ مؤكَّدٌ من الله تعالى إليكم، وجَب عليكم أن تَلتزِموا به.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ولا يَخفى عليه شيءٌ سبحانه، ومن ذلك: عِلمُه بمصالحِ خَلْقِه ومضارِّهم، وعِلمُه بمَن يستحقُّ أن يُعطى من الميراث، ومن يُحرَم، وعِلمُه بقدْرِ ما يستحقُّه كلُّ واحدٍ منهم، وهو سبحانه الحليمُ الذي لا يُعاجِل مَن عصاه بالعُقوبةِ.

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13)

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ

أي: تِلك الفرائضُ والمقاديرُ التي جعَلها الله تعالى للوَرَثةِ، هي حدودُ اللهِ تعالى التي شرَعَها لعباده؛ فيجبُ الوقوفُ معها، وعدمُ تجاوُزِها.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

أي: ومَن يتَّبعْ أمْرَ اللهِ تعالى وأمْرَ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتَنِبْ نَهْيَهما، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريث، فإنَّ الله تعالى يُدخِلُه جنَّاتٍ تجري من تحت أشجارِها وغُروسِها أنهارٌ متعدِّدةٌ، وهم في هذا النعيمِ ماكثونَ على الدَّوامِ.

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

أي: إنَّ إدخالَ اللهِ تعالى لِمَن أطاعه وأطاعَ رسولَه جِنانَه التي وصَف شيئًا منها، لهُوَ ربحٌ كبير، وفلاحٌ منقطعُ النظيرِ.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (14)

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا

أي: إنَّ مَن يُخالفْ أمْرَ الله تعالى وأمر رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام، فيَترُكِ المأموراتِ، ويرتكِبِ المنهيَّاتِ، ويَتجاوزْ حدودَ ما شرَعه الله سبحانه، تغييرًا لما حكَم اللهُ به، ومضادةً للهِ في حُكمه، أو شكًّا فيما فرَض الله على عبادِه، ومِن ذلك ما يَتعلَّق بأحكامِ المواريثِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدخِلُه نارَ جهنَّمَ، ماكثًا فيها.

وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ

أي: وله عذابٌ مُذِلٌّ يُخزيه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (15-18)

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا **(15)**

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا **(16)**

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا **(17)**

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا **(18)**

تفسير الآيات:

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا (16)

النَّاسِخُ والمَنسُوخ:

هاتانِ الآيتانِ الكريمتانِ، منسوختانِ بالاتِّفاق.

والنَّاسخُ لهما قولُه تعالى: الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ [النور: 2].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رضِي اللهُ عنه أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((خُذوا عنِّي خُذوا عنِّي؛ قد جعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا؛ البِكْرُ بالبِكْر جَلْدُ مئةٍ ونَفْيُ سَنَةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ، جَلْدُ مئةٍ والرَّجْمُ)).[76]

وعليه؛ يكونُ حُكمُ الجَلْدِ لغيرِ المحصَنين ثابتًا بالقرآنِ، وحُكمُ الرجمِ للمُحصَنين ثابتًا بالسُّنَّة، وبقرآنٍ منسوخ.

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا (15)

---

(76) رواه مسلم (1690).

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ

أي: إذا وقَع نساؤكم في الزِّنا - متزوِّجاتٍ كنَّ أو غيرَ متزوِّجات- فاطلبوا لإثبات وقوعِهنَّ في الزِّنا أربعةَ رجالٍ من المسلمين العُدُولِ.

فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ

أي: فإنْ شهِدَ أربعةٌ من المسلمين العدولِ على وقوعِهنَّ في الزِّنا، فاحبِسُوهنَّ في البيوتِ؛ عقابًا لهنَّ، لا يُمكَّنَّ من الخروجِ منها إلى أن يَمُتْنَ.

أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا

أي: أو يُصَيِّرَ اللهُ تعالى لهنَّ طريقًا ومَخْرجًا للخلاصِ من هذا الإمساك بتشريعِ حُكمٍ لهنَّ، وقد كان؛ فقد جعَل الله لهنَّ سبيلًا.

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

(16)

وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا

أي: إنَّ الرجُلَ والمرأة إذا زَنَيَا، فآذوهما بالتَّوبيخ، والتَّعييرِ، وغيرِ ذلك من أنواعِ الإيذاءِ.

فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا

أي: فإنْ رجعَا عن الوقوعِ في الزِّنا، وندِمَا عليه، وعزمَا على ألَّا يَعودَا إلى اقترافِ ذلك، وأصلحَا دِينَهُما بالعملِ بما يُرضِي الله تعالى، فكُفُّوا عن أذيَّتِهما.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى يُوفِّقُ عبادَه للتوبة، ويَقبَلُها منهم، وهو ذو الرَّحمةِ العظيمةِ بعِبادِه، ومِن رحمتِه أنْ هيَّأَهُم للتَّوبة، وقَبِلَها منهم.

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (17)

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ

أي: إنَّما يَقبلُ الله تعالى التَّوبة مِمَّن عَمِل عملًا سيِّئًا، صدر عن سَفَهٍ منه، وعملُه السُّوءَ هو الجهالةُ التي جهِلها، فكلُّ عاصٍ لله عزَّ وجلَّ، فهو جاهلٌ، وإنْ كان عالِمًا بالتَّحريمِ.

ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

أي: إنَّ الله تعالى يَقبَلُ توبةَ العبد إذا تاب حالَ حياتِه، قبل مُعايَنَةِ الموتِ.

فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أي: فإنَّ هؤلاء الذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثمَّ يتوبونَ من قريبٍ، يَرزُقُهم اللهُ تعالى- دون مَن لم يَتُبْ- إنابةً إلى طاعتِه، ويَتقبَّلُ منهم أَوْبَتَهُم إليه.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك: عِلمُهُ بمَن تاب إليه مِن عبادِه، وهو الحكيمُ الذي من حِكمتِه توبتُه على مَن تابَ مِن عِبادِه.

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (18)

وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ

أي: إنَّ مَن يرتكبون المحرَّمات لا يقبلُ الله عزَّ وجلَّ توبتهم، حين يأتيهم الموتُ. ساعة الاحتضار وبلوغِ الرُّوحِ الحُلْقومَ.

وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ

أي: ولا يَقبَلُ اللهُ تعالى أيضًا توبةَ مَن ماتوا على الكفر؛ فحالُهم أشبهُ بحالِهم في انعدامِ الرجاءِ في قَبول توبتِهم.

أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: إنَّ الكفَّارَ الذين ماتوا على كُفرِهم أعدَّ اللهُ تعالى لهم عذابًا مُوجِعًا شديدًا.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (19-22)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20)

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21)

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا (22)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (19)

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عبَّاس رضِي اللهُ عنهما قال: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ قال: كانوا إذا مات الرَّجُلُ كان أولياؤه أحقَّ بامرأته، إن شاء بعضهم تزوَّجها، وإن شاؤوا زوَّجوها، وإنْ شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحقُّ بها مِن أهلِها، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك)).[77]

وعن أبي أُمامةَ بنِ سهلِ بن حُنيفٍ، قال: ((لَمَّا تُوُفِّي أبو قَيسِ بنُ الأسلتِ، أراد ابنُه أنْ يتزوَّج امرأتَه، وكان لهم ذلك في الجاهليَّة، فأنزل اللهُ تعالى: لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا)).[78]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا

---

(77) رواه البخاري (4579).

(78) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (6/321) (11095)، والطبري في ((تفسيره)) (8/105)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5030). حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (8/95).

أي: يحرُمُ عليكم- أيُّها المؤمنون- أنْ تَستحوِذوا على زَوجاتِ مَن ماتَ مِن آبائكم وأقاربكم، وكأنَّهنَّ مِن جملةِ تركتِهم، وذلك كأنْ تتزوجوهنَّ، أو تُزوِّجوهنَّ لغيركم، أو تمنعوهنَّ من الزَّواج، والحال أنهنَّ كارهاتٌ لذلك مُكرَهاتٌ عليه.

وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ

أي: يحرُم عليكم- أيُّها الأزواج- أن تُضيِّقوا على أزواجكم في العِشْرة وتقهروهنَّ؛ لتُلجِئوهنَّ إلى افتداء أنفسهنَّ منكم، بترك مهورهنَّ أو بعضٍ منها، أو بتنازلهنَّ عن أيِّ حقٍّ آخرَ من حقوقهنَّ؛ لتفارقوهنَّ.

إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ

أي: يحلُّ لكم- أيُّها الأزواج- عَضْلُ زوجاتكم والضِّرارُ بهنَّ بالعدل، إذا وقَعْنَ في الزِّنا أو النُّشوز، حتى يَفتدينَ أنفُسَهنَّ منكم بالتنازُلِ عن بعضِ حُقوقهنَّ- كالمهرِ أو بعضِه- من أجْلِ أنْ تفارقوهنَّ.

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

أي: صاحِبوا- أيُّها الأزواج- زوجاتِكم كما أمرَكم الله تعالى، وذلك بالخُلق الحسَن؛ كالقول الطيِّب، وكفِّ الأذى، وبذْلِ الإحسان، وحُسن الهيئة، وغير ذلك، وصاحبوهنَّ بأداء حقوقهنَّ من النَّفقةِ والكُسوة، وغير ذلك ممَّا أمَرَ الله تعالى به، وبما يَتعارَفُ عليه النَّاس ولا يُنكِرُه الشَّرعُ.

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا

أي: عاشِروا– أيُّها الأزواج– زوجاتِكم بالمعروف، وإنْ كرهتموهنَّ؛ فعسى أن يكونَ صَبْرُكم مع إمساكِكم لهنَّ وكراهيتِهنَّ، فيه خيرٌ كثيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرة؛ كأولادٍ تُرْزَقُونَهُمْ منهنَّ، أو تزولُ كراهتكم لهنَّ، وتَخْلُفُها محبتُهنَّ، وغير ذلك.

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (20)

وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ

أي: إذا أراد أحدُكم– أيُّها الأزواج– أنْ يُطلِّقَ زوجته، ويتزوَّج بأخرى.

وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا

أي: والحال أنَّكم قد أمهرتموهنَّ مهرًا كبيرًا، فإنَّه لا يحلُّ أخْذُ شيءٍ منه عَنوةً؛ لأنَّه حقُّها، والنهي عن ذلك بالأَوْلى لو كان المهر قليلًا.

أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

أي: أتأخذون ما آتيتموهنَّ من المهور كَذِبًا، وظلمًا بغير حقٍّ، وإثمًا ظاهرًا، قد أبان أمْرَ آخِذِه أنَّه بأخْذه إيَّاه ظالمٌ لِمَن أخَذَه منه؟

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (21)

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ

أي: على أيِّ وجهٍ تأخذون من نسائكم ما أعطيتُموهنَّ من مهور؟ والحال أنَّه قد حصلت بينكم عَلاقةُ استمتاعٍ وجماعٍ.

وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

أي: وقد أخذ نساؤكم منكم- أيُّها الأزواج- عهدًا شديدًا مؤكَّدًا، وذلك بعقد النكاح، والقيام بحقوقهنَّ، ومن ذلك: إمساكُهنَّ بمعروف، أو تسريحهنَّ بإحسان.

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا

(22)

سببُ النُّزولِ:

عن ابن عباس رضِي اللهُ عنهما قال: ((كان أهل الجاهلية يُحرِّمون ما يَحْرُم إلَّا امرأةَ الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله وَلا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إلى قوله: وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)).[79]

(79) رواه الطبري في ((تفسيره)) (132/8)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1523).

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

أي: لا تَتزوَّجوا– أيُّها المؤمنون– زوجاتِ آبائِكم مِن بَعدِهم،

إلَّا ما وقَع منكم من ذلك في جاهليَّتِكم، أو قبل تحريمِه؛ فإنَّه معفوٌّ عنه

إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا

أي: إنَّ تزوُّجَكم بزوجاتِ آبائِكم لَهُوَ فِعلٌ في غايةِ البَشاعة والقُبح، وهو أمرٌ يُبغِضُه اللهُ تعالى، ويُبغضه الناسُ، وقد يُبغض الابنُ أباه بسببه؛ فإنَّ من تزوَّج بامرأةٍ قد يُبغض مَن كان زوجَها قبلَه.

وَسَاءَ سَبِيلًا

أي: وبِئْسَ هذا الأمرُ طريقًا لِمَن سلَكه.



سُورةُ النِّساءِ

الآية (23)

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23)﴾

تفسير الآية:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (23)

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما، قال: ((كان أهلُ الجاهليَّةِ يُحرِّمون ما يَحْرُمِ إلَّا امرأةَ الأبِ والجمعَ بين الأختين، قال: فأنزل اللهُ: وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إلى قوله: وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ)).[80]

---

(80) رواه الطبري في ((تفسيره)) (8/132)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1523). صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/479)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (75): رجالُه رجال الصحيح إلَّا محمد بن عبد الله المخرميَّ، وهو ثقة.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ

أي: حرَّم اللهُ عزَّ وجلَّ عليكم- أيُّها المؤمنون- التزوُّجَ بأمهاتِكم، وبناتِكم، وأخواتِكم، وعمَّاتِكم، وخالاتِكم، وبناتِ إخوانِكم، وبناتِ أخواتكم؛ فهؤلاء محرَّماتٌ على الرجُلِ من جِهة النَّسب.

وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ

أي: وحرَّم اللهُ تعالى أيضًا عليكم أيضًا- معشرَ الرِّجال- نِكاح أمَّهاتِكم، وأخواتِكم من جِهةِ الرَّضاعة.

وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نكاحَ أمِّ الزوجة مطلقًا، سواءٌ دخلتم بابنتها أو لم تدخلوا.

وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ

أي: وحرَّمَ عليكم أيضًا نِكاح بناتِ زوجاتِكم اللاتي جامعتموهنَّ.

فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ

أي: فإنْ لم تكونوا دخلتُم بزوجاتِكم، فلم تُجامِعوهنَّ حتى طلَّقتموهنَّ، فلا حرجَ عليكم في نِكاح بناتِهنَّ.

وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ

أي: وحرَّم عليكم أيضًا نِكاحَ زوجات أبنائِكم، سواءٌ دخلوا بهنَّ أو لم يَدخُلوا، والمرادُ بأبنائكم: الذين ولدتموهم، دونَ أبنائِكم من جِهة الرَّضاعة، ودونَ الأدعياءِ الذين تبنَّيتموهم في الجاهليَّة.

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ

أي: وحرَّم عليكم أيضًا الجمْعَ بين الأختين بنكاحٍ، إلَّا ما وقَعَ منكم في جاهليَّتكم أو قبل تحريمه، فإنَّه لا إثمَ عليكم فيه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ، يَستُرُ ذنوبَ عِبادِه ويَتجاوزُ عنها، ومِن ذلك: عدمُ مؤاخذةِ مَن وقَع منهم في السَّابقِ في الزواجِ بِمَن حرَّمهنَّ الله تعالى عليه، وهو الرحيمُ بهم، ومن رحمتِه مغفرتُه لذنوبِهم.



سُورةُ النِّساءِ

الآيتان (24-25)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24)

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)

تفسير الآيتين:

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (24)

سَببُ النُّزول:

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم يومَ حُنَينٍ بعَثَ جيشًا إلى أوطاس، فلَقُوا عدوًّا، فقاتَلوهم، فظهَروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكأنَّ ناسًا من أصحابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ تحرَّجوا من غِشيانِهنَّ من أجلِ أزواجِهنَّ من المشركِينَ، فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، أي: فهنَّ لكم حلالٌ إذا انقضَتْ عدَّتُهنَّ)).(81)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ

أي: وحُرِّمَ عليكم أيضًا– معشرَ الرِّجال– نكاحُ ذواتِ الأزواجِ، أي: ما دُمْنَ في ذمَّةِ أزواجِهنَّ.

---

(81) رواه مسلم (1456).

إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: ما عدا مَن ملَكتموهنَّ بالسَّبيِ في قتال الكفَّارِ، فإذا سبَيْتم الكافرةَ ذاتَ الزَّوجِ، حلَّ لكم وَطْؤُها، لكن بعد أنْ تُستبْرأَ، وعلى ألَّا تكونَ مِن النِّساء المحرَّماتِ السَّابقِ ذِكرُهنَّ.

كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

أي: هذا التَّحريمُ فَرضٌ قد فرَضه اللهُ تعالى عليكم، فالزَموه، ولا تَخرُجوا عن حدودِه.

وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ

أي: أباح اللهُ تعالى لكم- أيُّها الرِّجال- نكاحَ ما عدا مَن حرَّمهنَّ عليكم من النِّساء، سواءٌ كان بعقدٍ أو مِلكِ يمينٍ.

أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ

أي: حلالٌ عليكم- أيُّها الرِّجالُ- أن تطلُبوا بأموالِكم نكاحَ مَن سِوى المحرَّماتِ من النِّساء- إمَّا نكاحًا بصداقٍ معلومٍ، أو تسرِّيًا بشراءِ السَّراريِّ- والحال أنَّكم تريدون إعفافَ أنفسِكم وزوجاتِكم عن الحرامِ، غيرَ قاصدينَ الوقوعَ في الزِّنا.

فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً

أي: فمَن نكحتموهنَّ نكاحًا شرعيًّا دائمًا فاستمتعتم بجِماعهنَّ، فآتوهنَّ مهورهنَّ في مقابلِ تلك المتعةِ، وذلك فرضٌ فرَضه اللهُ تعالى عليكم.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ

أي: ولا حرَجَ عليكم- أيُّها الأزواجُ والزَّوجاتُ- فيما تراضَيْتم به، من زيادةٍ على المهر أو نقصٍ، أو إعفاءٍ منه، أو تأخيرٍ له، من بعدِ فرضِ الصَّداقِ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك علمُه بما يُصلِحُكم- أيُّها النَّاس- في مَناكِحِكم، وهو سبحانه الَّذي يضعُ كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائقِ به بلا خلَلٍ ولا زلَلٍ، ومِن ذلك: هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها ممَّا يتعلَّقُ بأمورِ النِّكاح.

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (25)

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ

أي: ومَن لم يكُنْ لَدَيهِ منكم- معشرَ الرِّجال- سَعةٌ وقدرةُ على تقديمِ مهرٍ كافٍ لنكاحِ الحرائرِ المؤمناتِ.

فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ

أي: فليتزوَّجْ مِن الإماءِ المؤمناتِ اللَّاتي يملِكُهنَّ سواهُ من المؤمنين.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بإيمانِ مَن آمَن منكم، فيعلَمُ ما إذا كان أولئك الإماءُ اللَّاتي تريدون نكاحَهنَّ مؤمناتٍ حقًّا أم لا، وأمَّا أنتم فليس لكم إلَّا الظَّاهرُ، فكِلُوا سرائرَهنَّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ

أي: إنَّ الجميعَ متساوونَ في البشريَّةِ، وكلُّهم بنو آدمَ؛ فالحرائرُ والإماءُ من هذه الجهة سواءٌ، فلا تأنفوا من تزوُّجِ الإماءِ عند الضَّرورةِ.

فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ

أي: فتَزوَّجوهنَّ بسماحِ ورضَا أسيادِهنَّ.

وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ

أي: وأعطوهنَّ مهورَهنَّ بما شرَعه اللهُ تعالى، دون أن تبخَسوهنَّ شيئًا مِن مهورِهنَّ، أو تُماطِلوا في دَفعِه إليهنَّ.

مُحْصَنَاتٍ

أي: فانكِحوهنَّ، والحالُ أنَّهنَّ عفيفاتٌ عن الزِّنا؛ فهذا شرطٌ من شروط نِكاحِهنَّ.

غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ

أي: غيرَ الزَّانياتِ علانيةً، اللَّاتي لا يمتنِعْنَ مِن أحَدٍ أرادهنَّ بالفاحشةِ.

وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ

أي: ولا تنكِحوا أيضًا الزَّوانِيَ المتستِّرات، اللَّاتي يتَّخِذْنَ أخلَّاءَ وأصدقاءَ لاقترافِ الزِّنا معهم خفيةً.

فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ

أي: فإن أُحصِنَ الإماءُ بالزواج، ثمَّ وقَعْنَ في الزِّنا.

القِرَاءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قوله تعالى: فَإِذَا أُحْصِنَّ [النساء:25] قراءتان:

1- قِراءة (أَحْصَنَّ)- بفَتحِ الألِفِ والصَّادِ على البِناءِ للفاعلِ- على مَعنى: أنَّ الإماءَ إذا أسلَمْنَ أَحصَنَّ فُروجَهنَّ بالإسلام، أي: أعْفَفْنَها، وقيل: أَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالتزويجِ، بإسنادِ الفِعْلِ إليهنَّ.

2- قِراءة (أُحْصِنَّ) على صِيغةِ ما لم يُسَمَّ فاعلُه -والفاعِلُ هو الأزواجُ- على جَعْلِ الإماءِ مَفْعولاتٍ بإحْصانِ أزواجِهنَّ إيَّاهنَّ، وقيل: إنَّه بمعنى أسلمْنَ فأَحصَنَّ أنفُسَهنَّ بالإسلامِ.

فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ

أي: فعليهنَّ من الحدِّ نصفُ ما على الحرائرِ، اللَّاتي زَنَيْنَ قبل الإحصان بالزَّواجِ، فيكون على الإماءِ خمسونَ جَلدةً.

ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ

أي: ذلك الَّذي أباحَه اللهُ تعالى لكم- مَعشرَ الرِّجال- مِن نِكاحِ الإماءِ المؤمناتِ العفيفاتِ، إنَّما أباحه جلَّ وعلا لِمَن شقَّ عليه منكم الصَّبرُ عن الجِماعِ، فخاف الوقوعَ في الزِّنا.

وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ

أي: وصبرُكم- أيُّها الرِّجالُ- عن نِكاحِ الإماء، إلى أن يتيسَّرَ لكم نكاحُ الحُرَّةِ، أفضلُ لكم.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ لِمن تزوَّج الإماءَ؛ إذ تجاوَز عن الإثمِ، فأباح نكاحَهنَّ بشروطِه رفعًا للحَرَج، وهو الرَّحيمُ، الَّذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، ومن ذلك تشريعُه لنكاحِ الإماءِ، فلم يُضيِّقْ على عبادِه، بل وسَّع عليهم غايةَ السَّعةِ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (26–28)



يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27)

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)



تفسير الآيات:

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

(26)

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ

أي: يُريد اللهُ تعالى أن يبيِّنَ لكم ما أحَلَّ لكم، وما حرَّم عليكم، ممَّا تقدَّم ذِكرُه في هذه السُّورة وغيرِها.

وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

أي: ويريدُ الله تعالى أن يُرشدَكم إلى سُبل مَن قَبلكم مِن الَّذين أنعَم اللهُ عليهم من النَّبيِّين وأتباعِهم، ويوفِّقَكم لتسلكوا طرائقَهم الحميدةَ، وتتَّبِعوا شرائعَه الَّتي يُحبُّها ويرضاها سبحانه.

وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ

أي: ويريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه ويقبَلَها منكم.

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُصْلِح عبادَه في دِينهم ودنياهم، ومن ذلك هذه الأحكامُ والحدودُ الَّتي علَّمهم إيَّاها.

وهو ذو الحِكمة، الَّذي مِن حكمتِه هذه الأحكامُ الَّتي شرَعها لعباده، ومن حكمته أنَّه يتوب على مَن اقتضَتْ حكمتُه ورحمتُه التَّوبةَ عليه، ويخذُلُ مَن اقتضَتْ حكمتُه وعدلُه مَن لا يصلُحُ للتَّوبة.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (27)

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ

أي: واللهُ عزَّ وجلَّ يريد أن يوفِّقَكم للتَّوْبةِ إليه ويقبَلَها منكم.

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا

أي: ويريد الَّذين يطلُبون لذَّاتِ الدُّنيا وشهواتِ أنفسِهم فيها، مِن أهل الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ، أن تَميلوا ميلًا شديدًا من الحقِّ إلى الباطلِ، وممَّا أحلَّ اللهُ تعالى لكم إلى ما حرَّم عليكم، فتكونوا أمثالَهم.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (28)

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ

أي: يريد اللهُ عزَّ وجلَّ أن ييسِّرَ عليكم في أوامرِه ونواهيه، ومن ذلك إباحتُه نكاحَ الإماءِ بشروط.

وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا

أي: خفَّف اللهُ تعالى عنكم؛ لعِلْمِه بضَعف الإنسانِ في نفسِه، وبَدَنه، وضَعْف عَزمه، وهِمَّته، وصَبْره.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (29-31)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (29)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ

أي: يا أيُّها المؤمنونَ، لا يأخُذْ بعضُكم أموالَ بعضٍ بغيرِ حقٍّ، من وسائلِ الكَسْبِ المحرَّمةِ؛ كالرِّبا والقِمارِ، وغيرِ ذلك من الأمور الَّتي نهاكم اللهُ عزَّ وجلَّ عنها.

إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ

أي: لكنْ إن كان هذا المالُ الَّذي يأخذُه بعضُكم من بعضٍ، إنَّما يؤخَذُ بسببِ تجارةٍ صادرةٍ عن رضًا بين المتبايِعَيْنِ منكم، فذلك حلالٌ لكم.

وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

أي: لا يقتُلْ أحدُكم نفسَه الَّتي بين جنبيه، ولا يُلقِ بنفسه إلى التَّهلُكة، بفعلِ ما يُفضي إلى التَّلَف، ولا يقتُلْ أيضًا أخاه في الدِّين، (فمن قتَل غيرَه من إخوانِه في الدِّين، فكأنَّما قتَل نفسَه؛ لأنَّهم أهلُ دِينٍ واحدٍ).

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو رحمةٍ بكم أيُّها العبادُ، ومن رحمتِه سبحانه بِكُم: أنْ نهاكم عن قتلِ نفوسِكم، وعن إتيانِ ما فيه هلاكُها، ومن رحمتِه أيضًا: أنْ حرَّم دماءَ بعضِكم على بعضٍ إلَّا بحقِّها، وحظَر أَخْذَ أموالِ بعضِكم من بعضٍ بالباطل، إلَّا عن تجارةٍ برضًا وطِيبِ نفسٍ، ولولا ذلك لهلَكْتم، ولأهلَك بعضُكم بعضًا، قتلًا وسلبًا وغصبًا.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (30)

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا

أي: إنَّ مَن يأكُل أموالَ النَّاس بالباطل، ويقتُل النُّفوسَ الَّتي حرَّم اللهُ تعالى قتلها بغير حقٍّ، متجاوزًا بذلك حدودَ الله تعالى إلى ما حرَّمه، ومتجاسرًا على انتهاكِ ذلك، عن قصدٍ وعلمٍ بتحريمِه، لا عن جهلٍ أو نسيانٍ.

فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا

أي: فسوف ندخِلُه نارًا عظيمةً تُحرِقه.

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا

أي: إنَّ إدخالَه النَّارَ وإحراقَه بها، أمرٌ سهلٌ على الله تعالى، لا يمتنعُ عليه.

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (31)

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ

أي: إذا ابتعدْتُم عن كبائرِ السَّيِّئاتِ الَّتي نُهِيتم عنها.

نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يتجاوَزُ لكم عن صغائرِها.

وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا

أي: ونُدخِلْكم الجنَّةَ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيتان (32-33)

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32) وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)

تفسير الآيات:

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (32)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((أتت امرأةٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، للذَّكَرِ مِثلُ حظِّ الأُنثيَيْنِ، وشَهادةُ امرأتينِ برجُلٍ، أفنحن في العملِ هكذا؟ إن عمِلَتِ المرأةُ حسنةً كُتِبَت لها نصفَ حسنةٍ! فأنزَل اللهُ: وَلَا تَتَمَنَّوْا... الآية)).[82]

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ

أي: لا تطمَعوا في أمرٍ قد فضَّل اللهُ تعالى به بعضَكم على بعضٍ؛ كالجهادِ والعِلم، والمال، والولد، وغيرِ ذلك من أمور الدِّين أو الدُّنيا.

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ

أي: كلٌّ له جزاءٌ على عمله بحسَبِه، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ.

---

(82) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5223)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (115). وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/495).

وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ

أي: ولكنِ اسألوا اللهَ تعالى من فضله ليُعطيَكم؛ فإنَّه الكريمُ الوهَّاب جلَّ جلالُه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو علمٍ بكلِّ شيء، ومن ذلك علمُهُ بمن يستحقُّ أن يعطيَه من فضلِه، وبمن يستحقُّ الحِرمان؛ وذلك كقَصرِه القتالَ في سبيله على الرجال؛ لعِلمِه بأنَّهم أقدَرُ عليه وأصلَحُ له.

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (33)

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ

أي: قد جعَل اللهُ تعالى لكلِّ واحدٍ منكم أيُّها النَّاسُ عَصَبةً، كإخوتِه وبني عمِّه، يرِثونه ممَّا ورِثه هو مِن أبيه وأمِّه، وسائرِ قَرابتِه.

وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ

النَّاسخ والمَنسوخ:

قيل: هذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ [الأنفال: 75]، وهذا قولُ جمهورِ العلماء، وقيل: هي مُحكَمةٌ.

قيل: المعنى: وأمَّا الَّذين بينكم وبينهم ولاءُ حِلفٍ معقودٌ بالأيمانِ المؤكَّدة، فأعطوهم نصيبَهم من الميراثِ.

وقيل المراد: أعطوهم نصيبَهم من النُّصرةِ والمناصَحةِ، ونحوِ ذلك.

عن ابنِ عباسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ قال: وَرَثَةً، وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ: كان المُهاجِرونَ لَمَّا قَدِموا المدينةَ يَرِثُ المُهاجِرُ الأنصاريَّ دون ذوي رحِمِه، للأخوَّةِ الَّتي آخى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلمَّا نَزَلَتْ: وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ نُسِخَتْ، ثمَّ قال: وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ: من النَّصرِ والرِّفادَةِ والنَّصيحةِ، وقد ذهَب الميراثُ، ويوصِي له)).[83]

وعن جُبَير بن مُطعِمٍ رضِي اللهُ عنه أنَّه قال: ((لا حِلفَ في الإسلامِ، وأيُّما حِلفٍ كانَ في الجاهليَّةِ، لم يزِدْه الإسلامُ إلَّا شِدَّةً)).[84]

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رقيبٌ، شاهدٌ لا يغيب عنه شيءٌ، ومطَّلِعٌ على كلِّ شيء؛ وذلك بعِلمِه لجميعِ الأمور، وبصَرِه لحركاتِ عبادِه، وسمعِه لجميع أصواتِهم، ومن ذلك: اطِّلاعُه عليكم- أيُّها

(83) رواه البخاري (4580).

(84) رواه مسلم (2530).

المؤمنون- في مسألةِ إيتاء الموالي بالحِلفِ نصيبَهم، فيعلَم هل تؤتونهم ذلك أم لا؛ ولذا فاحذَروا من مخالفةِ أمرِه جلَّ وعلا.



سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (34-35)

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)

تفسير الآيتين:

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (34)

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

أي: الرِّجالُ هم القائمون على نسائهم؛ فهم رؤساؤُهنَّ والحاكمون عليهنَّ، بإلزامهنَّ بحقوقِ الله تعالى وأداء فرائضه، وتأديبِهنَّ، وكفِّهنَّ عن الشُّرور والمفاسد.

ثمَّ ذكر اللهُ تعالى السَّبب الموجِبَ لقيام الرِّجال على النِّساء، فقال:

بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ

أي: بسببِ تفضيلِ الرِّجال على النِّساء؛ فقد جعَل اللهُ تعالى للرِّجال خصائصَ تفُوقُ ما لدَى النِّساء؛ كقوة البَدنِ، والعقل، وغيرهما.

وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ

أي: ومن أسباب جَعلِ القِوامةِ للرِّجال على النِّساء، إنفاقُ الرِّجال أموالَهم على نسائِهم، ومِن ذلك: إعطاؤُهنَّ مهورَهنَّ.

فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ

أي: إنَّ النِّساءَ المستقيماتِ الدِّينِ، مطيعاتٌ لله تعالى، ولأزواجِهنَّ.

حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ

أي: ومن صِفاتهنَّ أيضًا: أنهنَّ حافظاتٌ لأنفسِهنَّ عند غَيبة أزواجِهنَّ عنهنَّ في فروجهنَّ وأموالهم، وغير ذلك، وذلك بحفظِ الله تعالى لهنَّ وتوفيقِه لهنَّ، لا من أنفسِهنَّ؛ فإنَّ النَّفسَ أمَّارةٌ بالسُّوء.

وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ

أي: إنَّ الزَّوجاتِ اللَّاتي تتخوَّفون- يا مَعشرَ الأزواج- من استعلائِهنَّ عليكم، بمخالفتِهنَّ لأوامركم، وتركِهنَّ طاعتَكم؛ بُغضًا منهنَّ لكم، وإعراضًا عنكم، فإذا تخوَّفتم من حدوثِ ذلك لظهور أماراته.

فَعِظُوهُنَّ

أي: فذكِّروهنَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، وخوِّفوهنَّ وعيدَه وعقابَه على معصيةِ أزواجِهنَّ، ورغِّبوهنَّ في طاعتهم؛ بذِكرِ ما لهنَّ في ذلك من ثوابٍ عند اللهِ تعالى.

وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ

أي: فإنْ لم يُجْدِ الوعظُ معهنَّ، فلْتبتعدوا- أيُّها الأزواجُ- عن مكانِ اضطجاعِهنَّ، ولا تُجامِعوهنَّ.

وَاضْرِبُوهُنَّ

أي: فإنْ لم يُجْدِ معهنَّ الهِجرانُ في المضاجعِ، فاضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ؛ لتأديبِهنَّ.

فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا

أي: فإنْ حصَل المقصودُ بواحدٍ من هذه الأمور، وأطَعْنَكم، فقد حصَل لكم ما تحبُّون؛ فاترُكوا معاتبتَهنَّ على الأمور الماضية، والتَّنقيبَ عن العيوب الَّتي يضرُّ ذِكرُها، فلا سبيلَ لكم عليهنَّ بعد ذلك، وليس لكم ضربُهنَّ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو العُلوِّ المطلَقِ بذاته وصِفاتِه سبحانه، فلا تتعالَوْا على نسائِكم- أيُّها الأزواج- ؛ فإنَّ علوَّكم هذا يوجَدُ فوقه ما هو أعلى منه، وهو علوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ بذاتِه وصفاتِه، وهو الكبيرُ بذاته وصفاتِه سبحانه، فلا أكبرَ منه ولا أجلَّ ولا أعظمَ، فلا تتكبَّروا عليهنَّ؛ لأنَّ فوقكم مَن هو أكبرُ، وهو الله جلَّ وعلا.

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (35)

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا

أي: وإن خِفتم– أيُّها الحكَّامُ– أنْ يَصلَ النُّفورُ والخلافُ الواقع بين الزَّوجينِ إلى حدِّ التَّباعُدِ عن بعضِهما، ووقوع العداوة بينهما.

فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا

أي: فلتُرْسلوا– أيُّها الحكَّامُ– إلى الزوجينِ حَكَمينِ؛ رجلًا من أقارب الزَّوجِ، وآخَرَ من أقارب الزَّوجة.

إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا

أي: إن قصَد الحَكَمانِ الإصلاحَ بين الزَّوجين، يوفِّقِ اللهُ تعالى بين الحكَمينِ، بأن يصادفا الحقَّ، فتلتقيَ أقوالهما دون حدوثِ نزاعٍ بينهما، ويوفّق اللهُ تعالى أيضًا بين الزَّوجين، فييسِّر رجوعَهما إلى المعاشَرة الحسَنة بينهما.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو علمٍ بجميع الظَّواهرِ والبواطن، ومن ذلك: عِلمُه بنيَّةِ الحكَمَينِ، هل يقصدانِ الإصلاح أو لا، ومن ذلك أيضًا: شَرْعُهُ لهذه الأحكامِ العظيمة، والشَّرائع المُحْكَمة.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (36-42)



وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41)

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

(42)



تفسير الآيات:

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (36)

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

أي: تذلَّلوا لله تعالى، واخضَعوا له بطاعتِه سبحانه، وأَخلِصوا العبادةَ له وحْدَه، دون أنْ تُساووا بينه وبين غيرِه فيما له من حقوقٍ على عباده.

ولَمَّا أمَر اللهُ تعالى بعبادته، والقيام بحقِّه، أمَر بالقيام بحقوقِ العبادِ الأقربِ فالأقرب، فقال:

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

أي: أحسِنوا إلى الوالدَيْنِ، بالقولِ الكريمِ، والخطاب اللَّطيفِ، وطاعةِ أمرِهما، واجتنابِ نَهيهما، وبغيرِ ذلك من أنواع البِرِّ.

وَبِذِي الْقُرْبَى

أي: وأحسِنوا إلى أقاربِكم.

وَالْيَتَامَى

أي: وأحسِنوا إلى اليتامى (وهم الَّذين فقَدوا آباءَهم ممن دون سنّ البلوغِ).

وَالْمَسَاكِينِ

أي: وأحسِنوا كذلك إلى ذَوي الحاجاتِ، الَّذين لا يَجِدون ما يقومُ بكِفايتِهم.

وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى

أي: وأحسِنوا إلى جارِكم الَّذي بينكم وبينه قَرابةٌ.

وَالْجَارِ الْجُنُبِ

أي: وأحسِنوا كذلك إلى جارِكم الَّذي ليس بينكم وبينه قرابةٌ.

وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ

أي: وأحسِنوا صُحبةَ مَن يصحَبُكم ويُرافِقُكم؛ كالرَّفيقِ في السَّفرِ، وكالزَّوجة.

وَابْنِ السَّبِيلِ

أي: وأحسِنوا إلى المسافرِ، الَّذي يمرُّ عليكم مجتازًا.

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

أي: وأحسِنوا إلى ما تملِكون مِن البشر (وهم الرَّقيق).

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ مَن كان ذا خُيَلاءَ، معجَبًا بنفسِه متكبِّرًا على الخَلْق، فلا يقوم بما أوجَبه اللهُ تعالى عليه من حقوقٍ، فَخُور بقولِه، فيُثني على نفسِه، ويمدَحُها على وجهِ الفخرِ والبطَرِ على عباد اللهِ تعالى بما أعطاه من النِّعم.

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (37)

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يحبُّ المختالَ الفخورَ الَّذي يُمسِك مالَه عن الإنفاق فيما أمَره الله تعالى به؛ كالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، والأقاربِ واليتامى والمساكين، والجارِ ذي القربى، والجارِ الجُنُب، والصَّاحبِ بالجَنْبِ، وابنِ السَّبيل، وما ملَكتِ الأيمانُ، ولا يدفعون حقَّ الله فيها، ويأمُرون النَّاسَ بالبخلِ أيضًا بأقوالِهم وأفعالِهم، ومِن البُخلِ كذلك: البُخلُ بالعِلم.

وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

أي: إنَّ البَخيلَ بالمالِ يُخفِي عن النَّاسِ ما لَدَيه من أموالٍ، فلا يُظهِر أثَرَ نِعمةِ الله تعالى عليه، ولا تَبِينُ في أكلِه ولا في ملبَسِه، ولا في غيرِهما؛ لأجل ألَّا يطلُبَ أحدٌ مالًا منهم، ولا يَلومهم أحدٌ إذا بَخِلوا، ويُخفي كذلك ما لَدَيه من عِلمٍ، فلا يُظهِره للنَّاس ليَسترشِدوا به، ومِن ذلك: إخفاءُ اليهودِ لصفةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وأمْرِ بَعثتِه.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ هؤلاء الكفَّارَ الَّذين يبخَلون ويأمُرون النَّاسَ بالبُخل، ويكتمون ما آتاهم اللهُ تعالى من فضلِه، قد هيَّأ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم ولكلِّ كافرٍ عقابًا مُذلًّا مخزيًا، جزاءً على كفرِهم واستكبارِهم على أداء حقوقِ الله تعالى وحقوقِ عباده.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (38)

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ

أي: ومِن صفاتِهم أيضًا: أنَّهم يبذُلون أموالَهم من أجلِ أن يراهم النَّاسُ فيُثنوا عليهم، ويمدحوهم بالكرمِ والعطاءِ، لا يُريدون بذلك وجهَ الله تعالى.

وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي: إنَّهم لا يُؤمِنون باللهِ تعالى فيتقرَّبوا إليه، ولا يؤمِنون باليومِ الآخِرِ فيرجوا ثوابَه.

وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا

أي: إنَّما حمَلهم على صَنيعِهم القبيحِ هذا، وعدُولِهم عن فِعلِ الطَّاعة على وجهِها: الشَّيطانُ؛ فإنَّه سوَّل لهم وأمْلَى لهم، وقارنَهم فحسَّن لهم القبائحَ، فمن يكُنِ الشَّيطانُ له خليلًا وصاحبًا يعمَلُ

بطاعتِه ويتَّبعُ أمرَه فبئس الصَّاحبُ هو؛ لأنَّه يريدُ إهلاكَ مَن قارَنه، ويَسعى فيه أشدَّ السَّعي؛ إذ يأمُرُه بالمنكَرِ، وينهاه عن المعروفِ.

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا (39)

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ

أي: وأيُّ حرجٍ ومشقَّةٍ تلحَقُ هؤلاء لو سلَكوا الطَّريقَ الحميدةَ، بالإيمانِ باللهِ تعالى، والإخلاصِ له، والإيمان باليومِ الآخِرِ ورجاءِ ثوابه، وأنفَقوا ممَّا أعطاهم اللهُ تعالى فيما يحبُّه ويرضاه؟!

وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بنيَّاتهم وأحوالِهم وأعمالِهم، وهو حافظٌ لها، ومجازيهم عليها، وعليمٌ بمن يستحقُّ التَّوفيقَ منهم، فيوفِّقُه ويُلهمُه رُشدَه، ويُقيِّضه لعملٍ صالحٍ يرضى به عنه، وبمن يستحقُّ الخِذلانَ والطَّردَ عن جَنابِه الأعظمِ، وهو عليمٌ أيضًا بما هم عليه مِن كُفرٍ، وبما هم عليه لو آمَنوا باللهِ سبحانه وتعالى.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (40)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يبخَسُ أحَدًا مِن خَلْقِه حقَّه، ولو قدْرَ وزنِ ذرَّةٍ منه، فلا ينقصُ من حسناتِ عبدِه، ولا يَزيدُ في سيِّئاتِه.

وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

أي: وإن توجَدْ حسنةٌ، فإنَّ اللهَ تعالى يضاعِفُها إلى عَشْرِ أمثالِها، إلى سَبعِمائةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرة.

قال اللهُ تعالى حكايةً عن لقمان: يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [لقمان: 16].

وقال اللهُ سبحانه: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ [الأنبياء: 47].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 6– 8].

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُعطيه مِن عندِه أيضًا ثوابًا عظيمًا لا يتصوَّرُه إنسانٌ (قيل: هو الجنَّة).

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (41)

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ

أي: فكيف تكون الحالُ يوم القيامة حين يأتي اللهُ تعالى مِن كلِّ أمَّةٍ بشَهيدٍ، وهم الأنبياءُ عليهم السَّلامُ، فيشهَدون على أُمَمِهم بأعمالِها، وتصديقِ رسلِها، أو تكذيبِهم، وتبليغِهم رسالةَ ربِّهم عزَّ وجلَّ؟.

وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا

أي: وكيف تكون الحالُ أيضًا إذا شهِد محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم على أمَّتِه بأنَّه بلَّغ رسالةَ ربِّه سبحانه؟

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

(42)

يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

أي: حينها يتمنَّى مَن كفَر باللهِ تعالى وعصى رسولَه فلم يمتثِلْ أمرَه ولم يجتنِبْ نهيَه، أنْ لو تبتلِعُهم الأرضُ فيُدفَنونَ فيها ولا يَظْهَرون، ويكونون ترابًا منها، فلا يُحاسَبون.

وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا

أي: إنَّهم يَعترفون بما فعَلوه، ويُقرُّون بما عمِلوه، وتَشهَدُ عليهم جوارحُهم بما كانوا يعمَلون.



سُورةُ النِّساءِ

الآية (43)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43)

تفسير الآية:

النَّاسخ والمَنسوخ:

المَنسوخ:

قول الله تعالى: لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى [النساء: 43].

النَّاسخ:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ [المائدة: 90].

الدَّليل:

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ، قال: (لَمَّا نزَل تحريمُ الخَمرِ، قال عمرُ: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في البقرة: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ [البقرة: 219] الآية، قال: فدُعِي عمرُ فقُرِئت عليه، قال: اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت الآيةُ الَّتي في النِّساءِ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى [النساء: 43]، فكان مُنادِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إذا أقيمت الصَّلاةُ ينادي: (ألَا لا يقرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكرانُ)، فدُعِي عُمرُ فقُرِئت عليه، فقال:

اللَّهمَّ بيِّنْ لنا في الخمرِ بيانًا شفاءً، فنزلت هذه الآيةُ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [المائدة: 91]، قال عُمرُ: انتَهَيْنا).(85)

سَببُ النُّزول:

عن عليِّ بن أبي طالبٍ رضِي اللهُ عنه، قال: ((صنَع لنا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عوف رضِي اللهُ عنه طعامًا فدعانا وسقانا من الخمرِ، فأخذتِ الخمرُ منَّا، وحضرتِ الصَّلاةُ فقدَّموني، فقرأتُ: (قل يا أيُّها الكافرون لا أعبُدُ ما تعبدون ونحن نعبُدُ ما تعبدون)، فأنزَل اللهُ:يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [النساء: 43])).(86)

(85) رواه أبو داود (3670)، والترمذي (3049)، والنسائي (5540)، وأحمد (378). صحَّحه عليُّ بن المديني كما في ((شرح ثلاثيات المسند)) (1/759)، وقال الترمذيُّ: رُوي عن إسرائيل مرسلًا وهو أصحُّ. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (1/185)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (3670)، وقال الوادعيُّ في ((أحاديث مُعلَّة)) (317): سنده رجال الصَّحيح، ولكنَّه منقطع.

(86) رواه الترمذي (3026) واللفظ له، والبزار في ((البحر الزخار)) (598)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (5352) قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب. وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (9/53): في إسنادِه عطاء بن السَّائب، لا يُعرَف إلَّا من حديثه، وقد قال يحيى بن معين: لا يُحتجُّ بحديثِه، وفرَّق مرةً بين حديثه القديم وحديثه الحديث، ووافقه على التفرقة الإمام أحمدُ. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3026).

وفي لفظٍ آخرَ: عن عليّ بن أبي طالبٍ، رضِي اللهُ عنه: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ دعاه وعبدَ الرَّحمنِ بنَ عوف فسقاهما قبل أن تحرَّمَ الخمرُ، فأمَّهم عليٌّ في المغربِ فقرأ: قل يا أيُّها الكافرون، فخلَّط فيها، فنزلَتْ:لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ [النساء: 43])).(87)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ

أي: يا أيُّها المؤمنون لا تقرَبوا المساجدَ، ولا تصلُّوا وأنتم في حالِ سُكرٍ لا تدرون معه ما تقولون في الصَّلاة، إلى أن يحصُلَ لكم الصَّحوُ التَّامُّ.

وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا

أي: ولا تُصلُّوا أيضًا، ولا تقرَبوا المساجدَ، والحالُ أنَّكم على جَنابةٍ، إلَّا لأجلِ الاجتيازِ عبرَها فقط، دون مُكثٍ فيها، إلى أن تغتسِلوا.

وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى

أي: وإنْ كنتم ذوي مَرَضٍ، بحيث يتعذَّرُ معه استعمالُ الماءِ.

أَوْ عَلَى سَفَرٍ

---

(87) رواه أبو داود (3671) واللفظ له ، والترمذي (3026)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (11041)، والبيهقي في ((السنن الكبرى)) (1828). قال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ غريب، وقال الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (237/12): إن كان منقطعا في رواية الفريابي عن سفيان؛ فإن غيره من رواة سفيان قد رفعه، ووثَّق رجالَ إسناده البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (194/6)، وصححه الألباني في ((صحيح الترمذي)) (3026).

أي: إنْ كنتُم مُسافِرين.

أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ

أي: إنْ أحدَثَ أحدُكم حَدَثًا أصغرَ ببولٍ أو غائطٍ.

أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ

قيل: المرادُ الجِماعُ، وقيل المراد: كلُّ لَمسٍ باليدِ أو بغيرِها.

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها زَوجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالت: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ أسفارِه حتَّى إذا كنَّا بالبَيداءِ، أو بذاتِ الجيشِ انقطَع عِقدٌ لي، فأقام رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على التماسِه، وأقام النَّاسُ معه، وليسوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضِي اللهُ عنه، فقالوا: ألَا ترى ما صنَعَتْ عائشة؟! أقامَتْ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكرٍ ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم واضعٌ رأسَه على فَخِذي قدْ نام، فقال: حبَسْتِ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم والنَّاسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ! فقالت عائشةُ: فعاتَبني أبو بكرٍ، وقال ما شاءَ اللهُ أن يقولَ، وجعَل يَطعُنُني بيدِه في خاصرتي، فلا يمنَعُني من التَّحرُّكِ إلَّا مكانُ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم على فخِذي، فقام رسولُ

اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حين أصبَح على غيرِ ماءٍ، فأنزَل اللهُ آيةَ التَّيمُّمِ، فتيمَّموا، فقال أُسَيدُ بن الحُضَيرِ: ما هي بأوَّلِ بركتِكم يا آلَ أبي بكرٍ، قالت: فبعَثْنا البعيرَ الَّذي كنتُ عليه فأصَبْنا العِقدَ تحتَه)).[88]

فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

أي: إنْ حصَلَتْ إحدى الحالاتِ السَّابقِ ذِكرُها- كالسَّفرِ- ففقدتُم الماءَ، فعليكم بقَصْدِ وجهِ الأرضِ الطَّاهرِ النَّظيفِ.

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

أي: فامسَحوا مِن هذا الصَّعيدِ الطيِّبِ الوجهَ والكفَّينِ.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يَعفو عن ذُنوبِ عِبادِه وتَقصيرِهم في طاعتِه، ويَستُرُ عليهم، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها سبحانه وتعالى، ومِن عَفوِه عنهم وغَفرِه لهم: أنْ شَرَعَ التَّيمُّمَ، وأباح لهم فِعلَ الصَّلاة به إذا فقَدوا الماءَ أو تعذَّر عليهم استعمالُه؛ توسعةً عليهم، ورُخصةً لهم.



(88) رواه البخاري (334) واللفظ له، ومسلم (367).

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (44-46)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ
وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (44).

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ

أي: أَلَمْ تعلَمْ- يا محمَّدُ- بأنَّ الَّذين أُعطوا حظًّا من التَّوراةِ من اليهود.

يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ

أي: إنَّهم يختارون الضَّلالةَ عِوَضًا عن الهُدَى، بالإقامةِ على تكذيبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وتركِهم الإيمان؛ ليَشتروا بذلك ثمنًا قليلًا من حُطام الدُّنيا الفاني.

وهذا باعتبارِ ما يختارونه لأنفسِهم، ولكنَّ شرَّهم ليس قاصرًا؛ ولذلك قال:

وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ

أي: وهم يودُّون أيضًا- أيُّها المؤمنون- أنْ تنحرِفوا معهم عن طَريقِ الإيمان، واتِّباعِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فتَكفروا كما كَفروا، وتَتركوا ما أنتُم عليه من الهُدى والعِلم النَّافعِ.

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (45)

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى أعلمُ بعَداوةِ أولئك منكم، وما هم مُنطَوون عليه من الغِشِّ والكيدِ والحسَدِ لكم.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا

أي: حَسْبُكم اللهُ تعالى؛ يتولَّاكم بالحفظِ والرِّعاية، ويُيسِّر لكم ما فيه الفلاحُ والسَّعادةُ.

وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا

أي: وحَسْبُكم اللهُ تعالى نصيرًا؛ يُدافِعُ عنكم، وينصُرُكم على أعدائِكم، ويُبيِّن لكم ما ينبغي أنْ تحذَروه منهم.

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (46)

مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ

أي: إنَّ مِن اليهود مَن يُبدِّلُ ما جاء في التَّوراةِ؛ إمَّا بتغيير اللَّفظِ، أو المعنى، أو هما جميعًا.

وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا

أي: ويقولُ أولئك القومُ: سِمِعْنا- يا محمَّد- قولَك، وعصَيْنا أمرَك، فتولَّوْا عن كتابِ اللهِ تعالى بعدما عقَلوه، وهذا أبلغُ في كُفرِهم وعِنادِهم.

وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ

أي: ويقولون لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: اسمَعْ منَّا ما نقولُ، أصمَّك اللهُ فلا سمِعْتَ، يُسيئون الأدبَ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ استهزاءً منهم واستهتارًا به.

وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ

أي: إنَّهم يُوهِمون أنَّهم بقولهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: "راعنا": يعنُون: أرْعِنا سمعَك، وإنَّما قصدُهم الدُّعاءُ عليه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُصابَ بالرُّعونةِ؛ وذلك تحريفٌ منهم لهذه اللَّفظةِ عن معناها، أرادوا بذلك الطَّعنَ في الدِّينِ بعيبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والقدحِ فيه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ

أي: ولو أنَّ هؤلاءِ اليهودَ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: سِمِعْنا قولَك، وأطَعْنا أمرَك، واسمَعْ منَّا ما نقول، وانتظِرْنا لنفهمَ عنك ما تقولُ، لو أنَّهم قالوا ذلك، لكان أصوبَ وأعدَلَ في القولِ، وفي غيرِه من أمورِ دِينِهم ودنياهم.

وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ

أي: ولكنَّ اللهَ تعالى قد أخْزَى أولئك اليَهودَ، فأقصاهم وأبعَدَهم وطَرَدَهم من رحمتِه؛ وذلك بسبب كُفرِهم.

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: فلا يُؤمنون إلَّا إيمانًا قليلًا لا ينفَعُهم.



سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (47–48)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47) إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)

تفسير الآيتين:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا (47)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ

أي: يا أيُّها اليهود والنَّصارى الَّذين أُنزِل إليهم التَّوراةُ والإنجيلُ فأُعطُوا العِلمَ، آمِنوا بما أنزَلْنا إلى محمَّدٍ من الفُرقان، مصدقًا للَّذي معكم من التَّوراةِ والإنجيلِ؛ فإنَّ القرآنَ شاهدٌ بما جاءت به تلك الكتبُ، وإنَّه حقٌّ، كما أنَّه مهيمِنٌ على غيرِه من الكتب السَّابقةِ الَّتي قد صدَّقها، فإنَّها قد أخبَرَتْ به.

مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا

أي: آمِنوا قبل أن نَطمِسَ وجوهَكم، فنحوِّلَها إلى جهةِ الأدبارِ، أي: من قِبَل ظهورِكم.

والمراد بطَمْس الوجوهِ والرَّدِّ على الأدبارِ: قيل: ألَّا يبقى للوجوهِ سمعٌ ولا بصَر ولا أثَر، ونرُدُّها مع ذلك إلى ناحيةِ الأدبارِ، وقيل المراد: نطمِس أبصارَها ونمحو آثارَها، ونجعَل أبصارَها في أقفائِهم، فيمشون القَهْقرى، وقيل غير ذلك.

أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ

أي: أو نطرُدَهم من رحمتِنا، ونوقِعَ بهم من النَّكالِ مثلما وقَع لأصحابِ السَّبتِ الَّذين اعتدَوْا في سَبتِهم بالحيلةِ على الاصطيادِ فيه، فمُسِخُوا قردةً ذليلةً.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا

أي: إنَّه تعالى إذا أمَر بأمرٍ، فإنَّه واقعٌ لا محالةَ؛ فأمرُهُ عزَّ وجلَّ لا يُخالَف ولا يُمانَع.

قال تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82].

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا (48)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لأيِّ أحدٍ من المخلوقين يَلقَى اللهَ سبحانه وقدْ جعَل معه شريكًا في ربوبيَّته أو ألوهيَّته أو أسمائِه وصفاتِه.

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

أي: ويغفِرُ اللهُ تعالى ما دون ذلك الشِّركِ من الذُّنوبِ- صغائرِها وكبائرِها- للَّذي يشاءُ مِن عبادِه مِن أهل الذُّنوبِ والآثام، إذا اقتضَتْ حكمتُه أن يغفِرَ له.

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا

أي: إنَّ مَن يقع في الإشراكِ باللهِ العظيمِ، فقد اختَلَق وِزْرًا عظيمًا وجُرمًا كبيرًا.

كما قال تعالى: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13].



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (49-57)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49) انْظُرْ كَيْفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ
يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا
(51) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ
الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54)
فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا
لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)



تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (49)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ

أي: ألَا تتعجَّبُ- يا مُحمَّدُ- مِن حالِ هؤلاء اليهود والنَّصارى ومَن نحا نحوَهم في تزكيةِ نفوسِهم، فيُبرِّئون أنفسَهم من الذُّنوبِ والعيوب، ويزعمون لها من الخصائص والمُمَيِّزات ما ليس لها، افتراءً وكذبًا، ومن ذلك قولهم: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ، وقولهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى.

بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ

أي: ليس الأمرُ كما تزعمون، وإنَّما المرجعُ في ذلك إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحدَه؛ لأنَّه العالمُ بحقائقِ الأمورِ؛ فهو الَّذي يُزكِّي ويُثني على مَن يشاءُ مِن عبادِه ممَّن هو أهلٌ لذلك.

قال تعالى: فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى [النجم: 32].

وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا

أي: لا يظلِمُ اللهُ عزَّ وجلَّ هؤلاء الَّذين أخبَرَ عنهم أنَّهم يُزكُّون أنفسَهم، ولا غيرَهم مِن خَلقِه شيئًا، فلا يترُكُ لأحدٍ مِن الأجر شيئًا، حتَّى ما يوازنُ مقدارَ الفتيل، وهو الخيطُ الَّذي في شَقِّ النَّواةِ وبطنِها، أو هو الوسَخُ الَّذي يخرُجُ مِن بينِ أُصبُعيِ الرَّجُل، أو من بين كفَّيْه إذا فتَل إحداهما على الأخرى.

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (50)

انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ

أي: انظُرْ- يا مُحمَّدُ- كيف يفتري هؤلاء الَّذين يزكُّون أنفسَهم مِن أهلِ الكتاب وغيرِهم الكذِبَ والزُّورَ مِن القولِ بتزكيتِهم أنفسَهم، فيختلِقون ذلك على الله جلَّ وعلا.

وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا

أي: وحسبُهم بهذا الصَّنيعِ ذنبًا ظاهرًا، وافتراءً واضحًا يبيّنُ كذبَهم لسامعيه، ويوضِّحُ لهم أنَّهم أَفَكَةٌ فجَرَةٌ، ويكون موجبًا لاستحقاقِهم العقوبةَ البليغةَ، والعذابَ الأليم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (51)

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: ((لَمَّا قدِم كعبُ بن الأشرفِ مكَّةَ، قالت له قريش: أنت خيرُ أهلِ المدينة وسيِّدُهم، قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المُنبَترِ من قومِه، يزعُمُ أنَّه خيرٌ منَّا، ونحن

أهلُ الحجيجِ وأهلُ السِّدانةِ؟ قال: أنتم خيرٌ منه، فنزلت: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ، ونزلت: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ... إلى قوله: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا)).[89]

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ

أي: ألَا تعجَبُ- يا محمَّدُ- مِن حال هؤلاء اليهود الَّذين آتاهم اللهُ تعالى حظًّا من التَّوراة، وقامتْ عليهم الحُجَّةُ، ومع ذلك يؤمنون بالجِبْتِ والطَّاغوت؟.

وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا

أي: يقولُ أولئك اليهودُ عن الكفَّار بأنَّهم أقومُ وأعدَلُ طريقًا من المؤمِنين.

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (52)

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ

أي: قد أبعَدهم اللهُ تعالى، وطرَدهم من رحمتِه.

وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا

---

(89) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (524/6) (11707) واللفظ له، والطبري في ((تفسيره)) (466/8)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (1882)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5440)، وابن حبان (6572). صحح إسناده ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (525/8)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (1448)، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (77): الراجح إرسالُه.

أي: ومَن يطرُدْه اللهُ تعالى من رحمتِه، فلن تجدَ له- يا محمَّدُ- مَن ينصُرُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ فيتولَّاه ويقومُ بمصالحِه، ويحفَظُه عن المكارِه.

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (53)

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ

أي: أم لهم حظٌّ من مُلكِ الله تعالى حتَّى يُفضِّلوا مَن شاؤوا بمجرَّدِ أهوائهم، بحيث يمنَعون فضلَ الله سبحانه على نبيِّه وأتباعِه، ويجعلون الفضلَ لهؤلاء الكفَّار؟ والمعنى: ليس لهم حظٌّ من المُلكِ ليفعَلوا ذلك.

فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا

أي: ولو كان لهم حَظٌّ من المُلكِ، لَمَا أعطَوْا أحدًا مِن النَّاس ولو نقيرًا (أي: النُّقطة الَّتي على ظهرِ النَّواةِ) مِن شدَّة بُخلِهم.

كما قال تعالى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا [الإسراء: 100].

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (54)

أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

أي: أمِ الحاملُ لهم على ذلك حَسَدُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه على ما رزَقه الله تعالى من النُّبوَّةِ العظيمة؛ لكونه من العربِ، وليس من بني إسرائيلَ؟

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا

أي: ليس هذا أوَّلَ فضلٍ تفضَّلْنا به على عباد الله، بل إنَّ الفضلَ قد وُجِدَ من قبلُ في أسلافِكم من ذُرِّيَّة إبراهيمَ عليه السَّلام؛ حيث أعطاهم اللهُ تعالى النُّبوَّة، وأنزَل عليهم الكتبَ، وآتاهم الحِكمةَ، وهي ما أوحاه اللهُ تعالى إليهم ممَّا سوى الكتبِ الإلهيَّة، وآتاهم الملك الواسِعَ الكبير؛ كمُلك سليمانَ عليه السَّلام.

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (55)

فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ

أي: فمِن أهل الكتاب مَن آمَن بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبالقرآنِ الَّذي أُنزل إليه، ومنهم مَن أعرَض عن ذلك ولم يُؤمِنْ، وسعَى في صَرْف النَّاس عن الإيمانِ بذلك.

وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا

أي: وحسْبُهم النَّارُ تُوقَدُ عليهم، فيُحرَقون فيها؛ عُقوبةً لهم على كفرِهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (56)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا

أي: إنَّ الكافرين بآياتِ الله عزَّ وجلَّ- سواءٌ الآياتُ الكونيَّةُ أو الشَّرعيَّة- سيُدخِلُهم اللهُ تعالى النَّارَ فيحترِقون فيها.

كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا

أي: كلَّما انشوَتْ جلودُهم بالنَّارِ فاحترقتْ، أبدَلهم اللهُ تعالى بجلودٍ أخرى؛ فهُم على هذه الحالِ دائِمون.

لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ

أي: ليجِدوا أَلَمَ العذابِ وكَرْبَه وشدَّته.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغالبُ القاهرُ، العزيزُ في انتقامِه؛ فلا يقدِر على الامتناعِ منه أحدٌ أراده بضُرٍّ، ولا الانتصارِ منه أحدٌ أحلَّ به عقوبةً، وهو الحكيمُ الَّذي له الحكمةُ في خَلْقِه وقدَرِه، وثوابِه وعقابِه.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (57)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: والَّذين آمَنوا باللهِ ورسوله محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وبما أنزل اللهُ عليه، وأدَّوا ما أمرهم الله عزَّ وجلَّ به من الطَّاعات، واجتنَبوا ما حرَّم اللهُ عليهم من المنهيَّات، مخلِصين لله تعالى، ومتَّبِعين في ذلك نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ يوم القيامة جنَّاتٍ تجري الأنهارُ في جميع فِجاجِها ومحَالِّها وأرجائِها، ومن تحتِ أشجارِها وقصورِها.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: ماكثين في تلك الجنَّاتِ على الدَّوام، بغير نهايةٍ ولا انقطاعٍ.

لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ

أي: لهم في تلك الجنَّات زوجاتٌ مطهَّرات طهارةً حِسِّيَّة من الأدناسِ؛ كالحيضِ، والغائط، والبول، والحَبَل، والبُصاق، والرَّائحة المنتِنة، وسائر ما يكون في نساء أهلِ الدُّنيا،

ومطهَّراتٌ طهارةً معنويَّةً من الأخلاقِ الرَّذيلة، والصِّفات النَّاقصة.

وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا

أي: ونُدخِلُهم ظلًّا كنينًا غزيرًا طيِّبًا ممتدًّا، لا يَستحيلُ ولا ينتقل.

كما قال تعالى: وَظِلٍّ مَمْدُودٍ [الواقعة: 30].



سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (58–59)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا **(58)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا **(59)**

تفسير الآيتين:

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (58)

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا

أي: إنَّ مَن له الألوهيَّةُ والحُكم عزَّ وجلَّ، يأمركم بأن تردُّوا كلَّ ما اؤْتُمِنْتم عليه إلى أصحابه، سواءٌ كان من حقوقِ الله تعالى أو مِن حقوقِ عباده؛ فرُدُّوه كاملًا موفَّرًا، من غير نقصٍ ولا بخسٍ ولا مماطلةٍ.

وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ

أي: ويأمُركم اللهُ تعالى أيضًا بالحُكم بالعدل في كلِّ شيء، ومع كلِّ أحدٍ من النَّاس؛ وذلك بالحُكم بشريعةِ الله تعالى فهي العدل كُلُّه.

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ

أي: ونِعم الشَّيءُ يعِظُكم به ربُّكم سبحانه وتعالى في أمرِه لكم- أداءُ الأماناتِ إلى أهلها، والحُكمُ بالعدل بين النَّاس.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا

أي: إنَّه سبحانه سميعٌ لأقوالكم، بصيرٌ بأفعالكم، ومن ذلك أداءُ الأمانات إلى أهلِها، وحُكمُكم بين النَّاس.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (59)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما أنَّه قال في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ [النساء: 59]، قال: ((نزَلت في عبدِ الله بن حُذَافةَ بن قيس بن عدي؛ إذ بعَثه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم في سَريَّة)).[90]

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ

أي: يا أيُّها المؤمنون أطيعوا اللهَ تعالى، وأطيعوا رسوله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم، وذلك بامتثالِ أمْرِهما، واجتنابِ نَهْيِهما.

وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ

(90) رواه البخاري (4584).

أي: وأطيعوا أيضًا الوُلاةَ عليكم الَّذين يَلُون لكم أمورَ دِينكم ودنياكم، وهم الأمراء والعُلماء؛ فأطيعوهم فيما لم يكُنْ فيه مخالفةٌ لطاعة الله تعالى وطاعةِ رسوله عليه الصَّلاة والسَّلام.

فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

أي: فإن اختلفتم- أيُّها المؤمنون- في شيءٍ مِن أمرِ دِينكم؛ مِن أصولِه وفروعِه، فاطلبوا معرفةَ حُكمِه من كتابِ الله تعالى وسنَّةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم.

إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي: افعلوا ذلك إن كنتم مؤمنين بالله تعالى حقًّا، ومؤمنين بالآخرة أيضًا.

ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا

أي: ردُّكم لِما اختلفتُم فيه إلى الكتاب والسُّنَّة خيرٌ لكم وأفضلُ، في دِينكم ودنياكم وآخرتِكم، وأحسنُ عاقبةً.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (60-65)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا
إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60)
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا
(61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ
فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60)

سَببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما قال: كان أبو بَرْزةَ الأسلميُّ كاهنًا يَقضي بين اليهود فيما يَتنافَرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ مِن أسلَمَ، فأنزَل اللهُ تعالى: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ [النساء: 60] إلى قوله: وَتَوْفِيقًا [النساء: 62].(91)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

أي: ألَا تتعجَّب- يا محمَّدُ- مِن حال أولئك الَّذين يزعُمون أنَّهم يؤمِنونَ بالقرآن، وبغيره من الكتب الإلهيَّة السَّابقة؟!

(91) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5547)، والطبراني (11/373) (12045)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (141). قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (7/9): رجاله رجال الصَّحيح. وجود إسناده ابن حجر في ((الإصابة)) (4/19)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/532).

يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

أي: وهم مع ذلك يودُّون التَّحاكُمَ في فصلِ الخصوماتِ إلى غير الكتابِ والسُّنَّة.

وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ

أي: والحالُ أنَّهم قد أُمروا أن يكفُروا بالحُكم بغيرِ ما أنزَل اللهُ جلَّ وعلا.

وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: إنَّ الشَّيطانَ يريد أن يجُورَ بهؤلاء المتحاكِمينَ إلى الطَّاغوت جورًا شديدًا بَعِيدًا عن سبيل الحقّ والهُدى.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61)

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ

أي: وإذا قيل للمنافقين: هلمُّوا وأقبِلوا على حُكمِ الله تعالى، الَّذي أنزَله في كتابِه وفي سنَّة رسوله محمَّدٍ عليه الصَّلاة والسَّلام.

رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا

أي: أبصرتَ أولئك المنافقينَ مُعرِضينَ وممتنِعينَ مِن المصيرِ إليك للحُكم بينهم؛ بسبب نفاقِهم، ويمنَعون غيرَهم كذلك.

كما قال تعالى عن المشركين: وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا [لقمان: 21].

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62)

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ

أي: فكيف يكون حالُ هؤلاء المنافقينَ إذا ساقَتْهم المقاديرُ إليك في مصائبَ حلَّتْ بهم بسبب كُفرِهم وذنوبِهم، ومن ذلك تحاكُمُهم إلى غيرِ ما أنزل اللهُ تعالى.

ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا

أي: ثمَّ أتاك هؤلاء المنافقون– يا محمَّدُ– يُقسِمونَ بالله تعالى كذِبًا وزورًا وجُرأةً على الله عزَّ وجلَّ معتذرينَ بأنَّهم ما أرادوا بذَهابِهم للتَّحاكُمِ إلى غيرك إلَّا الإحسانَ إلى المتخاصمينَ، والتَّوفيقَ بينهم، ومداراةَ النَّاس ومصانَعتَهم، لا اعتقادًا منهم بصحَّةِ تلك الحكومةِ.

كما قال تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ [المائدة: 52].

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63)

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ حقيقةَ ما تُكِنُّه قلوبُهم من النِّفاقِ والقصدِ السَّيِّئ في احتكامِهم إلى الطَّاغوت، وتركِهم الاحتكامَ إليك، وإن حلَفوا باللهِ ما أرَدْنا إلَّا إحسانًا وتوفيقًا، وسيَجزيهم على ذلك، فإنَّه لا تخفى عليه خافيَةٌ سبحانه، فاكتفِ به- يا محمَّدُ- فيهم؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ بهم.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

أي: فدَعْهم ولا تُبالِ بهم، ولا تعاقِبْهم.

وَعِظْهُمْ

أي: ورغِّبهم في الانقيادِ لله تعالى ولرسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، وخوِّفهم وحذِّرهم مِن ترْكِه.

وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا

أي: انصَحْهم- يا محمَّدُ- سِرًّا فيما بينك وبينهم بكلامٍ بليغٍ مؤثِّر يصِلُ إلى قرارةِ نفوسِهم؛ ليزجُرَهم ويردَعَهم عمَّا هم عليه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ

أي: لم يبعَثِ اللهُ تعالى الرُّسلَ- ومنهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم- إلَّا لأجلِ أن يُطيعَهم النَّاسُ ويتَّبِعوهم، وذلك بتقديرِ الله تعالى وقضائِه ومشيئتِه.

وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ

أي: ولو أنَّهم حين يقَعُ منهم الخطأُ والزَّللُ أتَوا إليك- يا محمَّدُ- في حال حياتِك، معترفينَ بذنوبهم، طالبينَ مِن الله تعالى سَترَها والتَّجاوزَ عن المؤاخَذةِ بها، وطلبْتَ مِن الله تعالى أن يغفِرَ لهم.

لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا

أي: لو فعَلوا ذلك، لتاب اللهُ جلَّ وعلا عليهم بمغفرتِه ظُلْمَهم، ورحِمهم بالتَّوفيقِ للتَّوبة وقَبولِها والثَّوابِ عليها، وعدمِ مؤاخذتِهم بذُنوبهم الَّتي تابوا منها.

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)

سَببُ النُّزول:

عن عبدِ اللهِ بن الزُّبير رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ رجلًا من الأنصارِ خاصم الزُّبيرَ عند رسولِ اللهِ – ﷺ –، في شِراجِ الحَرَّةِ الَّتي يسقون بها النَّخلَ، فقال الأنصاريُّ: سَرِّحِ الماءَ يمُرُّ، فأبى عليه، فاختصموا عند رسولِ اللهِ – ﷺ –، فقال رسولُ اللهِ – ﷺ – للزبيرِ: "اسْقِ يا زبيرُ، ثمَّ أَرْسِلِ الماءَ إلى جارِك"، فغضب الأنصاريُّ؛ فقال: يا رسولَ اللهِ، أنْ كان ابنَ عمَّتِك! فتلوَّنَ وجهُ نبيِّ اللهِ – ﷺ –، ثمَّ قال "يا زبيرُ، اسْقِ، ثمَّ احبِسِ الماءَ حتَّى يرجعَ إلى الجَدْرِ"، فقال الزُّبيرُ: واللهِ، إنِّي لَأحسبُ هذه الآيةَ نزلت في ذلك: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا)).[92]

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

أقسَم تعالى بنفسه الكريمة على أنَّه لا يؤمن أحدٌ– يا محمَّدُ– الإيمانَ المطلوبَ والمقبولَ منه، حتَّى يحكِّمَك في جميع الأمورِ الَّتي يحصلُ فيها اختلافٌ.

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

أي: ثمَّ لا يكفي هذا التَّحكيمُ الظَّاهر حتَّى يطيعوك في بواطِنِهم أيضًا بأن ينتفيَ الضِّيقُ والحَرَج من قلوبِهم ممَّا حكَمْتَ به– يا محمَّدُ.

---

(92) رواه البخاري (2359)، ومسلم (2357) واللفظ له.

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا

أي: وينقادوا لِقَضائك؛ إذعانًا منهم بالطَّاعة، وإقرارًا بحُكْمِك، فيسلِّموا لذلك تسليمًا كلِّيًّا من غير ممانَعةٍ ولا مدافَعة ولا منازَعة، تسليمًا بانشراحِ صدرٍ، وطمأنينةِ نَفْسٍ، وانقيادٍ بالظَّاهرِ والباطِنِ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (66-70)

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ
أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)

وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67)

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68)

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70)

تفسير الآيات:

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (66)

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

أي: ولو أنَّا فرضْنا على هؤلاء الَّذين يزعمون أنَّهم آمَنوا بما أُنزل إليك، من المحتكِمين إلى الطَّاغوت أن يقتُلَ بعضُهم بعضًا، وأمرناهم بذلك.

أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ

أو أمرْناهم بالهجرةِ من ديارِهم إلى ديارٍ أخرى.

مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ

أي: ما استجاب لتلك الأوامرِ إلَّا عددٌ قليلٌ منهم.

وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ

أي: ولو أنَّ أولئك المنافقينَ فعَلوا ما يُذكَّرون به من فِعل الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، ومِن ذلك التَّحاكمُ إلى الكتاب والسُّنَّة.

لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

أي: لو أنَّهم فعلوا ما يُوعَظون به، لكان أفضلَ لهم من مخالفةِ الأمرِ، وارتكابِ النَّهي في عاجلِ دُنياهم، وآجلِ معَادِهم، ولكانوا من الأخيارِ المتَّصفينَ بأوصافِهم.

وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا

أي: وأثبَتَ لهم في أمورِهم وعزائِمِهم، وأقومَ لهم عليها، وأشدَّ ثباتًا على الحقِّ؛ فالإنسانُ كلَّما ازداد طاعةً لله ازدادَ إيمانًا ويقينًا وثباتًا عند ورود الفِتَن.

وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (67)

أي: ولَأَعطيناهم كذلك جزاءً وثوابًا عظيمًا من عندِنا في العاجلِ والآجِل.

وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (68)

أي: ولأرشدْناهم ووفَّقْناهم إلى الصِّراط المستقيم.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69)

سَببُ النُّزول:

عن عائشةَ رضِي اللهُ عنها، قالت: ((جاء رجلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا رسول الله، إنَّك لَأحبُّ إليَّ من نفسي، وإنَّك لأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنِّي لأكونُ في البيت فأذكُرُك فما أصبِرِ حتَّى آتيَ فأنظُرَ إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتَك عرفتُ أنَّك إذا دخلْتَ الجنَّة رُفِعْتَ مع النَّبيِّين، وأنِّي إذا دخلتُ الجنَّة خَشِيتُ ألَّا أَراك، فلم يرُدَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شيئًا حتَّى نزل عليه جبريلُ بهذه الآية: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ)).(93)

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ

أي: مَن يمتثِلْ أمرَ الله تعالى ورسولِه عليه الصَّلاة والسَّلام، ويجتنِبْ نهيَهما، فهو في الجنَّة مع مَن أنعَم الله تعالى بهدايتِهم إلى الصِّراطِ المستقيم.

مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ

---

(93) رواه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (477)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (4/239) حسَّنه الضياء كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (4/527)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (7/10): رجالُه رجالُ الصَّحيح غير عبد الله بن عمران العابديِّ، وهو ثقة. ووثَّق رِجالَه ابنُ حجر في ((العجاب)) (2/914)، وصحَّحه لغيره أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (1/537)، وذكر الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (6/1044) أن فيه عبدُ الله بن عمران صدوق، ويُقوِّيه أنَّ له شواهدَ مُرسلةً. وقال الوادعيُّ في ((صحيح أسباب النزول)) (80): له شواهدُ تَزيده قُوَّةً.

أي: مِن الرُّسل والأنبياء الَّذين فضَّلهم الله تعالى بوحيِه، والصِّدِّيقين الَّذين كمَلَ صدقُهم وتصديقُهم، فعلِموا الحقَّ وصدَّقوه بيقينهم، وقاموا به قولًا وعملًا وحالًا، والشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيل الله تعالى لإعلاء كلمتِه، والصَّالحين الَّذين صلَحَتْ سرائرُهم وعلانيتُهم.

وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا

أي: وحَسُنَ هؤلاء- الَّذين وصفَهم اللهُ عزَّ وجلَّ- رُفقاءَ يُجتمَعُ بهم في جَنَّات النَّعيم، ويُؤنَس بقُربهم في جوار الرَّبِّ الرَّحيم.

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (70)

ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ

أي: ذلك الإنعامُ الَّذي نالوه عطاءٌ وفضلٌ من اللهِ تعالى عليهم؛ فهو الَّذي برحمتِه أهَّلهم ووفَّقهم لذلك، وأعانَهم عليه، لا بأعمالِهم؛ فقد أعطاهم من الثَّوابِ ما لا تبلُغُه أعمالُهم.

وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا

أي: وحسْبُ العبادِ باللهِ عالِمًا بأعمالهم وأحوالهم، فيعلَمُ مَن يستحقُّ منهم الهدايةَ والتَّوفيقَ، والثَّوابَ الجزيل.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (71-76)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ
لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72) وَلَئِنْ
أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ
فَوْزًا عَظِيمًا (73) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) الَّذِينَ آمَنُوا
يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ
كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا (71)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ

أي: يا أيُّها المؤمنون، احذَروا من عدوِّكم، وذلك بالأخْذِ بالأسبابِ الَّتي يُستعانُ بها على قِتالهم ودَفْعِهم.

فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ

أي: فاخْرُجوا لقِتالِ عَدوِّكم متفرِّقينَ، جماعةً بعد جماعةٍ.

أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا

أي: أو انفِروا كلُّكم مجتمعينَ.

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (72)

وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ

أي: وإنَّ في عِدادِكم- أيُّها المؤمنون- منافقينَ، يتثاقَلون ويتخلَّفون بأنفُسِهم عن جهادِ عدوِّكم إذا أنتم نفَرْتم إليهم، ويثبِّطون غيرَهم فيتخلَّفونَ عن الخروجِ في سبيل الله تعالى.

فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ

أي: فإنْ حلَّتْ بكم هزيمةٌ وقتلٌ، وظفِر الأعداءُ عليكم في بعض الأحوال لِمَا للهِ تعالى في ذلك من الحِكَمِ.

قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا

أي: فإنْ أصابَكم ذلك، قال هذا المنافِق الَّذي يَتباطَأُ ويُبطِّئُ غيرَه عن الجِهاد: قد منَّ الله عليَّ بعدمِ الخُروجِ معهم للقِتال، وإلَّا لَأصابني ما أصابَهم من القَتْلِ أو الهزيمةِ.

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا (73)

وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ

أي: وإنْ أظفرَكم اللهُ بعدوِّكم فانتصرْتم عليهم، ونِلتم منهم غنيمةً.

لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ

أي: ليقولَنَّ هذا المنافقُ وكأنَّه ليس من أهلِ دِينكم- يا مَعشرَ المؤمنينَ- لا يرتبطُ معكم فيه بالتزامِ أحكامِه، ومنها النُّصرةُ لكم.

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا

أي: تمنَّى هذا المنافقُ أن يكونَ مع المؤمنين في الخروجِ للجهاد، فيُصيبَ معهم من الغنائم الَّتي ظفِروا بها من عدوِّهم.

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (74)

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ

أي: فليجاهدْ أعداءَ الله لإعلاءِ كلمة الله سبحانه، المؤمنون الصَّادقون الَّذين يبيعونَ الحياة الدُّنيا بالآخرة رغبةً فيما عند الله عزَّ وجلَّ.

وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ

أي: ومن يُجاهِدْ أعداءَ الله تعالى لإعلاء كلمتِه جلَّ وعلا فسواءٌ قتَله الأعداء، أو بقي حيًّا وانتصَر عليهم.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: فهو غانمٌ على كلِّ حال؛ إذ سيُعطيه اللهُ تعالى ثوابًا جزيلًا.

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75)

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ

أي: ولِمَ لا تُجاهدون- أيُّها المؤمنون- لإعلاءِ كلمة الله تعالى، وتُجاهِدون للسَّعي في استنقاذِ الرِّجال والنِّساءِ والصِّبيان الَّذين غُلِبُوا على أنفسِهم بقَهْرهم وإيذائِهم وإذلالِهم وسَومِهم العذابَ، ولا يَستطيعون حيلةً للهجرة ولا يهتدون إليها سبيلًا؟!

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا

أي: يَدْعون ربَّهم بأن يخرجَهم من مكَّةَ؛ للنَّجاةِ من فتنةِ استضعافِهم من قِبَل مشركِي قريشٍ.

وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا

أي: وسخِّرْ لنا من عندك مَن يتولَّى أمرنا ويُنقذُنا، وسخِّرْ لنا من عندك مَن ينصُرُنا على عدوِّنا.

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: إنَّ المؤمنينَ حقًّا إنَّما يُقاتِلون من أجْلِ إعلاء كلمةِ الله تعالى.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ

أي: وأمَّا الكفَّارُ فإنَّهم إنَّما يُقاتلون لأجل الطَّاغوت كالشَّيطان.

والطَّاغوت: هو كلُّ ما تجاوَز به العبدُ حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ.

فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ

أي: فقاتِلوا - أيُّها المؤمنون - أولئك الَّذين يتولَّوْن الشَّيطانَ ويُطيعون أوامرَه.

إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا

أي: فلا تَهابوا أولياءَ الشَّيطان؛ لأنَّ إمامَهم الشَّيطانَ ذو كيدٍ واهنٍ وضعيفٍ، لا يقوَى على مقاومةِ الحقِّ والتَّغلُّب عليه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (77–79)

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ
إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ
لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا
(77) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ
الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ
سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

تفسير الآيات:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا

(77)

سَببُ النُّزول:

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما أنَّ عبدَ الرحمن بنَ عوفٍ وأصحابًا له رضِي اللهُ عنهم أتَوُا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا نبي الله، كنَّا في عزٍّ ونحن مشركونَ، فلمَّا آمنَّا صِرنا أذلَّة، قال: إنِّي أُمرتُ بالعَفْوِ، فلا تقاتلوا القَوْمَ، فلمَّا حوَّله الله إلى المدينة أمَرَه بالقتالِ، فكَفُّوا، فأنزل الله: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ الآية.(94)

---

(94) رواه النسائي (3086)، والطبري في ((تفسيره)) (8/549)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (5630)، والحاكم (2/76).
صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (3086)، وصحَّحه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (633) وقال: رجالُه رجالُ الصَّحيح.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُم

أي: ألَا تعجَبُ- يا مُحمَّدُ- من هؤلاء الَّذين أُمِرُوا بإمساك أيديهم عن حرْبِ أعدائهم المشركين، والامتناع عن قتالهم.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ

أي: وعليكم بأداء الصَّلاة بحدودِها وفروضها تامَّةً كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وإيتاءِ الزَّكاة أهلَها المستحقِّين كما شُرِعت

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا [النِّساء: 66].

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ

أي: فلمَّا فُرِض عليهم القتالُ- الَّذي كانوا قد سألوا أن يُفرَضَ عليهم- في وقتِه المناسبِ لذلك.

إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً

أي: إذا جماعةٌ منهم قد خافوا من مواجهةِ النَّاس لقتالِهم، خوفًا شديدًا مِثل خوفِهم من اللهِ تعالى أو أشدَّ خوفًا.

وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ

أي: لِمَ فرَضْتَ علينا القتالَ يا أللهُ؟

لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ

أي: هلَّا أخَّرتَ فرضَ القتال مدَّةً أخرى متأخِّرةً عن الوقتِ الحاضر، قيل: يعنونَ بذلك تأخيرَه إلى أن يموتوا على فُرُشِهم وفي بيوتهم.

قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ

أي: قُلْ لهم- يا محمَّدُ- ردًّا عليهم: ما في الدُّنيا من نِعَمٍ قليلة كيفًا وكمًّا ووقتًا، فهي محدودةٌ وفانية.

وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى

أي: وما في الآخِرة من نعيمٍ أعدَّه الله تعالى للمتَّقين خيرٌ وأفضلُ ممَّا في الدُّنيا كيفًا وكمًّا ووقتًا؛ فنعيمُ الآخرة عظيمٌ، وكثيرٌ لا يُعَدُّ، وباقٍ لا يزولُ.

وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا

أي: إنَّ سعيَكم للآخِرةِ ستَجِدون أجْرَه كاملًا موفَّرًا غيرَ منقوصٍ منه شيئًا.

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (78)

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ

أي: في أيِّ مكانٍ كنتم، فإنَّ الموتَ آتِيكم لا مَحالةَ، لا يَنجو منه أحدٌ منكم، سواءٌ في ذلك مَن خرَج للجِهاد في سبيلِ الله تعالى، ومَن قعَدَ عنه.

وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ

أي: إنَّ الموتَ واصلٌ إليكم حتمًا، ولو تحصَّنتم منه بالحُصونِ المنيعة العاليةِ.

وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: وإنْ ينَلِ المكذِّبين لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، رخاءٌ وخصبٌ ورزقٌ وأولادٌ وعافيةٌ وظفَرٌ وفتحٌ وغنائمُ، وغيرُ ذلك من الخيرات؛ فإنَّهم يقولون: هذا قدْ جاء من قِبَل اللهِ تعالى ومِن تَقديرِه، وليس لك علينا في ذلك فَضلٌ يا محمَّدُ.

وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ

أي: وإنْ تنَلْهم شِدَّةٌ؛ كضيقٍ في الرِّزق وقحطٍ وجدبٍ ونقصٍ في الثَّمرات وموتِ أولاد وأحباب، وهزيمةٍ من عدوٍّ، وإصابةٍ بجراحٍ وآلام، وغير ذلك من شدائدَ ومِحَنٍ، فإنَّهم يقولون: إنَّما أصابنَا ما أصابنا من بلايا بسببِ ما جئتَنا به يا محمَّدُ.

كما أخبر الله عن قوم فرعونَ في قولهم مثل ذلك لموسى عليه السلام؛ حيث قال سبحانه: فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ [الأعراف: 131].

وكما قال قومُ صالحٍ عليه السَّلام له: قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ [النمل: 47].

قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

أي: قُلْ- يا محمَّدُ- لهؤلاء القومِ: جميعُ ما أصابكم من حَسنةٍ أو سيِّئة، فهو بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه.

فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا

أي: عجبًا لهؤلاء القومِ؛ ما شأنُهم لا يفهمونَ حديثًا بالكلِّيَّة ولا يَقرُبون من فَهمِه! ومن ذلك حقيقةُ أنَّ كلَّ ما أصابهم فمِن عندِ الله تعالى، بتَقديرِه ومَشيئته، لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُه؟!

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (79)

مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ

أي: ما تُؤتاه – يا محمَّدُ- من نِعَم الدِّين والدُّنيا، فهو من فضلِ الله تعالى ورحمتِه.

وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ

أي: وما ينالُكَ من أذًى ومكروهٍ؛ فبسببِ ذنبٍ صَدَر منك.

كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30].

وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا

أي: إنَّما بعثناك- يا محمَّدُ- رسولًا بَينَنا وبين النَّاس عامَّةً، تُبلِّغهم شرائعَ الله تعالى، وما يُحبُّه ويرضاه، وما يكرَهُه ويأباه.

وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا

أي: وحَسْبُك اللهُ عزَّ وجلَّ شاهدًا على أنَّه أرسَلك، وشاهدًا على إبلاغِك رِسالتَه، وشاهدًا على مَن أُرسلتَ إليهم في قَبولهم أو رَفْضِهم رسالتَك.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (80-84)

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)

تفسير الآيات:

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (80)

مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ

أي: كلُّ مَنْ أطاعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقد أطاع اللهَ سبحانه؛ لكونِه لا يَنطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحَى؛ فهو لا يأمُرُ ولا ينهى إلَّا بأمرِ الله تعالى وشرعِه ووحيِه.

وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا

أي: ومَن أعرَض عن طاعتِك- يا محمَّدُ- فلا عليك منه، ولا تُسأَلُ عنه، إنْ عليك إلَّا البلاغُ؛ فإنَّا لم نُرسِلْك عليهم حافظًا لِما يعمَلون ومُحاسِبًا، بل أرسلناك مبلِّغًا ومبيِّنًا وناصحًا، وقد أدَّيتَ وظيفتَك، ووجب أجرُك على الله عزَّ وجلَّ، سواءٌ أطاعوا أم أعرَضوا.

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (81)

وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ

أي: ويقولُ المنافقون لك- يا محمَّدُ-: سنُطيعك ولا يكونُ منَّا عِصيانٌ.

فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ

أي: فإذا خرَجوا مِن عندك- يا محمَّدُ- وخلَوْا في حالةٍ لا تطَّلعُ فيها عليهم.

بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ

أي: استسَرَّ جماعةٌ منهم ليلًا فيما بينهم بغيرِ ما أظهَروه لك، وغيَّروا ما تقولُ لهم فاستقرُّوا على معصيتِك.

وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ

أي: إنَّ اللهَ تعالى يحفَظُ عليهم هذا العصيانَ الَّذي بيَّتوه، وسيُجازيهم عليه أتمَّ الجزاء، فلا تحزَنْ عليهم- يا محمَّدُ- ولا تكُ في ضَيقٍ ممَّا يفعَلون، فإنَّ أمرَهم لا يخفى على اللهِ جلَّ وعلا.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ

أي: فأعرِضْ- يا محمَّدُ- عن هؤلاء المُنافِقين، وخَلِّهم وما هم عليه من الضَّلالةِ، ولا تؤاخِذْهم، ولا تخَفْ منهم، ولا تشغَلْ بالَك بهم.

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ

أي: واعتمِدْ أنتَ- يا محمَّدُ- على اللهِ تعالى وثِقْ به.

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

أي: وحَسْبُك باللهِ سبحانه وليًّا وناصرًا ومُعِينًا.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا (82)

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ

أي: أفلا يتأمَّلُ هؤلاء المنافِقون معانيَ القُرآن، وينظُرون في مبادئِه وعواقِبه، ولوازِمِ ذلك، فتظهَرَ لهم براهينُ الحقِّ، وتلوحَ أدلَّتُه، ويعلَموا حُجَّةَ اللهِ عليهم في طاعة النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم واتِّباعِ أمره؟

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا

أي: ولو كان القرآنُ مفتعَلًا ومختَلَقًا مِن عندِ أحدٍ، لاضطَرَبَتْ أحكامُه، واختلفَتِ اختلافًا كبيرًا، وتناقضت معانيه كثيرًا، وأبان بعضُه عن فسادِ بعضٍ.

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا (83)

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ

أي: وإذا أتَى هؤلاء المنافقِينَ خبرٌ يتعلَّقُ بأمْنِ المؤمنين، أو خَبرُ أمرٍ يُوجِبُ خوفَ المؤمنين.

أَذَاعُوا بِهِ

أي: أفشَوْه وأشاعوه على الفورِ دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ من صحَّتِه أوَّلًا.

وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ

أي: ولو أَرجَعوا هذا الأمرَ قبل بثِّه، إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلى أُمرائِهم وعلمائِهم حتَّى يكونَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أو ذَوُو أمرِهم هم الَّذين يقولون الخبرَ عن ذلك، بعد أن ثبتَتْ عندهم صحَّتُه أو كذبُه، إن رأَوْا في إذاعتِه مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من أعدائِهم، وإن رأَوْا أنَّه ليس فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكنَّ مضرَّتَه تزيدُ على مصلحتِه، لم يُذِيعوه.

لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

أي: لعَلِمَ حقيقةَ ذلك الخبرِ على الوجهِ المرادِ مِن الأمنِ أو الخوف، الَّذين يَبحَثون عنه، ويَستعلِمونه من معادنِه، ويَستخرجون ما خفِيَ من المعاني بفِكرِهم وآرائِهم السَّديدةِ، وعلومِهم الرَّشيدةِ، حتَّى يصِلوا إلى حقيقةِ الأمرِ بإذنِ الله تعالى.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

أي: ولولا إنعامُ اللهِ عليكم– أيُّها المؤمنون– بفضلِه وتوفيقِه ورحمتِه وإحسانِه وتأديبِكم، وتعليمِكم ما لم تكونوا تعلَمون.

لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: لكُنتُم مِثلَ المنافقين فاتَّبعتم الشَّيطانَ في إذاعةِ الأخبار، باستثناءِ القليلِ مِن الإذاعةِ.

وقيل: لاتَّبعتُم الشَّيطانَ في كلِّ ما تفعلونه إلَّا قليلًا مِن أفعالِكم وأحوالِكم.

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا (84)

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: فجاهِدْ- يا محمَّدُ- بنفسِك أعداءَ الله؛ لإعلاءِ كلمة الله جلَّ وعلا.

لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ

أي: ليس لك قدرةٌ على غيرِ نفسِك، وإنَّما عليك ما كُلِّفْتَه دون ما كُلِّفَه غيرُك.

وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: وحُضَّهم- يا محمَّدُ- على القتالِ، ورغِّبْهم فيه وشجِّعْهم عليه.

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: لعلَّ اللهَ تعالى أن يمنَعَ ويرُدَّ عنكم قوَّةَ الكافرين وشوكتَهم، وينصُرَكم عليهم بسببِ القتال في سبيلِ الله تعالى والتَّحريض عليه؛ فبالتَّحريض عليه تنبعِثُ الهِمَمُ على مناجَزةِ الأعداء، والمدافعةِ عن حَوزةِ الإسلام وأهلِه.

وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا

أي: واللهُ تعالى أشدُّ قوةً وصَولةً من أولئك الكفَّارِ، وهو قادرٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ.

وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا

أي: وهو سبحانه أشدُّ عقوبةً وأعظمُ عذابًا ونِكايةً في عدوِّه، من نِكايةِ الكفَّارِ بالمؤمنين.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (85-87)

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85)

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

تفسير الآيات:

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (85)

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً

أي: مَن يَسعَ في معاونةِ غيرِه بما يجلِبُ له النَّفعَ والخير، ويدفعُ عنه الضُّرَّ والشَّرَّ.

يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا

أي: يكُنْ له حظٌّ من ثواب الله تعالى.

وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً

أي: ومَن يَسعَ في مُعاونةِ غيرِه على أمرٍ من الشَّرِّ.

يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا

أي: يكُنْ عليه وِزرٌ وإثمٌ مِن ذلك الأمرِ الَّذي تَرتَّبَ على سَعيِه ونيَّتِه.

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وحفيظٌ وحسيبٌ، فيُجازي كُلًّا بما يستحقُّه.

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا (86)

وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ

أي: إذا سُلِّم عليكم بسلامٍ، وحُيِّيتم بأيِّ تحيةٍ كانت، أو دُعِي لكم بطولِ الحياةِ والبَقاء.

فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا

فرُدُّوا التَّحيةَ والسَّلام، وادْعُوا لِمَن دعَا لكم بأحسَنَ ممَّا حيَّاكم ودعا لكم وأفضَلَ، لفظًا وبَشاشةً، أو رُدُّوا عليه بمثلِ دُعائِه وتحيَّته.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا

أي: إنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ ممَّا يعمَل النَّاسُ من طاعةٍ أو معصيةٍ حفيظٌ ومُحْصٍ له، حتَّى يجازيَهم به.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا (87)

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

أي: إنَّ الله تعالى وحْدَه هو المعبود بحقٍّ، فلا يستحقُّ العبادةَ إلَّا هو سبحانه.

لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

أي: واللهِ ليحشرَنَّكم اللهُ تعالى جميعًا إلى موقِفِ الحساب، فيجمَعُ أوَّلكم وآخِرَكم في صعيدٍ واحد فيُجازي كلَّ عاملٍ بعمله.

لَا رَيْبَ فِيهِ

أي: لا شكَّ بوجهٍ من الوجوه في حقيقةِ أنَّ الله عزَّ وجلَّ سيجمَعُ النَّاسَ يوم القيامة بعد مماتهم.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا

أي: لا أحدَ أصدقُ منه في حَديثِه وخَبرِه، ووعْدِه ووعِيدِه سبحانه؛ فحديثُه وأخبارُه وأقوالُه في أعلى مراتبِ الصِّدقِ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (88-91)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ
يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا
تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا
إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

تفسير الآيات:

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (88)

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ

فلِمَ اختلفْتُم– أيُّها المؤمنون– في شأنِ المنافقين على قَوْلَينِ؛ ما بين مُكَفِّرٍ لهم وغَيْرِ مكفِّرٍ؟.

وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا

أي: والحالُ أنَّ الله تعالى قد ردَّهُم إلى الكُفرِ وأوقَعَهُم فيه؛ بسَببِ ما اقْتَرفوه مِن آثامٍ وسيِّئاتٍ؛ فلا يَنبغي لكم أنْ تَشْتَبِهوا فيهم، ولا تَشكُّوا، بل أمْرُهم واضحٌ غيرُ مُشكِلٍ، فالصَّوابُ مع مَن قال: إنَّهم كافِرون.

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ

أي: أتودُّون– أيُّها المؤمنون– أنْ تُوَفِّقُوا للإقْرارِ بدِينِ اللهِ تعالى والدُّخول فيه مَنْ خَذَلَه اللهُ عنه فَلَمْ يُوَفِّقْهُ لذلك؟

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا

أي: ومَنْ خَذَلَه الله تعالى عن دِينِه فلم يوفِّقْه لسُلُوك طريقِ الهدى، فلا طريقَ له إليه، ولا مَخْلصَ له إليه.

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (89)

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً

أي: إنَّ هؤلاءِ المنافقِينَ الَّذين اختلفتُم فيهم- أيُّها المؤمنون- إلى فِئتينِ، يتمنَّوْن لكم الوقوعَ في الكُفْر فتكونون كُفَّارًا مثلَهُم وتَسْتَوونَ أنتم وهُمْ في ذلك.

فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: فلا تتَّخِذوا منهم أولياءَ وأخِلَّاءَ تُوالُونهم أو يُوالونكم، حتَّى يُؤمِنوا ويقدِّموا إثباتًا على إيمانِهم بمفارقَةِ دار الشِّرْك وأهلِه إلى دار الإسْلام وأهلِه؛ ابتغاءَ دينِ الله تعالى ومَرْضَاته.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

أي: فإنْ أعْرَضُوا عنِ الإيمانِ باللهِ تعالى وترَكوا الهجرةَ في سَبِيله سبحانه، فاحْمِلوا عليهم بالقِتال وخُذُوهم أسرى، واقتلُوهم في أيِّ مكانٍ وجدتموهُم فيه.

وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: لا تُوالُوا أيَّ أحدٍ منهم يُوالِيكم على أموركم، ويكونُ موضِعَ أسرارِكم ومَشُورتكم ومَحبَّتكم، ولا تطلُبوا من أيِّ أحدٍ منهم نُصْرةً لكم على أعدائِكُم.

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (90)

إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ

أي: سِوَى مَن لجَأ من هؤلاء المنافقينَ إلى قومٍ بينكم وبينهم مُهادَنَةٌ وعَهْد ومِيثاقٌ بترْك القتال، فدخلوا فيهم، فاجعلُوا حُكْمَهم كحُكْمِهم في حَقْنِ الدِّمَاء والأمْوَال.

أَوْ جَاؤُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ

أي: أو أتَوْكم وقدْ ضاقتْ صُدورُهم عن قِتَالكم أو قِتَالِ قومِهم فيُبْغِضُون قِتالكم، ولا يَهُون عليهم أيضًا قِتَالُ قومِهم معكم؛ فلا هُمْ لكم ولا عليكم، فاترُكوا قِتالَ وقَتْلَ هذه الطائفةِ أيضًا.

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ

أي: ولو شاءَ الله عزَّ وجلَّ لسلَّط عليكم- أيُّها المؤمنون- هؤلاءِ المنافقين فَقَاتَلوكم، ولكِنْ مِنْ لُطْفِه بكم أنْ كَفَّهُم عنكم.

قيل المقصود بهم هنا: الطَّائفةُ الثَّانية، وقيل: كِلتَا الطَّائِفَتينِ الْمُسالِمتَيْنِ الَّلتيْنِ استثْنَاهما الله تعالى مِنْ قتالِهِم وقتلِهم.

فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ

أي: فإنِ انْصَرَف عن قِتالِكم هؤلاء الَّذين أمَرْتُكم بالكفِّ عن قِتَالِهِم من المنافقين، وآثَرُوا الْمُسَالمة، وصالَحُوكم.

فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا

أي: إذا استَسْلَمَ لكم هؤلاء المنافقون صُلحًا منهم لكم، فلم يَجعلِ اللهُ تعالى لكم على أنفسِهِم وأموالِهِم وذَرَارِيّهم ونِسائِهم طريقًا مُباحًا إلى قَتْلٍ أو سِبَاءٍ أو غَنِيمة.

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (91)

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ

أي: ستطَّلِعون- أيُّها المؤمنون- على صِنفٍ آخَرَ من المنافقين يُظْهِرون للنَّبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولأصحابه الإسلامَ؛ خوفًا منهم لِيَأْمَنوا بذلك على دِمَائهم وأمواهِم وذَرَارِيّهم ونسائِهم، ويُصَانِعون قومَهُم الكُفَّارَ في الباطِنِ، فيعبدُون معهم ما يعبُدُون من دونِ الله تعالى؛ لِيَأمَنُوا كذلك عِنْدَهم على دمائِهم وأموالِهم وذرارِيّهم ونسائِهم.

كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا

أي: كلَّما عَرَضَتْ لهم فتنةٌ بِدَعْوَتِهم إلى الكُفْر والشِّرْك بالله تعالى، أجابوا إلى ذلك، فازدادُوا إيغالًا وانْهِمَاكًا في الكُفْر والشِّرْك.

فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ

أي: فَهُؤلاء إنْ لم يترُكوا قتالَكم، ولم يَسْتَسلِمُوا إليكم ويُصَالِحُوكم.

فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ

أي: فخُذُوهم أسْرى وأَعْمِلوا فيهمُ القتْلَ أينما لَقِيتُمُوهم؛ فإنَّ دماءَهم حلالٌ لكم.

وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: وهؤلاء جَعَلْنا لكم حُجَّةً واضحةً في استحقاقِهِمُ القتلَ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (92-94)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا **(92)** وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا **(93)**

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا **(94)**

تفسير الآيات:

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (92)

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً

أي: ليس لمؤمنٍ أنْ يقتُل أخاه المؤمنَ ولا يَحِلُّ له ذلك، كما أنَّه أمْرٌ ممتنعٌ صدورُهُ من مؤمنٍ؛ لأنَّه منافٍ للإيمان، إلَّا أن يرتكِبَ ذلك غيرَ عامدٍ له ولا قاصِدٍ إليه.

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

أي: إذا ارتكبَ المؤمنُ القتْلَ غيرَ عامدٍ له ولا قاصِدٍ إليه، فعليه أن يُكَفِّرَ عن ذلك بتحريرِ مؤمنٍ أو مؤمنةٍ من رِقِّ العبوديَّةِ.

وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا

أي: وعلى القاتِل دفْعُ دِيَةٍ كاملة- ولكنْ تتحمَّلُها عاقِلَتُه- إلى ورثَةِ المقتولِ عِوَضًا لهم عمَّا فاتَهُم من قريبِهم وجَبْرًا لقلوبِهم إلَّا إذا تصدَّقُوا بإسقاطِ الدِّيَة، فلا تجب حينئذٍ.

فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

أي: فإنْ كان هذا المقتولُ الَّذي قَتَلَه المؤمِنُ خطأً من كُفَّارٍ حربِيِّينَ، لكنَّه مؤمنٌ، فلا دِيَةَ لهم، وعلى القاتل عِتْقُ رقبةٍ مؤمنة لا غيرُ.

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ

أي: وإنْ كان القَتيلُ الَّذي قتَلَه المؤمنُ خطأً من قومٍ بينكم- أيُّها المؤمنونَ- وبينهم عهْدٌ وذمَّةٌ أو هُدْنة، وليسوا أهلَ حربٍ لكم.

فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

أي: فعَلى القاتِلِ دِيَةٌ- تتحمَّلُها عاقِلَتُه- يدفعها إلى ورثة المقتولِ، وعِتْقُ رقبةٍ مؤمنة كفَّارةً لقتْلِه.

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ

أي: فمَن لم يَجِدْ رقبةً مؤمنةً يُعْتِقُها كفَّارةً لخطئه في القتل، أو لم يَجِدْ ثمَنَها، بأنْ كان مُعْسِرًا، ليس عنده ما يَفْضُل عن حوائجِه الأصليَّة، فعليهِ صيامُ شهرين، يَسْرُدُ صومَهُما إلى آخرِهِمَا دون إفطارٍ فيهما.

تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ

أي: هذه الكَفَّاراتُ الَّتي شَرَعَها اللهُ للمُؤمِنِ الذي قَتَلَ مؤمنًا خطأً؛ توبةً منه على عباده ورحمةً بهم، وتكفيرًا لما عَسَاه أنْ يَحصُلَ منهم من تقصيرٍ وعَدَمِ احترازٍ، ولو شاء اللهُ تعالى لشَقَّ عليهم، ولكان الواجبُ بقتلِ الخطأِ أكبرَ من ذلك.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومن ذلك عِلْمُه بما يُصلِحُ عباده فيما يكلِّفُهم من فرائِضِه وغير ذلك، وهو سبحانه الحكيم في كلِّ شيء، فيَضَع كلَّ شيء في موضِعِه اللَّائق به، ومن ذلك حِكْمَته فيما يَشْرَعه لعباده من أحكام.

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (93)

وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

أي: ومَن يقتُلْ مؤمنًا مُتَعَمِّدًا قتْلَهُ، قاصدًا إتلافَ نفسِهِ، فإنَّما عقوبتُه الَّتي يستحِقُّها إنْ عاقَبَهُ اللهُ تعالى الخُلُودُ في نار جهنَّم- فقد يكون له من توحيدِ الله تعالى وتوبتِهِ وأعمالِه الصَّالِحَة ما يَصْرِف عنه هذه العقوبةَ- وقيل: بلِ المرادُ بالخلودِ هنا الْمُكْث الطويلُ؛ إذ لا يُخَلَّد مَنْ في قلبه إيمانٌ في النَّارِ أبَدَ الآبدينِ.

وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ

أي: سَخِطَ عليه الجبَّارُ سبحانه، وطَرَدَه وأبعدَهُ من رحمته جَلَّ وعَلا.

وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا

أي: وهَيَّأَ اللهُ تعالى له عقوبةً كبيرةً، لا يعلمُ قَدْرَ مَبْلغِها سِواه عزَّ وجلَّ.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (94)

سَببُ النُّزولِ:

عنِ ابْنِ عباسٍ رضِيَ اللهُ عنهما وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا قال: كان رجلٌ في غُنَيْمَةٍ له فلحِقَه المسلمون. فقال: السَّلامُ عليكم فقتلوه وأخذوا غُنَيْمَتَه فأنزل الله في ذلك إلى قوله: عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا تلك الغُنَيْمَة.[95]

(95) رواه البخاري (4591) واللفظ له، ومسلم (3025).

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا

أي: يا أيُّها المؤمنون إذا سِرْتُم في جهادِ أعدائِكم فتأنَّوْا في قتلِ من أشكَلَ عليكم أمرُهُ، فلم تعلموا حقيقةَ إسلامِهِ ولا كُفْرِه، ولا تَعْجَلُوا فتقتُلُوه قبل أنَّ تتثبَّتوا وتتيقَّنوا أمرَه.

القراءات ذات الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: فَتَبَيَّنُوا قراءتان:

1- فَتَثَبَّتُوا: من التثبُّت الَّذي هو خلاف العَجَلَةِ.

2- فَتَبَيَّنُوا: من التبيُّن، بمعنى: التَّأنِّي والنَّظَرَ والكَشْف عنه حتَّى يتَّضِحَ.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا

أي: لا تقولوا لِمَنِ استسلم لكم فلم يُقاتِلْكم، مُظْهِرًا لكم أنَّه مُسْلِمٌ مِثْلُكم: لستَ كذلك، بل خُذُوه بظاهِرِ حاله.

القراءات ذات الأثر في التَّفسير:

في قوله تعالى: السَّلَامَ قراءتان:

1- السَّلَمَ أي: الاستسلامُ والانقياد، فالمعنى: لا تقولوا لمنِ استسلَمَ إليكم وانقاد: لستَ مُسلمًا.

2- السَّلَامَ الَّذي هو تحيةُ الإسلام، فالمعنى: لا تقولوا لِمَن حيَّاكم بتحيَّة الإسلام: لستَ مؤمنًا.

تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

أي: فتقتلُوه لأجْل أخْذِ ما لديه من مالٍ طلبًا لمتاعِ الحياة الدُّنيا. فلا يحمِلَنَّكُمُ العَرَضُ الفاني القليلُ على ارتكابِ ما لا يَنبغي فيفُوتَكم ما عند الله من الرِّزْق والمغانم الحلال، فما عندَ الله خيرٌ لكم من مالِ هذا.

كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا

أي: قد كنتُم- أيُّها المؤمنون- مِن قَبلُ تُخفُون إيمانَكم في قومِكم من المشركينَ وأنتم بين أظْهُرِهم، كهذا الَّذي قتلتُمُوه يُسِرُّ إيمانَه ويُخْفِيه من قَوْمِه من المشركين، فتفضَّلَ الله عليكم بإعزازِ دينِه وإظهارِ ما كنتم تَسْتَخْفُون به، فتثبَّتُوا حتَّى يتَّضِحَ لكم أمْرُه قبل أنْ تقتلوه.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى بكلِّ ما تَعملونه وتَنْوُونَه ذو خبرةٍ وعِلْمٍ به ومِنْ ذلك قَتْلُكم مَن تَقتُلون، وكَفُّكم عمَّنْ تكفُّون عن قتْلِه، فيَحفَظ عليكم ذلك ويُجازيكم به.



سُورةُ النِّساءِ

الآيتين (95-96)

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

تفسير الآيتين:

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (95)

سَببُ النُّزول:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ الساعديِّ، أنَّه قال: ((رأيتُ مَرْوانَ بنَ الحَكمِ جالسًا في المسجدِ، فأقبلتُ حتَّى جلستُ إلى جَنبِه فأخبَرَنا أنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ رضِي اللهُ عنه أخبَره أنَّ رسولَ الله – ﷺ – أمْلى عليه: لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قال: فجاءَه ابنُ أمِّ مَكتومٍ وهو يُمِلُّها عليَّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، لو أستطيعُ الجهادَ لجاهدتُ– وكان رجلًا أعْمَى– فأَنْزلَ اللهُ تبارَك وتَعالَى على رسولِه – ﷺ – وفَخِذُه على فَخِذي فثَقُلَتْ عليَّ حتَّى خِفْتُ أنْ تَرُضَّ فَخِذي، ثم سُرِّي عنه، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ)).[96]

وفي روايةٍ أخرى، عنِ البَرَاءِ، قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قال النَّبيُّ – ﷺ –: ادعُ لي فلانًا، فجاءَه ومعه الدَّوَاةُ واللَّوْحُ، أوِ الكَتِفُ، فقال: اكتب

(96) رواه البخاري (2832).

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ وخلْفَ النَّبِيّ - ﷺ - ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أنا ضَرِيرٌ، فنزَلَتْ مَكانَها لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)).[97]

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ

أي: لا يَستوي مَن لم يَخرُجْ للجهادِ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا- إلَّا مَن تخلَّف عن الجهادِ لعُذْر- مع مَن جاهَدَ من المؤمنين بنَفسِه ومالِه.

فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً

أي: فضَّل اللهُ المجاهدين ببذْلِ أموالِهم وأنفسِهم على القاعدينَ بدرجةٍ رفيعةٍ.

وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى

أي: وعَدَ اللهُ كُلًّا مِن المجاهِدين بأموالهم وأنفسِهم، والقاعِدين: الجنَّةَ.

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: وفضَّل اللهُ المجاهدين بأموالهم وأنفُسِهم على القاعِدينَ جزاءً كبيرًا وثوابًا جزيلًا.

---

(97) رواه البخاري (4594) واللفظ له، ومسلم (1898).

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (96)

دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً

أي: إنَّ هذا الأجْرَ العظيمَ يَشملُ رَفْعَهُم دَرجاتٍ في الجِنان العالياتِ، وسَتْرًا للذنوب وتجاوزًا عن الزلَّاتِ، وحلولَ الرَّحَماتِ والبركات؛ إحسانًا منه سبحانه وتكريمًا، وفضلًا منه وتشريفًا.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [الصف: 10- 12].

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الغفورُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوزُ عن مُؤاخذتِهم بها، وهو الَّذي يَرحَمُهم فيتفضَّلُ عليهم بنِعَمِهِ سبحانه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (97-100)

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا **(97)** إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا **(98)** فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا **(99)**

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا **(100)**

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97)

سببُ النُّزول:

عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ أناسًا من المسلِمين كانوا مع المُشرِكين يُكثِّرون سوادَ المُشرِكين على رَسولِ الله – ﷺ – فيأتي السَّهمُ يُرمى به، فيُصيبُ أحدَهم فيقتُلُه، أو يُضرَبُ فيُقتَلُ، فأنزَل الله: إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ)).[98]

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ

أي: إنَّ الَّذين تَقبِضُ الملائكةُ أرواحَهم والحالُ أنَّهم اكتَسبوا غضَبَ اللهِ تعالى؛ بسببِ مَعصيتِه بإقامتِهم بينَ ظَهْرَانَيِ المشركِين مع عدمِ تمكُّنِهم من إقامةِ الدِّين، وهم قادِرونَ على الهِجرةِ فلم يُهاجِروا حتَّى ماتوا.

قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ

أي: قالتِ الملائكةُ توبيخًا لهم: لماذا بقِيتُم في هذا المكانِ وترَكتُم الهِجرةَ؟

---

(98) رواه البخاري (7085).

قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ

أي: قال الَّذين توفَّاهم الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم مُعتذِرين عن تَركِ الهجرةِ: كنَّا ضُعَفاءَ مَقهورينَ، ليس لنا قُدرةٌ على الخُروجِ مِن بين ظَهْرانَيِ المُشركين.

قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا

أي: قالتْ لهم الملائكةُ: إنَّ أرضَ اللهِ تعالى واسعةٌ، فإذا كان العبدُ في مَكانٍ لا يتمكَّنُ فيه من إظهارِ دِينِه، فإنَّ له متَّسعًا وفُسحةً من الأرضِ، بحيث ينتقلُ إلى الأرض الَّتي يتمكَّنُ فيها من عبادةِ اللهِ تعالى.

كما قال عزَّ وجلَّ: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ [العنكبوت: 56].

فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

أي: فهؤلاء الَّذين تقدَّم ذِكرُهم ووصْفُ حالِهم، مصيرُهم في الآخرةِ جهنَّمُ، وهي مسكَنُهم.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا

أي: وساءتْ جهنَّمُ لأهلِها الَّذين صاروا إليها مرجعًا ومرَدًّا.

إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98)

أي: أمَّا الَّذين استضعَفَهم المشركون من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلدانِ وقهَروهم، فلم يقدِروا على الهجرةِ من بينِ أظهُرِهم؛ بسبب قلَّةِ الحِيلةِ للتَّخلُّصِ من أيدي المشركين، وعدمِ المعرفةِ بالطَّريق الَّتي ينبغي سلوكُها للخروجِ من أرضِ الشِّرك إلى أرضِ الإسلام.

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (99)

فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ

أي: فهؤلاء مَوْعُودون بأن يصفحَ اللهُ تعالى عنهم، ويتجاوَزَ عن مؤاخذتِهم بترك الهجرةِ؛ وذلك بمقتضى كرَمِه وإحسانِه سبحانه.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنهما: إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ قال: كانت أُمِّي ممَّن عذَر اللهُ.

وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا

أي: يصفَحُ عن عبادِه، ويستُرُ عليهم ذنوبَهم، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها.

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (100)

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

أي: ومن يُفارِقْ أرضَ الشِّركِ هربًا بدِينِه إلى أرض الإسلامِ لإقامة دِينِ الله تعالى ابتغاءَ مرضاتِه سبحانه.

يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا

أي: فإنَّه يجدُ في الأرض مكانًا ومتزحزَحًا كثيرًا يمتنعُ فيه، ويتحصَّنُ ممَّا يكرَهُ، ويغلِبُ فيه أهلَ الشِّرك؛ بابتعادِه عنهم، ويتمكَّنُ فيه من إغاظتِهم وجهادِهم.

وَسَعَةً

أي: سَعةً في الدِّين بإظهارِ دِينه وعبادةِ ربِّه سبحانه، وسَعةً في الصَّدرِ، وفي الرِّزقِ، وفي كلِّ شيءٍ.

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

أسباب النُّزول:

خرَج ضَمْرَةُ بنُ جُنْدُبٍ مِن بيتِهِ مهاجِرًا فقال لأهلِهِ: احْمِلوني فأخرِجوني مِن أرضِ المشرِكينَ إلى رسولِ اللهِ - ﷺ -، فمات في الطَّريقِ قبل أنْ يصلَ إلى النَّبيِّ - ﷺ -، فنزَل الوحيُ: وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا الآيةَ.[99]

وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

أي: ومَن خرَج من منزِله وموطنِه فرارًا بدِينه ليُقيمَه، ابتغاءَ مرضاةِ الله تعالى، واتِّباعًا لرسولِ الله - ﷺ -، ونصرًا له.

ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ

أي: فمات في أثناء الطَّريق بقتلٍ أو غيرِه قبل بلوغه أرضَ الإسلامِ ودارَ الهجرةِ.

فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ

أي: فقد ثبَت له عند اللهِ تعالى ثوابُ مَن هاجَر وبلَغ دارَ هجرتِه.

---

(99) رواه أبو يعلى (2679) والطبراني 272/11 (11709). ورواه الطبري (398/7) وابن أبي حاتم (1050/3) بنحوه من حديث عبد الله بن عباس قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (13/7): رجاله ثقات، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (562/1)، وذكر الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (666/7): أن فيه أشعث بن سوار مختلف فيه، ثم قال: لكن لعله يتقوى برواية شريك، وقال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (89): رجاله ثقات, وشريك هو ابن عبد الله القاضي النخعي وفي حفظه ضعف لكن الحديث له طريق أخرى.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ يستُرُ ذنوبَ عبادِه، ويتجاوزُ عن مؤاخذتِهم بها، رحيمٌ بهم، ومِن رحمته أنْ أعطاهم أجرَهم كاملًا ولو لم يُكمِلوا العملَ، وغفَر لهم ما حصَلَ منهم مِن التَّقصيرِ في الهجرةِ وغيرِها.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (101-104)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا **(101)**

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا **(102**

) فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا **(103)**

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)



تفسير الآيات:

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (101)

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ

أي: إذا سافَرْتُم أيُّها المؤمنون.

كما قال تعالى: وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ... الآية [المزمل: 20].

فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ

أي: فلا حرَجَ ولا إثمَ عليكم في قَصْرِ كيفيَّةِ الصَّلاةِ المفروضةِ.

إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

أي: إنْ خشِيتُم أنْ يصُدَّكم الكفَّارُ عن دِينكم، بقتالِهم إيَّاكم، وبحملِهم عليكم وأنتم في صلاتِكم، فيصدُّوكم عن إقامتِها وأدائِها، ويحُولوا بينكم وبين عبادةِ اللهِ تعالى.

إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا

أي: إنَّ عداوةَ جميعِ الكفَّارِ لكم- أيُّها المؤمنون- بيِّنةٌ واضحةٌ، قد أظهَروها لكم.

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)

سببُ النُّزول:

عن مجاهدٍ، عن أبي عيَّاشٍ الزُّرَقيِّ قال: كنَّا مع رسولِ الله - ﷺ - بعُسْفانَ، فاستقبَلَنا المشرِكون عليهم خالدُ بن الوليد، وهم بيننا وبين القِبْلة، "فصلَّى بنا رسولُ الله - ﷺ - الظُّهر"، فقالوا: قد كانوا على حالٍ لو أصَبْنا غِرَّتَهم، ثمَّ قالوا: تأتي عليهم الآن صلاةٌ هي أحبُّ إليهم من أبنائِهم وأنفُسِهم، قال: "فنزل جبريلُ عليه السَّلام بهذه الآياتِ بين الظُّهرِ والعصرِ وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ، قال: فحضَرَتْ فأمَرهم رسولُ الله - ﷺ - فأخَذوا السِّلاحَ، قال: فصفَفْنا خَلْفَه صفَّيْنِ، قال: ثمَّ ركَع فركَعْنا جميعًا، ثمَّ رفع فرفعْنا جميعًا، ثمَّ سجَد النَّبيُّ - ﷺ - بالصَّفِّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسُونهم، فلمَّا سجَدوا وقاموا جلَس الآخَرون فسجدوا في مكانهم، ثمَّ تقدَّم هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصافِّ هؤلاء، قال: ثمَّ ركَع فركَعوا جميعًا، ثمَّ رفَع فرفعوا جميعًا، ثمَّ سجد النَّبيُّ - ﷺ

- والصَّفُّ الَّذي يليه، والآخَرون قيامٌ يحرُسونهم، فلمَّا جلَس جلَس الآخَرون، فسجدوا ثمَّ سلَّم عليهم ثمَّ انصرَف، قال: فصلَّاها رسولُ الله - ﷺ - مرَّتينِ: مرَّةً بعُسْفانَ، ومرَّةً بأرضِ بني سُلَيمٍ ".[100]

وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَرَجَ رَسولُ اللهِ - ﷺ - فلَقِي المشركين بعُسْفانَ، فلمَّا صلَّى رسولُ اللهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الظُّهرَ فرَأَوْه يَركعُ ويَسجُدُ هو وأصحابُه، قال بعضُهم لبعضٍ: كان هذا فُرصةً لكم، لو أَغَرْتُم عليهم ما عَلِموا بكم حتَّى تُواقِعُوهم، فقال قائلٌ منهم: فإنَّ لهم صلاةً أخرى هي أحبُّ إليهم مِن أهْلِيهم وأموالِهم، فاستَعِدُّوا حتَّى تُغِيروا عليهم فيها، فأنزلَ اللهُ تبارَك وتعالى على نبيِّه: وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ إلى آخِرِ الآيةِ، وأَعْلَمَ ما ائْتَمَرَ به المشرِكون، وذَكَرَ صَلاةَ الخَوفِ.[101]

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ

أي: إذا كنتَ في أصحابِك- يا محمَّدُ- وأردتَ أن تُصلِّيَ بهم صلاةً كاملةً تُقِيمُها بحدودِها ورُكوعِها وسُجودِها، وتُتمُّ ما يجبُ فيها.

---

(100) رواه أحمد (4/59) (16630)، وعبد الرزَّاق في ((المصنف)) (4237)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (5899)، والطبراني (5/213) (5132). صحَّحه الدارقطنيُّ في ((سننه)) (2/200)، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (2/354).

(101) رواه الطبري في ((تفسيره)) (9/156)، والحاكم (3/32). صحَّحه الطبريُّ، وقال ابنُ حجر في ((الكافي الشاف)) (92): أصله في مسلم.

فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ

أي: فلتقُمْ فِرقةٌ مِن أصحابك معك في صلاتك، وليكنْ بقيَّتُهم في وجه العدوِّ.

وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ

قيل: المأمورُ بأخْذِ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجه العدوِّ.

فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ

أي: فإذا فرغَتِ الطَّائفةُ الَّتي قامت معك- يا محمَّدُ- في الصَّلاة من صلاتها، فليتَّخِذْ أفرادُها موضعهم خلفَك وخلفَ الطَّائفةِ الأخرى الَّتي ستدخُلُ معك في صلاتِك ممَّن لم يُصَلِّ معك الرَّكعةَ الأولى.

وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ

أي: لتأتِ الطَّائفةُ الَّتي كانت في مقابلِ العدوِّ ممَّن لم يُصلِّ معك الرَّكعةَ الأولى، وليُصلُّوا معك الرَّكعةَ الَّتي بقِيَتْ عليك.

وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ

قيل: المأمورُ بأخْذ الأسلحةِ هنا: الطَّائفةُ المُصلِّيَة، وقيل: بل الطَّائفةُ الأخرى الَّتي في وجْهِ العدوِّ الَّتي صلَّتْ أوَّلًا.

وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ

أي: تمنَّى الَّذين كفروا بالله لو تَنشغِلون بصلاتِكم عن أسلحتِكم الَّتي تُقاتلونهم بها، وعن أمتعتِكم الَّتي بها بَلاغُكم في أسفارِكم، فتَسهُون عنها؛ حرصًا منهم على الإيقاعِ بكم.

فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً

أي: فيَحملون عليكم جميعًا، حالَ غَفلتِكم بصلاتِكم عن أسلحتِكم وأمتعتِكم، فيُصيبون منكم غِرَّةً بذلك، ويُجهِزون عليكم بضربةٍ واحدة.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ

أي: لا حرجَ عليكم ولا إثمَ- إن نالكم أذًى بسبب مطرٍ تُمطَرُونه، أو أصابكم مرضٌ- في تركِ حملِ أسلحتكم إن ضعُفْتُم عن حملِها.

سببُ النُّزول:

عن سعيدِ بن جُبَير، عن ابن عبَّاسٍ رضِي اللهُ عنه قال: نزلت إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى في عبدِ الرَّحمن بن عوفٍ وكان جريحًا.[102]

وَخُذُوا حِذْرَكُمْ

(102) رواه البخاري (4599).

أي: ولكنْ إن وَضَعتُم أسلحتَكم من أذًى مطرٍ أو مرضٍ، فكونوا متيقِّظينَ، واحترِسوا مِن عدوِّكم أن يميلَ عليكم وأنتم عنه غافلون.

إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ للكفَّارِ عذابًا مذِلًّا في الدُّنيا والآخرة.

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا (103)

فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ

أي: فإذا فرَغْتم– أيُّها المؤمنون– من أداءِ صلاةِ الخوفِ، فاذكُروا اللهَ تعالى في جميعِ أحوالِكم وهيئاتكم؛ من قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ على جنوبِكم.

فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

أي: فإذا أمِنْتم– أيُّها المؤمنون– وزال خوفُكم من عدوِّكم، فأتِمُّوا الصَّلاةَ على الوَجْهِ الأكملِ كما أُمِرْتُم، ظاهرًا وباطنًا، بحدودِها وأركانِها وشروطها، وجميعِ شؤونِها.

إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا

أي: إنَّ الصَّلاةَ على المؤمنين فرضٌ مؤقَّتٌ بوقتٍ.

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (104)

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ

أي: لا تضعُفُوا ولا تَكسَلوا في طلب عدوِّكم، بل جِدُّوا في جهادِهم، وانشَطوا لقتالهم.

ثمَّ ذكَر سبحانه ما يُقوِّي قلوبَ المؤمنينَ، وبيَّن أنَّه لا وجهَ للوَهَنِ والضَّعفِ في تركِ طلبِهم، فقال تعالى:

إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ.

أي: إنْ كنتم- أيُّها المؤمنون- تتوجَّعون ممَّا ينالُكم من عدوِّكم من جِراحٍ وأذًى في الدُّنيا، فإنَّهم مِثلُكم؛ يتوجَّعون أيضًا ممَّا ينالُهم منكم من جِراحٍ وأذًى، فليس من المعقولِ أن تكونوا أضعفَ منهم، وأنتم وهُم قد تساوَيْتُم في ذلك.

كما قال تعالى: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ [آل عمران: 140].

وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ

أي: وأنتم- أيُّها المؤمنونَ- تطمَعون فيما عند الله تعالى من الثَّوابِ والنَّصرِ لدِينه، وهم لا يطمعونَ في شيءٍ من ذلك؛ فأنتم أَولى بالقتالِ منهم، والصَّبرِ على حربِهم، وأشدُّ رغبةً في إعلاءِ كلمة الله عزَّ وجلَّ.

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى له كمالُ العِلم، فلا يخفى عليه شيءٌ مطلَقًا، ومن ذلك عِلمُه بمصالحِ عباده؛ فعرَّفهم عند حضورِ صلاتِهم ومواجَهةِ عدوِّهم كيفيَّةَ أداء فرضِ الله عليهم، مع السَّلامةِ من عدوِّهم، وله سبحانه كمالُ الحِكمة والحُكم؛ فهو الَّذي يُقدِّر ويُدبِّر كلَّ شيءٍ من أحكامه الكونيَّةِ والشَّرعيَّة، ويضعُ كلَّ شيءٍ منها في موضعه اللَّائقِ به.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (105-109)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا
(105) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ
أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)
هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ
عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)

تفسير الآيات:

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

(105)

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك– يا محمَّدُ– القرآنَ، هو حقٌّ مِن الله تعالى، فنزل نزولًا متلبِّسًا بالحقِّ، ومشتملًا أيضًا على الحقِّ؛ فأخباره صِدْقٌ، وأوامرُه ونواهيه عَدْلٌ.

لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ

أي: لتقضيَ بين النَّاس، فتفصِلَ بينهم لا بهواكَ، بل بما علَّمك اللهُ ممَّا أنزَلَه إليك من كتابه.

ولَمَّا أمَر اللهُ بالحُكم بين النَّاس المتضمِّنِ للعدلِ والقِسط، نهاه عن الجَوْرِ والظُّلم الَّذي هو ضدُّ العدل فقال:

وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا

لا تخاصِمْ وتحاجِجْ عمَّن عرفتَ خيانتَه، من مدَّعٍ ما ليس له، أو منكرٍ حقًّا عليه، ولا تدافِعْ عنه.

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (106)

وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ

أي: اطلُبْ مغفرتَه، وهي سترُ الذَّنب، والتَّجاوُزُ عن المؤاخَذة به.

إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّ الله تعالى هو الَّذي يغفِرُ الذُّنوب، ويرحم كلَّ مَن طلب مغفرتَه.

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (107)

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ

أي: لا تُدافِعْ- يا محمَّدُ- عمَّن يخُونون أنفسَهم، فيجعلونها خائنةً بارتكابها الخيانةَ، فلا تُحاجِجْ وتخاصِمْ عنهم مَن يطالبُهم بحقوقه، وما خانُوه فيه.

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى يُبغِضُ مَن كان من صفاتِه خيانةُ النَّاس، وركوبُ الإثم في ذلك، وفي غيره، ممَّا حرَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ عليه.

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (108)

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ

أي: إنَّهم حريصونَ على إخفاءِ قبائحهم عن النَّاس، فيتوارَوْنَ منهم تجنُّبًا للفضيحة بينهم، إمَّا حياءً منهم، أو خوفًا منهم، أو لئلَّا يُنكِروا عليهم سوءَ أعمالهم.

وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ

أي: إنَّهم لا يُبالون بنظرِ الله تعالى إليهم، واطِّلاعِه على قبائحِهم الَّتي يبارزونه بها، وهو الَّذي لا يخفى عليه شيءٌ مِن أعمالهم، وبيدِه العقابُ؛ فهو أحقُّ أن يُخافَ ويُستحيَا منه جلَّ وعلا.

إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ

أي: حيث إنَّهم يُهيِّئون ويدبِّرون ليلًا ما لا يرضاه سبحانه من القولِ؛ كتبرئةِ الجاني، ورمي البريءِ بالجناية.

وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى قد أحاط علمًا بأعمالِهم، وأحصاها عليهم، حتَّى يجازيَهم عليها.

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (109)

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

أي: هَبْ أنَّكم جادَلْتم عنهم في هذه الحياةِ الدُّنيا، ودفَعَ عنهم جدالُكم العارَ والفضيحةَ عند الخَلْق.

فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: فمَن هذا الَّذي سيخاصم اللهَ عنهم يومَ القيامةِ حين تتوجَّه عليهم الحُجَّةُ، ويُقامُ عليهم من الشُّهودِ ما لا يُمكِنُ معه الإنكارُ؟ فيومئذٍ لا يدافعُ عنهم عنده سبحانه أحدٌ فيما يَحُلُّ بهم من العذابِ.

أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا

أي: لا أحدَ يكونُ نائبًا لهؤلاء الخائنينَ في ترويجِ دعواهم عندَ الله تعالى يومَ القيامةِ.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (110-113)

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111)

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)

تفسير الآيات:

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (110)

وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ

أي: ومَن يعمَلْ ما يُسيءُ به إلى غيرِه، أو يظلِمْ نفسَه بإكسابه إيَّاها ما يستحقُّ به عقوبةَ اللهِ من شِركٍ ومعاصٍ.

ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ

أي: ثمَّ يطلُبْ مِن الله تعالى أن يستُرَ ما عمِلَ مِن ذنوبٍ، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِه بها.

يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّه يجِدُ اللهَ تعالى غفورًا لذنوبِه، رحيمًا به.

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (111)

وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ

أي: ومَن يأتِ ذَنبًا عامدًا له، فإنَّما يجترحُ وبالَ ذلك الذَّنبِ وضُرَّه وخِزيَه وعارَه في الدُّنيا والآخرة على نفسِه دون غيرِه، فلا يَجني أحدٌ على أحدٍ، وإنَّما على كلِّ نفسٍ ما عمِلَتْ، لا يَحمِلُه عنها غيرُها.

كما قال تعالى: وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى [فاطر: 18].

وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى له العلمُ الكاملُ، والحِكمةُ التَّامَّة، ومِن عِلْمه وحِكمتِه أنَّه يَعلمُ الذَّنبَ وما صدَر منه، والسَّببَ الدَّاعي لفِعلِه، والعقوبةَ المترتِّبةَ على فِعلِه، ويَعلمُ حالةَ المُذنِب.

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (112)

وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا

أي: ومَن يَرتكِبْ خَطيئةً؛ أي ذنبًا غيرَ عامدٍ له، أو يرتكبْ إثمًا؛ أي ذنبًا متعمِّدًا له.

ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا

أي: يُلصِقْ ذَنبَه الَّذي ارتكبَه بشخصٍ آخرَ بريءٍ من هذا الذَّنبِ.

فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا

أي: فقد تحمَّل بهذا الفِعلِ الشَّنيعِ فِريةً وكذبًا على ذلك البَريءِ، وإثمًا ظاهرًا بيِّنًا، يُبِينُ عن أمْرِ مُتحمِّلِه، وجَراءتِه على ربِّه سبحانه وتعالى.

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (113)

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ

أي: ولولا أنَّ اللهَ تعالى تَفضَّل عليك- يا محمَّدُ- فحفِظَكَ وعصَمك بتوفيقِه وتبيانِه لك أَمْرَ هذا الخائنِ.

لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ

أي: لعزَمَتْ فِرقةٌ من أولئك الَّذين يختانونَ أنفسَهم أن يَحْرِفوكَ عن طريق الحقِّ.

وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

أي: إنَّ كيدَهم ومكرَهم يعودُ على أنفسِهم، فما يُضلُّونَ بذلك في الحقيقةِ إلَّا أنفسَهم.

وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ

أي: لا يمكِنُ أن يُضرُّوك بأيِّ شيءٍ من الأشياءِ.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

أي: ومِن فَضْلِ اللهِ تعالى عليك- يا مُحمَّدُ- مع سائرِ ما تفضَّلَ به عليك مِن نِعَمِه، أنَّه أنزَل عليك الكتابَ: وهو القرآنُ، والحِكمةَ: وهي السُّنَّة ومعرفةُ أسرارِ أحكامِ الشَّريعة.

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ

أي: ومِن فَضْله تعالى عليك- يا مُحمَّدُ- أنْ علَّمَك ما لم تكُنْ تعلَمُه من قبلِ نزولِ الوحيِ عليك.

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ [الشورى: 52].

وقال سبحانه: وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ [القصص: 86].

وقال جلَّ وعلا: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ [العنكبوت: 48].

وقال عزَّ وجلَّ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى [الضحى: 7].

وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا

أي: إنَّ ما منَحك اللهُ تعالى إيَّاه من نِعَمٍ وعطايا- يا مُحمَّدُ- أمرٌ عظيمٌ من لَدُنِ العظيمِ الكريمِ سبحانه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (114-122)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117)

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118)

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119)

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)



تفسير الآيات:

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114)

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ

أي: لا خيرَ في كثيرٍ من الكلام الَّذي يُسِرُّه النَّاس بينهم؛ إمَّا لأنَّه لا فائدةَ فيه؛ كفضولِ الكلام المباح، وإمَّا لكونِه شرًّا ومَضرَّةً محضةً؛ كالكلام المُحرَّمِ بجميعِ أنواعه.

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ

أي: عَدَا الأمْرَ بالتَّصدُّقِ، سواءٌ كان بالمال أو بالعِلم، أو بأيِّ نفعٍ كان.

أَوْ مَعْرُوفٍ

أي: وعَدَا الأَمْرَ بالمعروفِ، وهو كلُّ ما أمَرَ الله تعالى به، أو ندَب إليه من أعمالِ البرِّ والخيرِ والإحسانِ والطَّاعة، وكلُّ ما عُرِف في الشَّرعِ والعَقلِ حُسْنُه.

أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ

أي: وعَدَا الأمرَ بالإصلاحِ بين المتنازعَيْنِ والمتخاصمَيْنِ حتَّى تُزالَ العداوةُ والشَّحناء بينهم، ويتمَّ التَّراجعُ إلى ما فيه الأُلفةُ، واجتماعُ الكلمة على ما أذِنَ اللهُ تعالى وأمَر به.

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

أي: ومَن يأمُرْ بصدقةٍ أو معروف أو يُصلِحْ بين النَّاس؛ طلبًا لرضَا الله تعالى بفعله هذا، مخلصًا له فيه، ومحتسبًا ثوابَه عند الله عزَّ وجلَّ.

فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: فسوف يُعطيه اللهُ تعالى جزاءً لِمَا فعَل من ذلك، ثوابًا كثيرًا واسعًا، لا يعلَمُ قدرَه سواه.

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115)

وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ

أي: ومَن يُخالِفِ الرَّسولَ - ﷺ - ويعانِدْه فيما جاء به، سالكًا غيرَ طريقِ الشَّريعةِ الَّتي جاء بها الرَّسولُ - ﷺ -، فصار في جانبٍ والشَّرعُ في جانبٍ آخرَ.

مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى

أي: وحَصَلتْ منه تِلك المُشاقَّةُ عن عَمْدٍ بعدَما ظهَر له الحقُّ واتَّضَح.

وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: ومَن يتَّبِعْ طريقًا غيرَ طريقِ المؤمنين في عَقائدِهم وأعمالِهم، ويَسلُكْ منهجًا غيرَ منهجِهم.

نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى

أي: إذا سلَك هذه الطَّريقَ نَتخلَّى عنه، ونتركُه إلى ما اختاره لنفْسِه، ونُحسِّنُه له في صدرِه استدراجًا له.

كما قال تعالى: فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [الصف: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ [الأنعام: 110].

وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ

أي: ونُدخِلْهُ نارَ جهنَّمَ ونُحرِقْه بها.

وَسَاءَتْ مَصِيرًا

أي: وما أسوَأَها مِن مرجعٍ ومآلٍ يصيرُ إليه!

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (116)

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى لا يغفِرُ لِمَن أشرَك به ومات على شِرْكِه.

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ

أي: وما دونَ الشِّرك من الذُّنوبِ والمعاصي فهو تحت المشيئةِ؛ إن شاء اللهُ غَفَرَه برحمتِه وحِكمتِه، وإنْ شاء عذَّبَ عليه بعَدلِه وحكمتِه.

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: ومَن يجعَلْ لله تعالى شريكًا، فقد سلَك غيرَ طريقِ الحقِّ، وانحرَف عن سواءِ السَّبيلِ، وبَعُدَ عن الصَّوابِ بُعدًا شديدًا.

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117)

إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا

أي: ما يَدْعو هؤلاء المشرِكون مِن دونِ الله تعالى إلَّا أوثانًا وأصنامًا مسمَّياتٍ بأسماءِ الإناثِ؛ كاللَّات والعُزَّى ومَنَاة، والمؤنَّثُ دون المذكَّرِ في قوَّتِه ومرتبتِه ومقامِه؛ ممَّا يدلُّ على نقصِ المسمَّيات بتلك الأسماءِ، وفَقْدِها لصفات الكمال، فكيف تُتَّخذُ آلهةً تُعبدُ؟!.

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا

أي: وما يعبُدُ هؤلاء الَّذين يعبُدون هذه الأوثانَ مِن دونِ اللهِ تعالى- في حقيقةِ الأمر- إلَّا شيطانًا متمرِّدًا على الله سبحانه، هو الَّذي أمَرهم بذلك، وزيَّنه لهم فأطاعوه، مع أنَّه عدوُّهم الَّذي يريدُ إهلاكَهم، ويسعى في ذلك بكلِّ ما يقدِرُ عليه.

لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118)

لَعَنَهُ اللَّهُ

أي: قد أَقصاه اللهُ تعالى وأبعَدَه وطرَدَه مِن رحمتِه.

كما قال تعالى: قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ [ص: 77-78].

وكما أبعَدَه اللهُ تعالى من رحمتِه، يسعى في إبعاد العبادِ عن رحمة الله عزَّ وجلَّ؛ ولهذا أخبَرَ اللهُ عن سعيِه في إغواءِ العباد، وتزيينِ الشَّرِّ لهم والفسادِ؛ قال اللهُ تعالى:

وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا

أي: قال الشَّيطانُ لربِّه حين لَعَنَه: واللهِ لأتَّخِذَنَّ مِن عبادِك جزءًا معلومًا مقدَّرًا، أجعَلُهم أولياءَ لي، أتولَّاهم ويتولَّوْنَني، فيكونون من حزبي أصحابِ السَّعيرِ.

كما قال الله تعالى: قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ [ص: 82، 83].

وقال أيضًا: إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ.

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا **(119)**

وَلَأُضِلَّنَّهُمْ

أي: واللهِ لأَصُدَّنَّهم عن طريق الحقِّ إلى سُبُلِ الضَّلالِ، ضلال في العِلمِ، وضلال في العمل.

وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ

أي: واللهِ لأجعَلَنَّ في نفوسِهم من الأمانيِّ الَّتي أعِدُهم بها، ما يُزيغُهم عن توحيدِك وطاعتِك؛ كأن يُزيِّنَ لهم ما هم فيه من الضَّلالِ، مع تمنِّيهم أن ينالوا ما ناله المهتدونَ، وكأن يُمَنِّيَهم بطولِ العمرِ مع أمرِهم بالتَّسويفِ والتَّأخيرِ في التَّوبةِ حتَّى يَبغَتَهم الموتُ.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ

أي: واللهِ لآمُرَنَّهم بأن يُقطِّعوا آذانَ الأنعامِ من الإبلِ والبقرِ والغَنَم علامةً على أنَّها محرَّمةٌ –قيل: يُقطِّعونها نُسُكًا في عبادةِ الأوثانِ– وهذا يقتضي تحريمَ ما أحَلَّ اللهُ، أو تحليلَ ما حرَّمه، ويلتحقُ بذلك مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ والأحكامِ الجائرةِ ما هو مِن أكبرِ الضَّلالِ.

وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ

أي: ولآمُرَنَّهم بتغييرِ خِلقتِهم الظَّاهرةِ بالوَشْمِ، والنَّمْصِ، والتَّفلُّجِ للحُسنِ، وغير ذلك، وتغيير خِلقتِهم الباطنة، فتتغيَّرُ فِطرتُهم الَّتي فُطِروا عليها من التَّوحيدِ إلى الشِّركِ، ومِن اليقينِ إلى الشَّكِّ، ومِن قَبولِ الحقِّ والعملِ به إلى تركِه والإعراضِ عنه والتَّمرُّدِ عليه.

وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ

أي: ومَن يجعَلِ الشَّيطانَ وليًّا لنفسِه ونصيرًا دون الله تعالى فيتَّبِعْه ويُطِعْه.

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا

أي: فقد هلَك في الدُّنيا والآخِرةِ هلاكًا ظاهرًا، يُبِينُ عن عطَبِه وهلاكِه، فيحصُلُ له الشَّقاءُ الأبديُّ، ويفُوتُه النَّعيمُ السَّرمديُّ.

يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120)

يَعِدُهُمْ

أي: يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه بوعودٍ باطلةٍ لإضلالِهم؛ كأنْ يعِدَهم بأن يكونَ لهم نصيرًا ممَّن أرادهم بسوءٍ، وكأن يعِدَهم بأنَّهم إذا أنفقوا في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ افتقَروا، وإن جاهَدوا في سبيل الله تعالى قُتِلوا.

وَيُمَنِّيهِمْ

أي: يُرجِّيهم ويَفتَحُ أمامَهم الآمالَ الكاذبةَ، والأمانيَّ الباطلةَ؛ كأنْ يُمنِّيَهم بالظَّفَرِ على أعدائِهم، وكأن يُمنِّيَهم بأنَّهم هم الفائزونَ في الدُّنيا والآخرةِ.

وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا

أي: وما يعِدُ الشَّيطانُ أولياءَه إلَّا باطلًا وأوهامًا خادعةً لا حقيقةَ لها.

فإنَّه إذا حَصْحَصَ الحقُّ وصاروا إلى الحاجةِ إليه، قال لهم عدوُّ الله: إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ [إبراهيم: 22].

وكما قال للمُشركين ببدرٍ وقد زيَّن لهم أعمالَهم: لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ [الأنفال: 48]، وحَصْحَصَ الحقُّ، وعايَن جِدَّ الأمرِ، ونزولَ عذابِ الله بحزبِه، نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ [الأنفال: 48]، فصارَتْ عِداتُه إيَّاهم عند حاجتِهم إليه غرورًا، كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ [النور: 39].

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (121)

أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

أي: إنَّ هؤلاء الَّذين اتَّخذوا الشَّيطانَ وليًّا مِن دونِ الله تعالى، مصيرُهم الَّذي يَصِيرون إليه ومآلُهم ومستقَرُّهم يومَ حسابهم: نارُ جهنَّمَ.

وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا

أي: لا يَجِدون عن جَهنَّمَ ملجأً ولا مفرًّا، ولا خَلاصًا منها، بل هم خالِدون فيها.

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (122)

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: إنَّ المؤمنين باللهِ تعالى وملائكتِه وكُتُبِه ورسُلِه واليومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خيرِه وشرِّه على الوجهِ الَّذي أُمِروا به عِلمًا وتصديقًا وإقرارًا، الَّذين يعمَلون الأعمالَ الصَّالحة مِن واجباتٍ ومستحبَّاتٍ على القلب، واللِّسانِ، وبقيَّةِ الجوارحِ، يَعمَلونها خالصةً لله عزَّ وجلَّ، وعلى هَدْيِ رسولِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ.

سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

أي: سوف يُدخِلُهم اللهُ تعالى يومَ القيامةِ- جزاءً لهم- دارَ النَّعيمِ، الَّتي فيها ما لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ، تَجري من تحت أشجارِها وقُصورِها أنهارٌ متنوِّعة.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: ماكثين فيها أبدًا بلا زوالٍ ولا انتقالٍ.

وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا

أي: هذا وعدٌ مِن الله تعالى واقعٌ لا محالةَ، لا كعِدَةِ الشَّيطانِ الكاذبةِ الَّتي وعَدَها أولياءَه.

وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا

أي: لا أحدَ أصدَقُ مِن الله تعالى قولًا وخبرًا.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (123-126)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126)

تفسير الآيات:

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123)

لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ

أي: لا يَحصُلُ لكم- أيُّها المسلِمون ولا لليهود والنَّصارى- النَّجاةُ والظَّفَرُ بمجرَّدِ تمنِّي ذلك.

ومِن أمانيِّ أهلِ الكتابِ الَّتي أخبرَ اللهُ تعالى عنها، قولُهم: لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ [البقرة: 111].

مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ

أي: إنَّ كلَّ مَن يعملُ منكم- أيُّها المسلمون أو مِن أهلِ الكتاب- سوءًا صغيرًا أو كبيرًا، فإنَّه يُجازى به، سواءٌ كان جزاءً قليلًا أم كثيرًا، دُنيويًّا، أم أُخرويًّا.

قال الله تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7، 8].

وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: ولا يَجِد الَّذي يَعمل سوءًا أحدًا سوى الله تعالى يَلِي أمرَه، ويُحصِّل له ما يطلبُه، ولا يجِد ناصرًا سوى الله تعالى ينصُرُه ويدفَعُ عنه ما يحذَرُه.

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (124)

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ

أي: ومَن يعمَلِ الأعمالَ الصَّالحة، قلبيَّةً كانت أو بدنيَّةً، مِن ذُكور العِبادِ وإناثهم، وهو مؤمنٌ بي وبرَسولي محمَّد.

فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ

أي: فإنَّ أصحاب هذه المنزلة العالية الَّذين جمَعوا بين الإيمانِ والعمل الصَّالح إنَّما يدخُلون الجنَّة بإذنِ الله تعالى، ويُنعَّمون فيها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: يَدْخُلُونَ قِراءتان:

1- قِراءة (يُدْخَلُونَ) على البِناءِ لما لم يُسمَّ فاعلُه؛ لأنَّهم لا يَدخُلون الجنَّة حتَّى يُدخِلَهم اللهُ تعالى.

2- قراءة (يَدْخُلُونَ) بجَعْلِ الفِعل للدَّاخلين؛ لأنَّهم هم الدَّاخلون بأمرِ الله لهم.

وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا

أي: ولا يَنقُصُ اللهُ تعالى هؤلاء الَّذين يعمَلون الصَّالحاتِ من ثوابِ عملِهم ولا مقدارَ النُّقرةِ الَّتي تكونُ في ظَهرِ النَّواة؛ فكيف بما هو أعظمُ من ذلك وأكثرُ؟! فهو سبحانه إنَّما يُوفِّيهم أجورَهم كما وعَدَهم.

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (125)

وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ

أي: لا أحدَ أصوبُ طريقًا وأصلحُ عملًا ممَّن أخلَص للهِ عزَّ وجلَّ، وانْقادَ له بالطَّاعةِ.

وَهُوَ مُحْسِنٌ

أي: وهو مع هذا الإخلاصِ في العملِ، متَّبِعٌ شَرْعَ اللهِ تعالى فيه.

وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا

أي: واتَّبَع دِينَ وشرْعَ إبراهيمَ عليه السَّلام، مائلًا عن الشِّركِ، وعن التَّوجُّهِ للخَلْق مستقيمًا على التَّوحيدِ، مقبلًا بكُلِّيَّتِه على الخالقِ جلَّ وعلا.

كما قال تعالى: إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ [آل عمران: 68].

وقال سبحانه: قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 161].

وقال عزَّ وجلَّ: ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [النحل: 123].

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا

أي: واتَّخَذ اللهُ إبراهيمَ وليًّا قد وصَل إلى غايةِ ما يتقرَّبُ به العبادُ له، وانتهى إلى درجة الخُلَّةِ، الَّتي هي أرفعُ مقاماتِ المحبَّةِ الخالِصةِ لله تعالى.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (126)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يملِكُ وحْدَه جميعَ ما في السَّمواتِ وجميعَ ما في الأرضِ؛ فالجميعُ عبيدُه وخلْقُه، وهو المُتصرِّفُ فيهم، المُتفرِّدُ بتدبيرِهم.

وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا

أي: لا تَخفى عليه خافيةٌ، ولا يغِيبُ عن عِلمِه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغرُ مِن ذلك ولا أكبرُ، قد أحاط بكلِّ شيءٍ عِلمًا وقُدرةً، وسمعًا وبصرًا، وتدبيرًا وغيرَ ذلك.



سُورةُ النِّساءِ

الآية (127)

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)

تفسير الآية:

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (127)

سببُ النُّزول:

عن عُرْوةَ بنِ الزُّبَيرِ، أنَّه سَأَلَ عائِشَةَ رضِي اللهُ عنها، عن قولِ اللهِ: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، قالتْ: يا ابنَ أُختي، هي اليتيمةُ تكونُ في حَجْرِ وليِّها تُشارِكه في مالِه، فيُعجبه مالُها وجمالُها، فيُريد وليُّها أنْ يتزوَّجها بغيرِ أنْ يُقسِطَ في صَدَاقِها، فيُعطيها مِثلَ ما يُعطيها غيرُه، فنُهوا أنْ يَنكحوهنَّ إلَّا أنْ يُقسِطوا لهنَّ، ويَبْلُغوا بهنَّ أعْلَى سُنَّتِهنَّ مِن الصَّدَاق، وأُمروا أنْ يَنكحوا ما طابَ لهم مِن النِّساء، سواهنَّ، قال عُروةُ: قالتْ عائشةُ: ثمَّ إنَّ الناسَ استَفْتَوا رسولَ اللهِ - ﷺ - بعد هذه الآيةِ فيهنَّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: يَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ، وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ" قالتْ: والَّذي ذَكَرَ اللهُ تعالَى أنَّه يُتْلَى عليكم في الكِتابِ: الآيةُ الأُولَى الَّتي قال اللهُ فيها: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى، فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ، قالتْ عائِشَةُ: وقَوْلُ اللهِ في الآيةِ الأُخْرَى: وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ، رَغْبة أحدِكم عَنِ اليَتِيمَةِ الَّتي تكونُ في حَجْرِه، حِينَ تكونُ

قَليلَةَ المالِ والجَمالِ، فنُهُوا أنْ يَنكِحوا ما رَغِبوا في مالِها وجَمالِها مِنْ يَتامَى النِّساءِ إلَّا بِالقِسطِ؛ مِن أَجْلِ رَغْبَتِهِم عنهُنَّ.[103]

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ

أي: يسألُك أصحابُك- يا محمَّدُ- أنْ تُفتيَهم في أحكامِ النِّساءِ.

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ

قُلْ لهم- يا محمَّدُ-: اللهُ يفتيكم في النِّساء.

ثمَّ خَصَّ سبحانه بعد التَّعميم، الوصيَّةَ بالضِّعاف من اليتامى والوِلدان؛ اهتمامًا بهم، وزجرًا عن التَّفريط في حقوقِهم، فقال:

وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ

أي: ويُفتيكم أيضًا بما يُتلَى عليكم في القُرآنِ في شأنِ اليتامى مِن النِّساءِ اللَّاتي تحتَ ولايتِكم فتبخَسونَهنَّ حقَّهنَّ وتَظلِمونَهنَّ، بمَنْعِهنَّ مِن أخْذِ ميراثِهنَّ أو بمَنْعِهنَّ مِن التَّزوُّجِ؛ لتنتفِعوا بأموالِهنَّ خوفًا

(103) رواه البخاري (2494)، ومسلم (3018).

من استخراجِها من أيديكم إنْ تزوَّجْنَ، أو بالأخذ من مهورهنَّ الَّتي تزوَّجْنَ بها، أو بغير ذلك، وهذا في حالةِ رَغبتِكم عنهنَّ، أو تَرغبون فيهنَّ لجمالهنَّ ومالهنَّ ولكن تُعطونهنَّ مِن المهرِ دون ما يستحقِقْنَ.

وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتلى عليكم في القُرآنِ، في شأنِ المستضعَفين من الوِلدانِ الصِّغار، ومن ذلك وجوبُ إعطائِهم حقَّهم من الميراث وغيرِه، وألا تستولُوا على أموالهم ظُلمًا وعُدوانًا.

وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ

أي: ويُفتيكم اللهُ عزَّ وجلَّ، ويُفتيكم ما يُتْلَى عليكم في القُرآن، بأنْ أوجبَ عليكم العدلَ التَّامَّ مع اليتامَى، ومن ذلك إعطاؤُهم فرائضَهم على ما قَسَم اللهُ تعالى لهم في كتابِه، ومِن ذلك القيامُ عليهم بإلزامِهم بحقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده، والقيامُ عليهم في مصالِحِهم الدُّنيويَّة.

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا

أي: ومهما يكُنْ منكم- أيُّها المؤمنون- من عدلٍ في أموال اليتامى الَّتي أمَركم اللهُ تعالى أنْ تقوموا فيهم بالقِسطِ، والانتهاءِ إلى أمرِ الله في ذلك، وفي غيره- فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عالمٌ به، ومُحصٍ ذلك كلَّه، وحافظٌ له، وسيجزيكم عليه أوفرَ الجزاءِ وأتمَّه.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (128-130)

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (128)

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

تفسير الآيات:

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

(128)

سببُ النُّزول:

عن عائِشةَ رضِي اللهُ عنها في هذِه الآيةِ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا قَالَتْ: ((الرَّجلُ تَكونُ عنده المرأةُ ليس بِمُستَكْثِرٍ منها يُريدُ أنْ يُفارِقَها، فتقول: أَجْعَلُك مِن شأني في حِلٍّ، فنزلتْ هذه الآيةُ في ذلك)).[104]

وعن هِشامِ بنِ عُروةَ، عن أبيه، قال: قالتْ عائشةُ رضِي اللهُ عنها: ((يا ابنَ أُختي، كان رسولُ اللهِ – ﷺ – لا يُفضِّلُ بَعضَنا على بعضٍ في القَسْمِ مِن مُكْثِه عِندنا، وكان قلَّ يومٌ إلَّا وهو يَطوفُ علينا جميعًا، فيَدنو مِن كلِّ امرأةٍ مِن غيرِ مسيسٍ، حتى يَبلُغَ إلى التي هو يومُها فيَبِيت عِندَها، ولقدْ قالتْ سَودةُ بِنتُ زَمْعةَ حين أسنَّتْ وفرِقَتْ أنْ يُفارِقَها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا رسولَ اللهِ، يَوْمي

---

(104) رواه البخاري (2450) واللفظ له، ومسلم (3021).

لعائشةَ، فقبِلَ ذلك رسولُ الله - ﷺ - منها، قالتْ: نقول: في ذلِك أَنزلَ اللهُ تعالى وفي أشباهِها أُراهُ قال: وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا)).[105]

وعن عائشةَ رضِي اللهُ عنها قالتْ: ((كانَ رسولُ اللهِ - ﷺ - إذا أرادَ سفرًا أقْرَعَ بَينَ نسَائِه، فأَيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خرجَ بها معهُ، وكانَ يَقْسِمُ لكلِّ امرأةٍ منْهُنَّ يومَها وليلَتَها، غيرَ أنَّ سَوْدَةَ بنت زَمْعَةَ وهَبَتْ يومَها وليلَتَها لعائِشَةَ زَوجِ النَّبِيِّ - ﷺ -؛ تَبْتَغِي بذلِكَ رِضَا رَسولِ اللهِ - ﷺ -)).[106]

وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا

أي: إذا خشِيَتِ المرأةُ استعلاءً من زوجها عليها، ونفورًا منها، وانصرافًا عنها، وعدمَ رغبتِه فيها.

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا

أي: فلا حَرَجَ ولا إثمَ عليهما في أن يتَّفِقا على ما يُصلِحُ الأمورَ بينهما؛ فلها أن تُسقِطَ حقَّها أو بعضَه؛ من نفقةٍ أو كسوة، أو مَبِيت، أو غيرِ ذلك من الحقوقِ عليه، على أن تبقى مع زوجها، وله أن يقبَلَ ذلك منها؛ فلا حرجَ ولا إثم عليها في بَذْلِها ذلك له، ولا عليه أيضًا في قَبولِه منها.

---

(105) رواه أبو داود (2135)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (31/24) (81)، والحاكم في ((المستدرك)) (2760)، والبيهقي (74/7) (13816). قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (2135): حسن صحيح. وحسنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (1629). والحديث بدون ذكر قصة سودة جوَّد إسنادَه ابنُ عبد الهادي في ((المحرر)) (368)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (187/2): إسناده صحيح حسن.

(106) رواه البخاري (2688) واللفظ له، ومسلم (1463).

وَالصُّلْحُ خَيْرٌ

أي: إنَّ صُلحَهما على ترْكِ بعضِ حَقِّها للزَّوج، وقَبول الزَّوجِ بذلك؛ استدامةً لعقدِ النِّكاح- خيرٌ من المفارَقة بالكُلِّيَّة.

وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ

أي: إنَّ النُّفوسَ قد جُبِلت على الإفراطِ في الحرصِ على أشيائِها وحقوقِها، وهذا ممَّا يمنَعُ وقوعَ التَّصالُحِ والاتِّفاقِ؛ فعند النِّزاعِ وطلبِ المصالحة تكونُ الأنفسُ حريصةً جدًّا على ما لها من حُقوقٍ، كلُّ نفسٍ تُريد أنْ يكونَ الصُّلحُ في جانبها وفي مصلحتِها، وكأنَّ اللهَ يقول: دعُوا هذا الشُّحَّ الَّذي جُبِلَتْ عليه الأنفسُ، واطلُبوا الخيرَ في المصالَحةِ، والتَّسامُحِ عن بعض حقوقكم.

وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا

أي: وإنْ تُحسِنوا- أيُّها الأزواجُ- في أفعالِكم إلى نسائِكم إذا كرِهتموهنَّ بأن تتجشَّموا مشقَّةَ الصَّبرِ عليهنَّ، مع إيفائِهنَّ حقوقَهنَّ، وعِشرتِهنَّ بالمعروف، وتقسِموا لهنَّ أُسوةَ أمثالِهنَّ، وتُحسنوا أيضًا في عبادة الخالق عمومًا، وتُحسِنوا إلى المخلوقين بجميع طُرقِ الإحسانِ، وتتَّقوا اللهَ تعالى في أزواجِكنَّ بتركِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجب عليكم من حقوقِهنَّ، وتتَّقوا اللهَ عمومًا، بفعلِ جميع المأمورات، وتركِ جميعِ المحظورات.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: فإنَّ اللهَ تعالى بما تعمَلون في أمورِ نِسائِكم- أيُّها الأزواجُ- من الإحسانِ إليهنَّ، والعِشرةِ بالمعروف، وتَرْكِ الجَوْرِ عليهنَّ فيما يجبُ لهنَّ، وغير ذلك ممَّا تعمَلونه، عالِمٌ بظاهرِه وباطنِه، لا يَخفَى عليه منه شيءٌ، يُحصيه، ويحفَظُه لكم، حتَّى يوفِّيَكم جزاءَ ذلك أوفرَ الجزاء.

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (129)

وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ

أي: ولنْ تتمكَّنوا- أيُّها الأزواجُ- من إقامة العدلِ التَّامِّ بين زوجاتِكم من جميع الجوانب، ولو كنتم حريصين على ذلك، فإنَّه وإن حصَل القَسمُ الصُّوريُّ بينهنَّ، فلا بدَّ من التَّفاوُتِ في المحبَّةِ والشَّهوةِ والجِماعِ.

فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ

أي: فإذا مِلْتُم إلى واحدةٍ منهنَّ، فلا تبالِغوا في الميل بالكُلِّيَّة، وتميلوا ميلًا كثيرًا، حتَّى يحمِلَكم ذلك على أن تجُوروا على صواحبِها في تركِ أداء الواجب لهنَّ مِن حقٍّ في القَسْمِ لهنَّ، والنَّفقةِ عليهنَّ،

والعِشرةِ بالمعروفِ، فتبقى كالمعلَّقةِ الَّتي ليست أيِّمًا ولا متزوِّجةً، فليست بالمطلَّقة الَّتي استراحَتْ ورزَقها الله تعالى غيرَه، ولا هي بالمتزوِّجةِ الَّتي تسعَدُ بالزَّواجِ كغيرِها.

وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا

أي: وإنْ تُصلِحوا أعمالَكم- أيُّها النَّاس- فتعدِلوا في قَسْمِكم بين أزواجِكم وما فرَض الله لهنَّ عليكم من النَّفقة والعِشرة بالمعروف، فلا تجُوروا في ذلك، وتُصلِحوا أيضًا فيما بينكم وبين النَّاس، وتُصلِحوا أيضًا بين النَّاس فيما تنازعوا فيه، وتتَّقوا الله عزَّ وجلَّ في الميل الَّذي نهاكم عنه- بأن تميلوا لإحدى الزَّوجاتِ على الأخرى، فتظلِموها حقَّها- وتتَّقوا الله تعالى في جميع أمورِكم وأحوالكم بفعلِ ما أمَر، واجتنابِ ما نهى عنه وزجَر.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: فإنَّ اللهَ تعالى يَستُرُ عليكم ما سلَف منكم مِن مَيْلِكم وجَوْرِكم على زَوجاتِكم، ويتجاوَزُ عن مؤاخذتِكم بذلك، ويستُرُ ويتجاوَزُ عمَّا صدَر منكم من الذُّنوب عمومًا، وكما عطَفْتُم على أزواجِكم ورحمتموهنَّ، فاللهُ تعالى يرحَمُكم، وهو رحيمٌ بكم؛ إذ قبِلَ توبتَكم، وتجاوَزَ عنكم.

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (130)

وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ

أي: إذا انفصَل الزَّوجانِ عن بَعضِهما بطَلَاقٍ أو فسخٍ أو خُلعٍ أو غير ذلك، فإنَّ اللهَ تعالى يعوِّضُ الزَّوجَ برزقٍ واسعٍ أو بزوجةٍ هي خيرٌ له من زوجته، ويعوِّضُها برزقٍ واسعٍ أو بزوجٍ هو خيرٌ لها من زوجِها، وذلك مِن فضلِه وإحسانِه الواسعِ سبحانه.

وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى واسعٌ لهما في إغناء كلِّ واحدٍ من الزوجين وغيرهما مِن فضلِه، فهو سبحانه واسعُ الفضلِ عظيمُ المَنِّ، وهو ذو سَعَةٍ في جميع صفاتِه؛ كالرَّحمة، والمغفرةِ، والعِلم، والقدرة، وغير ذلك مِن صفاتِه العُلى، حكيمٌ في جميع أفعالِه وأقداره وشَرْعِه، ومن ذلك أنَّه يعطي بحكمةٍ، ويمنَعُ لحكمةٍ، ومن ذلك حكمتُه فيما قضى بين الزَّوجين من الافتراق وغيره.

سُورةُ النِّساءِ

الآيات (131-134)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

تفسير الآيات:

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (131)

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: وللهِ تعالى وحده مُلكُ جميع ما تَحويه السَّمواتُ السَّبعُ، والأَرَضون السَّبع، وهو الحاكمُ فيها، ومُدبِّرُها بجميع أنواع التَّدبير.

وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ

أي: ولقد عهِدْنا عهدًا مؤكَّدًا إلى أهلِ الكتب السَّابقةِ، كاليهود والنَّصارى، وإليكم- أيُّها المسلِمون- بأنْ تتَّقوا اللهَ تعالى بطاعةِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه.

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنْ تترُكوا تقوى اللهِ تعالى، وتُشرِكوا به، فإنَّكم لا تضرُّون بذلك إلَّا أنفسَكم، ولا تضرُّونَ اللهَ شيئًا، ولا تنقصون شيئًا من مُلكه، وله عبيدٌ خيرٌ منكم وأعظمُ وأكثرُ، مُطِيعون له خاضِعون لأمرِه، ولا يمتنعُ عليه شيءٌ أراده؛ من إعزازِ مَن أراد إعزازَه، وإذلالِ مَن أراد إذلالَه ومعاقبتَه، وغير ذلك من الأمور كلِّها؛ لأنَّ المُلكَ مُلكُه، والخَلْقَ خَلْقُه، بهم إليه الفاقةُ والحاجةُ، وبه قِوامُهم وبقاؤُهم وفَناؤُهم.

كما قال تعالى إخبارًا عن موسى عليه السَّلام أنَّه قال لقومه: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [إبراهيم: 8].

وقال جلَّ وعلا: فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ [التغابن: 6].

وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا

أي: وهو الغنيُّ الَّذي له الجودُ الكامل، والإحسان الشَّامل، الصَّادر من خزائن رحمتِه، الَّتي لا ينقُصُها الإنفاقُ؛ فلا حاجةَ به إلى شيءٍ ولا لأحدٍ، ومِن تمامِ غناه كمالُ أوصافِه سبحانه، وهو المحمودُ على غِناهُ وجميعِ صفاتِه، وعلى جميع ما يُقدِّره ويشرَعُه، قد استحَقَّ منكم- أيُّها الخلقُ- الحمدَ على صنائعِه الحميدةِ إليكم، وآلائِه الجميلة الَّتي أنعَم بها عليكم، وهو الحامدُ لِمَن يستحقُّ الحمدَ مِن عباده.

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (132)

أي: ولله تعالى مُلكُ جميعِ ما تحويه السَّمواتُ والأرض، القيِّمُ بجَميعِه، الحافظُ والمدبِّرُ له بعلمِه وقدرتِه وحكمتِه، الرَّقيبُ الشَّهيدُ على كلِّ شيءٍ سبحانه.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا (133)

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ

أي: إنْ يشأِ اللهُ تعالى يُذهِبْكم- أيُّها النَّاس- بإهلاكِكم وإفنائِكم إذا عصَيْتموه، ويأتِ بناسٍ آخرينَ غيرِكم، هم أتْقَى وأطوعُ للهِ عزَّ وجلَّ منكم.

كما قال تعالى: وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ [محمد: 38].

وقال تعالى: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [إبراهيم: 19-20].

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على إهلاكِكم وإفنائِكم، واستبدالِ آخرين بكم.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (134)

مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

أي: مَن كانت هِمَّتُه وإرادتُه دنيَّةً غيرَ متجاوزةٍ ثوابَ الدُّنيا، وليس له إرادةٌ في الآخرة فإنَّه قد قصَر سعيَه ونظَرَه على ثواب الدُّنيا الَّتي لا يحصُل له منها سوى ما كتَبَ اللهُ له- فليعلَمْ أنَّ عند الله تعالى خيرَ الدُّنيا والآخرة، فإنَّه إذا سأَله مِن هذه وهذه أعطاه وأغناه، فلا يقتصِرَنَّ قاصرُ الهمَّةِ على السَّعيِ للدُّنيا فقط، بل ليطلُبْهما منه، ويَسْتَعِنْ به عليهما، مفتقِرًا إليه على الدَّوام.

كما قال تعالى: فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [البقرة: 200– 202].

وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى سامعٌ لكلِّ شيء، بصيرٌ مُطَّلِعٌ على كلِّ شيء سبحانه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (135-137)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (136)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (135)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

أي: ليكُنْ مِن أخلاقِكم وصفاتكم- أيُّها المؤمنون- القيامُ بالعدلِ في كلِّ أحوالكم، في حقوق اللهِ، وفي حقوقِ عباده.

شُهَدَاءَ لِلَّهِ

أي: ليكُنْ أداؤُها ابتغاءَ وجهِ الله تعالى، فتشهدون بالقِسط لله عزَّ وجلَّ، لا يحمِلُكم على ذلك رياءٌ، ولا سُمعةٌ، ولا غيرُ ذلك؛ فحينئذ تكون صحيحةً عادلة حقًّا.

وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ

أي: ولو كانت شَهادتُكم على أنفسِكم، أو على والدَيكم، أو أقربائكم، فقُوموا فيها بالعدل، وقولوا فيها الحقَّ، ولو عاد ضررُها عليكم؛ فإنَّ الحقَّ حاكمٌ على كلِّ أحد، ومُقدَّمٌ على كلِّ أحد.

إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا

أي: فلا تراعوا الغنيَّ لغناه، ولا الفقير لفقرِه شَفقةً عليه ورحمةً له فتجُوروا؛ فإنَّ أمرَهما إلى خالقِهما ومالكِهما؛ فهو سبحانه أَوْلى وأحقُّ بهما منكم، وأعلمُ بما فيه صلاحُهما.

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا

أي: فلا يَحملَنَّكم هوَى أنفُسِكم المعارضُ للحقِّ على ترْكِ العدل؛ فإنَّكم إنِ اتَّبعتم أهواءَكم عدَلْتُم عن الصَّواب، ووقَعتم في الجَوْرِ والظُّلم.

كما قال تعالى: وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى [المائدة: 8].

وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا

أي: وإنْ تُحرِّفوا الشَّهادة وتُغيِّروها، أو تُعرضوا عنها بكتمانِها وتركِها.

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: وَإِنْ تَلْوُوا قراءتان:

1- قراءة (تلُوا) من الولاية، والمعنى: إنْ وُلِّيتم إقامةَ الشَّهادة أو وُلِّيتُم الأمرَ فتعدِلوا عنه.

2- قراءة (تَلْوُوا) من لويتُ فلانًا حقَّه ليًّا، أي: دافَعْتَه وماطَلْتَه، والمعنى: وإنْ تَلْووا ألسنتَكم عن شَهادةِ الحقِّ، أو حكومةِ العَدْل.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

أي: محيطًا بما تفعَلون، ويعلَمُ ما ظهَر وما بطَن مِن إقامتِكم الشَّهادةَ بالباطلِ بتَحريفِكم إيَّاها أو بكِتمانِكم لها وترْكِكم إيَّاها، فيَحفظ ذلك عليكم ويُجازيكم به.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

(136)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

أي: حقِّقوا- أيُّها المؤمنون- إيمانَكم بالله تعالى وبمحمَّدٍ - ﷺ -، وأكمِلوا ما نقَصَ لدَيكم منه، واثبُتوا واستمرُّوا عليه.

كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ [الحديد: 28].

وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ

أي: وآمِنوا أيضًا بالقرآن.

وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ

أي: وآمِنوا أيضًا بالكُتب السَّابقة الَّتي أنزَلها اللهُ تعالى.

وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: ومَن يكفُرْ بالله تعالى وملائكتِه وبما أنزله مِن كتبٍ وبمَن بعَثهم من الرُّسلِ وباليوم الآخِرِ، فقد خرَج عن الصِّراط المُستقيم، وانحرَف عن طريقِ الحقّ والهدى انحرافًا بعيدًا.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (137)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا

أي: مَن تَكرَّر منه الكفرُ بعدَ الإيمان، فدَخَل في الإيمان ثمَّ رجع عنه، ثمَّ عاد فيه ثمَّ رجَع عنه، واستمرَّ على كفرِه وازداد منه.

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترُ عليهم كُفرَهم وذُنوبَهم ويَتجاوزَ عن عُقوبتِهم؛ فإنَّ مَن كان هذا حالَه فهو بعيدٌ من المغفرةِ لإتيانِه بأعظمِ مانعٍ يمنَعُه مِن حُصولها؛ فكُفرُه يكونُ طبعًا لا يزول حتَّى مماتِه.

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا

أي: ولم يكُنِ اللهُ عزَّ وجلَّ ليُسدِّدَهم لإصابةِ طريق الحقِّ والهدى فيوفِّقَهم لها.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات 138–143

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)



تفسير الآيات:

بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (138)

أي: أخبِرْ- يا محمَّدُ- هؤلاءِ الَّذين أظهَروا الإسلامَ وأبطَنوا الكُفر بأقبحِ بِشارةٍ وأسوئِها، وهي أنَّ لهم عندَ اللهِ تعالى عذابًا مؤلِمًا موجِعًا.

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (139)

الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: هؤلاء المنافقونَ الذين صِفتُهم أنَّهم يَجعَلون الكفَّارَ أولياءَ لهم يُحبُّونهم وينصُرونهم ويُعِينونهم لا عبادَ الله المؤمنين.

ثمَّ قال اللهُ تعالى منكرًا عليهم فيما سلكوه مِن موالاةِ الكافرينَ:

أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ

أي: أيُّ شيءٍ حمَلهم على ذلك؟ أَيطْلُبون عندَ الكفَّار المنَعَةَ والقوَّةَ والغَلَبة باتِّخاذهم أولياءَ من دون المؤمنين؟

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا

أي: فليستِ العِزَّةُ عند الكفَّار، إنَّما العِزَّةُ والمَنَعةُ والنُّصرةُ والقوَّةُ من عند الله تعالى؛ فهو وحده القاهر لكلِّ شيء، الغالب لكلِّ شيء، ذو القَدْرِ العظيم، الَّذي لا يُماثِله شيءٌ، الَّذي يمتنع عليه كلُّ نقص وعيب، يُعِزُّ مَن يشاء، ويُذِلُّ مَن يشاء؛ فالتمِسوا العِزَّة منه سبحانه، وانتظِموا في جملةِ عبادِه المؤمنينَ، واتخِذوهم أولياءَ؛ فإنَّ لهم النَّصرةَ في هذه الحياةِ الدُّنيا، ويومَ يقوم الأشهادُ.

كما قال تعالى: مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا [فاطر: 10].

وقال سبحانه: هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ [المنافقون: 7، 8].

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (140)

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا

أي: قد بَيَّن اللهُ تعالى لكم في القُرآنِ- أيُّها المؤمنون- حُكمَه الشَّرعيَّ عند حضورِ مجالسِ الكفرِ والاستهانةِ بآياتِ اللهِ تعالى وأوامرِه ونواهيه.

والآيةُ الَّتي أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إليها هي قوله: وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [الأنعام: 68].

فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ

أي: لا تَمكثُوا فيها إلَّا أنْ يأخُذَ المُتحدِّثون في حديثٍ آخَرَ غيرِ حديثِ الكُفْر والاستهزاء.

إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ

أي: إنِ ارتكبتُم هذا النَّهيَ بعد بُلوغِه إليكم، ورَضِيتم بالمُكثِ معهم في المكان الَّذي يُكفَرُ فيه بآياتِ الله ويُستهان بها، وأقررتُموهم على ذلك، فقد شاركتُموهم إثمَ ذلك.

إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى جامعُ الفَريقينِ من الكفَّارِ والمنافقين في نارِ جهنَّمَ يومَ القيامة، فكما أشرَكوهم في الكُفر واجتمَعوا على عداوةِ المؤمنين والتَّخذيلِ عن دِينِ الله، كذلك جمَع اللهُ بينهم في الخلودِ في نار جهنَّمَ.

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (141)

الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ

أي: إنَّ المنافِقين ينتظرون ما يحلُّ بكم- أيُّها المؤمنون- من خيرٍ أو شرٍّ.

فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ

أي: فإنْ فتَح الله تعالى عليكم فتحًا مِن عَدوِّكم بالنَّصرِ والظَّفَرِ والغنيمةِ.

قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ

أي: قال لكم هؤلاء المنافقون: ألم نشهَدْ معكم قتالَ عدوِّكم؟ فأعطُونا إذًا نصيبَنا من الغنيمةِ.

وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ

أي: وإنْ كان لأعدائِكم من الكافرينَ حَظٌّ منكم بإصابتِهم منكم في بَعضِ الأحيان.

قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: ألم نساعِدْكم ونُحِطْ بكم إحاطةَ العنايةِ والنُّصرة، ونَحْمِكُم من المؤمنين، مِن أنْ ينالوكم بسوءٍ، وصرَفْناهم عنكم بتخذيلِهم، أو بالتَّجسُّسِ عليهم لإبلاغِكم أخبارَهم، أو بإلقاء الأراجيف والفِتَن بين جيوشهم لإضعاف بأسِهم، وبغير ذلك من وجوهِ المنع، حتَّى انتصرتم عليهم؟.

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

أي: فإنَّ الله تعالى سيحكُمُ بين المؤمنين والمنافقين، ويفصل بينهم بالقضاءِ الفصل يوم القيامة؛ وذلك بإدخالِ المؤمنين جنَّتَه، وإدخالِ المنافقين مع أوليائِهم الكفَّارِ نارَه.

وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا

أي: لن يُمكِّنَ اللهُ تعالى الكفَّارَ في الدُّنيا مِن التَّسلُّط التَّامِّ على المؤمنين، واستئصالهم بالكُلِّيَّة، بل لا تَزالُ طائفةٌ من المؤمنين على الحقِّ منصورةً، لا يَضرُّهم مَن خذَلهم ولا مَن خالَفهم إلى يومِ القيامة، ولن يَجعلَ اللهُ تعالى للكفَّار حُجَّةً يَغلِبون بها المؤمنين يومَ القيامة، بل يُدخِل عِبادَه المؤمنين الجنَّةَ، ويُدخل الكفَّارَ وأولياءَهم المنافقين النَّارَ؛ فالعاقبة في الدُّنيا والآخرة للمؤمنين.

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ

أي: إنَّ المنافقين يُخادِعون اللهَ بإحرازِهم- بما أظهَروه من الإيمان وأبطَنوه من الكُفران- دماءَهم وأموالَهم؛ إذ يعتقدون لجَهلِهم وقلَّةِ عقلهم أنَّ أمرَهم كما راج عند النَّاس وجَرَتْ عليهم أحكامُ الشَّريعة ظاهرًا في الدُّنيا، يرُوجُ يوم القيامة عند اللهِ سبحانه وتعالى.

وَهُوَ خَادِعُهُمْ

أي: إنَّ الله تعالى خادِعُهم بما حَكَم فيهم في الدُّنيا مِن منعِ دمائهم بما أظهروا بألسنتِهم مِن الإيمان، مع علمِه باستبطانِهم الكفرَ؛ وذلك استدراجًا منه لهم في الدُّنيا حتَّى يلقَوْه في الآخرة فيُوردَهم نارَ جهنَّمَ.

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى

أي: إذا قاموا لأداءِ الصَّلاةِ قاموا إليها وهم مُتثاقِلون مُتبرِّمون مِن فِعلها؛ لأنَّهم لا نيَّةَ لهم فيها، ولا رَغبةَ، وغيرُ مؤمنين بها، ولا موقِنين بمعادٍ ولا ثوابٍ ولا عقابٍ.

كما قال تعالى: وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى [التوبة: 54].

ولَمَّا ذكَر الله جلَّ وعلا صِفةَ ظواهرِهم، أعقَبَ ذلك بذِكْرِ صفةِ بواطِنِهم الفاسِدة، فقال:

يُرَاؤُونَ النَّاسَ

أي: إنَّما يُؤدُّون الصَّلاةَ الَّتي يَقومون إليها كُسالى؛ ليراهم المؤمنون فيَحسَبوا أنَّهم منهم؛ وذلك بقاءً على أنفسهم، وحَذَرًا من المؤمنين عليها؛ كيلَا يُقتلوا أو تُسلَبَ أموالُهم، ولا إخلاصَ لهم لله تعالى.

وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: لا يذكُرون اللهَ تعالى في صلاتِهم بألسنتِهم، وجوارحِهم، وقلوبِهم، ولا يَخشَعون فيها، ولا يَدْرُون ما يقولون، بل هم في صلاتِهم ساهُون لاهونَ؛ وذلك لامتلاءِ قلوبِهم بالرِّياء.

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا (143)

مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ

أي: إنَّ المنافقينَ مُترَدِّدونَ مُتحيِّرونَ بين الإيمانِ والكُفر؛ فلا هُمْ مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل ظواهرُهم مع المؤمنينَ، وبواطنُهم مع الكافرينَ، ومنهم مَن يَعتريه الشَّكُّ، فتارةً يميل إلى هؤلاء، وتارةً يميل إلى أولئك.

وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ تعالى عن طريقِ الهُدَى والحقِّ فلا يُوفِّقه له، فلن تجِدَ له- يا محمَّدُ- طريقًا لهدايته، ولا وسيلةً لتركِ غَوايته.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (144-147)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

تفسير الآيات:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (144)

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

أي: لا تَجعَلوا الكفَّارَ أولياءَ لكم من غيرِ أَهلِ دِينكم مِن المؤمنين، فتُؤازِروهم وتُصاحِبوهم وتُسرُّوا إليهم بالمودَّةِ، وتُفشُوا أحوالَ المؤمنين الباطنةَ إليهم، وتَثِقوا بهم، وتَعتمِدوا عليهم.

كما قال تعالى: لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ [آل عمران: 28].

أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: هل تُريدون أن تجعَلوا لله تعالى عليكم حُجَّةً واضحةً باتِّخاذِكم الكافرين أولياءَ مِن دون المؤمنين، فتَستوجبوا منه ما استوجَبَه أهلُ النِّفاقِ باستحقاقِ العقوبة؟

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (145)

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ

أي: إنَّ المُنافِقين في قَعرِ جهنَّمَ وأسفلِ طبقاتِها يومَ القيامة، جَزاءً على كُفرِهم الغليظِ.

وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا

أي: ولنْ تجِدَ لهؤلاء المنافقين- يا محمَّدُ- ناصرًا ينصُرُهم مِن الله تعالى، فيُنقِذُهم مِن عذابِه، ويَدفَعُ عنهم أليمَ عقابِه.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146)

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا

أي: إلَّا التَّائبين مِن نِفاقِهم، الَّذين رجَعوا للحقِّ وندِموا على سيِّئاتِهم.

وَأَصْلَحُوا

أي: وأصلَحوا أعمالَهم الظَّاهرةَ والباطنةَ فعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ تعالى به، وانتهَوْا عمَّا نَهاهم عنه، وأصلحوا ما أفسدوه.

وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ

أي: واعتصَموا برَبِّهم في جَميعِ أمورِهم، والْتَجَؤوا إليه في جَلْبِ مَنافعِهم ودَفْعِ المضارِّ عنهم.

وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ

أي: قَصَدوا وجهَ اللهِ تعالى بأعمالهم الظَّاهرةِ والباطنةِ، وسَلِمُوا من الرِّياءِ والنِّفاقِ.

فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ

أي: فهؤلاء المُنافقون بعدَ تَوبتِهم وإصلاحِهم واعتِصامِهم بالله تعالى وإخلاصِهم له مع المؤمنين في الدُّنيا والآخرةِ، يَكونون في زُمرتِهم يومَ القيامة، ويَدخُلونَ معهم الجنَّةَ.

وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: وسوفَ يُعطي اللهُ تعالى المؤمنين ثوابًا عظيمًا، لا يعلَمُ كُنْهَهُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ممَّا لا عينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ.

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ

أي: ما يصنَعُ اللهُ تعالى- أيُّها المنافِقون- بعذابِكم، إن شكَرْتموه على نِعَمِه، فقُمتُم بطاعتِه، وآمنتم حقًّا بما يجبُ عليكم الإيمانُ به؟ فإنَّه لا حاجةَ لله سبحانه في أن يُعذِّبَكم؛ إذ لا يَجتلِبُ إلى نفْسِه بعَذابِكم نفعًا، ولا يدفَعُ عنها ضرًّا.

وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا

أي: إنَّ اللهَ تعالى شاكرٌ لِمَن شكَر له، فيُثيبُهم على ما عمِلوا، أكثرَ ممَّا عمِلوا، عليمٌ بإيمانِ مَن آمَن قلبُه به، وعليمٌ بمن يستحقُّ الشُّكر مِن عبادِه، ويُجازيه على ذلك أوفرَ الجزاء.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (148-152)

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149) إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (152)

تفسير الآيات:

لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (148)

لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ

أي: إنَّ الله تعالى يُبغض– أيُّها الناسُ– جَهْرَ أحدٍ منكم بالقول السيِّئ، كالشَّتمِ والقَذْف والسَّبِّ، ونحوِ ذلك.

إِلَّا مَنْ ظُلِمَ

أي: أمَّا مَن ظُلم؛ فلا حرَجَ عليه أن يُخبِرَ بما أُسيء به إليه، كأنْ يدعوَ على مَن ظلَمَه ويتشكَّى منه، أو أن يقول له: أنت ظلمتني، أو يقول للناس: إنه ظالم، من غير أن يَكذِبَ عليه، ولا يَزيد على مظلمتِه، ولا يَتعدَّى بشَتمِه غيرَ ظالِمِه.

وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى سميعٌ لِمَا تَجهرون به من سوءِ القولِ وغير ذلك من أقوالِكم، عليمٌ بما تُخفون منها، وعليمٌ بنيَّاتكم ومَصدرِ أقوالكم، ومُحْصٍ ذلك كلَّه عليكم، فيُجازي كلًّا منكم بحَسَبه؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فاحْذروا أن تقولوا ما لا يَرضاه، أو أن تُخفوا في قلوبِكم ما لا يحبُّه.

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا (149)

إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ

أي: إن تُظهروا - أيُّها الناسُ - جميلًا من القول أو الفِعل، أو تتركوا إظهارَه فتُخفوه.

أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ

أي: أو تَصْفَحوا عن إساءةِ مَن أساء إليكم بقولٍ أو فِعل.

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا

أي: فإنَّ الله تعالى يَصفَح عن ذُنوب عبادِه مع قُدرتِه على عِقابهم عليها؛ فاعْفوا أنتم أيضًا- أيُّها الناسُ- عمَّن أتى إليكم ظُلمًا، ولا تَجهروا له بالسُّوء من القول، وإنْ قدَرتُم على الإساءةِ إليه، كما يَعفو عنكم ربُّكم مع قُدرتِه على عِقابِكم وأنتم تَعصونه، والجزاءُ من جِنس العملِ؛ فمَن عفَا للهِ سبحانه عفَا اللهُ تعالى عنه.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150)

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

أي: إنَّ الكافرين بالله تعالى وبرُسله عليهم السَّلام مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ

أي: ويُريدون أن يُؤمنوا باللهِ تعالى، ويَكفُروا برُسُلِه الَّذين أرْسلَهم إلى خَلْقِه؛ فيُكذِّبوهُم.

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ

أي: ويقولون: نؤمن ببعض الرُّسُل، ونكفُر ببعضهم، كما فعلتِ اليهود؛ فكَفروا بعيسى ومحمَّد صلَّى الله عليهما وسلَّم، وزَعَموا الإيمانَ بموسى عليه السَّلام. وكما فعَلتِ النَّصارى؛ فكفروا بمحمَّد – ﷺ – وزَعَموا الإيمانَ بعيسى عليه السَّلام.

وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا

أي: ويُريدون بإيمانهم ببعض الرُّسل دون بعضٍ سُلوكَ طريقٍ يُوصلهم إلى الله تعالى ويُنجِّيهم من عذابِه.

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (151)

أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

أي: إنَّ كُفرَ هؤلاء الكفار محقَّقٌ لا محالة، وهم مُستحقُّونَ عذابَ الله تعالى حقًّا؛ فاستيقِنوا ذلك أيُّها المؤمنون، ولا يُشكِّكنَّكم في أمْرِهم انتحالُهم الكذبَ بدَعْوى أنَّهم يُقرُّون ببعض الرسل؛ فلو كانوا مؤمنين حقًّا بِمَن زعَموا الإيمانَ بهم، لآمَنوا بغيرِهم من الرُّسل عليهم السَّلام.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا

أي: إنَّ الله تعالى قد هيَّأ لهؤلاء الكفَّار وغيرهم من الكافِرين عذابًا مخزيًا ومُذلًّا لهم، كما تَكبَّروا عن الإيمانِ الحقِّ بالله تعالى، واستهانوا بِمَن كفَروا به من الرُّسل عليهم السَّلام.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ (152)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

أي: إنَّ المؤمنينَ بالله تعالى حقًّا، وبجميعِ رُسلِه الكرام عليهم السَّلام، دون أن يُفرِّقوا بينهم بالإيمانِ ببعضهم والكُفرِ ببعضهم.

أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ

أي: إنَّ هؤلاءِ المؤمنين بالله تعالى ورُسُله عليهم السَّلام جميعًا، سوف يُعطيهم اللهُ عزَّ وجلَّ جزاءَهم وثوابَهم على إيمانهم به سبحانه وبجَميعِ رُسلِه عليهم السَّلام.

وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى غفورٌ لِمَن آمَن به وبجميعِ رُسله، فيَغفِر لهم السيِّئات، رحيمٌ بهم بتفضُّله عليهم بالهدايةِ إلى طريق الحقّ وتقبُّل الحسَنات.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (153-162)

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا **(159)**

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا **(160)**

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا **(161)**

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ

الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا **(162)**



تفسير الآيات:

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا (153)

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ

أي: يسألك أهلُ التوراة من اليهود يا محمَّد، على سبيل التعنُّت والعِنادِ أن تُنزِّل عليهم كتابًا من السَّماء جملةً واحدة، مكتوبًا بخطٍّ سماويٍّ، كما كانت ألواحُ التَّوراة، يَشهَدُ لك بالصِّدق، ويأمُرهم باتباعك.

فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ

أي: لا يَعظُمنَّ عليك يا محمَّد، سؤالُهم ذلك، ولا تعجبنَّ منه؛ فإنَّه ليس بغريبٍ من أمرهم، بل سبَق لهم طلبُ ما هو أعظمُ من ذلك من موسى عليه السَّلام، الذي يَزعُمون أنَّهم يؤمنون به!

فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً

أي: فقالوا لموسى عليه السَّلام: نُريد رُؤيةَ الله تعالى عِيانًا نَنظُر إليه؛ كي نُصدِّقَك.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً [البقرة: 55].

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ

أي: عُوقبوا بالصَّعق؛ بسببِ عُدوانهم وعِنادهم فهَلَكوا، ثم أحياهم اللهُ.

كما قال تعالى: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [البقرة: 55 – 56].

ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ

أي: ثم اتَّخذ هؤلاء الذين سألوا موسى رؤيةَ ربِّهم عِيانًا، بعدَما أحياهم اللهُ تعالى من صَعقتِهم، اتخذوا العجلَ إلهًا يعبدونه، مِن بعدِ ما رأوا بأبصارهم الأدلَّةَ الواضحةَ، والمعجزاتِ الباهرةَ التي جرَت لموسى عليه السَّلام!

فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ

أي: فعَفَوْنا لعبدةِ العجل عن عِبادتهم إيَّاه. وقد جعَل الله تعالى توبتَهم: أن يَقتُل بعضُهم بعضًا.

كما قال سبحانه: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة: 54].

وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا

أي: وأَعطينا موسى عليه السَّلام حُجَّةً واضحة، تُبِين عن صِدقه ونبوَّته، وهي الآياتُ البيِّنات، والحُجَجُ الباهرات التي أُعطيها.

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (154)

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ

أي: حين امتَنعوا من العملِ بالتوراة التي عُهِد إليهم الالتزامُ بها عهدًا مؤكَّدًا، رفَعْنَا فوق رؤوسهم جبلًا لتخويفهم؛ كي يُقرُّوا بما عُوهِدوا عليه، ويَعمَلوا به بقوَّة.

كما قال تعالى: وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ [البقرة: 63].

وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا

أي: وأمَرْناهم أن يَخضعوا لله سبحانه بالفِعل والقولِ عند دُخولِهم أحدَ أبواب بيت المقدس، بأنْ يدخُلوا رُكَّعًا متواضعين، وأن يَطلُبوا من الله تعالى أن يَضعَ عنهم ذُنوبَهم وخطاياهم.

وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ

أي: وقُلنا لهم: لا تَتجاوزوا في يوم السَّبت ما أُبيح لكم إلى ما حُرِّم عليكم.

كما قال تعالى: وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) [الأعراف: 163].

وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا

أي: وأَخذْنا عليهم عهدًا مؤكَّدًا شديدًا بأنْ يَعملوا بما أمرَهم اللهُ تعالى به، ويَنتهوا عمَّا نهاهم عنه.

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (155)

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ

أي: فبسببِ نقضِهم عهودَهم، التي عاهدوا اللهَ تعالى أن يأخذوا بها، طَرَدْناهم وأبعدناهم من رحمتِنا.

كما قال تعالى: فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً... [المائدة: 13].

وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ

أي: وبسبب كُفرهم بالأدلَّة والحُجج والمعجزاتِ، التي شاهدوها دالَّةً على الحقِّ بوضوحٍ.

وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

أي: وبسببِ قيامِهم بقَتْلِ الأنبياءِ الكرام عليهم السَّلام بغير سببٍ يَستحقُّون به القتل.

وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

أي: وبسببِ قولهم: قلوبُنا داخلةٌ في غِلاف وأَغطيةٍ، فلا نَعقِل بها.

كقوله تعالى: وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ [فصلت: 5].

بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ

أي: ليس الأمرُ كما زعَموا من أنَّ قلوبَهم غُلف؛ فقد كذَبوا في ذلك، وإنَّما ختَم الله تعالى على قلوبِهم؛ بسببِ كُفرهم.

فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا

أي: إنَّهم آمنوا بشيءٍ يسيرٍ ممَّا وجب عليهم الإيمانُ به، لكنَّه إيمانٌ لا ينفعهم؛ لأنَّه مغمورٌ بما كفروا به، كإيمانهم ببعضِ الأنبياء وكُفرهم ببعضهم.

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (156)

أي: وبسبب كُفرهم وبسبب افترائِهم على مريمَ عليها السَّلام برَمْيِها بالوقوعِ في الزِّنا.

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157)

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ

أي: وبسببِ دَعواهم قتْل عيسى عليه السَّلام.

وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

أي: والحقُّ أنَّهم لم يَقتُلوا عيسى عليه السَّلام، ولم يَصلِبوه كما يَدَّعون، ولكن أُلقي شبهُه على شخصٍ آخِرَ؛ فظنُّوه هو.

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ

أي: إنَّ الذين اختلفوا من اليهود والنَّصارى في شأنِ عيسى عليه السَّلام– هل هو الذي قُتِل وصُلِب أم غيره– يُخالِج نُفوسَهم الشكُّ، وتنتابهم الحَيرةُ من هذا الأمر.

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ

أي: مِن غير أن يكونَ لهم عِلمٌ جازم بمَن قتلوه حقًّا؛ أهو عيسى عليه السَّلام أم غيره، وإنَّما غايةُ ما لديهم هو مجرَّدُ ظنونٍ لا تَرقى إلى درجةِ اليقين.

وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا

أي: وما قتَلوه متيقِّنين أنَّه عيسى عليه السَّلام.

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158)

بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا من أنَّهم قتلوه وصلبوه، ولكنَّ الحقيقةَ هي أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد رفَعه إليه في السَّماء؛ فلم يَظفروا به.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا [آل عمران: 55].

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذو قدْرٍ عظيمٍ، منيع الجَناب، غالبٌ على أمره، قاهرٌ لأعدائه ومنتقِمٌ منهم، ذو حكمةٍ في تدبيره وقَضائه؛ فيضع كلَّ شيءٍ في موضعه اللائق به سبحانه، ومِن عِزَّته وحِكمته عزَّ وجلَّ: رفْعُه لعيسى عليه السَّلام، ومنعُ أعدائه من الوصول إليه.

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (159)

وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ

أي: إنَّه لا يَبقى أحدٌ من أهل الكِتاب بعد نُزولِ عيسى عليه السَّلام في آخِرِ الزَّمان، عند اقترابِ السَّاعة، وظهورِ علاماتها الكِبار، إلَّا آمَن به قبلَ موته عليه السَّلام.

وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا

أي: ويوم القِيامة يكونُ عيسى عليه السَّلام شاهدًا على أهل الكِتاب من اليَهود والنَّصارى، الذين تعارَضتْ أقوالُهم فيه بتكذيبِ مَن كفَر به منهم، وتَصديق مَن آمَن به منهم، فيما أَتاهم به من عند الله، وبإبلاغِه رسالةَ ربِّه ومولاه، وشاهدًا على أعمالهم التي شاهدَها منهم قَبلَ رفْعِه إلى السَّماء، وبعد نُزوله إلى الأرض.

كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [المائدة: 116 – 118].

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا

(160)

فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

أي: بسبب ظُلم اليهود- بما ارْتكبوه من الذُّنوب العَظيمة- حرَّم الله تعالى عليهم؛ عقوبةً لهم، عددًا من الطيّبات التي أحلَّها لهم سبحانه من قبلُ.

كما قال تعالى: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [الأنعام: 146].

وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا

أي: وبسببِ صدِّهم أنفُسَهم عن اتِّباع الحقِّ، وصدِّهم الناسَ أيضًا عن طريقِ الهُدى صدًّا كثيرًا، فقد قالوا على الله تعالى الباطِل، وبدَّلوا كتابَ الله، وحرَّفوا معانيَه عن وجوهِه، وكتَموا ما فيه- كأمْر مُحمَّد - ﷺ - وبيان صِفته للنَّاس- وقتَلوا خلقًا من الأنبياء، وكذَّبوا عيسى ومحمدًا عليهما الصَّلاة والسَّلام.

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (161)

وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ

أي: وبسببِ تَناوُلِهم الرِّبا، والحال أنَّهم قد نُهوا عن أخْذه، فقامتْ عليهم الحُجَّةُ في ذلك.

وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ

أي: وبسبب استيلائِهم على أموالِ الناسِ بغير حقٍّ.

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: وهيَّأْنا للكفَّارِ من هؤلاء اليهود عذابًا موجعًا.

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (162)

لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ

أي: ليس كلُّ اليهود على تِلك الأوصاف السيِّئة؛ فالذين ثبَت العِلمُ النافع في قلوبِهم، ورسَخ الإيقانُ في أفئدتِهم، والمؤمنون بالله تعالى وجميعِ كُتبِه ورُسلِه عليهم السَّلام.

يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

أي: يُؤمِنون بالقُرآنِ الذي أُنزل إليك يا محمَّدُ، وبالكتُب السابقة التي أُنزلتْ على الأنبياء عليهم السَّلام من قَبْلك.

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ

أي: والذين يُؤدُّون الصلاةَ على وجه الاستقامة والتَّمام، فيأتون بها تامَّةَ الشروط، مستوفيةَ الأركان والواجبات، ويُكمِّلونها بالمستحبَّات.

وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

أي: والذين يُعطون زكاةَ أموالهم أهلَها المستحقِّين لها.

وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

أي: والذين يُؤمنون باللهِ تعالى، ويُؤمنون بالبَعثِ بعد الموت، والجزاءِ على الأعمالِ؛ خيرِها وشرِّها.

أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا

أي: أولئك الذين هذه صِفتُهم- ممن جمعوا بين العِلم والإيمانِ والعملِ الصالح- سنُعطيهم جزاءً وثوابًا كبيرًا، وهو الجنة.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (163-166)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163)

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (164)

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165)

لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)

تفسير الآيات:

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

(163)

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ

أي: إنَّا أعلمناك- يا محمدُ- بشرعِنا، كما أعلمنا أيضًا نوحًا ومَن جاء بعدَه مِن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ.

وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ

أي: وأعلمنا بشرعنا أيضا كلًّا مِن إبراهيمَ وإسماعيلَ، وإسحاقَ ويعقوبَ والأنبياء من ذرية يعقوب، وعيسى، وأيُّوبَ ويونسَ وهارون وسليمانَ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا

أي: وأَعْطينا داودَ عليه السَّلام كتابًا يُسمَّى بالزَّبور.

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

(164)

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ

أي: وأَوْحينا إلى رُسلٍ قد أتينا على ذِكرهم لك في القُرآن من قبلِ نُزولِ هذه الآية.

وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ

أي: وأَوْحينا أيضًا إلى رُسلٍ آخرين لم نأتِ على ذِكرهم لك في القُرآن.

وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا

أي: وخاطَب اللهُ عزَّ وجلَّ بكلامِه موسى عليه السَّلام دون واسطةٍ، بكلامٍ واضح بحرف وصوت، سمعه منه موسى عليه السلام.

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

(165)

رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ

أي: أَرسلتُهم رسلًا إلى عِبادي مبشِّرين مَن أطاعني وآمَن برُسلي بالسَّعادةِ الدنيويَّة والأُخرويَّة، ومُحذِّرين مَن عصاني وكذَّب رُسلي بشقاوةِ الدَّارين.

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ

أي: لئلَّا يَبقَى لمعتذرٍ عُذرٌ؛ فلا يحتجُّ مَن كفر بالله تعالى وضلَّ عن سبيله بأنَّ الرِّسالة لم تبلغه.

كما قال تعالى: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى [طه: 134].

وقال سبحانه: وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ [القصص: 47].

وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى ذُو عزَّة، ومِن عِزَّته: قَهرُه وانتقامُه ممَّن كفَر به وعصاه بَعدَ بلوغِ رِسالتَه إليه، وهو ذو حِكمةٍ سبحانه فيَضع كلَّ شيءٍ في موضعِه اللَّائق به، ومِن حِكمته عزَّ وجلَّ: أنْ أَرْسل إلى عِبادِه الرُّسلَ، وأَنزل عليهم الكتُبَ.

لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا (166)

لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ

أي: وإنْ كفَرَ بك مَن كفَر يا محمَّد، فالله تعالى يَشهَدُ لك بأنَّه أَنزل عليك القرآنَ العظيم.

أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ

أي: إنَّ إنزالَ الله تعالى للقرآنِ صادرٌ عن عِلم؛ فيعلم بماذا نزَلَ وكَيف نزَل، وعلى مَن نزَل، ويعلم حالةَ الذي أَنزله عليه، وكذلك نزَلَ القرآنُ مشتملًا على عُلومٍ إلهيَّة، وأحكامٍ شرعيَّة، وأخبارٍ غَيبيَّة، ممَّا هو مِن عِلم الله تعالى الذي أراد أن يُطلع العِبادَ عليه.

وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ

أي: ويَشهد لك بصِدقِ رِسالتك، وصِحَّة ما أُنزل عليك، ملائكةُ الله جلَّ وعلا؛ فلا يَحزُنْك تكذيبُ مَن كذَّبك.

وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا

أي: وحَسْبُك بالله شاهدًا على صِدقك دون مَن سواه مِن خَلْقِه.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (167-170)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168)

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (169)

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (167)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ

أي: إنَّ الكفَّار الذين أعرضوا عن اتِّباع الحقِّ، وسَعَوْا في منْع الناس من اتِّباعه.

قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا

أي: قد انحرَفوا عن طريق الحقِّ، وبَعُدوا منه بعدًا عظيمًا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (168)

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا

أي: إنَّ الكفَّارَ الظالمين لأنفسِهم بالكُفر، وبالصدِّ عن سبيلِه، ومخالفةِ أوامرِه، وارتِكابِ نواهيه.

لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

أي: لم يكُنِ الله تعالى ليسترَ عليهم ذُنوبَهم، ويتجاوزَ عن مؤاخذتِهم بها.

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا

أي: ولم يكُنِ الله تعالى ليوفِّقَهم لسلوك طريق الحقِّ الذي يَصِلُون به إلى الجنة.

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا (169)

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا

أي: لكنَّ اللهَ تعالى يَهديهم لسلوك طريق الباطِل، الذي يَصِلون به إلى جهنَّمَ، فيمكثون فيها بلا نهايةٍ ولا انقطاع.

وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا

أي: إنَّ تخليدَ هؤلاء الكفَّار في جهنَّمَ أمرٌ هيِّنٌ على الله تعالى، الذي لا يَصعُب عليه شيءٌ سبحانه.

يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (170)

يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: يَا أيُّها الناسُ إنَّ ما أتاكم به محمَّدٌ - ﷺ - من الله تعالى فهو حقٌّ، وبَعْثَته عليه الصَّلاة والسَّلام حقٌّ.

فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ

أي: فآمِنوا بما جاءكم به محمَّد - ﷺ - واتَّبعوه، فإنَّ الإيمان به خير لكم في الدُّنيا والآخرة من الكُفر به.

كما قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97].

وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

أي: وإنْ كفرتُم بالرسول - ﷺ - وبما جاء به، فاعْلَموا أنَّ الله تعالى غنيٌّ عنكم وعن إيمانكم، ولا يتضرَّر بكُفركم؛ إذ يملك جميعَ ما في السَّموات وما في الأرض.

كما قال تعالى: وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ [إبراهيم: 8].

وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

أي: إنَّ الله تعالى عليمٌ بما أنتم صائرون إليه من الإيمان أو الكفر، عليمٌ بمَن يستحقُّ الهدايةَ منكم فيَهديه، وبمَن يستحقُّ الضلالة منكم فيُضِلُّه، حكيمٌ في جميع أقواله وأفعالِه وشَرْعه وقدَره، فيضع سبحانه كلَّ شيءٍ في موضعِه اللائق به.



سُورةُ النِّساءِ

الآيات (171-175)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا
خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (171) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا
فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (173) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ
جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (174) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ
فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)

تفسير الآيات:

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا (171)

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ

أي: يا أهلَ الإنجيل من النَّصارى لا تتجاوزوا الحقّ في دِينكم فتُفْرِطُوا فيه؛ فإنَّهم قد تجاوزوا حدَّ التصديق بعيسى عليه السَّلام، حتى رفَعوه عن مقام النبوَّة والرِّسالة إلى مقام الربوبيَّة، الذي لا يَليقُ بغير الله عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ

أي: لا تَفتروا على اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ تَجعلوا له صاحبةً وولدًا.

قال تعالى: اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ [التوبة: 31].

إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ

أي: ما المسيحُ- أيُّها النصارى الغالُون في دِينهم- ابنٌ لله تعالى كما تَزْعُمون، ولكنَّه عيسى ابنُ مريم، لا نَسبَ له غير ذلك، فهو عبدٌ من عباد الله تعالى، وخَلْقٌ من خلْقه، ورسولٌ من رُسله.

كما قال الله تعالى: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَام [المائدة: 75].

وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ

أي: خَلَقه بالكلمة التي أُرسل بها جبريلُ عليه السَّلام إلى مريم.

كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

وَرُوحٌ مِنْهُ

أي: إنَّ عيسى عليه السَّلام رُوحٌ مِن خَلْق الله سبحانه؛ فقد أَرسل اللهُ تعالى جبريلَ عليه السَّلام، فنَفَخ في فَرْج مريمَ عليها السَّلام، فحمَلتْ بإذن الله عزَّ وجلَّ.

كما قال تعالى: وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ [الأنبياء: 91].

وقال سبحانه: وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ [التحريم: 12].

فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ

أي: فآمِنوا بالله تعالى الواحدِ الأحد، الذي لا صاحبةَ له ولا ولدَ، وآمِنوا برُسله وبما جاؤوكم به من عند الله عزَّ وجلَّ.

وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ

أي: ولا تقولوا: الأرباب ثلاثة، فتجعلوا عيسى وأمَّه شَريكينِ لله سبحانه وتعالى.

كما قال تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ الآية [المائدة: 17، 72].

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ [المائدة: 73].

وقال سبحانه: وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ الآية [المائدة: 116].

انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ

أي: انتَهوا عن قولِ ذلِك واعتقادِه، فإنَّ الانتهاء عن ذلك خيرٌ لكم.

إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ

أي: ما الله سبحانه بثالثِ ثلاثةٍ، ولكن الله تعالى هو المنفردُ بالألوهيَّة، الذي لا تَنبغي العبادةُ إلَّا له؛ فلا ولدَ له، ولا والدَ، ولا صاحبةَ له، ولا شريكَ.

سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ

أي: تنزَّه وتقدَّس الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عن أن يكونَ له ولدٌ.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

أي: إنَّ جميعَ ما في السَّموات وجميعَ ما في الأرض مُلكه وخَلقُه وعَبيدُه؛ فكيف يكون له منهم صاحبةٌ أو ولد؟!.

كما قال سبحانه: بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [الأنعام: 101].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 88 - 95].

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا

أي: وحسْبُ الخلق كلِّهم اللهُ تعالى وحده، فهو القائمُ بشؤون كلِّ شيء، والحافظ لكلِّ شيء والمدبِّر له، فلا يُحتاج معه إلى غيرِه سبحانه من ولدٍ، أو صاحبةٍ، أو غيرهما.

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (172)

لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ

أي: لن يأنفَ ويمتنعَ عيسى عليه السَّلام عن عبادة ربِّه عزَّ وجلَّ.

وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ

أي: ولن يأنفَ ويمتنع أيضًا من الإقرارِ لله تعالى بالعبوديَّة له وحده، ملائكتُه المقرَّبون.

وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

أي: ومَن يأنفْ ويمتنعْ عن عِبادة ربِّه، ويَترفَّعْ عنها ويتعالَ عليها.

فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا

أي: فسيبعثُ الله سبحانه يومَ القيامة المستنكفين والمستكبرين عن عِبادته، فيجمعهم جَمِيعًا عنده، فيفصل بينهم بحُكمه العَدْل.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

(173)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أي: فأمَّا الذين جمَعوا بين الإيمان المأمور به وعَملِ الأعمال الصالحات من واجباتٍ ومُستحبَّات.

فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ

أي: فيؤتيهم من الثَّواب على قدْرِ إيمانهم وأعمالهم الصَّالحة، جزاءً وافيًا كاملًا.

وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

أي: ويَزيدهم على ما لهم من الأجور والثَّواب في الدُّنيا والآخِرة، زيادةً من فضله وإحسانِه، وسَعَةِ كَرَمه ورحمتِه سبحانه.

وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا

أي: وأمَّا الذين أنِفوا وامتنعوا عن عبادةِ الله تعالى، وترفَّعوا عنها، وتعالَوْا عليها.

فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا

أي: فسيُعذِّبهم الله تعالى عذابًا موجِعًا لهم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [غافر: 60].

وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا

أي: ولا يَجِدون أحدًا من الخَلْق يتولَّاهم فيحصُل لهم ما يَطلُبون، ولا مَن يَنصرُهم فيدفعُ عنهم ما يَحذرون.



يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جاءَكُم بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نورًا مُبِينًا (174)

يَا أَيُّها الناسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ

أي: يا أيُّها الناسُ قد جاءتْكم من الله تعالى حُججٌ قاطعةٌ للعُذر، وأدلَّةٌ واضحةٌ مزيلة للشُّبهات، تُبيِّن الحقَّ وضدَّه.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا

أي: وأنزلْنا إليكم ضياءً واضحًا، هو القرآن الذي أنزله اللهُ تعالى على محمَّدٍ - ﷺ -، يُبيِّن لكم طريقَ الحقِّ الهادي إلى ما فيه الفوزُ الأبديُّ لكم، والنجاةُ من عذاب الله تعالى إنْ سلكتموها، واستنرتم بضَوئِه.

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (175)

فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ

أي: فأمَّا المؤمنون بالله تعالى، المعتمدون عليه في جميعِ أمورِهم.

فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ

أي: فسيتغمَّدهم الله تعالى برحمةٍ خاصَّة، فيُوفِّقهم للخيرات، ويَجزل لهم المثوبات، ويَدفع عنهم المكروهات، ويُدخلهم الجنَّة، ويَزيدهم ثوابًا، ورَفعًا في درجاتهم، من فَضْله عليهم، وإحسانه سبحانه إليهم.

وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا

أي: يُوفِّقهم ويُسدِّدهم لسلوك طريق مَن أنعم الله تعالى عليه من أهل طاعتِه، ولاقتفاء آثارِهم، واتِّباع دِينهم، فيوفِّقهم للعِلم النَّافع، والعمل الصالح.



سُورةُ النِّساءِ

الآية (176)

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(176)

تفسير الآية:

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

(176)

سبب النُّزول:

عن جابرِ بن عبد الله رضي الله عنه، قال: ((مرضتُ فأتاني رسولُ الله صلَّى الله عليه وعلى آله وسلَّمَ وأبو بكرٍ يُعوداني ماشيينِ، فأُغمي عليَّ، فتوضَّأ ثم صبَّ عليَّ من وَضوئِه فأَفقتُ، قلت: يا رسولَ الله، كيف أَقضي في مالي؟ فلمْ يردَّ عليَّ شيئًا حتى نزلتْ آيةُ الميراث: يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ)).[107]

يَسْتَفْتُونَكَ

أي: يَطلُب الصحابةُ منك– يا محمَّدُ– إخبارَهم عن الحُكم الشرعيِّ للكَلالة.

---

(107) رواه البخاري (6723)، ومسلم (1616) واللفظ له.

قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ

أي: قُلْ لهم- يا محمَّد-: الله عزَّ وجلَّ هو الذي يُخبِرُكم عن حُكم الكَلالة، أي: عمَّن مات وليس له ولدٌ- ذكرًا كان أو أُنثى- ولا والدٌ يَرِثُه.

إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ

أي: إذا مات إنسانٌ وليس له ولدٌ- ذكرٌ أو أُنثى- ولا والدٌ، وله أختٌ شقيقةٌ أو لأبٍ، فإنَّها ترِثُ نِصفَ متروكات أخيها، مِن نقود وعَقار وأثاثٍ، وغير ذلك.

وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ

أي: إنَّ الأخَ الشَّقيقَ أو لأبٍ يرِثُ جميعَ ممتلكاتِ أُخته إذا ماتتْ ولم يكن لها ولدٌ، ولا والد يَرِثها، فإنْ فُرِضَ أنَّ معه مَن له فرض- كزوجٍ، أو أمٍّ، أو أخٍ من أمٍّ-، صُرِفَ إليه فَرْضُه، وصُرِفَ الباقي إلى الأخِ.

فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ

أي: فإنْ كان لِمَن يموت كلالةً، أُختان شقيقتان أو لأبيه، فلهما ثُلُثَا ما ترَك أخوهما، وكذا ما زاد على الأُختين، فله حُكمهما.

وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ

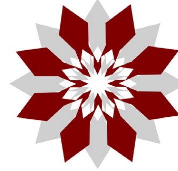
أي: وإنْ كان للميّت إخوةٌ من الذكور والإناث، فنصيبُ الذَّكر منهم من التركة مِثلُ نصيب اثنتين من أَخواتِه، وذلك إذا كان الميِّت يُورَث كلالةً، وكان إخوته وأخواته شقيقات أو لأبيه.

يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا

أي: يبيِّن الله تعالى لكم أحكامَه، ومنها قِسمة مواريثكم، وحُكم الكلالة فيها؛ كيلَا تضلُّوا في أمْر المواريث وقِسمتها، فتجوروا عن الحقِّ، وتُخطئوا الصواب.

وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

أي: إنَّ الله تعالى عالِمٌ بجميع الأشياء، وما فيه المصلحةُ لعِباده، ومن ذلك: قِسمة مواريثِهم وما يستحقُّه كلُّ واحدٍ من أقرباء المتوفَّى، ويعلم أيضًا حاجتَهم إلى العِلم والبيان.







الفهرس